

فَتْحُ الْمَلِكِ
شرح كتاب التوحيد

تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن محمد آل الشيخ

المتوفى سنة ١٢٥٨ هـ

بتحقيق

محمد بن عبد العزيز

رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والعاقة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، كالمبتدعة والمشركين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله الأولين والآخرين ، وقيوم السماوات والأرضين . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه أجمعين . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن كتاب التوحيد - الذي ألقاه الإمام شيخ الإسلام (محمد بن عبد الوهاب)^(١) أجزل الله له الأجر والثواب ، وغفر له ولمن أجاب دعوته إلى يوم يقوم الحساب - قد جاء بديعاً في معناه : من بيان التوحيد ببراهينه ، وجمع جُملاً من أدلته لإيضاحه وتبينه . فصار علماً للموحدين وجُجّة على الملحدّين . فانتفع به الخلق الكثير ، والجُم الغفير . فإن هذا الإمام رحمه الله في مبدأ منشئه قد شرح الله صدره للحق المبين ، الذي بعث الله به المرسلين : من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين ، وإنكار ما كان عليه الكثير من شرك المشركين ، فأعلى الله همته ، وقوى عزيمته ؛ وتصدى لدعوة أهل نجد إلى التوحيد ، الذي هو أساس الإسلام والإيمان ، ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار والقبور ، والطواغيت والأوثان ، وعن الإيمان بالسحرة والمنجّمين والكهّان . فأبطل الله بدعوته كل بدعة وضلالة يدعو إليها كل شيطان ، وأقام الله به علم الجهاد ، وأدخسه به شبه المعارضين من أهل الشرك والعداوة ، ودان بالإسلام أكثر أهل تلك البلاد ، الحاضر منهم والباد . وانتشرت دعوته ومؤلفاته في الآفاق ، حتى أقر له بالفضل من كان من أهل الشقاق . إلا من استحوذ عليه الشيطان ، وكره إليه الإيمان ، فأصر على العناد والظنّيان .

وقد أصبح أهل جزيرة العرب بدعوته ، كما قال قتادة رحمه الله عن حال أول هذه الأمة : « إن المسلمين لما قالوا : (لا إله إلا الله) أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله إلا أن يُمضِيها ويظهرها ، ويُفْلِجها وينصرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فُلج ، ومن قاتل بها نصر ، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة التي يقطعها الراكب في ليال قلائل ، ويسير من الدهر ، في فِئام من الناس ، لا يعرفونها ولا يُقرؤون بها »

(١) ولد في العيينة سنة ١١١٥ وتوفي بالدرعية سنة ١٢٠٦ رحمه الله .

وقد شرح الله صدور كثير من العلماء لدعوته ، وسرّوا واستبشروا بطلعته ، وأثنوا عليه نثراً ونظماً .

فمن ذلك ما قاله عالم صنعاء : محمد بن إسماعيل الأمير^(١) في هذا الشيخ رحمه الله تعالى :

وقد جاءت الأخبارُ عنه بأنه يعيد لنا الشرعَ الشريفَ بما يبدى
وينشرُ جهراً ما طوى كل جاهل ومبتدع منه ، فوافق ما عندى
ويعمُرُ أركانَ الشريعةِ هادماً مشاهدًا ، ضلّ الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سُواعٍ ومثله يغوث وودّ ، بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها كما يهتفُ المضطرُّ بالصمَدِ الفرد
وكم عقّروا في سوحها من عقيرة أهلت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائفَ حول القبور مُقبل ومُستلم الأركان منهنّ بالأيدى
وقال شيخنا عالم الإحساء أبو بكر حسين بن غنّام رحمه الله تعالى فيه^(٢) :

لقد رفعَ المولى به رُتبة الهدى بوقتٍ به يعلى الضلالُ ويرفع
سقاها نعيم الفهم مولاه ، فارتوى وعام يتيار المعارف يقطع
فأحيا به التوحيد بعد اندراسه وأوهى به من مطلع الشرك مهيع^(٣)
سما ذرّوة المجد التي ما ارتقى لها سواه ، ولا حاذى فناها سَمِيدُ^(٤)
وشمر في منهاج سنة أحمد يشيد ويحيى ما تعنى ، ويرفع
يُنَاطِرُ بِالآيَاتِ وَالسَّنَةِ الَّتِي أمرنا إليها في التنازع نرجع
فأضحت به السمحاء يبسمُ ثمرها وأمسى يحياها يُضئُ ويلمع

(١) ولد بصنعاء سنة ١٠٥٩ وتوفى في شعبان سنة ١١٨٢ وكان إماماً جليلاً ، له المؤلفات الكثيرة النافعة ، منها : سبل السلام شرح بلوغ الرام ، ومنحة الغفار على ضوء النهار ، والعدة على شرح العمدة لابن دقيق العيد ، وشرح التنقيح في علوم الحديث .
(٢) قالها في رثاء الشيخ رحمه الله ، وهي تسعة وثلاثون بيتاً مذكورة بتامها في كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد في حوادث سنة ١٢٠٦ (ج ١ ص ٩٥) توفى ابن غنّام سنة ١٢٢٥ وله ترجمة في عنوان المجد (ج ١ ص ١٤٩) .

(٣) في عنوان المجد « وأقوى به من مظلم الشرك » والمهيع : الطريق الواسع .

(٤) في عنوان المجد « ولا حاذاه فيها » والسמיד : الشجاع القوى .

وعاد به نهج الفواية طامساً وقد كان مسلوكا به الناس ترتع
وجرت به نجد ذبول افتخارها وحق لها بالألمعي ترفع
فآثاره فيها سوام سوافر وأنواره فيها تضي وتلمع
وأما كتابه المذكور فموضوعه في بيان ما بث الله به رسله : من توحيد العبادة ، وبيانه
بالأدلة من الكتاب والسنة ، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر ، أو ينافي كاله الواجب
من الشرك الأصغر ونحوه ، وما يقرب من ذلك أو يوصل إليه .

وقد تصدى لشرحه حفيد المصنف ، وهو الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى (١)
فوضع عليه شرحاً أجاد فيه وأفاد ، وأبرز فيه من البيان ما يجب أن يطلب منه ويراد ، وسماه
« تيسير العزيز الحميد ، في شرح كتاب التوحيد » .

وحيث أطلق « شيخ الإسلام » فالمراد به : أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام
ابن تيمية ، و « الحافظ » فالمراد به : أحمد بن حجر العسقلاني .

ولما قرأت شرحه رأيت أنه أطنب في مواضع ، وفي بعضها تكرار يستغنى بالبعض منه عن
الكل ، ولم يكمله . فأخذت في تهذيبه وتقريبه وتسكيته ، وربما أدخلت فيه بعض النقول
المستحسنة تنميماً للفائدة وسميته « فتح الحميد بشرح كتاب التوحيد » .

وأسأل الله أن ينفع به كل طالب للعلم ومستفيد ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم
وموصلاً من سعى فيه إلى جنات النعيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
قال المصنف رحمه الله تعالى :

(١) كان عالماً فاضلاً بارعاً في الحديث والتفسير والفقه ، أمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ،
صادق الاتصال بالله ، قتل رحمه الله في آخر سنة ١٢٣٣ . وشي به بعض المناقنين إلى إبراهيم باشا
ابن محمد طي باشا ، بعد دخوله الدرعية واستيلائه عليها ، فأحضره إبراهيم ، وأظهر بين يديه
آلات اللهو والمنكر إغاظه للشيخ ، ثم أخرجه إلى المقبرة وأمر العساكر أن يرموه بالرصاص
جميعاً فمزقوا جسمه رحمه الله ورضي عنه . هـ (عنوان المجدج ١ ص ٢١٠) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

ابتدأ كتابه بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز ، وعملاً بحديث « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع » أخرجه ابن حبان من طريقين . قال ابن الصلاح : والحديث حسن . ولأبي داود وابن ماجه « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو أقطع » ولأحمد « كل أمر ذي بال لا يفتتح بذكر الله فهو أبتَرُ أو أقطع » وللدارقطني عن أبي هريرة مرفوعاً « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع » .

والمصنف قد اقتصر في بعض نسخه على البسملة ، لأنها من أبلغ الثناء والذكر للحديث المتقدم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقتصر عليها في مراسلاته ، كما في كتابه لِهَرَقَلٍ عظيم الروم ^(١) . ووقع لى نسخة بخطه رحمه الله تعالى بدأ فيها بالبسملة ، وثنى بالحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وآله . وعلى هذا : فالابتداء بالبسملة حقيقى ، وبالجملة نسيئى إضافى ، أى بالنسبة إلى ما بعد الحمد يكون مبدوءاً به .

والباء فى (بسم الله) متعلقة بمحذوف ، واختار كثير من المتأخرين كونه فعلاً خاصاً متأخراً . أما كونه فعلاً ، فلأن الأصل فى العمل للأفعال . وأما كونه خاصاً ، فلأن كل مبتدئ بالبسملة فى أمر يُضْمَرُ ما جعل البسملة مبدأ له . وأما كونه متأخراً ، فلدلالته على الاختصاص ، وأدخل فى التعظيم ، وأوفق للوجود ؛ ولأن أهم ما يبدأ به ذكر الله تعالى .

وذكر العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : لحذف العامل فوائد . منها : أنه موطن لا ينبغى أن يتقدم فيه غير ذكر الله . ومنها : أن الفعل إذا حُذِفَ صح الابتداء بالبسملة فى كل عمل وقولٍ وحركة . فكان الحذف أعم . انتهى ملخصاً .

وباء « بسم الله » للمصاحبة . وقيل : للاستعانة . فيكون التقدير : بسم الله أو لف حال

(١) رواه البخارى فى حديث أبى سفيان الطويل الذى رواه عن ابن عباس فى كتاب

بدء الوحي .

كوفي مستعيناً بذكره ، متبركاً به . وأما ظهوره في (اقرأ باسم ربك) وفي (بسم الله
مجرها) فلأن المقام يقتضى ذلك كما لا يخفى .

والاسم مشتق من الشمو وهو العلو . وقيل : من الوسم وهو العلامة ، لأن كل
ماسى فقد نوءه باسمه ووسمه .

قوله « الله » قال الكسائى والقراء : أصله الإله ، حذفوا الهمزة وأدغموا اللام في
اللام ، فصارتا لاماً واحدة مشددة مُفخّمة . قال العلامة ابن القيم رحمه الله . الصحيح : أنه
مشتق ، وأن أصله الإله ، كما هو قول سيوييه وجمهور أصحابه إلا من شذ . وهو الجامع لمعاني
الأسماء الحسنى والصفات العلى . والذين قالوا بالاشتقاق إنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى .
وهى الإلهية ، كسائر أسمائه الحسنى ؛ كالعليم ، والقدير ، والسميع ، والبصير ؛ ونحو ذلك .
فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب ، وهى قديمة ؛ ونحن لانعنى بالاشتقاق إلا
أنها ملائية لمصادرها فى اللفظ والمعنى ، لا أنها متولدة منه تولد الفرع من أصله . وتسمية
النحاة للمصدر والمشتق منه : أصلاً وفرعاً . ليس معناه : أن أحدهما متولد من الآخر . وإنما
هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة .

قال أبو جعفر بن جرير « الله » أصله « الإله » أسقطت الهمزة التى هى فاء الاسم
فالتقت اللام التى هى عين الاسم واللام الزائدة وهى ساكنة فأدغمت فى الأخرى ؛
فصارتا فى اللفظ لاماً واحدة مشددة . وأما تأويل « الله » فإنه على معنى ماروى لنا عن
عبد الله بن عباس قال : « هو الذى يأله كل شىء ويعبده كل خلق » وساق بسنده عن
الضحاك عن عبد الله بن عباس قال : « الله ذو الألوهية والمبودية على خلقه أجمعين » فإن
قال لنا قائل : وما دل على أن الألوهية هى العبادة ؛ وأن الإله هو المعبود ؛ وأن له أصلاً فى
فعل ويفعل ؛ وذكر بيت رؤبة بن المعجاج (١) .

(١) كذا فى الأصل . والعبارة ناقصة . ونصها : فإن قال لنا قائل فهل لذلك فى فعل ويفعل
أصل كان منه بناء هذا الاسم ؟ قيل : إما سماعاً من العرب فلا . ولكن استدلالاً . فإن قال :
وما دل على أن الألوهية هى العبادة ، وأن الإله هو المعبود ، وأن له أصلاً فى فعل ويفعل ؟ قيل :
لا تمنع العرب فى الحكم لقول القائل يصف رجلاً بعبادة . ويطلب مما عند الله « تأله فلان »
بالصحة ولا خلاف ، ومن ذلك قول رؤبة . الخ

لله دَرَّ الغانيات المُدَّة * سَبَّحَنَ واسترجعن من تألَّهى (١)
يعنى من تَعَبَّدَى وطلبي الله بعملِي . ولا شك أن التألَّهُ التفعُّل ، من أله يأله ، وأن
معنى « أله » إذا نطق به : عبدَ الله . وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه
بفعل يفعل بغير زيادة . وذلك ماحدثنا به سفيان بن وكيع - وساق السند إلى ابن عباس
« أنه قرأ (وَيَذَرُكَ وَإِلَهِتَكَ) (٢) قال : عبادتك ، ويقول : إنه كان يُعبد ولا يَعْبُدُ »
وساق بسند آخر عن ابن عباس « وَيَذَرُكَ وَإِلَهِتَكَ . قال : إنما كان فرعون يُعبد
ولا يعبد » وذكر مثله عن مجاهد ، ثم قال : فقد بين قول ابن عباس ومجاهد هذا : أن
« أله » : عبد . وأن الإلهة مصدره وساق حديثاً عن أبي سعيد مرفوعاً « أن عيسى أسلمته
أمه إلى الكتاب ليعلمه . فقال له المعلم : اكتب بسم الله . فقال عيسى : أتدرى ما الله ؟
الله إله الآلهة » .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية ؛ وساقها .
ثم قال : وأما خصائصه المعنوية فقد قال أعلم الخلق صلى الله عليه وسلم : « لا أَحْصِي ثَنَاءً
عليك أنت كما أُنثيت على نفسك » وكيف نحصى خصائص اسم لسماء كل كمال على
الإطلاق ، وكل مدح وحمد ، وكل ثناء وكل مجد ، وكل جلال وكل كمال ، وكل عز وكل
جمال ، وكل خير وإحسان ؛ وجود وفضل وبرّ فله ومنه ؟ فما ذكر هذا الاسم في قليل
إلا كثره ، ولا عند خوف إلا أزاله ، ولا عند كَرَبٍ إلا كشفه ، ولا عند هَمٍّ وَغَمٍّ إلا
فَرَّجَه ، ولا عند ضيق إلا وَسَّعَه ، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة ، ولا ذليل إلا أناله
العزّ ، ولا فقير إلا أصاره غنياً ، ولا مستوحش إلا آانسه ، ولا مغلوب إلا أيّده ونصره ،
ولا مضطر إلا كشف ضره ، ولا شريد إلا آواه . فهو الاسم الذى تكشف به الكربات ،
وتستنزل به البركات ، وتجاب به الدعوات ، وتقال به العثرات ، وتستدفع به السيئات ،

(١) قال في اللسان : مدهه يمدهه مدها ، مثل مدحه ، والجمع : المده ، أى المستحقات

المدح الحسنهن وجمالهن . والتألَّهُ : التنسك والتعبّد . واسترجعن : قلن : إنا لله وإنا إليه
راجعون .

(٢) الآية ١٢٧ من سورة الأعراف (وقال الملائم من قوم فرعون أنذر موسى وقومه

ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك) .

وتستجلب به الحسنات . وهو الاسم الذي قامت به الأرض والسموات ، وبه أنزلت الكتب ، وبه أرسلت الرسل ، وبه شرعت الشرائع ، وبه قامت الحدود ، وبه شرع الجهاد ، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء ، وبه حُتَّ الحاقة ، ووقعت الواقعة ، وبه وُضعت للوزن القِسْط ونصب الصراط ، وقام سوق الجنة والنار ، وبه عبد رب العالمين وحده ، وبمحقه بعث الرسل ، وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور ، وبه انلخصام وإليه المحاكاة ، وفيه الموالات والمعاداة ، وبه سَعِد من عَرَفه وقام بمحقه ، وبه شَقِيَ من جهله وترك حقه ؛ فهو سر الخلق والأمر ، وبه قاما وثبتا ، وإليه اتبها ، فالخلق به وإليه لأجله . فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئاً منه منتهياً إليه . وذلك موجه ومقتضاه (٣ : ١٩١ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ قِنَاءَ عَذَابِ النَّارِ) إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

قوله « الرحمن الرحيم » قال ابن جرير : حدثني السريُّ بن يحيى حدثنا عثمان بن زُفر سمعت العزْرَمِيَّ يقول : « الرحمن بجميع الخلق ، والرحيم بالمؤمنين » . وساق بسنده عن أبي سعيد - يعنى الخلدري - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن عيسى بن مريم قال : الرحمن : رحمن الآخرة والدنيا ، والرحيم : رحيم الآخرة » .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى^(١) : فاسمه « الله » دل على كونه مألوهاً معبوداً . يألهه الخلائق : محبة وتمظيماً وخضوعاً ، ومفرغاً إليه في الحوائج والنوائب . وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد ، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكوته : مستلزم لجميع صفات كماله . إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحى ، ولا سميع ، ولا بصير ، ولا قادر ، ولا متكلم ، ولا فعال لما يريد ، ولا حكيم في أقواله وأفعاله . فصفات الجلال والجمال : أخص باسم « الله » وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة : أخص باسم « الرب » وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة والالطف : أخص باسم « الرحمن » .

وقال رحمه الله أيضاً « الرحمن » دال على الصفة القائمة به سبحانه « والرحيم » دال

﴿ الحمد لله ، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم ﴾^(١)

على تعلقها بالمرحوم . وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى : (٣٣ : ٤٣) وكان بالمؤمنين رَحِيمًا) ، (٩ : ١١٧) إِنَّهُ بِهِمْ رُوفٌ رَحِيمٌ) ولم يجيء قط رحمان بهم .

وقال : إن أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت ، فإنها دالة على صفات كماله ، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية . فالرحمن اسمه تعالى ووصفه . فمن حيث هو صفة جرى تابعاً لاسم الله ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع ، بل ورد الاسم العلم . كقوله تعالى : (٢٠ : ٥) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) انتهى ملخصاً .

قوله « الحمد لله » معناه : الثناء بالكلام على الجليل الاختياري على وجه التعظيم . فورده : اللسان والقلب . والشكر يكون باللسان والجنان والأركان . فهو أعمُّ من الحمد مُتَعَلِّقًا ، وأخص منه سبباً ؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة ، والحمد أعم سبباً وأخص مُتَعَلِّقًا ؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة وغيرها . فبينهما عموم وخصوص وجهي ؛ يجتمعان في مادة وينفرد كل واحد عن الآخر في مادة .

قوله « وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم » أصح ما قيل في معنى صلاة الله على عبده : ما ذكره البخاري رحمه الله تعالى عن أبي العالية قال : « صلاة الله على عبده ثناؤه عليه عند الملائكة » وقرره ابن القيم رحمه الله ونصره في كتابيه « جلاء الأفهام » و « بدائع الفوائد » قلت : وقد يراد بها الدعاء ، كما في المسند عن علي مرفوعاً « الملائكة تصلى على أحدكم مادام في مصلاه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » .

قوله « وعلى آله » أي أتباعه على دينه . نص عليه الإمام أحمد هنا . وعليه أكثر الأصحاب . وعلى هذا : فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين^(٢) .

(١) هذه الجملة في بعض النسخ دون بعض .

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام ، للعلامة المحقق ابن القيم رحمه الله ، فإنه استوفى المذاهب في ذلك ، وبين الحق فيها ، وأن المراد من الآل : أتباعه الذين آمنوا به .

كتاب التوحيد

﴿ كتاب التوحيد ﴾

كتاب : مصدر كتب يكتب كتابا وكتابة وكتبا ، ومدار المادة على الجمع . ومنه :
تكتب بنو فلان : إذا اجتمعوا . والكتيبة : لجماعة الخيل ، والكتابة بالقلم : لاجتماع
الكلمات والحروف . وسمى الكتاب كتاباً : لجمعه ما وُضع له .

والتوحيد نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات . وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات .
وتوحيد في الطلب والقصد ، وهو توحيد الإلهية والعبادة .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب
فهو نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات ، وتوحيد في الطلب والقصد .

فالأول : هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه ، وتسكلمه بكتبه
وتكليمه لمن شاء من عباده ، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته ؛ وقد أفصح القرآن عن
هذا النوع جد الإفصاح ، كما في أول سورة الحديد ، وسورة طه ، وآخر الحشر ، وأول
تنزيل : السجدة ، وأول آل عمران ، وسورة الإخلاص بكاملها ، وغير ذلك .

النوع الثاني : ما تضمنته سورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) وقوله تعالى (٣ : ٦٤ قُلْ
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ
شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)
وأول سورة تنزيل الكتاب ، وآخرها . وأول سورة المؤمن ، ووسطها ، وآخرها . وأول
سورة الأعراف ، وآخرها . وجملة سورة الأنعام ، وغالب سور القرآن . بل كل سورة في
القرآن فهي متضمنة لنوعى التوحيد ، شاهدة به داعية إليه .

فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله ، فهو التوحيد العلمى الخبرى
وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلق ما يعبد من دونه ؛ فهو التوحيد الإرادى
الطلبى . وإما أمر ونهى ، وإلزام بطاعته وأمره ونهيه ؛ فهو حقوق التوحيد ومكملاته ،
وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو

جزاء توحيدِهِ ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يَحُلُّ بهم في العقبى من العذاب . فهو جزء من خَرَجَ عن حكم التوحيد . فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم . انتهى .

قال شيخ الإسلام : التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله : لا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالى إلا له ، ولا يعادى إلا فيه ، ولا يعمل إلا لأجله . وذلك يتضمن إثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات .

قال تعالى : (٢ : ١٦٣) وَ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ لا إله إلا هو الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) وقال تعالى : (١٦ : ٥١) وَقَالَ اللَّهُ : لا تَتَّخِذُوا لِلْهِينِ ائْتِنِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَيَأْتِي فَارْهَبُونَ) وقال تعالى : (٢٣ : ١١٧) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) وقال تعالى : (٤٣ : ٤٥) وَإِنَّمَا مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا : أَجْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ ؟) وأخبر عن كل نبي من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وقال : (٦٠ : ٤) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ؛ إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ : إِنَّا بَرَاءُ مِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) وقال عن المشركين : (٣٧ : ٣٥ ، ٣٦) إِنْهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ : لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . ويقولون أَنَّا لَنَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ) وهذا في القرآن كثير .

وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية . وهو اعتقاد : أن الله وحده خلق العالم ؛ كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف . ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد . وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه ، فقد فنوا في غاية التوحيد فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ، ونزّهه عن كل ما يُزَمُّ عنه ، وأقرّ بأنه وحده خالق كل شيء : لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده . فيقرّ بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة . ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له . و « الإله » هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة . وليس هو الإله بمعنى القادر على الاختراع . فإذا فسّر المفسر « الإله » بمعنى القادر على الاختراع ، واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله . وجعل

إثبات هذا هو الغاية في التوحيد - كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية . وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن وأتباعه - لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم . فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء ، وكانوا مع هذا مشركين . قال تعالى : (١٢ : ١٠٦) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) قال طائفة من السلف « نسألهم : من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله . وهم مع هذا يبدون غيره ^(١) » قال تعالى : (٢٣ : ٨٤ - ٨٩) قُلْ : لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ . قُلْ : أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ . قُلْ : أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ قُلْ : مَنْ يَبْدَأُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ . قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ؟) فليس سأل من أقر بأن الله تعالى رب كل شيء وخالقه يكون عابداً له . دون ماسواه . داعياً له دون ماسواه راجياً له خائفاً منه دون ماسواه . يوالى فيه ويعادى فيه . ويطيع رسله ، ويأمر بما أمر به . وينهى عما نهى عنه : وعامة المشركين أقرُّوا بأن الله خالق كل شيء . وأتبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به . وجعلوا له أنداداً . قال تعالى (٣٩ : ٤٣ ، ٤٤) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ : أَوْلَوْكَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ ؟ قُلْ : اللَّهُ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ، لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (١٠ : ١٨) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ . قُلْ : أَنْتَبِثُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ؟ سُبْحَانَهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال تعالى (٦ : ٩٤) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) وقال تعالى : (٢ : ١٦٥) وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) ولهذا كان من أتباع هؤلاء ^(٢) من يسجد

(١) ذكره ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

(٢) أي ممن يزعمون معرفة التوحيد على هذا المعنى ، ككثير ممن ينتسبون إلى الإسلام ويشتمل بالسحر الذي هو عبادة الكواكب والشياطين بأنواع المزائم والبخور وذبح الحيوان الأسود أو الأحمر ، وغير ذلك مما سيأتي تفصيله .

وقول الله تعالى : (٥١ : ٥٦ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

للمس والقمر والكواكب ويدعوها . ويصوم وينسك لها ويتقرب إليها^(١) ثم يقول : إن هذا ليس بشرك . إنما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لى . فإذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً . ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك . انتهى كلامه .

قوله ﴿ وقول الله تعالى : ٥١ : ٥٦ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ بالجر عطف على التوحيد . ويجوز الرفع على الابتداء .

قال شيخ الإسلام : العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على السنة الرسل . وقال أيضاً : العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

قال ابن القيم : ومدارها على خمس عشرة قاعدة . من كملها كمل مراتب العبودية . وبيان ذلك : أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح . وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح .

وقال القرطبي : أصل العبادة التذلل والخضوع . وسُميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات . لأنهم يلتزمون بها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى .

ومعنى الآية : أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته . فهذا هو الحكمة في خلقهم .

قلت : وهي الحكمة الشرعية الدينية .

قال العباد ابن كثير : وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحذور . وذلك هو حقيقة دين الإسلام . لأن معنى الإسلام : الاستسلام لله تعالى ، المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع . انتهى .

وقال أيضاً في تفسير هذه الآية : ومعنى الآية : أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له . فن أطاعه جازاه أتم الجزاء . ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير

(١) أى : يذبح لها الذبائح ، ويصنع الأطعمة ، كما يفعل الحاج لبيت الله من الناسك .

وقوله: (١٦ : ٣٦) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا : أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

محتاج إليهم . بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم . وقال علي بن أبي طالب
رضي الله عنه في الآية : « إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوم إلى عبادتي » وقال مجاهد : « إلا
لآمرهم وأنهمام » اختاره الزجاج وشيخ الإسلام . قال : وبدل على هذا قوله : (٧٥ : ٣٦)
أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدًى ؟) قال الشافعي « لا يؤمر ولا ينهى » وقال في القرآن في غير
موضع : (اعبدوا ربكم) ، (اتقوا ربكم) فقد أمرهم بما خلقوا له . وأرسل الرسل بذلك . وهذا
المعنى هو الذى قصد بالآية قطعاً ، وهو الذى يفهمه جماهير المسلمين ويحتجون بالآية عليه .
قال : وهذه الآية تشبه قوله تعالى : (٤ : ٦٤) وما أرسلنا من رسولٍ إلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)
ثم قد يطاع وقد يعصى . وكذلك ما خلقهم إلا لعبادته . ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون .
وهو سبحانه لم يقل : إنه فعل الأول . وهو خلقهم . ليفعل بهم كلمهم . الثانى : وهو عبادته
ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثانى . فيكونوا هم الفاعلين له . فيحصل لهم بفعله
سعادتهم ، ويحصل ما يحبه ويرضاه منه ولم . انتهى .

ويشهد لهذا المعنى : ما تواترت به الأحاديث .

فنها : ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً : لو كانت لك الدنيا وما فيها ومثلها
ممعها أكنت مفتدياً بها ؟ فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب
آدم . أن لا تشرك - أحسبه قال : ولا أدخلك النار - فأبيت إلا الشرك ^(١) » فهذا المشرك
قد خالف ما أراد الله تعالى منه : من توحيده وأن لا يشرك به شيئاً . فخالف ما أراد الله
منه فأشرك به غيره . وهذه هى الإرادة الشرعية الدينية كما تقدم .

فبين الإرادة الشرعية الدينية والإرادة الكونية القدرية عموم وخصوص مطلق .
يجتمعان فى حق المخلص المطيع . وتنفرد الإرادة الكونية القدرية فى حق العاصى . فانهم
ذلك تنج من جهالات أرباب الكلام وتابعيهم .

قال ﴿ وقوله ١٦ : ٣٦ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾

الطاغوت : مشتق من الطغيان ، وهو مجاوزة الحدِّ . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « الطاغوت الشيطان »^(١) . وقال جابر رضى الله عنه : « الطواغيت كهان كانت تنزل عليهم الشياطين » رواها ابن أبي حاتم . وقال مالك « الطاغوت : كل ما عُبد من دون الله » . قلت : وذلك المذكور بعضُ أفراده ، وقد حدّده العلامة ابن القيم حدّاً جامعاً فقال : الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده : من معبود أو متبوع أو مطاع . فطاغوت كل قوم : من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله . فهذه طواغيت العالم . إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طاعة الطاغوت ومتابعته .

وأما معنى الآية : فأخبر تعالى أنه بعث في كل طائفة من الناس رسولا بهذه الكلمة (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) أى : اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه ، كما قال تعالى : (٢ : ٢٥٦) فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) وهذا معنى « لا إله إلا الله » فإنها هي العروة الوثقى .

قال العباد ابن كثير في هذه الآية : وكلهم - أى الرسل - يدعو إلى عبادة الله ، وينهى عن عبادة ما سواه ، فلم يزل سبحانه يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بنى آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم ، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، الذى طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغرب ، وكلهم كما قال الله تعالى : (٢١ : ٢٥) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن

(١) ذكره ابن كثير عن حسان بن قائد العيسى عن عمر قال : « إن الجيت : السحر ، والطاغوت : الشيطان ، وإن الشجاعة والجبين تكون غرائز في الرجال - الخ » ثم قال الحافظ ومعنى قوله في الطاغوت « أنه الشيطان » قوى جداً ، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية . من عبادة الأوثان ، والتحاكم إليها ، والاستنصار بها . وكذلك رواه ابن جرير .

وقوله : (١٧ : ٢٣ ، ٢٤) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ،

اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ؟) فشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسن رسله ، وأما مشيئته الكونية - وهي تمكينهم من ذلك قدرأ - فلا حجة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة ، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل ، فلماذا قال : (١٦ : ٣٦) فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) انتهى .

قلت : وهذه الآية تفسير الآية التي قبلها . وذلك قوله (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) فتدبر .

ودلت هذه الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل : دعوتهم أهمهم إلى عبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة ماسواه ، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين ، وإن اختلفت شريعتهم . كما قال تعالى : (٥ : ٤٨) لِكَلِّمَ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) وأنه لا بد في الإيمان من عمل القلب والجوارح .

قال : وقوله تعالى : (١٧ : ٢٣) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) قال مجاهد : (قضى) يعنى : وصى . وكذا قرأ أبو بن كعب وابن مسعود وغيرهم . ولا بن جرير عن ابن عباس (وقضى ربك) يعنى : أمر . وقوله تعالى : (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) المعنى : أن تعبدوه وحده دون ما سواه ، وهذا معنى « لا إله إلا الله » .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : والنفي المحض ليس توحيداً . وكذلك الإثبات بدون النفي . فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات . وهذا هو حقيقة التوحيد . وقوله (وبالوالدين إحساناً) أى : وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له . كما قال تعالى في الآية الأخرى : (٣١ : ١٤) أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا : أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) .

وقوله : (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ ، أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا)
 أى : لا تسمعهما قولاً سيئاً ، حتى ولا التأنيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ (ولا تنهرهما)
 أى : لا يصدر منك إليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبى رباح : « لا تنفض يديك عليهما »
 ولما نهى عن الفعل القبيح والقول القبيح أمره بالفعل الحسن والقول الحسن ، فقال :
 (وقل لها قولاً كريماً) أى : ليناً طيباً بأدبٍ وتوقير . وقوله : (واخفض لهما جناح الذلِّ من
 الرحمة) أى : تواضع لهما (وقلْ : رَبِّ ارْحَمْهُمَا) أى : فى كبرهما وعند وفاتهما (كما ربباني
 صغيراً) وقد ورد فى برِّ الوالدين أحاديث كثيرة . منها : الحديث المروى من طريق عن
 أنس وغيره « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صعد المنبر قال : آمين ، آمين ، آمين . فقالوا :
 يا رسول الله ، على ما أمّنت ؟ قال : أتانى جبريل فقال : يا محمد ، رَغِمَ أَنْفُ امرئٍ ذُكِرَتْ
 عنده فلم يصلِّ عليك ، قل : آمين ، فقلت : آمين ، ثم قال : رَغِمَ أَنْفُ امرئٍ دخل عليه
 شهر رمضان ، ثم خرج ولم يغفر له ، قل : آمين ، فقلت : آمين ، ثم قال : رَغِمَ أَنْفُ امرئٍ
 أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخله الجنة ، قل : آمين ، فقلت : آمين ^(١) » وروى الإمام

(١) أخرجه عن أنس : ابن أبى شيبه والبخارى فى مسنديهما من طريق سلمة بن وردان
 عنه ، وسلمة ضعيف . ورواه الحاكم فى المستدرک وقال : صحيح الإسناد . وابن حبان فى ثقاته
 وصحيحه ، والطبرانى فى الكبير ، والبخارى فى بر الوالدين ، والبيهقى فى شعب الإيمان ،
 والضياء المقدسى فى المختارة ، كلهم عن كعب بن عجرة ، ورجاله ثقات . وأخرجه ابن حبان
 فى الصحيح والثقات والطبرانى ورجاله ثقات عن مالك بن الحويرث . ورواه البخارى فى
 الأدب المفرد والطبرانى فى تهذيبه والدارقطنى فى الافراد . وأشار إليه الترمذى وأخرجه النسائى
 وابن السنى فى اليوم والليلىة ، والضياء المقدسى فى المختارة ، كلهم عن جابر بن عبد الله . وأخرجه
 البزار والطبرانى عن عمار بن ياسر . وأخرجه البزار عن ابن مسعود وأخرجه الطبرانى عن
 ابن عباس وأبى ذر . وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما عن أبى هريرة . وهو عند
 البيهقى فى الدعوات مختصراً . وعند الترمذى وأحمد . وقال الترمذى : حسن غريب . وأخرجه
 الدارقطنى فى الافراد ، والبزار فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير عن جابر بن سمرة ، وأخرجه
 البزار والطبرانى وابن أبى عاصم عن عبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدى .

وقوله : (٤ : ٣٦) **وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**

أحمد من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « رغم أنف ، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه - أحدهما أو كلاهما - لم يدخل الجنة » قال العماد ابن كثير : صحيح من هذا الوجه ، وعن أبي بكره رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقولُ الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : **لَيْتَهُ سَكَتَ** » رواه البخارى ومسلم . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **رَضِيَ الرَّبُّ فِي رَضَى الْوَالِدِينَ** ، وسخطه في سخط الوالدين » رواه الترمذى ، وصححه ابن حبان والحاكم . وعن أبي أسيد الساعدى رضى الله عنه قال : بينا نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقي من برِّ أبوى شيء أبرَّهما به بعد موتهما؟ فقال : نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » رواه أبو داود وابن ماجه . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً .

وقوله : (٤ : ٣٦) **وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ^(١) قال العماد ابن كثير رحمه الله

(١) قال في قررة العيون : وهذه الآية تبين العبادة التي خلقوا لها أيضاً ، فإنه تعالى قرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرمه وهو الشرك في العبادة ، فدلت هذه الآية على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة فلا تصح بدونه أصلاً ، كما قال تعالى : (٦ : ٨٨) ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وقال تعالى : (٣٩ : ٦٥ ، ٦٦) ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك : **لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِيَجْطُنَّ عَمَلُكَ** ، ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد ، وكن من الشاكرين) فتقديم المعمول يفيد الحصر ، أى : بل الله فاعبده وحده لا غيره كما في فاتحة الكتاب (إياك نعبد وإياك نستعين) وقرر تعالى هذا التوحيد بقوله : (٣٩ : ١١) قل : **إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**) والدين : هو العبادة بفعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه ، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

والأمر والنهي الذي هو دينه وجزاؤه يوم المعاد الثاني =

وقوله (١٥١:٦-١٥٣ قل: تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ: أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

في هذه الآية: يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الحالات ، وهو المستحق منهم أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته . انتهى .

وهذه الآية هي التي تسمى آية الحقوق العشرة ، وفي بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الأنعام ، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتي لآية الأنعام ، ليكون ذكره بعدها أنسب .

وقوله تعالى: (١٥١:٦ - ١٥٣ قل: تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وبالوالدين إحساناً^(١) - الآيات) .

== وتقدم أن أصله وأساسه توحيد العبادة ، فلا تغفل عما تقدم .

(١) في قرة العيون: وقد وقع الأكثر من متأخري هذه الأمة في هذا الشرك الذي هو أعظم المحرمات ، كما وقع فيه أهل الجاهلية قبل مبث النبي صلى الله عليه وسلم: عبدوا القبور والمشاهد والأشجار والأحجار والطواغيت والجن ، كما عبد أولئك اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام والأوثان ، واتخذوا هذا الشرك ديناً ، ونفروا إذا دعوا إلى التوحيد أشد نفرة ، واشتد غضبهم لمعبوداتهم كما قال تعالى: (٣٩: ٤٥) وإذا ذكر الله وحده اشتمزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) وقال تعالى: (١٧: ٤٦) وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً) وقال: (٣٧: ٣٥) ، ٣٦ إنهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون: أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) علموا أن « لا إله إلا الله » تنفي الشرك الذي وقعوا فيه ، وأنكروا التوحيد الذي دلت عليه . فصار أولئك المشركون أعلم بمعنى هذه الكلمة « لا إله إلا الله » من أكثر متأخري هذه الأمة ، لا سيما أهل العلم منهم ، الذين لهم دراية في بعض الأحكام وعلم الكلام فجهلوا توحيد العبادة ، فوقعوا في الشرك المنافي له وزينوه ، وجعلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه؛ فوقعوا في نفيه أيضاً ، وصنفوا فيه الكتب لاعتقادهم أن ذلك حق وهو باطل ، وقد اشتدت غربة الإسلام حتى عاد المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، فنشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » وقد قال صلى الله عليه وسلم: « افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافتقرت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة . كلهم في النار ==

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

قال العباد ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم : (قل) لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله (تعالوا) أى : هلموا وأقبلوا (أنل) أقص عليكم (ما حرم ربكم عليكم) حقاً ، لا تخزصاً ولا ظناً ، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده (ألا تشركوا به شيئاً) وكان فى الكلام محذوفاً دل عليه السياق ، تقديره : وصاكم أن لا تشركوا به شيئاً ، ولهذا قال فى آخر الآية : (ذلكم وصاكم به) اه .

قلت : فيكون المعنى : حرّم عليكم ما وصاكم بتركه من الإشراك به . وفى المعنى لابن هشام فى قوله تعالى : (ألا تشركوا به شيئاً) سبعة أقوال ، أحسنها : هذا الذى ذكره ابن كثير ، ويليهِ : بين لكم ذلك لثلاث تشركوا ، فحذفت الجملة من أحدهما ، وهى (وصاكم) وحرف الجر وما قبله من الأخرى . ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يقول « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . واركبوا ما يقول آباؤكم » كما قال أبو سفيان لمُرقل^(١) وهذا هو الذى فهمه أبو سفيان وغيره من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم : « قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » .

وقوله تعالى : (وبالوالدين إحساناً) قال القرطبي : الإحسان إلى الوالدين : برهما وحفظهما وصيانتها ، وامتنال أمرها ، وإزالة الرق عنهما ، وترك السلطنة عليهما . و « إحساناً » نصب على المصدرية ، وناصبه فعل من لفظه ، تقديره : وأحسنوا بالوالدين إحساناً .

وقوله : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم) الإملاق : الفقر ،

== إلا واحدة . قالوا : ومن هى يارسول الله ؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابى « وهذا الحديث قد صح من طرق ، كما ذكره العباد ابن كثير وغيره من الحفاظ . وهو فى السنن وغيرها . ورواه محمد بن نصر فى كتاب الاعتصام ، وقد وقع ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بعد القرون الثلاثة .

فلهنا عم الجهل بالتوحيد الذى هو أصل دين الإسلام ؛ فإن أصله : أن لا يعبد إلا الله وأن لا يعبد إلا بما شرع ، وقد ترك هذا وصارت عبادة الأكثرين مشوبة بالشرك والبدع ، لكن الله تعالى وله الحمد لم يخل الأرض من قائم له بحججه ، وداع إليه على بصيرة ، لكيلا تبطل حجج الله وبيناته التى أنزلها على أنبيائه ورسله ؛ فله الحمد والشكر على ذلك .

(١) رواه البخارى فى بدء الوحي ، فى حديث أبي سفيان الطويل .

وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ،

أى : لا تزدوا بناتكم خشية العيلة والفقير ؛ فإنى رازقهم وإياكم ، وكان منهم من يفعل ذلك بالذكور خشية الفقر ، ذكره القرطبي . وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه « قلت : يارسول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٥ : ٦٨ - ٧٠) والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلقَ أناماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيماً) . »

وقوله : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال ابن عطية : نهى عام عن جميع أنواع الفواحش ، وهى المعاصى . و « ظهر » و « بطن » حالتان تستوفيان أقسام ماجلتا له من الأشياء . انتهى .

وقوله : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) فى الصحيحين : عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

وقوله : (ذلکم وصاکم به لعلکم تعقلون) قال ابن عطية : « ذلکم » إشارة إلى هذه المحرمات ، والوصية الأمر المؤكد المقرر .

وقوله : (لعلکم تعقلون) (لعل) للتعليل : أى إن الله تعالى وصانا بهذه الوصايا لنعقلها عنه ونعمل بها . وفى تفسير الطبرى الحنفى : ذكر أولاً « تعقلون » ثم « تذكرون » ثم « تتقون » لأنهم إذا عقلوا تذكروا ، فإذا تذكروا خافوا واتقوا .

وقوله : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) قال ابن عطية : هذا نهى عام عن القرب الذى يعم وجوه التصرف ، وفيه سد الذريعة . ثم استثنى ما يحسن وهى السعى فى نمائه ، قال مجاهد : « التي هي أحسن : التجارة فيه » .

وقوله : (حتى يبلغ أشده) قال مالك وغيره : هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ .

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَأُنْكَفُفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ،
وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

وروى نحو هذا عن زيد بن أسلم والشعبي وربيعة وغيرهم .

وقوله : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) قال ابن كثير : يأمر تعالى بإقامة العدل في
الأخذ والإعطاء (لانكلف نفساً إلا وسعها) أى : من اجتهد بأداء الحق وأخذه ،
فإن أخطأ بعد استفراغ الوسع وبذل جهده فلا حرج عليه .

وقوله : (وإذا قلتم فاعدوا ولو كان ذا قربى) هذا أمر بالعدل في القول والفعل على
القريب والبعيد . قال الحنفى : العدل في القول في حق الولي والعدو لا يتغير في الرضى
والغضب ، بل يكون على الحق وإن كان ذا قربى ، فلا يميل إلى الحبيب والقريب
(٥ : ٨) ولا يجرمنكم شنان قوم على أن لا تهملوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى .

وقوله : (وبعهد الله أوفوا) قال ابن جرير : وبوصية الله تعالى التي وصاكم بها فأوفوا .
وإيفاء ذلك . بأن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه ، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله
صلى الله عليه وسلم ، وذلك هو الوفاء بعهد الله ، وكذا قال غيره .

وقوله : (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) تعظون وتنتهون عما كنتم فيه .
وقوله : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)
قال القرطبي : هذه آية عظيمة عطفها على ماتقدم ؛ فإنه نهى وأمر وحذر عن اتباع غير
سبيله على ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف ، و « أن » في موضع نصب : أى .
أتلوا أن هذا صراطي ، عن القراء والكسائي ، ويجوز أن يكون خفصاً : أى وصاكم به
وبأن هذا صراطي ، قال : والصراط : الطريق الذي هو دين الإسلام . « مستقيماً »
نصب على الحال ، ومعناه : مستويًا قيمًا لا اعوجاج فيه ، فأمر باتباع طريقه الذي طرّقه
على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ، ونهايته الجنة ، وتشعبت منه طرق ، فمن سلك
الجادّة نجاً ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار . قال الله تعالى : (ولا تتبعوا
السبل فتفرق بكم عن سبيله) أى : تميل . انتهى .

ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

وروى الإمام أحمد والنسائي والدارمي وابن أبي حاتم والحاكم - وصححه - عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً بيده . ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل - الآية) » وعن مجاهد : (ولا تتبعوا السبل) قال : « البدع والشهوات » . قال ابن القيم رحمه الله : ولندكر في الصراط المستقيم قولاً وجيزاً ، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته ، وحقيقته شيء واحد ، وهو طريق الله الذى نصبه لعباده موصلاً لهم إليه ، ولا طريق إليه سواه ، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذى نصبه على السنن رسله ، وجعله موصلاً لعباده إليه ، وهو أفراد بالعبادة ، وإفراد رسله بالطاعة ، فلا يشرك به أحداً فى عبادته ، ولا يشرك برسوله صلى الله عليه وسلم أحداً فى طاعته . فيجرد التوحيد ، ويجرد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا كله مضمون « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » فأى شيء فسر به الصراط المستقيم فهو داخل فى هذين الأصلين . ونكتة ذلك أن تحبه بقلبك ، وترضيه بجهدك كله ، فلا يكون فى قلبك موضع إلا معموراً بحبه ، ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته . فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، والثانى يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله . وهذا هو الهدى ودين الحق ، وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به ، وقل ماشئت من العبارات التى هذا آخِيتِها ^(١) وقطب رحاها . قال : وقال سهل بن عبد الله : عليكم بالأثر والسنة ، فإنى أخاف ؛ إنه سيأتى عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي صلى الله عليه وسلم ، والافتداء به فى جميع أحواله ذمّوه ونفروا عنه وتبرأوا منه وأذلوه وأهانوه . اهـ .

(١) الآخية - بالمد والتشديد - جبل ، أو عويد يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير طرفه كالعروة تشد فيها الدابة ، وجمعها الأواخي .

قال ابن مسعود : « من أراد أن ينظرَ إلى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي عليها خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى : (قل : تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ : أَلَّا تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئًا - إِلَى قَوْلِهِ : وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا - الْآيَةُ » .

قوله : قال ابن مسعود : « من أراد أن ينظرَ إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمها فليقرأ (قل : تعالوا أتْلُ ما حرم ربكم عليكم - إلى قوله : وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه - الآية) .

قوله : « ابن مسعود » هو عبد الله بن مسعود بن غافل - بمجمة وفاء - ابن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمن ، صحابي جليل من السابقين الأولين ، وأهل بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان ، ومن كبار علماء الصحابة . أتمره عمر على الكوفة ، ومات سنة اثنتين وثلاثين رضى الله عنه .

وهذا الأثر رواه الترمذي وحسنه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والطبراني بنحوه ، وقال بعضهم : معناه من أراد أن ينظرَ إلى الوصية التي كأنها كتبت وختم عليها فلم تُعَيَّرْ ولم تُبَدَّلْ فليقرأ (قل تعالوا - إلى آخر الآيات) شبهها بالكتاب الذي كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوص إلا بكتاب الله ، كما قال فيما رواه مسلم « وإني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله » وقد روى عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيُّكُمْ يَبَايِعُنِي عَلَى هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ ؟ ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ : (قل : تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ) حَتَّى فَرَّغَ مِنَ الثَّلَاثِ الْآيَاتِ ثُمَّ قَالَ : وَمَنْ وَفَى بِهِنَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ اللَّهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عِقُوبَتُهُ ، وَمَنْ أَخْرَجَهُ إِلَى الْآخِرَةِ كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ : إِنْ شَاءَ أَخَذَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ » رواه ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، ومحمد بن نصر في الاعتصام .

قلت : ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوص أمته إلا بما وصاهم الله تعالى به على لسانه . وفي كتابه الذي أنزله (١٦ : ٨٩ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) وهذه الآيات وصية الله تعالى ، ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم .

وعن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ ، فَقَالَ لِي : يَا مُعَاذُ ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى

قوله : (وعن معاذ بن جبل قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار ، فقال لي : يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال حق الله على العباد : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً . قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشّر الناس ؟ قال : لا تبشروهم فيتفكروا » أخرجاه في الصحيحين .

هذا الحديث في الصحيحين من طرق ، وفي بعض رواياته نحو مما ذكره المصنف . و « معاذ بن جبل » رضى الله عنه : هو ابن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى أبو عبد الرحمن ، صحابي مشهور من أعيان الصحابة ، شهد بدرًا وما بعدها . وكان إليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن رضى الله عنه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برّونة »^(١) أى : بخطوة ، قال في القاموس : والرّونة : الخطوة وشرف من الأرض ، وسوية من الزمان . والدعوة ، والفترة ، ورمية بسهم ، أو نحو ميل أو مدى البصر . والرأى : العالم الربانى . انتهى . وقال في النهاية : إنه يتقدم العلماء برّونة . أى : برمية سهم . وقيل : بميل . وقيل : مدّ البصر . وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث .

مات معاذ سنة ثمان عشرة بالشام في طاعون عمّواس . وقد استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على أهل مكة يوم الفتح سلمهم دينهم .

قوله : « كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم » فيه : جواز الإرداف على الدابة وفضيلة معاذ رضى الله عنه .

قوله : « علي حمار » في رواية اسمه « عُفَيْر » قلت : أهدها إليه المقوقس صاحب مصر .

وفيه : تواضعه صلى الله عليه وسلم لركوب الحمار والإرداف عليه ، خلافاً لما عليه أهل الكبر .

قوله : « أتدرى ما حق الله على العباد ؟ » أخرج السؤال بصيغة الاستفهام ؛ ليكون أوقع

(١) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة : أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه من

مرسل أبي عون الثقفي ، وأورده ابن عساكر في تاريخ دمشق من طرق عن محمد بن الخطاب

الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يُشركوا

في النفس، وأبلغ في فهم المتعلم. « وحق الله على العباد » هو ما يستحقه عليهم. « وحق العباد على الله » معناه: أنه متحقق لا محالة؛ لأنه قد وعدم ذلك جزاء لهم على توحيدهِ (٣٠: ٦ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلَفُ اللَّهُ وَعَدَهُ).

قال شيخ الإسلام: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوق على المخلوق، فمن الناس من يقول: لامعنى للاستحقاق إلا أنه أخبر بذلك ووعد صدق، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقاً زائداً على هذا، كما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى: (٣٠: ٤٧ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) لكن أهل السنة يقولون: هو الذي كتب على نفسه الرحمة. وأوجب على نفسه الحق، لم يوجبه عليه مخلوق. والمعتزلة يدعون أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك. وهذا الباب غلطت فيه الجبرية، والقدرية أتباع جهم، والقدرية النافية.

قوله: « قلت: الله ورسوله أعلم » فيه حسن الأدب من المتعلم، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك، بخلاف أكثر المتكلمين.

قوله: « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » أى: يوحده بالعبادة. ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله حيث عرّف العبادة بتعريف جامع، فقال:

وعبادة الرحمن: غاية حبه
وعليهما فلك العبادة دائر
مع ذل عابده، هما قطبان
مادار، حتى قامت القطبان
لابالهُوى والنفس والشيطان^(١)
ومداره بالأمر-أمر رسوله-

(١) في قرّة العيون:

حق الإله عبادة بالأمر لا
من غير إشراك به شيئاً لها
لم ينبج من غضب الإله وناره
والناس بعد: فمشارك بالله
بهوى النفوس فذاك للشيطان
سبب النجاة فخبذا السببان
إلا الذى قامت به الأصولان
أو ذوا ابتداع، أو له الوصفان =

به شيئاً ، وحقُّ العباد على الله : أن لا يُعذَّبَ من لا يُشركَ به شيئاً . قلت :
يارسولَ الله ، أفلا أُبشِّرُ الناسَ ؟ قال : لا تُبشِّرُهُمْ فَيَتَّكِلُوا « أخرجاه في
الصحيحين .

قوله : « ولا يشركوا به شيئاً » أى : يوحده بالعبادة ، فلا بد من التجرد من الشرك
فى العبادة ، ومن لم يتجرد من الشرك لم يكن آتياً بعبادة الله وحده ، بل هو مشرك قد
جعل لله ندّاً . وهذا معنى قول المصنف رحمه الله .

وفيه : أن العبادة هى التوحيد ؛ لأن الخصومة فيه ، وفى بعض الآثار الإلهية : « إني
والجن والإنس فى نأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيرى ، وأرزق ويُشكر سواى . خبرى إلى
العباد نازل ، وشرم إلى صاعد أحبب إليهم بالنعم ، ويتبغضون إليّ بالمعاصى » .

قوله : « وحقُّ العباد على الله : أن لا يعذَّبَ من لا يشركَ به شيئاً » قال الحافظ :
اقتصر على نفي الإشراك ؛ لأنه يستدعى التوحيد بالافتضاء ، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم ،
إذ من كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك .
وهو مثل قول القائل : من توضأ صحت صلواته ، أى : مع سائر الشروط . هـ .

قوله : « أفلا أُبشِّرُ الناسَ ؟ » فيه : استحباب بشارة المسلم بما يسره ، وفيه : ما كان
عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا . قاله المصنف رحمه الله .

قوله : « لا تبشِّرهم فيتكلوا » أى : يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس فى الأعمال .

وفى رواية « فأخبر بها معاذ عند موته تأمناً » أى : تخرجاً من الإنثم . قال الوزير
أبو المظفر : لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهوله على سوء الأدب بترك الخدمة فى
الطاعة ؛ فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا فى الطاعة ، ورأوا أن زيادة النعم
تستدعى زيادة الطاعة ، فلا وجه لكتمانها عنهم .

== « وحقُّ العباد على الله : أن لا يعذَّبَ من لا يشركَ به شيئاً » : ليس على الله حق واجب
بالعقل كما تزعم المعتزلة . لكن هو سبحانه جعل ذلك على نفسه تفضلاً وإحساناً على الموحدين
المخلصين الذين لم يلتفتوا فى إرادتهم ومهماتهم ورغباتهم ورهباتهم إلى أحد سواه ، ولم يتقربوا
بما يقولونه ويعملونه من الطاعات إلا إليه وحده . والله أعلم .

فيه مسائل ، الأولى : الحكمة في خلق الجن والإنس .
الثانية : أن العبادة هي التوحيد ، لأن الخصومة فيه^(١) .
الثالثة : أن مَنْ لم يأت به لم يعبد الله . ففيه معنى قوله : (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
مَا أُعْبُدُ) .

الرابعة : الحكمة في إرسال الرسل .

الخامسة : أن الرسالة عمّت كل أمة .

السادسة : أن دين الأنبياء واحد .

وفي الباب من الفوائد غير ما تقدم ؛ الحث على إخلاص العبادة لله ، وأنها لا تنفع مع
الشرك ، بل لا تسمى عبادة ، والتنبيه على عظمة حق الوالدين ، وتحريم عقوقهما ، والتنبيه
على عظمة الآيات المحكمات في سورة الأنعام ، وجواز كتمان العلم للمصلحة .
قوله : « أخرجاه » أي : البخارى ومسلم و « البخارى » رحمه الله : هو الإمام محمد
ابن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبة الجعفي مولاهم ، الحافظ الكبير ، صاحب الصحيح
والتاريخ والأدب المفرد وغير ذلك من مصنفاته . روى عن الإمام أحمد بن حنبل والحميدي
وابن المديني وطبقتهم . وروى عنه مسلم والنسائي والترمذي والفريابي ، راوى الصحيح .
ولد سنة أربع وتسعين ومائة ، ومات سنة ست وخمسين ومائتين .
و « مسلم » رحمه الله : هو ابن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري ،
صاحب الصحيح والعلل والوحدان وغير ذلك . روى عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين
وأبي خيثمة وابن أبي شيبة وطبقتهم . وروى عن البخارى . وروى عنه الترمذي وإبراهيم
ابن محمد بن سفيان راوى الصحيح وغيرهما . ولد سنة أربع ومائتين . ومات سنة إحدى
وستين ومائتين بنيسابور رحمهما الله .

(١) يعنى : أن الخصومة إنما وقعت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين في تحقيق
« لا إله إلا الله » المكونة من جملتين : إحداهما نفي ، والثانية إثبات . فالأولى تنفي كل الآلهة التي
يدعيها الناس ، والثانية تثبت الإلهية لله وحده . يعنى : ينبغى أن يكفر بكل معبود لتخلص العبادة لله .

السابعة: المسألة الكبيرة: أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت
ففيه معنى قوله: (فَنُ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)
الثامنة: أن الطاغوت عامٌ في كل ما عُبدَ من دون الله.

التاسعة: عِظْمُ شَأْنِ ثَلَاثِ الْآيَاتِ الْمَحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ السَّلَفِ
وفيهما عشر مسائل^(١). أولها: النهي عن الشرك.

العاشر: الْآيَاتُ الْمَحْكَمَاتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، وَفِيهَا ثَمَانِيَةَ عَشْرَ مَسْأَلَةٍ، بِدَأْهَا
الله بقوله: (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) وختمها بقوله:
(وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا) ونبها الله سبحانه
على عِظْمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلِ بِقَوْلِهِ: (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ)
الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة، بدأها
الله تعالى بقوله: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا).

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته.
الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة^(٢).

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة: استحبابُ بشارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسْرُهُ.

(١) التي هي الوصايا العشر. وأولها وأهمها (أن لا تشركوا بالله شيئاً).

(٢) « لا يعرفها أكثر الصحابة » لأن النبي أمر معاذاً أن يكتمها عن الناس مخافة أن يتكلموا على سعة رحمة الله ويتركوا العمل، فلم يجز بها إلا عند موته تأمناً. فذلك لم يعرفها أكثر الصحابة في حياة معاذ.

الثامنة عشرة : الخوفُ من الاتِّكالي على سِعةِ رحمةِ الله .
التاسعة عشرة : قولُ المستولِ عما لا يعلم « الله ورسوله أعلم » .
العشرون : جوازُ تخصيصِ بعضِ الناسِ بالعلم^(١) دونِ بعضٍ .
الحادية والعشرون : تواضعه صلى الله عليه وسلم لركوبِ الحمار ، مع الإردافِ عليه .

الثانية والعشرون : جوازُ الإردافِ على الدّابة .

الثالثة والعشرون : فضيلةُ معاذِ بنِ جبلٍ .

الرابعة والعشرون : عِظَمُ شأنِ هذه المسألة .

باب

(فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب^(٢))

وقول الله تعالى (٦:٨٢) الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمنُ

قوله : « باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب » « باب » خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذا . قلت : ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره : هذا . و « ما » يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، أى : وبيان الذى يكفره من الذنوب ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى : وتكفيره الذنوب ، وهذا الثانى أظهر .

قوله : وقول الله تعالى : (٦:٨٢) الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمنُ

(١) يعنى : العلم الزائد على القدر المحتاج إليه فى إقامة الدين ، وإلا لم يجز بدليل وعيد الله الشديد على كتمان العلم فى قوله : (٢ : ١٥٩ ، ١٦٠) لأن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) وقوله : (٣ : ١٨٧) ولأخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينته للناس ولا تكتُمونه) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ليلغ الشاهد منكم الغائب »

(٢) فى قرّة العيون : والمراد بالتوحيد : توحيد العبادة ، وهو أفراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة كالدعاء والذبح والنذر ونحوه ، كما قال تعالى : (٤٠ : ١٤) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) وقال تعالى : (٤٠ : ٦٥) فادعوه مخلصين له الدين)

وَهُمْ مُهْتَدُونَ .

وهم مهتدون) قال ابن جرير: حدثني المثني - وساق يسنده - عن الربيع بن أنس قال: «الإيمان: الإخلاص لله وحده» .

وقال ابن كثير في الآية: أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة. وقال زيد بن أسلم وابن إسحاق: هذا من الله على فضل القضاء بين إبراهيم وقومه .

وعن ابن مسعود «لما نزلت هذه الآية قالوا: فأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بذلكم، ألم تسمعون إلى قول لقمان: (إن الشرك لظلم عظيم)؟» وساقه البخاري بسنده^(١) فقال: حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثني إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال: «لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قلنا: يارسول الله، أيننا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم، بشرك. أو لم تسمعون إلى قول لقمان لابنه: (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)؟» .

ولأحمد بنحوه عن عبد الله قال: «لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يارسول الله؛ فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تمنون. ألم تسمعون ما قال العبد الصالح: (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)؟ إنما هو الشرك» وعن عمر أنه فسره بالذنب. فيكون المعنى: الأمن من كل عذاب وقال الحسن والكلبى: «أولئك لهم الأمن، في الآخرة: وهم مهتدون في الدنيا» .

قال شيخ الإسلام: والذي شق عليهم: أنهم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله، فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، فإن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاضطفاء في قوله: (٣٥:٣٢) ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه،

(١) في قصة إبراهيم عليه السلام من أحاديث الأنبياء .

ومنهم مُقتصدٌ، ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله؛ ذلك هو الفضل الكبير) وهذا لا ينفى أن يؤخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى (٩٩ : ٧٠٦) فمن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يَرَهِ) وقد سأل أبو بكر الصديق رضى الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يا رسول الله ، أينما لم يعمل سوءاً ؟ فقال : يا أبا بكر ، ألسنت تنصب ؟ ألسنت تحزن ؟ أليس يصيبك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به » فبين أن المؤمن الذى إذا مات دخل الجنة قد يجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب . فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة : الشرك ، وظلم العباد ، وظلمه لنفسه بما دون الشرك . كان له الأمن التام والاهتداء التام . ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق . بمعنى : أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك فى الآية الأخرى . وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه إلى الجنة . ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه . وليس مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « إنما هو الشرك » أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام . فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر مُعرضون للخوف ، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذى يكونون بهما مهتدين إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، من غير عذاب يحصل لهم . بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ، ولا بد لهم من دخول الجنة . وقوله « إنما هو الشرك » إن أراد الأكبر . فقصوده : أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة . وإن كان مراده جنس الشرك . يقال : ظلم العبد نفسه - كبخله لحب المال ببعض الواجب - هو شرك أصغر . وجه ما يبيغضه الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك . فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه . ولهذا كان السلفُ يُدخلون الذنوبَ فى هذا الشرك بهذا الاعتبار . انتهى ملخصاً^(١) .

وقال ابن القيم رحمه الله : قوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) قال الصحابة : « وأينا يارسول الله لم يلبس إيمانه بظلم ؟ قال : ذلك الشرك . ألم تسمعوا قول العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) ؟ » لما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا

(١) من كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه .

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أن ظلم النفس داخل فيه . وأن من ظلم نفسه - أى ظلم كان - لم يكن آمناً ولا مهتدياً : أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك . وهذا والله هو الجواب الذى يشفى العليل ويروى الغليل . فإن الظلم المطلق التام هو الشرك . الذى هو وضع العبادة فى غير موضعها . والأمن والهدى المطلق : هما الأمن فى الدنيا والآخرة . والهدى إلى الصراط المستقيم . فالظلم المطلق التام رافع للأمن وللاهتمام المطلق التام . ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى . فتأمله . فالمطلق للمطلق ، والحصة للحصة . اهملخصاً^(١) .

قوله ﴿ وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » . أخرجاه ﴾ .

عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى ، أبو الوليد ، أحد النقباء ، بدرى مشهور . مات بالرمة سنة أربع وثلاثين ، وله اثنتان وسبعون . وقيل : عاش إلى خلافة معاوية رضى الله عنه .

(١) قال فى قررة العيون : قال تعالى : (٣٥ : ٣٢) ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير) فالظالم لنفسه : هو الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . فهو تحت مشيئة الله : إن شاء غفر له ، وإن شاء أخذ به بذنبه ، ونجاه بتوحيده من الخلود فى النار . وأما المقتصد : فهو الذى عمل بما أوجب الله عليه وترك ما حرم عليه فقط ، وهذه حال الأبرار . وأما السابق : فهو الذى حصل له كمال الإيمان باستفراغه وسعه فى طاعة الله علماً وعملاً . فهذان لهم الأمن التام والاهتمام التام فى الدنيا والآخرة . فالكل للكل . والحصة للحصة ، لأن كمال الإيمان يمنع صاحبه من المعاصى وعقوباتها ، فلم يلق ربه بذنب يعاقب به ، كما قال تعالى : (٤ : ١٤٧) ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) وهذا الذى ذكرته فى معنى هذه الآية هو ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وابن القيم رحمه الله فى معناها ، وهو الذى دل عليه القرآن ، وهو قول أهل السنة والجماعة . خلافاً لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم .

« مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

قوله : « من شهد أن لا إله إلا الله » أى : من تكلم بها عارفاً لمعناها ، عاملاً بمقتضاها ، باطناً وظاهراً ، فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها ، كما قال الله تعالى (٤٧: ١٩) فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقوله (٤٣: ٨٦) إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه : من البراءة من الشرك ، وإخلاص القول والعمل : قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح - فغير نافع بالإجماع^(١) .

(١) قال في قرّة العيون : وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفيًا وإثباتًا ، فنفت الإلهية عن كل ماسوى الله بقولك : « لا إله » وأثبتت الإلهية لله وحده بقولك « إلا الله » قال تعالى : (٣ : ١٨) شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضل وهم الأكثرون ، فقبلوا حقيقة المعنى فأثبتوا الإلهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار والجن وغير ذلك ، واتخذوا ذلك دينًا ، وشبهوا وزخرفوا ، واتخذوا التوحيد بدعة وأنكروه على من دعاهم إليه ، فلم يعرفوا منها ماعرف أهل الجاهلية من كفار قريش ونحوهم (*) فإنهم عرفوا معناها وأنكروا مادلت عليه من الإخلاص ، كما قال تعالى : (٣٧ : ٣٥ ، ٣٦) إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون : أئنا لتاركوا آلتهنا لشاعر مجنون) والشركون من أواخر هذه الأمة أنكروا ما أنكروه أولئك على من دعاهم إلى ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الموتى والقبور والمشاهد والطواغيت ونحوها . فأولئك عرفوا هذا المعنى وأنكروه ، وهؤلاء جهلوا بهذا المعنى وأنكروه ، فلهذا تجده يقول : لا إله إلا الله ، وهو يدعو مع الله غيره .

(*) سبب ذلك : أن عرب الجاهلية هم أهل لغة القرآن الفصحاء فلا يجهلون شيئاً من معنى التوحيد الذى قرره . وأما هؤلاء الذين فشا فيهم اليوم شرك العبادة فليسوا من أهل ملكة هذه اللغة ، وإنما يدينون بالاصطلاحات التى تلقاها بعضهم من بعض : من كلامية وعامية . وإذا كان مثل الفخر الرازى من أكبر أئمة متكلميهم وأصوليهم أخطأ فى فهم معنى « الأله » فى تفسير قوله تعالى : (قالوا : ياموسى ، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فما الظن بمن دونه من علماءهم . دع عامتهم ودهماءهم ؟ هل يستغرب منهم الجهل بأن من دعا ميتاً أو صالحاً حياً فيما لا يدعى فيه إلا الله ، أو طاف بقبوره ونذر له يكون عبداً له ومتخذاً له إلهاً ؟ !!

قال القرطبي في المفهم على صحيح مسلم : « باب لا يكتفى مجرد التلفظ بالشهادتين » بل لابد من استيقان القلب - هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المُرَجِّمَةِ ، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان . وأحاديث هذا الباب تدل على فساده . بل هو مذهب معاموم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها . ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق ، والحكم للنفاق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعاً اه .

وفي هذا الحديث ما يدل على هذا ، وهو قوله : « من شهد » فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم و يقين وإخلاص وصدق .

قال النووي : هذا حديث عظيم جليل الموقع ، وهو أجمع - أو من أجمع - الأحاديث المشتمة على العقائد . فإنه صلى الله عليه وسلم جمع فيه ما يخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعداها . فاقصر صلى الله عليه وسلم في هذه الأحرف على ما يباين جميعهم . اه . ومعنى « لا إله إلا الله » لا معبود بحق إلا الله ، وهو في غير موضع من القرآن ، ويأتيك في قول البقاعي صريحاً قوله « وحده » تأكيداً للثبات ، « لا شريك له » تأكيداً للنفي . قاله الحافظ . كما قال تعالى : (٢ : ١٦٣) وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) وقال : (٢١ : ٢٥) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال : (٧٥ : ٧) وإلى عادٍ أخاهم هوداً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره) فأجابوه رداً عليه بقولهم : (٧٠ : ٧) أجبنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟) وقال تعالى (٢٢ : ٢٢) ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العليُّ الكبير) فتضمن ذلك نفي الإلهية عما سوى الله ، وهي العبادة . وإثباتها لله وحده لا شريك له ، والقرآن من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه .

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تأله القلب بالحب والخضوع والتذلل ، رغباً ورهباً . وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى ، كما تقدم في أدلة هذا الباب وما قبله . فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد جعله لله نداً ، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل .

﴿ ذكر كلام العلماء في معنى « لا إله إلا الله » ﴾

قد تقدم كلام ابن عباس . وقال الوزير أبو المظفر في الإفصاح : قوله : « شهادة أن لا إله

إلا الله» يقتضى أن يكون الشاهد عالماً بأنه لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) قال : واسم «الله» مرتفع بعد «إلا» من حيث إنه الواجب له الإلهية ، فلا يستحقها غيره سبحانه . قال : وجملته الفائدة فى ذلك : أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ؛ فإنك لما نفيت الإلهية وأثبتت الإيجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله .

وقال ابن القيم فى البدائع^(١) رداً لقول من قال : إن المستثنى مخرج من المستثنى منه . قال ابن القيم : بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه ، ، فلا يكون داخلاً فى المستثنى ؛ إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل فى الإسلام بقوله : « لا إله إلا الله » لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى . وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله ، وإثباتها له بوصف الاختصاص . فدلالتها على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا : « الله إله » ولا يستريب أحد فى هذا البتة . انتهى بمعناه .

وقال أبو عبد الله القرطبي فى تفسيره « لا إله إلا الله » أى لا معبود إلا هو . وقال الزمخشري : « الإله » من أسماء الأجناس كالرجل والفرس ، يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق .

وقال شيخ الإسلام : « الإله » هو المعبود المطاع ؛ فإن الإله هو المألوه ، والمألوه هو الذى يستحق أن يعبد . وكونه يستحق أن يعبد هو بما انصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، الخضوع له غاية الخضوع ، قال : فإن الإله هو المحبوب المعبود الذى تأله القلوب بحبها ، وتخضع له وتذل له ، وتخافه وترجوه ، وتنيب إليه فى شدائدها ، وتدعوه فى مهماتها ، وتتوكل عليه فى مصالحها ، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا الله وحده ، ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أصدق الكلام ، وكان أهلها أهل الله وحزبه ، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته ، فإذا صحت صحبها كل مسألة وحال وذوق ، وإذا لم يصحبها العبد فالفساد لازم له فى علومه وأعماله .

(١) بدائع الفوائد للعلامة ابن القيم (ج ٣ ص ٥٦) وهو بحث قيم جداً فى الاستثناء

وقال ابن القيم : « الإله » هو الذى تأله القلوب محبة وإجلالا وإثابة ، وإكراماً وتعظيماً ، وذلاً وخضوعاً ، وخوقاً ورجاءً وتوكلاً .

وقال ابن رجب : « الإله » هو الذى يطاع فلا يعصى ، هيبه له وإجلالا ، ومحبة وخوقاً ورجاءً ، وتوكلاً عليه ، وسؤالاً منه ودعاءً له ، ولا يصلح هذا كله إلا لله عز وجل . فن أشرك مخلوقاً فى شىء من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية كأن ذلك قدحاً فى إخلاصه فى قول : « لا إله إلا الله » وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك .

وقال البقاعى : « لا إله إلا الله » أى انتفاءً عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم . فإن هذا العلم هو أعظم الذكري المنجية من أهوال الساعة ، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً ، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه ، وإلا فهو جهل صرف .

وقال الطيبي : « الإله » فعال بمعنى مفعول ، كالكتاب بمعنى المكتوب ، من إله إلهة : أى عبد عبادة . قال الشارح : وهذا كثير فى كلام العلماء ، وإجماع منهم .

فدلت ، « لا إله إلا الله » على نفي الإلهية عن كل ماسوى الله تعالى كائناً ما كان ، وإثبات الإلهية لله وحده ، دون كل ماسواه ، وهذا هو التوحيد الذى دعت إليه الرسل ودل عليه القرآن من أوله إلى آخره ، كما قال تعالى عن الجن : (٧٢ : ١) قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ . ولن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) فلا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفيًا وإثباتًا ، واعتقد ذلك وقبله وعمل به . وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل ، فقد تقدم كلام العلماء : أن هذا جهل صرف ، فهى حجة عليه بلا ريب .

فقوله فى الحديث : « وحده لا شريك له » تأكيد وبيان لمضمون معناها . وقد أوضح الله ذلك وبينه فى قصص الأنبياء والمرسلين فى كتابه المبين ، فما أجهل عبادة القبور بحالهم ! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافى لكلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » فإن مشركى العرب ونحوهم جحدوا « لا إله إلا الله » لفظاً ومعنى . وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظاً وجحدوها معنى ، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة ، كالحب والتعظيم ، والخوف والرجاء ، والتوكل والدعاء ، وغير ذلك من أنواع العبادة . بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب ،

وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

فإن أحدهم إذا وقع في شدة أخلص الدعاء اغير الله تعالى ، ويعتقدون أنه أسرع فرجاً لهم من الله ، بخلاف حال المشركين الأولين ، فإنهم كانوا يشركون في الرخاء ، وأما في الشدائد فإنما يخلصون لله وحده ، كما قال تعالى : (٦٥:٢٩ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون - الآية) فهذا يتبين أن مشركي أهل هذه الأزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم^(١) .

وقوله « وأن محمداً عبده ورسوله » أى : وشهد بذلك ، وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل ، ومعنى « العبد » هنا : المملوك العابد ، أى : انه مملوك لله تعالى . والعبودية الخاصة وصفه ، كما قال تعالى : (٢٦:٣٩ أليس الله بكاف عبده ؟) فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين . وأما الربوبية والإلهية فهما حق الله تعالى ، لا يشركه في شيء منهما ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

وقوله : « عبده ورسوله » أتى بهاتين الصفتين وجمعهما دفعا للإفراط والتفريط ؛ فإن كثيراً ممن يدعى أنه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلاً ، وفرط بترك متابعتها ، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به ، وتعسف في تأويل أخباره وأحكامه ، بصرفها عن مدلولها ، والصدوف عن الانقياد لها مع إطراحها ، فإن شهادة أن محمداً رسول الله تقتضى الإيمان به ، وتصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانتها عما عنه نهى وزجر ، وأن يعظم أمره ونهيه ،

(١) في قرّة العيون : قلت : وهؤلاء التأخرون جهلوا معنى الإله ، وقلبوا حقيقة المعنى إلى معنى توحيد الربوبية وهو القدرة على الاختراع ، فأثبتوا ما نفتته « لا إله إلا الله » من الشرك وأنكروا ما أثبتته من إخلاص العبادة لله جهلاً منهم ، وقد قال تعالى : (٣٩ : ٢ فاعبد الله مخلصاً له الدين) قال محيي الدين النووي : اعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع من أزمان متطاولة . ولم يبق في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً ، وهو باب عظيم ، به قوام الأمر وملاكه ، وإذا كثرت الحث عم العقاب الصالح والطلح .

وقوله « في هذه الأزمان » يعنى : القرن الخامس والسادس . وإذا كان كذلك فما الظن بالقرن العاشر وما بعده وقد استحكمت فيها الغربية ؟ ولشيخنا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الكلمة كلام بديع واضح ، لم يسبق إلى مثله ، فذيراجع لمسيس الحاجة إليه .

وَأَنَّ عَيْسَىٰ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ

ولا يقدم عليه قول أحد كائناً من كان^(١) والواقع اليوم وقبله - ممن ينتسب إلى العلم من القضاة والمفتين - خلاف ذلك ، والله المستعان .

وروى الدارمي في مسنده عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه كان يقول : « إنا لنجد صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمين . أنت عبدى ورسولى . سميت للمتوكل ، ليس بفظاً ولا غليظاً ، ولا صخّاب بالأسواق ، ولا يجزى بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويتجاوز ، ولن أقبضه حتى يُقيم الله للتعوجة بأن يشهد أن لا إله إلا الله ، يفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غُفماً » قال عطاء ابن يسار : وأخبرني أبو واقد الليثي : أنه سمع كعباً يقول مثل ما قال ابن سلام^(٢) .

قوله : « وأن عيسى عبد الله ورسوله » أى : خلافاً لما يعتقدُه النصارى : أنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً (٩١ : ٢٣) ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وما كان معه مِنْ إله) فلا بد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله^(٣) على علم ويقين بأنه مملوك لله ،

(١) في قرّة العيون : وأن لا تعارض بقول أحد ، لأن غيره صلى الله عليه وسلم يجوز عليه الخطأ ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد عصمه الله تعالى ، وأمرنا بطاعته والتأسي به ، وتوعدنا على ترك طاعته بقوله تعالى (٣٣ : ٣٦) وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم - الآية) . وقال : (٢٤ : ٦٣) فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : « أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزينغ فيهلك » . وقد وقع التفريط في التابعية وتركها وتقديم أقوال من يجوز عليهم الخطأ على قوله صلى الله عليه وسلم ، لاسيما من العلماء كما لا يخفى .

(٢) آخر رواية الدارمي (ج ١ ص ٥) وفي الرواية عن كعب « نجده مكتوباً في التوراة » .

(٣) في قرّة العيون : فيه بيان الحق الذي يجب اعتقاده كما في الآيات المحكمات وما فيها من الرد على كفار النصارى ، وهم ثلاث طوائف : طائفة قالوا : إن عيسى هو الله ، وطائفة قالوا : ابن الله ، وطائفة قالوا : ثالث ثلاثة . يعنون : عيسى وأمه . فبين الله تعالى في كتابه الحق وأبطل الباطل ، فقال : (١٧١ : ٤) يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، =

وكلمته

خلقه من أنثى بلا ذكر ، كما قال تعالى : (٥٩ : ٣) إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كُنْ فيكون) فليس رباً ولا إلهاً سبحان الله عما يشركون . قال تعالى : (١٩ : ٢٩ - ٣٦ فأشارت إليه ، قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبياً ؟ قال : إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بالذي ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ، ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمتنون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم)^(١) وقال : (٤ : ١٧٢) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمُ إِلَيْهِ جَمِيعًا) وبشهد المؤمن أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود : أنه ولد بغيٍّ ، لعنهم الله تعالى . فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعاً في عيسى عليه السلام ، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه : أنه عبد الله ورسوله

قوله « وكلمته » إنما سمي عيسى عليه السلام كلمة ؛ لوجوده بقوله تعالى : « كن » كما قاله السلف من المفسرين . قال الإمام أحمد في الرد على الجهمية^(٢) « بالكلمة التي ألقاها إلى = إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا ، خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلًا) والآيات بعدها . وقال تعالى : (٥ : ١٧) لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم) في مواضع من سورة المائدة ، وأخبر تعالى عما قاله المسيح عليه السلام وهو في الهد .

(١) في قرّة العيون : فبين تعالى الصراط المستقيم الذي من سلكه نجا ، ومن خرج عنه هلك ، وقال تعالى : (٣ : ٥٩) إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين) فبين تعالى الصراط المستقيم بياناً شافياً ووافياً وأقام حججه على توحيده ، فأحق الحق وأبطل الباطل ولو كره المشركون .

(٢) صفحة ٢٠ طبعه عيسى الحلبي وأولاده في باب : ثم إن الجهمي ادعى أمراً ، فقال : إنا وجدنا آية في كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق . فقلنا : أي آية ؟ قال : قول الله (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم) وعيسى مخلوق .

ألقاها إلى مريم وروح منه

مريم حين قال له « كن » فكان عيسى بكن وليس عيسى هو « كن » ولكن بكن كان . فكان من الله تعالى قول ، وليس « كن » مخلوقا ، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى « انتهى » .

قوله « ألقاها إلى مريم » قال ابن كثير : خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل ، فكان عيسى بإذن الله عز وجل ؛ فهو ناشئ عن الكلمة التي قال له : « كن فكان » والروح التي أرسل بها : هو جبريل عليه السلام .

وقوله « وروح منه ^(١) » قال أبي بن كعب « عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله

(١) الظاهر أن معنى « وروح منه » أنه كغيره من بني آدم الذي يقول الله فيه : (فإذا

سويته ونفخت فيه من روحي) كما مثل له في الآية الأخرى بأنه مثل آدم . والله أعلم .

وقال في قرّة العيون : أي من الأرواح التي استخرجها من صلب آدم عليه السلام وأخذ

عليها العهد على أنه تعالى ربهم وإلههم كما قال تعالى (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم

ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا - الآية) . وروح عيسى من تلك

الأرواح التي خلقها الله تعالى . وذكر ابن جرير عن وهب بن منبه قال « نفخ جبريل في جيب

درع مريم حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت عليه » وعن السدي أن النفخة دخلت في

صدرها فحملت ، وقال ابن جريج : يقولون إنما نفخ في جيب درعها وكها : انتهى مختصرا .

جبريل نفخ . والله خلق بقول « كن » فكان . كما قال تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من

روحي) فسبحان من لا يخلق غيره ، ولا يعبد سواه .

وقد أورد بعض النصارى على بعض علماء المسلمين قول الله تعالى (وروح منه) .

فقال في الجواب : هذا ليس خاصاً بعيسى عليه السلام بل المخلوقات كذلك كلها . كما قال

تعالى (وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه) أي خلقها وإيجاداً ، وعيسى كذلك

خلقه وأوجده كسائر مخلوقاته . وفي هذا الحديث : الرد على اليهود أعداء الله وأعداء أنبيائه

ورسله ، فإنهم كانوا هم والنصارى على طرفي تقيض فنسبوه إلى أنه ولد بغى ، قاتلهم الله . فأكذبهم

الله تعالى في كتابه وأبطل قولهم ، كما أبطل قول الغلاة من النصارى فيما تقدم من الآيات ونحوها .

فالنصارى غلوا في عيسى ابن مريم عليه السلام أعظم الغلو والكفر والضلال ، واليهود

جفوا في حقه غاية الجفوة . وكلاهما قد ضل ضللاً بعيداً ، نبيه الله تعالى في مواضع كثيرة من

كتابه وبين تعالى الحق والصدق ورفع قدر المسيح عليه السلام وجعله من أولى العزم الخمسة

المدكورين في سورة الأحزاب (٣٣ : ٧ والشورى ٤٢ : ١٣) وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم

أن يصبر كما صبروا فقال (واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) فهم أفضل الرسل على =

والجنة حق، والنار حق

تعالى واستنطقها بقوله (٧: ١٧٢) ألسنت بر بكم؟ قالوا: بلى (بعثه الله إلى مريم فدخل فيها « رواه عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم . قال الحافظ : ووصفه بأنه منه ، فالمعنى أنه كائن منه ، كما في قوله تعالى (٤٥ : ١٣) وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعاً منه) فالمعنى أنه كائن منه ، كما أن معنى الآية الأخرى : أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه : أي إنه مكون ذلك وموجده بقدرته وحكمته .

قال شيخ الإسلام : المضاف إلى الله تعالى إذا كان معني لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به ، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مرئوب . وإذا كان المضاف عيناً قائمة بنفسها كعيسى وجبريل عليهما السلام وأرواح بنى آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى ؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره .

لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين :

أحدهما : أن تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها ، فهذا شامل لجميع المخلوقات ، كقولهم : سماء الله ، وأرض الله . فجميع المخلوقين عبيد الله ، وجميع المال مال الله .

الوجه الثاني : أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه ، كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون في غيره . وكما يقال في مال الخمس والنبيء : هو مال الله ورسوله . ومن هذا الوجه : فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره . فهذه إضافة تتضمن أوهيته وشرعه ودينه ، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقته . اهـ ملخصاً

قوله (والجنة حق والنار حق) أي وشهد أن الجنة التي أخبر بها الله تعالى في كتابه أنه أعدّها للمتقين حق ، أي ثابتة لاشك فيها ، وشهد أن النار التي أخبر بها تعالى في كتابه أنه أعدّها للكافرين حق كذلك ثابتة ، كما قال تعالى (٥٧ : ٢١) سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقال تعالى (٢ : ٢٤) فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة

== التحقيق والنبي صلى الله عليه وسلم أفضلهم صلوات الله وسلامه عليه ، وطى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أدخله الله الجنة عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ « أَخْرَجَاهُ . وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عَثْبَانَ :
« فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ » .

أعدت للكافرين) وفي الآيتين ونظائرهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن ، خلافاً للمبتدعة^(١) . وفيهما الإيمان بالمعاد .

وقوله « أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » هذه الجملة جواب الشرط ، وفي رواية « أدخله الله من أى أبواب الجنة الثمانية شاء » .

قال الحافظ : معنى قوله « على ما كان من العمل » أى من صلاح أو فساد ، لأن أهل التوحيد لأبد لهم من دخول الجنة . ويحتمل أن يكون معنى قوله « على ما كان من العمل » أن يدخل أهل الجنة على حسب أعمال كل منهم فى الدرجات .

قال القاضى عياض : ما ورد فى حديث عبادة يكون مخصوصاً لمن قال ما ذكره صلى الله عليه وسلم وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذى ورد فى حديثه ، فىكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ، ويوجب له المغفرة والرحمة ، ودخول الجنة لأول وهلة .
﴿ قال : ولهما فى حديث عثبان « فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله » ﴾ .

قوله « ولهما » أى : للبخارى ومسلم فى صحيحهما بكامله . وهذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان^(٢) .

(١) فى قررة العيون : ومن لم يؤمن بالجنة والنار فقد كفر بالقرآن والرسول ، فإن الله تعالى بين الجنة وما أعد فيها من النعيم المقيم ، وذكر أنها دار التقيين ، وذكر النار وما فيها من العذاب ، وأنه أعدها لمن كفر به وأشرك .

(٢) فى قررة العيون : اختصره المصنف وذكر منه ما يناسب الترجمة وهو قوله « من قال : لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله » وهذا هو حقيقة معناها الذى دلت عليه هذه الكلمة من الإخلاص ونفى الشرك ، والصدق والإخلاص متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر ، فإن لم يكن مخلصاً فهو مشرك ومن لم يكن صادقاً فهو منافق ، والمخلص أن يقولها مخلصاً الإلهية لمن لا يستحقها غيره وهو الله تعالى ، وهذا التوحيد هو أساس الإسلام الذى قاله الخليل عليه السلام (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقالت بلقيس (رب إني ظلمت =

و «عتبان» بكسر المجهلة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة ، ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري ، من بني سالم بن عوف ، صحابي مشهور ، مات في خلافة معاوية .

== نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقال الخليل عليه السلام (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) والحنيف : هو الذي ترك الشرك رأساً وتبرأ منه وفارق أهله وعاداهم وأخلص أعماله الباطنة والظاهرة لله وحده ، كما قال تعالى (٣١: ٢٢) ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) فإسلام الوجه هو إخلاص العبادة المتأني للرب والنفق ، وهو معنى الآية ونحوها إجماعاً . فهذا هو الذي ينفعه قوله « لا إله إلا الله » ولهذا قال تعالى (فقد استمسك بالعروة الوثقى) وهذا بخلاف من يقولها وهو يدعو غير الله ويستغيث به من ميت أو غائب لا ينفع ولا يضر ، كما ترى عليه أ كثر الخلق ، فهؤلاء وإن قالوها فقد تلبسوا بما يناقضها ، فلا تنفع قائمها إلا بالعلم بمدلولها نقياً وإثباتاً . والجاهل بمعناها . وإن قالها لا تنفعه لجهله بما وضعت له الوضع العربي الذي أريد منها من نفي الشرك ، وكذلك إذا عرف معناها بغير يقين له ، فإذا اتقى اليقين وقع الشك .

ومما قيدت به في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم « غير شك » فلا تنفع إلا من قالها بعلم ويقين ، لقوله « صدقاً من قلبه ، خالصاً من قلبه » وكذلك من قالها غير صادق في قوله . فإنها لا تنفع لمخالفة القلب للسان ، كحال المناققين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . وكذلك حال المشرك ، فلا تقبل من مشرك لمنافاة الشرك للإخلاص ، ولما دلت عليه هذه الكلمة مطابقة ، فإنها دلت على نفي الشرك والبراءة منه والإخلاص لله وحده لا شريك له مطابقة . ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله « لا إله إلا الله » كما هو حال كثير من عبدة الأوثان يقولون : « لا إله إلا الله » وينكرون ما دلت عليه من الإخلاص ، ويعادون أهله وينصرون الشرك وأهله وقد قال الخليل عليه السلام لأبيه وقومه (٤٣ : ٢٦ - ٢٨) لأنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه) وهي « لا إله إلا الله » وقد عبر عنها الخليل بمعناها الذي وضعت له ودلت عليه ، وهو البراءة من الشرك وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له كما تقدم تقريره ، وكذلك من قالها ولم يقبل ما دلت عليه من الإخلاص كان قوله لهذه الكلمة كذباً منه بل قد عكس مدلولها فأثبت ما نفتته من الشرك ، ونفى ما أثبتته من الإخلاص .

فهذا الذي ذكرناه هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة ، وسبب ذلك الجهل بمعناها واتباع الهوى ، فيصدفه عن اتباع الحق ، وما بعث الله به رسله : من توحيده الذي شرعه لعباده ، ورضيه لهم .

وأخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم - ومعاذٌ رديفه على الرّجل - قال « يا معاذ ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : يا معاذ ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : يا معاذ ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثا - قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار . قال : يا رسول الله ، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذا يتكلموا ، فأخبر بها معاذ عند موته تأثما » . وساق بسند آخر : حدثنا معتمر قال : سمعت أبى ، قال : سمعت أنسا قال : ذكر لى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . قال : ألا أبشر الناس ؟ قال : لا ، إني أخاف أن يتكلموا » قلت : فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنها تتضمن ترك الشرك لمن قالها بصدق و يقين وإخلاص .

قال شيخ الإسلام وغيره : فى هذا الحديث ونحوه أنها فيمن قالها ومات عليها ، كما جاءت مقيدة بقوله « خالصاً من قلبه غير شاك فيها بصدق و يقين » فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة ، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة ؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً ، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك ؛ فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، وما يزن خردلة ، وما يزن ذرة » وتواترت بأن كثيراً ممن يقول لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها ، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم فهو لاء كانوا يصلون ويسجدون لله وتواترت بأنه يحرم على النار من قال : لا إله إلا الله ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال ، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة ، ولم تحالط حلوة الإيمان بشاشة قلبه . وغالب من يفتن عند الموت وفى القبور أمثال هؤلاء ، كما فى الحديث « سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته »^(١) وغالب أعمال هؤلاء إنما هى تقليد واقتداء بأمنالهم ، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى (٤٣ : ٢٣) إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون

(١) فى حديث البراء بن عازب الذى رواه أصحاب السنن وغيرهم فى سؤال القبر .

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث ، فإنه إذا قالها بإخلاص و يقين تام لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب أصلاً ، فإن كمال إخلاصه و يقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء ، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهة لما أمر الله . وهذا هو الذى يحرم على النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك ، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص ، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين ، لا تترك له ذنباً إلا مُحَى عنه كما يحو الليل النهار ، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر ، فهذا غير مُصِرٍّ على ذنب أصلاً ، فيفقر له ويحرم على النار . وإن قالها على وجه خالص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك ، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات ، كما في حديث البطاقة^(١) فيحرم على النار . ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه ، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مُصِرّاً على ذلك ، فإنه يستوجب النار . وإن قال : لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر . لكنه لم يمت على ذلك ، بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيديه ، فإنه في حال قولها كان مخلصاً لكنه أتى بذنوب أو هنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته ، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك ، بخلاف المخلص المستيقن ، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ، ولا يكون مصراً على سيئات ، فإن مات على ذلك دخل الجنة .

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص و يقين مانع من جميع السيئات ، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر ، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر ، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين ، فيضعف قول «لا إله إلا الله» فيمتنع الإخلاص بالقلب ، فيضير المتكلم بها كالهذى أو النائم ، أو من يحسن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة ، فهو لاء لم يقولوها بكال الصدق واليقين ، بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك . بل يقولونها من غير يقين وصدق ويموتون على ذلك ، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة . فإذا كثرت الذنوب نقل على اللسان قولها ، وقسا القلب عن قولها ، وكره العمل الصالح وثقل عليه سماع القرآن ، واستبشر بذكر غير الله ، واطمأن إلى الباطل ، واستحلى الرقت

ومخالطة أهل الغفلة ، وكره مخالطة أهل الحق ، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه ، وبقية ما لا يصدقه عمله .

قال الحسن : « ليس الإيمان بالتَّحَلِّي ولا بالتَّئني ولكن ما وَقَر في القلوب وصدقته الأعمال . فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه ، ومن قال خيراً وعمل شراً لم يقبل منه »
وقال بكر بن عبد الله المزني : « ماسبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ، ولكن بشيء وَقَر في قلبه » .

فمن قال : لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها ، بل اكتسب مع ذلك ذنباً ، وكان صادقاً في قولها موقناً بها ، لكن له ذنوب أضعفت صدقه وبقينه وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي ، فرجحت هذه السيئات على هذه الحسنه ، ومات مصراً على الذنوب ، بخلاف من يقولها بيقين وصدق ، فإنه إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلاً ، ويكون توحيد المتضمن لصدقه وبقينه رجح حسناته . والذين يدخلون النار ممن يقولها : إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافين للسيئات أو لرجحانها ، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم ، ثم ضعف لذلك صدقهم وبقينهم ، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق وبقين تام ؛ لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم ، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات ، فترجح سيئاتهم على حسناتهم . انتهى ملخصاً .

وقد ذكر هذا كثير من العلماء ، كابن القيم وابن رجب وغيرهم .

قلت : وبما قرره شيخ الإسلام تجتمع الأحاديث .

قال : وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد وبالعكس .

وفيه : تحريم النار على أهل التوحيد الكامل ، وفيه : أن العمل لا ينفع إلا إذا كان

خالصاً لوجه الله تعالى على ما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

(تنبيه) قال القرطبي في تذكرته : قوله في الحديث « من إيمان » أي من أعمال

الإيمان التي هي من أعمال الجوارح ، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من

الإيمان ، والدليل على أنه أراد بالإيمان ما قلناه ، ولم يرد مجرد الإيمان الذي هو التوحيد ونفي

الشركاء والإخلاص بقول لا إله إلا الله : ما في الحديث نفسه من قوله « اخرجوا - ثم بعد

ذلك يقبض سبحانه قبضة فيخرج قوما لم يعملوا خيراً قط » يريد بذلك التوحيد المجرد

من الأعمال . اه ملخصاً من شرح سنن ابن ماجه .

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال موسى : يارب ، علمنى شيئاً أذكرك وأدعوك به . قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله . قال : يارب كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى ، لو أن السموات

قال المصنف رحمه الله ﷺ وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قال موسى عليه السلام : يارب ، علمنى شيئاً أذكرك وأدعوك به . قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله . قال : يارب ، كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى ، لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى ، والأرضين السبع فى كفة ، ولا إله إلا الله فى كفة ، مالت بهن لا إله إلا الله » رواه ابن حبان والمحاكم وصححه ﷺ .

« أبو سعيد » اسمه : سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصارى الخزرجى ، صحابى جليل ، وأبوه كذلك . استصغر أبو سعيد بأحد ، وشهد ما بعدها . مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين . وقيل : سنة أربع وسبعين .

قوله ﴿ أذكرك ﴾ أى أثنى عليك به ، « وأدعوك » أى أسألك به .

قوله ﴿ قل يا موسى : لا إله إلا الله ^(١) ﴾ فيه : أن الذاكرها يقولها كلها ، ولا يقتصر على لفظ الجلالة ، ولا على « هو » كما يفعله غلاة جهال المتصوفة ، فإن ذلك بدعة وضلال . قوله ﴿ كل عبادك يقولون هذا ﴾ ثبت بخط المصنف بالجمع ، والذي فى الأصول « يقول » بالإفراد مراعاة للفظ « كل » وهو فى المسند من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ الجمع كما ذكره المصنف على معنى « كل » ومعنى قوله « كل عبادك يقولون هذا » أى إنما أريد شيئاً تخصنى

(١) قال فى قررة العيون : فلا نافية للجنس نفيّاً عاماً إلا ما استثنى وخبرها محذوف تقديره إلا له حق إلا الله . قال تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير) فالهيتة تعالى هى الحق وكل ما سواه من الآلهة فالهيتة باطلة كما فى هذه الآية ونظائرهما . فهذه كلمة عظيمة هى العروة الوثقى وكلمة التقوى وكلمة الإخلاص ، وهى التى قامت بها السموات والأرض ، وشرعت لتكميلها السنة والقرض ، ولأجلها جردت سيوف الجهاد ، وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصى من العباد . فمن قاتها وعمل بها صدقاً وإخلاصاً وقبولاً ، ومحبة واتباعاً : أدخله الله الجنة على ما كان من العمل .

السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي ، والأَرْضِينَ السَّبْعَ

به من بين عموم عبادك ؛ وفي رواية - بعد قوله « كل عبادك يقولون هذا - قل : لا إله إلا الله ، قال : لا إله إلا أنت يارب ، إنما أريد شيئاً تخصني به » .

ولما كان بالناس - بل بالعالم كله - من الضرورة إلى لا إله إلا الله مالا نهاية له ، كانت من أكثر الأذكار وجوداً ، وأيسرها حصولاً ، وأعظمها معنى . والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدعة التي ليست في الكتاب ولا في السنة .

قوله ﴿ وعامرهن غيري ^(١) ﴾ هو بالنصب عطف على السموات ، أي لو أن السموات

(١) قال في قررة العيون : أي كل من في السموات والأرض وقوله « غيري » استثنى بمن في السموات نفسه لأنه العلي الأعلى تعالى وتقدس كما قال تعالى (٢ : ٢٥٥ وهو العلي العظيم) علو القهر وعلو القدرة وعلو الذات . فالثلاثة كلها صفته ودلت على كماله كما قال تعالى (٢٠ : ٥ الرحمن على العرش استوى) وقال (٢٥ : ٦٩ ثم استوى على العرش الرحمن) الآية : في سبعة مواضع من كتابه (٧ : ٥٣ و ١٠ : ٣ و ١٣ : ٢ و ٣٢ : ٤ و ٤٧ : ٤) كما قال تعالى (٣٥ : ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال تعالى (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم) وقال تعالى (٧٠ : ٤ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، وقال (٣ : ٥٥ إني متوفيك ورافكك إلى) وأمثال هذه الآيات .

فمن سلب علو الله تعالى على خلقه فقد خالف صريح الكتاب والسنة وألحد في أسمائه وصفاته ، ومعنى هذه الكلمة : نفي الإلهية عن كل شيء سوى ما استثنى بها وهو الله تعالى . لكن هذه الكلمة العظيمة لا يحصل رجبانها إلا في حق من أتى بقيودها التي قيدت بها في الكتاب والسنة ، وقد ذكر الله سبحانه في سورة براءة وغيرها كثيراً ممن يقولها ولم ينفعهم قولها . كحال أهل الكتاب والناقضين على كثرتهم وتنوعهم في نفاقهم فلم تنفعهم مع ما قام بهم من ترك تلك القيود .

(فمنهم) من يقولها جاهلاً بما وضعت له وبما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه والصدق والإخلاص وغيرها . كعدم القبول ممن دعى إليها علماً وعملاً ، وترك الاتقياد بالعمل بما تقتضيه كحال أكثر من يقولها قديماً وحديثاً ، ولكن في أواخر هذه الأمة أكثر .

(ومنهم) من يمنعه من محبتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبر أو هوى أو غير ذلك من الأسباب وهي كثيرة منها قوله تعالى (٩ : ٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من =

فِي كِفَّةٍ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ ، مالت بهنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

السبع ومن فيهن من العار غير الله تعالى ، والأرضين السبع ومن فيهن وُضِعُوا فِي كِفَّةِ الميزان وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الكِفَّةِ الأخرى ، مالت بهن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته : آمرك بلا إله إلا الله . فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كِفَّةٍ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةِ رَجَحَتْ بهنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كُنَّ حَلَقَةً مُبَهَمَةً لَقَصَمْنَهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » .
قوله ﴿ فِي كِفَّةٍ ﴾ هو بكسر الكاف وتشديد الفاء ، أى كفة الميزان .

قوله ﴿ مالت بهن ﴾ أى رجحت . وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك ، وتوحيد الله الذى هو أفضل الأعمال . وأساس الملة والدين ، فن قالها بإخلاص ويقين ، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها ، واستقام على ذلك ، فهذه الحسنة لا يوازنها شيء ، كما قال الله تعالى (٤٦ : ١٣) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .
ودل الحديث على أن « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » أفضل الذكر . كحديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً :

== الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدى القوم الفاسقين)
وأما أهل الإيمان الخالص فهم الذين أتوا بهذه الكلمة واجتمعت لهم قيودها التي قيدت بها علماء وبيئناً وصدقا وإخلاصاً ومحبة وقبولاً واثقياً ، وعادوا فيه والوا فيه وأجوا فيه وأبغضوا فيه وقد ذكروهم الله تعالى في مواضع من سورة براءة وغيرها وخصهم بالثناء عليهم ، والعفو عنهم وأعد لهم جنته وأنجاهم من النار ، كما قال تعالى (٩ : ١٠٠) والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدون فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) فهؤلاء ومن اتبعهم بإحسان هم أهل « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » وغير هذه من الآيات في الثناء عليهم وما أعد لهم في الدار الآخرة .

فمن تدبر القرآن وعرف تفاوت الخلق في محبة ربهم وتوحيده والعمل بطاعته والمهرب من معصيته وإيثار ما يحبه تعالى رغبة وعملاً . وترك ما يكرهه خشية ورجاء ، واعتبر الناس بأحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ونياتهم وما هم فيه من التفاوت البعيد ، تبين له خطأ الغرورين . كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتغنى على الله الأمانى » .

رواه ابن حبان والحاكم وصححه .

« خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » رواه أحمد والترمذي ، وعنه أيضاً مرفوعاً « يُصاحُ برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ثم يقال : أتتسكروا من هذا شيئاً ؟ أظلمت كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقال : أفلك عذراً أو حسنة ؟ فيهاب الرجل فيقول : لا . فيقال : بلى ، إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فيقول : يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تنظم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » رواه الترمذي وحسنه . والنسائي وابن حبان والحاكم . وقال : صحيح على شرط مسلم ، وقال الذهبي في تلخيصه : صحيح .

قال ابن القيم رحمه الله : فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وإنما تتفاضل بتفاضل مافي القلوب ، فتكون صورة العملين واحدة ، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض . قال : وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مدى البصر ، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات ، فلا يعذب . ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة ، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه .

قوله ﴿ رواه ابن حبان والحاكم ﴾ ابن حبان اسمه : محمد بن حبان - بكسر المهملة وتشديد الموحدة - ابن أحمد بن حبان بن معاذ ، أبو حاتم التميمي البُستِي الحافظ صاحب التصانيف : كالصحيح والتاريخ ، والضعفاء ، والنقات وغير ذلك . قال الحاكم : كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ، ومن عقلاء الرجال . مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بُست - بضم الموحدة وسكون المهملة .

وأما الحاكم فاسمه : محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري أبو عبد الله الحافظ ويعرف بابن البَيْع . ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . وصنف التصانيف ، كالمستدرک ، وتاريخ نيسابور وغيرها ، ومات سنة خمس وأربعمائة .

وللترمذى وحسنه عن أنس : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« قال الله تعالى : يا ابن آدم ، لو أتيتني بقرابِ الأرضِ خطايا ثم لقيتني لا تشرك

قال المصنف رحمه الله : ﴿ وللترمذى ، وحسنه ، عن أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » ^(١) 》 .

ذكر المصنف رحمه الله الجملة الأخيرة من الحديث ، وقد رواه الترمذى بتمامه فقال : عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم ، إنك مادعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أبالي ، يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني - الحديث » .

« الترمذى » اسمه : محمد بن عيسى بن سَوْرَة - بفتح المهملة - ابن موسى بن الضحاک السلمي أبو عيسى ، صاحب الجامع وأحد الحفاظ ، كان ضريب البصر ، روى عن قتيبة وهناد والبخارى وخلق . مات سنة تسع وسبعين ومائتين .

و « أنس » : هو ابن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم : خدمه عشر سنين ، وقال له « اللهم أكثر ماله وولده ، وأدخله الجنة » مات سنة اثنتين - وقيل : ثلاث وتسعين - وقد جاوز المائة .

والحديث قد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذرٍّ بمعناه ، وهذا لفظه « ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيتني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة » ورواه مسلم ، وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله « لو أتيتني بقراب الأرض » بضم القاف ، وقيل : بكسرها والضم أشهر وهو

(١) في قرّة العيون : في هذا الحديث ما يبين معنى « لا إله إلا الله » التي رجحت بجميع المخلوقات ، وجميع السيئات ، وأن ذلك هو ترك الشرك قليله وكثيره ، وذلك يقتضى كمال التوحيد فلا يسلم من الشرك إلا من حقق توحيده وأتى بما تقتضيه كلمة الإخلاص من العلم واليقين والصدق والإخلاص والمحبة والقبول والالتقياد ، وغير ذلك مما تقتضيه تلك الكلمة العظيمة كما قال تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) .

بني شيئاً لأتيتك بقربانها مغفرة» .

ملؤها أو ما يقارب مثلها .

قوله ﴿ ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ﴾ شرطٌ ثقيل في الوعد بحصول المغفرة ، وهو السلامة من الشرك : كثيره وقليله ، صغيره وكبيره . ولا يسلم من ذلك إلا من سلم الله تعالى ، وذلك هو القلب السليم ، كما قال تعالى (٢٦ : ٨٩) يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) .

قال ابن رجب : من جاء مع التوحيد بقرب الأَرْضِ خطايا لقيه الله بقربانها مغفرة - إلى أن قال - فإن كَمُلَ توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه ، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عند الموت ، أوجب ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب كلها ، ومنعه من دخول النار بالكلية فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ماسوى الله : محبة وتعظيماً ، وإجلالاً ، ومهابة ، وخشية وتوكلًا ، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياها كلها ، وإن كانت مثل زبد البحر . اهـ ملخصاً .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى الحديث : ويعنى لأهل التوحيد المحض الذى لم يشوبه بالشرك ما لا يعنى لمن ليس كذلك ، فلو لقي الموحد الذى لم يشرك بالله شيئاً ألبته ربه بقرب الأَرْضِ خطايا أتاها بقربانها مغفرة ، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيديه ؛ فإن التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب ، لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه ، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ، ولو كانت قرب الأَرْضِ فالنجاسة عارضة ، والدافع لها قوى . اهـ .

وفي هذا الحديث : كثرة ثواب التوحيد ، وسعة كرم الله وجوده ورحمته ، والرد على الخوارج الذين يكفرون المسلم بالذنوب ، وعلى المعتزلة القائلين بالمتزلة بين المنزلتين ، وهى فسوق ، ويقولون : ليس بمؤمن ولا كافر ، ويخلد فى النار . والصواب قول أهل السنة : أنه لا يسلب عنه اسم الإيمان ، ولا يعطاه على الإطلاق ، بل يقال : هو مؤمن عاص ، أو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته . وعلى هذا يدل الكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة .

فيه مسائل :

الأولى : سعة فضل الله .

الثانية : كثرة ثواب التوحيد عند الله .

الثالثة : تكفيره مع ذلك للذنوب .

الرابعة : تفسير الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام .

الخامسة : تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة .

السادسة : أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده ، تبين لك

معنى قول « لا إله إلا الله » وتبين لك خطأ المغرورين^(١)

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال « لما أسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سِدرة المنتهى ، فأعطي ثلاثاً : أعطى الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً : المقجمات » رواه مسلم .

قال ابن كثير في تفسيره : وأخرج الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه والنسائى عن أنس

(١) كثير من الناس يخطئون في فهم أحاديث : « من قال لا إله إلا الله : دخل الجنة » فيظنون بأن التلفظ بها يكفي وحده للنجاة من النار ودخول الجنة ، وليس كذلك ، فإن من يظن ذلك من المغرورين لم يفهم « لا إله إلا الله » لأنه لم يتدبرها . إذ أن حقيقة معناها : البراءة من كل معبود ، والتعهد بتجريد كل أنواع العبادة لله سبحانه وحده ، والقيام بها على الوجه الذى يحبه ويرضاه ، فمن لم يقم بحققها من العبادة ، أو قام ببعض أنواع العبادة ثم عبد مع الله غيره من دعاء الأولياء والصالحين والنذر لهم ونحو ذلك فإنه يكون هادماً لها . فلا تنفعه دعواه ولا تغنى عنه شيئاً . ولو كان مجرد قولها كافياً لم يقع من الشركين ما وقع من محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعاداته . قال الله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقال (٤٣ : ٨٦) إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) فمن لم يوف بها ويعمل بمقتضاها لا ينفعه التلفظ . وكل من جعل شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فهو إما جاهل بمعناها ، أو كاذب في ادعائه الإيمان . وأولئك هم المغرورون (الأخسرون أعمالاً . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) .

السابعة : التنبيه للشرط الذى فى حديث عتبان^(١) .

الثامنة : كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله .

التاسعة : التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه .

العاشرة : النص على أن الأرضين سبع كالمسوات .

الحادية عشرة : أن لمن عماراً .

الثانية عشرة : إثبات الصفات ، خلافاً للشعرية .

الثالثة عشرة : أنك إذا عرفت حديث أنس ، عرفت أن قوله فى حديث

عتبان : « فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله »

أنه ترك الشرك ، ليس قولها باللسان .

الرابعة عشرة : تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدى الله ورسوليه .

الخامسة عشرة : معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله .

ابن مالك قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (٧٤ : ٥٦ هو أهل التقوى وأهل المغفرة) وقال : قال ربكم : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله ، فمن اتقى أن يجعل معى إلهاً كان أهلاً أن أغفر له » .

قال المصنف رحمه الله : ﴿ تأمل الخمس اللواتى فى حديث عبادة ، فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قوله « لا إله إلا الله » وتبين لك خطأ المغرورين .

وفيه : أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل « لا إله إلا الله » والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه . وفيه : إثبات الصفات خلافاً للمعطلة .

وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس وقوله فى حديث عتبان « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله » تبين لك أن ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط .

(١) هو قوله « يبتغى بها وجه الله » ومن قالها يبتغى بها وجه الله لا بد أن يعمل ويخلص عمله لله .

- السادسة عشرة : معرفة كونه روحاً منه .
السابعة عشرة : معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار .
الثامنة عشرة : معرفة قوله « عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ » .
التاسعة عشرة : معرفة أن الميزان له كفتان .
العشرون : معرفة ذكر الوجه .

باب

﴿ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

قوله ﴿ بَابٍ مِنْ حَقِّقِ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى : ولا عذاب .
قلت : تحقيقه : تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ^(١) .

(١) في قرة العيون : وتحقيق التوحيد عزيز في الأمة ، لا يوجد إلا في أهل الإيمان الخالص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه كما قال تعالى في يوسف عليه السلام (١٢ : ٢٤) كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) بفتح اللام ، وفي قراءة (المخلصين) بكسرهما . وهم في صدر هذه الأمة كثيرون ، وفي آخرها هم الغرباء . وقد قلوا . وهم الأعظمون قدرأ عند الله . وقال تعالى عن خليله عليه السلام (٦ : ٧٨ ، ٧٩) قال : يا قوم إني برىء مما تشركون إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) أى أخلصت دينى وأفردت عبادتى للذى فطر السموات والأرض أى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق (حنيفاً) أى في حال كونى حنيفاً أى مائلاً عن الشرك إلى التوحيد . ولهذا قال (وما أنا من المشركين) ونظائر هذه الآية في القرآن كثير . كقوله (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً) وقال تعالى (٣١ : ٢٢) ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى في الآية : يقول تعالى مخبراً عن أسلم وجهه لله أى أخلص له العمل واتباعه وأوامره واتباع شرعه ، ولهذا قال (وهو محسن) أى في عمله واتباع ما أمر به وترك ما عنه زجر . فدللت هذه الآية العظيمة على أن كمال الإخلاص إنما يوجد بترك الشرك والبراءة منه وعن فعله كما تقدم في الباب قبل هذا .

وقول الله تعالى (١٦ : ١٢٠) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

قال الله تعالى (١٦ : ١٢٠) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد .
الأولى : أنه كان أمة ، أى قدوة وإماماً معلماً للخير . وما ذاك إلا لتكميله مقام الصبر
واليقين اللذين تُنال بهما الإمامة في الدين .

الثانية : قوله « قَانِتًا » قال شيخ الإسلام : القنوت دوام الطاعة ، والمصلى إذا أطال
قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت . قال تعالى (٣٩ : ٩) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ
سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) اهـ ملخصاً .

الثالثة : أنه كان حنيفاً . قلت : قال العلامة ابن القيم « الحنيف » المقبل على الله .
المعرض عن كل ماسواه . اهـ

الرابعة : أنه ما كان من المشركين ، أى لصحة إخلاصه وكمال صدقه ، وبُعد
عن الشرك^(١) .

(١) قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - في مفتاح دار السعادة في الوجه ١٤٧ من فضل
العلم - : إن الله أنبى على إبراهيم خليله بقوله (إن إبراهيم كان أمة - الآية) فهذه أربع أنواع
من الثناء ، افتتحها بأنه « أمة » وهو القدوة الذى يؤتم به . قال ابن مسعود : « الأمة : المعلم
للخير » وهى فعلة - بضم الفاء - من الاتهام كالقدوة ، وهو الذى يقتدى به . والفرق بين
« الأمة » و « الإمام » من وجهين .

أحدهما : أن الإمام كل ما يؤتم به ، سواء كان بقصد وشعوره أولاً ، ومنه سُمى الطريق
إماماً . كقوله تعالى (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فاتقننا منهم وإنهما لبإمام مبين) أى
بطريق واضح لا يخفى على السالك . ولا يسمى الطريق أمة .

الثانى : أن « الأمة » فيه زيادة معنى . وهو الذى جمع صفات الكمال فى العلم والعمل ،
وهو الذى بقى فيها فرداً وحده ، فهو الجامع لحصل تفرقت فى غيره ، فكأنه باين غيره باجتماعها
فيه ، وتفرقتها أو عدمها فى غيره . ولفظ « الأمة » يشعر بهذا المعنى ، لما فيه من اليمين الضعفة
الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها ، وكذلك ضم أوله . فإن الضمة من الواو ، ومخرجها
فيضم عند النطق بها . وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالعرفة واللقمة . ومنه الحديث : « إن =

المشركين) ، وقال : (٢٣ : ٥٩ والذين هم بربِّهم لا يُشركون) .

قلت : يوضِّح هذا قوله تعالى (٦٠ : ٤) قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه) أى على دينه من إخوانه المرسلين ، قاله ابن جرير رحمه الله تعالى (إذ قالوا لقومهم : إِنَّا بَرَاءُ مَا مَنَعَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَخُدَّهَ ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ) وذكر تعالى عن خليفه عليه السلام أنه قال لأبيه آزرَ (١٩ : ٤٨ ، ٤٩) وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي ، عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًّا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوبَ ، وكلا جعلنا نبيا) فهذا هو تحقيقُ التوحيد . وهو البراءةُ من الشرك وأهله واعتزالهم ، والكفر بهم وعداوتهم وبُغْضُهم . فالله المستعان .

قال المصنف رحمه الله في هذه الآية : (إن إبراهيم كان أمة) لثلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين (قانتاً لله) لا للملوك ولا للتجار المترفين (حنيفاً) لا يميل يميناً ولا شمالاً ، كفعل العلماء المفتونين (ولم يك من المشركين) خلافاً لمن كثر سوادهم وزعم أنه

== زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده « فالضم والاجتماع لازم للمعنى الأمة . ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم ، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد الثاني : قوله « قانتاً » قال ابن مسعود : « القانت » : الطيع . والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة .

الثالث : قوله « حنيفاً » والحنيف : المقبل على الله . ويلزم من هذا المعنى ميله عما سواه ، فالإلزام معنى الحنيف ، لا أنه موضوعه لغة .

الرابع : قوله « شاكرآ لأنعمه » والشكر للنعم مبنى على ثلاثة أركان : الإقرار بالنعمة وإضافتها إلى النعم بها ، وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب . فلا يكون العبد شاكرآ إلا بهذه الثلاثة .

والمقصود : أنه سبحانه مدح خليفه بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم . والعمل بموجبه وتعليمه ونشره . فعاد السكالم كله إلى العلم ، والعمل بموجبه ، ودعوة الخلق إليه . اه
وقال في قرة العيون : قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : يمدح الله تعالى عبده ورسوله ==

من المسلمين . اهـ

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إن إبراهيم كان أمة) على الإسلام .
ولم يك في زمانه أحد على الإسلام غيره .

قلت : ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم : من أنه كان إماماً يقتدى به في الخير .
قال : وقوله تعالى (٢٣ : ٥٧ - ٥٩) إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين
هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون^(١) .

== وخليله إبراهيم إمام الخنفاء : بترثته من المشركين ، ومن اليهودية والنصرانية والمجوسية .
و « الأمة » : هو الإمام الذي يقتدى به ، و « القانت » : هو الخاشع المطيع ، والحنيف :
المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال (ولم يك من المشركين) وقال مجاهد :
كان إبراهيم أمة : أي مؤمناً وحده ، والناس كلهم إذ ذاك كفار .

قلت : وكلا القولين حق . فقد كان الخليل عليه السلام كذلك . وقول مجاهد - والله
أعلم - لما كان الخليل كذلك في ابتداء دعوته ونبوته ورسالته عليه السلام ، فمدحه الله تعالى
بترثته من المشركين ، كما قال تعالى (١٩ : ٤١ ، ٤٢) واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان
صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً - الآيات
(٤٣ - ٥٠) وقوله (٣٧ : ٨٣ ، ٨٤) وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم -
الآيات (٨٥ - ١١٣) فهذا والله أعلم كان في ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن إذ
ذاك على وجه الأرض مسلم غيره . وبذلك جاء الحديث .

وقوله (ولم يك من المشركين) فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان ، وأنكر
ما كانوا عليه من الشرك بالله في عبادته وكسر الأصنام وصبر على ما أصابه في ذات الله . وهذا
هو تحقيق التوحيد ، وهو أساس الدين ورأسه . كما قال تعالى (٢ : ١٣١) إذ قال له ربه : أسلم .
قال : أسلمت لرب العالمين) وأنت تجد أكثر من يقول « لا إله إلا الله » ويدعى الإسلام يفعل
الشرك بالله في عبادته : بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات والغائبين والطواغيت والجن
وغيرهم ، ويحبهم ويواليهم ، ويخافهم ويرجوهم ، وينكر على من دعا إلى عبادة الله وحده وترك
عبادة ماسواه ، ويزعم أن ذلك بدعة وضلالة ، ويمادى من عمل به وأحبه ، وأنكر الشرك
وأبغضه ، وبعضهم لا يعد التوحيد علماً ولا يلتفت إليه لجهله به وعدم محبته . فإله المستعان .

(١) في قرّة العيون : قال العماد ابن كثير : أي من إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من
الله ، وخائفون وجلون من مكره بهم . كما قال الحسن البصري « المؤمن من جمع إحساناً وشفقاً ==

عن حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : « كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ : أَيُّكُمْ

وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة ، فأثنى عليهم بالصفات التي أعظمها : أنهم بر بهم لا يشركون . ولما كان المرء قد يعرض له ما يقدر في إسلامه : من شرك جلي أو خفي ، نفي ذلك عنهم ، وهذا هو تحقيق التوحيد ، الذي حسنت بهم أعمالهم ، وكلت ونفعتهم . قلت : قوله « حسنت وكلت » هذا باعتبار سلامتهم من الشرك الأصغر ، وأما الشرك الأكبر فلا يقال في تركه ذلك ، فتدبر . ولو قال الشارح : صحت ، لكان أقوم .

قال ابن كثير : (والذين هم بر بهم لا يشركون) أي لا يعبدون مع الله غيره ، بل يوحدهونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله ، أحد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه لا نظير له ^(١) .

قال المصنف : ﴿ عن حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : « كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، فَقَالَ : أَيُّكُمْ رَأَى الْكُوكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ ؟ فَقُلْتُ : أَنَا نِمْتُ قُلْتُ : أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ ، وَلَسَكُنِي لُدَغَتْ . قَالَ : فَمَا صَنَعْتَ ؟ قُلْتُ : ارْتَقَيْتُ قَالَ فَمَا حَلَلْتَ عَلَيَّ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : حَدِيثٌ حَدَّثَنَا الشَّعْبِيُّ . قَالَ : وَمَا حَدَّثَكُمْ ؟ قُلْتُ : حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْنِ أَنَّهُ قَالَ : « لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنِ أَوْ حَمَّةٍ » قَالَ : قَدْ أَحْسَنَ مِنْ أَنْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ . إِذْ رُفِعَ لِي سِوَادٌ عَظِيمٌ ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي ، فَقِيلَ لِي : هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ . فَنَظَرْتُ فَإِذَا سِوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي : هَذِهِ أُمَّتُكَ ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَئِكَ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَاعْلَمُوا الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

== والنافق من جمع إساءة وأمانا » (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أي يؤمنون بآيات الله الكونية والشريعة ، لقوله تعالى عن مريم (١٢: ٦٦) وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) أي أيقنت أن ما كان فهو من قدر الله وقضائه ، وما شرعه الله إن كان أمراً فهو ما يحبه الله ويرضاه ، وإن كان نهياً فهو ما يكرهه ويأباه ، وإن كان خيراً فهو حق .

(١) في قرّة العيون : فترك الشرك يتضمن كمال التوحيد ومعرفة على الحقيقة . ومحبة وقبوله والدعوة إليه ، كما قال تعالى (قل إنني أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب) وتضمنت هذه الآية كمال التوحيد وتحقيقه . وبالله التوفيق .

رَأَى الكوكب الذى انقضَّ البارحة؟ فقلتُ: أنا، ثم قلتُ: أما إنى لم أكن

وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء. فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال: هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ ولا يَسْكُتُونَ ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون. فقام عكاشة بن محصن، فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلنى منهم، قال: أنت منهم، ثم قام رجل آخر، فقال: ادعُ الله أن يجعلنى منهم، فقال: سبقك بها عكاشة ﴿﴾ .

هكذا أورده المصنف غير معزوِّ، وقد رواه البخارى مختصراً ومطولاً، ومسلم، واللفظ له، والترمذى والنسائى .

قوله « عن حصين بن عبد الرحمن » هو السلى^(١)، أبو الهذيل الكوفى، ثقة. مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة .

و « سعيد بن جبير »: هو الإمام الفقيه من جلة أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة وأبى موسى مرسلة. وهو كوفى مولى لبني أسد، قُتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الحسين .

قوله ﴿ انقض ﴾ هو بالقاف والضاد المعجمة أى سقط و « البارحة » هى أقرب ليلة مضت. قال أبو العباس ثعلب: يقال قبل الزوال: رأيت الليلة، و بعد الزوال: رأيت البارحة، وكذا قال غيره. وهى مشتقة من برح: إذا زال .

قوله ﴿ أما إنى لم أكن فى صلاة ﴾ قال فى معنى اللبيب: « أما » بالفتح والتخفيف على وجهين. أحدهما: أن تكون حرف استفتاح بمنزلة « ألا » فإذا وقعت « أن » بعدها كسرت. الثانى: أن تكون بمعنى حقاً، أو أحق. وقال آخرون: هى كلمتان. الهمزة للاستفهام، و « ما » اسم بمعنى شيء، أى أذلك الشيء حق، فالعنى أحق هذا؟ وهو الصواب. و « ما » نصب على الظرفية، وهذه تفتح « أن » بعدها. انتهى .

والأنسب هنا هو الوجه الأول، والقائل هو حصين، خاف أن يظن الحاضرون أنه رآه

(١) فى قررة العيون: الحارثى، من تابعى التابعين. عن الشعبي .

في صلاةٍ، ولكنني لُدِغْتُ، قال: فما صنعتَ؟ قلت: ارتقيتُ. قال: فما حَمَلَكَ على ذلك؟ قلتُ: حديثُ حدثناه الشَّعْبِيُّ، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْبِ أَنَّهُ قال: «لارُقِيَةَ إِلا من عينٍ أو حِمَّةٍ». قال: قد أحسنَ من انتهى إلى ما سمع.

وهو يصلى. فنفي عن نفسه إبهام العبادة، وهذا يدل على فضل السلف، وحرصهم على الإخلاص وبعدهم عن الرياء، والتزين بما ليس فيهم.

قوله ﴿ولكنني لدغت﴾ بضم أوله وكسر ثانيه. قال أهل اللغة: يقال لدغته العقرب وذوات السموم، إذا أصابته بسمها، وذلك بأن تأيره بشوكتها.

قوله ﴿قلت: ارتقيت﴾. لفظ مسلم «استرقيت» أى طلبت من يرقيني.

قوله ﴿فما حملك على ذلك؟﴾ فيه طلب الحججة على صحة المذهب.

قوله ﴿حديث حدثناه الشعبي﴾ اسمه: عامر بن شراحيل الهمداني، ولد في خلافة عمر، وهو من ثقات التابعين وفقهائهم^(١) مات سنة ثلاث ومائة.

قوله ﴿عن بريدة﴾ بضم أوله وفتح ثانيه تصغير بردة. ابن الحصيبي - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن الحارث الأسلمي، صحابي شهير. مات سنة ثلاث وستين. قاله ابن سعد.

قوله ﴿لارقية إلا من عين أو حمة﴾ وقد رواه أحمد وابن ماجه عنه مرفوعاً. ورواه أحمد وأبو داود والترمذي عن عمران بن حصين به مرفوعاً. قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات.

و«العين»: هي إصابة العائن غيره بعينه. و«الحمة» - بضم المهملة وتخفيف الميم - سم العقرب وشبهها. قال الخطابي: ومعنى الحديث: لارقية أشقى وأولى من رقية العين والحمة. وقد رقى النبي صلى الله عليه وسلم وورقى.

قوله ﴿قد أحسن من انتهى إلى ما سمع﴾ أى من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن، بخلاف من يعمل بجهل، أو لا يعمل بما يعلم، فإنه مسيء آثم. وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم^(٢).

(١) روى عن عمر وعلي وابن مسعود ولم يسمع منهم. وعن أبي هريرة وعائشة وجريير وابن عباس وخلق. قال الشعبي: ما كتبت سوداء في بيضاء. يعنى أنه كان معتنياً بالحفظ.

(٢) في قررة العيون: فيه حسن الأدب مع العلم وأهله وأن من فعل شيئاً سئلاً عن مستنده =

ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيَّ وَوَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ .

قوله ﴿ولكن حدثنا ابن عباس﴾ هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، دعا له فقال « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل ^(١) » فكان كذلك مات بالطائف سنة ثمان وستين .

قال المصنف رحمه الله ﴿ وفيه عمق علم السلف لقوله « قد أحسن من انتهى إلى ما سمع » ولكن كذا وكذا . فعمل أن الحديث الأول لا يخالف الثاني ﴾ .

قوله ﴿عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ﴾ وفي الترمذى والنسائى من رواية عبثر بن القاسم عن حصين ابن عبد الرحمن « أن ذلك كان ليلة الإسراء » قال الحافظ : فإن كان ذلك محفوظاً كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء ، وأنه وقع بالمدينة أيضاً . قلت : وفي هذا نظر ^(٢) .

قوله ﴿فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ﴾ والذي فى صحيح مسلم « الرهيط » بالتصغير لا غير ، وهم الجماعة دون العشرة ، قاله النووى .

قوله ﴿وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيَّ وَوَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ﴾ فيه الرد على من احتج بالكثرة ^(٣) .

== فى فعله : هل كان مقتدياً أم لا ؟ ومن لم يكن معه حجة شرعية فلا عذر له بما فعله ، ولهذا ذكر ابن عبد البر الإجماع على أن المقلد ليس من أهل العلم . فتفتن لهذا .

(١) رواه البخارى فى عدة مواضع من صحيحه .

(٢) فى قرة العيون : فإله أعلم متى عرضت ، وعرضها : أن الله تبارك وتعالى أراه مثلها إذا جاءت الأنبياء ومن تبعهم . فمن نجا بالإيمان بالله وما بعث به أنبياءه ورسله ، من دينه الذى شرعه لهم ، وهو عبادته وحده لا شريك له وترك عبادة ماسواه ، والأخذ بما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ، كما قال تعالى عن قوم نوح (٧١ : ٢ ، ٣) : يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعوه (فعبادته وتوحيده وطاعته وامثال ما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ، وطاعة رسوله . هذا هو الدين : أن لا يعبد إلا الله ، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع ، فعلا وتركاً ، وأن تقدم طاعة رسوله على ما يحبه ويهواه .

(٣) فى قرة العيون : أى يبعث فى قومه فلا يتبعه منهم أحد ، كما قال تعالى (١٥ : ١٠ ، ١١) =

إذ رُفِعَ لى سوادٌ عظيم ، فظننتُ أنهم أمتي ققيل لى : هذا موسى وقومه ،
فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم ، ققيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون

قوله ﴿ إذ رفع لى سواد عظيم ﴾ المراد هنا الشخص الذى يرى من بعيد .
قوله ﴿ فظننت أنهم أمتي ﴾ لأن الأشخاص التى ترى فى الأفق لا يدرك منها إلا الصورة
وفى صحيح مسلم « ولكن انظر إلى الأفق » ولم يذكره المصنف ؛ فلعله سقط من الأصل
الذى نقل الحديث منه . والله أعلم .

قوله ﴿ ققيل لى : هذا موسى وقومه ﴾ أى موسى بن عمران كليم الرحمن ، وقومه :
أتباعه على دينه من بنى إسرائيل ^(١) .

قوله ﴿ فنظرت فإذا سواد عظيم ، ققيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون
= ولقد أرسلنا من قبلك فى شيخ الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون)
وفيه دليل على أن الناجى من الأمم هم القليل ، والأكثر غلبت عليهم الطباع البشرية فصوا
الرسل فهلكوا ، كما قال تعالى (١١٦ : ٦) وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله)
وقال : (١٠١ : ٧) وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاستقين) . وقال :
(٤٢ : ٣٠) قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين)
وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير ، والناجون - وإن كانوا أقل القليل - فهم السواد الأعظم ،
فإنهم الأعظمون قدراً عند الله . وإن قلوا . فليحذر المسلم أن يضتر بالكثرة . وقد اغتر بهم
كثيرون ، حتى بعض من يدعى العلم . اعتقدوا فى دينهم ما يعتقد الجاهل الضلال ، ولم يلتفتوا
إلى ما قاله الله ورسوله .

(١) فى قررة العيون : فيه فضيلة أتباع موسى من بنى إسرائيل ممن آمن منهم بالرسول .
والكتب التى أنزلها الله : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وغيرها . وكانت بنو إسرائيل
قبل التفرق كثيرين وفيهم الأنبياء ، ثم بعد ذلك حدث ما حدث من اليهود ، وهذا الحديث
يدل على أن التابعين لموسى عليه السلام كثيرون جداً ، وقد قال تعالى (٤٥ : ١٦) وفضلناهم
على العالمين) أى فى زمانهم . وذلك أن فى زمانهم وقبله ممن كفر بالله خلق لا يحصون ، ككذب
جالوت ومختصر ، وأمثالهم . فضل الله بنى إسرائيل بالإيمان فصاروا أفضل أهل زمانهم .
وحدث فيهم ما ذكر الله فى سورة البقرة وغيرها من معصيتهم لأنبيائهم ، واختلافهم فى دينهم ،
وقد ذكره الله تعالى محتجاً به على اليهود الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فتدبر ما ذكره
الله تعالى من أحوالهم بعد الاختلاف .

الجنة بغير حساب ولا عذاب . ثم نهض فدخل منزله . فخاض الناس في أولئك ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ، فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال : هم الذين لا يسترقون ،

الجنة بغير حساب ولا عذاب ﴿ أى لتحقيقهم التوحيد ، وفي رواية ابن فضيل « ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً » وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين « أنهم تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » وروى الإمام أحمد والبيهقي في حديث أبي هريرة « فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً » قال الحافظ : وسنده جيد (١) .

قوله ﴿ ثم نهض ﴾ أى قام . قوله ﴿ فخاض الناس في أولئك ﴾ « خاض » بالخاء والضاد المعجمتين . وفي هذا إباحة المناظرة والمباحثة في نصوص الشرع على وجه الاستفادة وبيان الحق ، وفيه عمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل . وفيه حرصهم على الخير . ذكره المصنف (٢) .

قوله ﴿ فقال : هم الذين لا يسترقون ﴾ هكذا ثبت في الصحيحين وهو كذلك في حديث ابن مسعود في مسند أحمد . وفي رواية لمسلم « ولا يرقون » قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(١) في قررة العيون : فيه : فضيلة هذه الأمة وأنهم أكثر الأمم تابعاً لنبيهم صلى الله عليه وسلم وقد كثروا في عهد الصحابة رضى الله عنهم ، وفي وقت الخلفاء الراشدين ومن بعدهم ، فملأوا القرى والأمصار والقفار ، وكثر فيهم العلم ، واجتمعت لهم الفنون في العلوم النافعة ، فما زالت هذه الأمة على السنة في القرون الثلاثة المفضلة ، وقد قلوا في آخر الزمان . قال شيخنا رحمه الله تعالى في مسائله : وفيه فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية ، فالكمية : الكثرة والعدد ، والكيفية : فضيلتهم في صفاتهم .

(٢) في قررة العيون : وفيه أيضاً : فضل الصحابة رضى الله عنهم في مذاكرتهم العلم وحرصهم على فهم ما حدثهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم حرصاً على العمل به ، وفيه جواز الاجتهاد فيما لم يكن فيه دليل ، لأنهم قالوا ما قالوا باجتهادهم ، ولم ينكر صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ، لكن المجتهد إذا لم يكن معه دليل لا يجوز له أن يجزم بصواب نفسه ، بل يقول : لعل الحكم كذا وكذا كقول الصحابة رضى الله عنهم في هذا الحديث .

ولا يكتون،

هذه الزيادة وهم من الراوى ، لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم « ولا يرقون » وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الرُّقِ « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه ^(١) » وقال : « لا بأس بالرقى ما لم تسكن شركا » ^(٢) قال : وأيضاً فقد رقى جبريلُ النبي صلى الله عليه وسلم ورقى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ^(٣) قال : والفرق بين الراقى والمسترقى : أن المسترقى سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه ، والراقى محسن . قال : وإنما المراد وصف السبعين ألقاً بتمام التوكل ، فلا يسألون غيرهم أن يرقهم ولا يكويهم . وكذا قال ابن القيم ^(٤) .
قوله ﴿ ولا يكتون ﴾ أى لا يسألون غيرهم أن يكويهم ، كما لا يسألون غيرهم أن يرقهم استسلاماً للقضاء ، وتلذذاً بالبلاء .

قلت : والظاهر أن قوله « لا يكتون » أعم من أن يسألوا ذلك أو يفعل ذلك باختيارهم . أما السكى في نفسه فجاز ، كما في الصحيح عن جابر بن عبد الله « أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى أبي بن كعب طبيباً ، فقطع له عرقاً وكواه » .
وفي صحيح البخارى عن أنس « أنه كوى من ذات الجنب ^(٥) » والنبي صلى الله عليه

(١) رواه مسلم والإمام أحمد وابن ماجه عن جابر رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم وأبو داود عن عوف بن مالك .

(٣) رقى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم من السحر ، كما في البخارى من حديث عائشة . وقد ثبت في البخارى وغيره رقى كثيرة من قول النبي صلى الله عليه وسلم ، عن عائشة وأنس وابن مسعود وغيرهم .

(٤) في قرّة العيون : فتركوا الشرك رأساً ، ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها ، وتركوا السكى وإن كان يراد للشفاء ، والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله ، وتفويضهم أمورهم إليه ، وأن لا تتعلق قلوبهم بشئ سواه في ضمن مادبره وقضاه . فلا يرغبون إلا إلى ربهم ، ولا يرهبون إلا منه ، ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم ، فلا يفزعون إلا إليه وحده في كشف ضرهم . قال تعالى عن يعقوب عليه السلام (١٢ : ٨٦) إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله .

(٥) قال في النهاية : « ذات الجنب » الدم الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب وينفجر

إلى داخل . وقلما يسلم صاحبها هـ . ولعلها : السل . والله أعلم .

ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون .

وسلم حى « وروى الترمذى وغيره عن أنس « أن النبي صلى الله عليه وسلم كوى أسعد بن زُرارة من الشوكة »^(١) .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس مرفوعاً « الشفاء فى ثلاث : شربة عسل ، وشربة عَصِيْب ، وكية نار ، وأنا أنهى أمتى عن السكى » وفى لفظ « وما أحب أن أكتوى » .
قال ابن القيم رحمه الله : قد تضمنت أحاديث السكى أربعة أنواع ، أحدها : فعله ، والثانى : عدم محبته ، والثالث : الثناء على من تركه ، والرابع : النهى عنه . ولا تعارض بينها بحمد الله ، فإن فعله له يدل على جوازه ، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه . وأما الثناء على تاركة فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهى عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة .

قوله ﴿ ولا يتطيرون ﴾ أى لا يتشاءمون بالطيور ونحوها . وسيأتى إن شاء الله تعالى بيان الطيرة وما يتعلق بها فى بابها .

قوله ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ذكر الأصل الجامع الذى تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال ، وهو التوكل على الله ، وصدق الالتجاء إليه ، والاعتماد بالقلب عليه ؛ الذى هو نهاية تحقيق التوحيد الذى يثمر كل مقام شريف : من المحبة والرجاء والخوف ، والرضا به رباً وإلهاً ، والرضا بقضائه .

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً ؛ فإن مباشرة الأسباب فى الجملة أمر فطرى ضرورى ، لا انفكك لأحد عنه ؛ بل نفس التوكل : مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى (٦٥ : ٣) ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه . وإنما المراد أنهم يتوكلون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها ؛ توكلوا على الله تعالى ، كالاكتواء والاسترقاء ، فتزكهم له لكونه سبباً مكروهاً ، لا سبباً والمرىض يتشبث - فيما يظنه سبباً لشفائه - بخيط العنكبوت .

وأما مباشرة الأسباب والتداوى على وجه لا كراهة فيه ؛ فغير قاذح فى التوكل ، فلا

(١) قال فى النهاية : « الشوكة » : حمرة تملو الوجه والجسد .

قيام عكاشة بن محصن .

يكون تركه مشروعاً ، لما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله » وعن أسامة بن شريك قال : « كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت الأعراب ، فقالوا : يارسول الله ، أنتداوى ؟ قال : نعم ، يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، غير داء واحد . قالوا : وما هو ؟ قال : الهرم » رواه أحمد .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، وإبطال قول من أنكرها ، والأمر بالتداوى ، وأنه لا ينافى التوكل ، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش ، والحرق والبرد : بأضدادها ، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضية لسبباتها قدرأ وشرعاً ، وأن تعطيلها يقدر في نفس التوكل ، كما يقدر في الأمر والحكمة . ويضمه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل ، فإن تركها يعجز ينافى التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه . ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلا للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عاجزه توكلًا ولا توكله عاجزاً .

وقد اختلف العلماء في التداوى : هل هو مباح ، وتركه أفضل ، أو مستحب أو واجب ؟ فالشهور عن أحمد : الأول ، لهذا الحديث وما في معناه ، والمشهور عند الشافعية : الثاني ، حتى ذكر النووي في شرح مسلم : أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف ، واختاره الوزير أبو المظفر ، قال : ومذهب أبي حنيفة : أنه مؤكد حتى يداني به الوجوب . قال : ومذهب مالك : أنه يستوى فعله وتركه ، فإنه قال : لا بأس بالتداوى ، ولا بأس بتركه . وقال شيخ الإسلام : ليس بواجب عند جماهير الأئمة ، وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد .

قوله ﴿ قيام عكاشة بن محصن ﴾ هو بضم العين وتشديد الكاف و « محصن » بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن حُرثان - بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثناة -

فقال : ادعُ الله أن يجعلني منهم . قال : أنت منهم ، ثم قام رجلٌ آخرُ فقال :
ادعُ الله أن يجعلني منهم . فقال : سبقك بها عكاشة »
فيه مسائل :

الأولى : معرفة مراتب الناس في التوحيد .

الثانية : مامعنى تحقيقه .

الثالثة : ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكُ من المشركين .

الأسدي ، من بني أسد بن خزيمة . كان من السابقين إلى الإسلام ومن أجل الرجال .
هاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها ، واستشهد في قتال الردّة مع خالد بن الوليد بيد طليحة الأسدي
سنة اثنتي عشرة ، ثم أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد الفرس يوم القادسية مع سعد بن
أبي وقاص . واستشهد في وقعة الجسر المشهورة .

قوله ﴿ فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : أنت منهم ﴾ وللبخاري
في رواية : « فقال : اللهم اجعله منهم » وفيه : طلب الدعاء من الفاضل ^(١) .

قوله ﴿ ثم قام رجل آخر ﴾ ذكره مبهمًا ، ولا حاجة بنا إلى البحث عن اسمه ^(٢) .

قوله ﴿ فقال : سبقك بها عكاشة ﴾ قال القرطبي : لم يكن عند الثاني من الأحوال
ما كان عند عكاشة ، فلذلك لم يجبه ، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضرًا
فيتسلسل الأمر ، فسدّ الباب بقوله ذلك . اه

(١) في قرّة العيون : فيه أن شفاعة الحي لمن سأله الدعاء إنما كانت بدعائه ، وبعد الموت
قد تعذر ذلك بأمر لا تخفى على من له بصيرة ، فمن سأل ميتًا أو غائبًا فقد سأله ما لا يقدر
عليه إلا الله ، وكل من سأل أحداً ما لا يقدر عليه إلا الله فقد جعله ندأً لله كما كان المشركون
كذلك وقال تعالى (٢ : ٢٢) فلا تجهلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) إنه ربكم وخالقكم ومن
قبلكم ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، فلا ترغبوا عنه إلى غيره ، بل أخلصوا له العبادة
بجميع أنواعها فيما تطلبونه من قليل أو كثير .

وقوله « أنت منهم » لما كان يعلمه صلى الله عليه وسلم من إيمانه وفضله وجهاده كما في
الحديث « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » .

(٢) في قرّة العيون : والظاهر أنه أراد صلوات الله وسلامه عليه سدّ الدريرة للتلا يتتابع

الناس بسؤال ذلك ، فيسأله من ليس أهلاه ، وذلك منه صلى الله عليه وسلم تعريض كالأخفى .

- الرابعة : ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك .
- الخامسة : كون ترك الرثية والكي من تحقيق التوحيد .
- السادسة : كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل .
- السابعة : عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل .
- الثامنة : حرصهم على الخير .
- التاسعة : فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية .
- العاشر : فضيلة أصحاب موسى .
- الحادية عشرة : عرض الأمم عليه عليه الصلاة والسلام .
- الثانية عشرة : أن كل أمة تُحْشَرُ وحدها مع نبيها .
- الثالثة عشرة : قلة من استجابَ للأنبياء .
- الرابعة عشرة : أن من لم يجبه أحدٌ يأتي وحده .
- الخامسة عشرة : ثمره هذا العلم ، وهو عدمُ الاعتزاز بالكثرة ، وعدم الزهد في القلة .
- السادسة عشرة : الرخصة في الرثية من العين والحمة .
- السابعة عشرة : عمق علم السلف لقوله « قد أحسن من انتهى إلى ماسم .
- ولكن كذا وكذا » فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني .
- الثامنة عشرة : بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه .
- التاسعة عشرة : « قوله أنت منهم » علم من أعلام النبوة .
- العشرون : فضيلة عكاشة .
- الحادية والعشرون : استعمال المعارض .
- الثانية والعشرون : حسن خلقه صلى الله عليه وسلم .

باب الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل : (٤ : ٤٨ و ١١٦ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) .

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ وفيه استعمال المعارض وحسن خلقه صلى الله عليه وسلم ﴾

قوله ﴿ باب الخوف من الشرك ﴾

وقول الله تعالى (٤ : ٤٨ و ١١٦ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

قال ابن كثير : أخبر تعالى أنه (لا يغفر أن يشرك به) أى لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك

(ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) أى : من الذنوب لمن يشاء من عباده . انتهى .

فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب

منه ، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به ، وإن شاء عذبه به ،

وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذى هذا شأنه عند الله ؛ لأنه أقبح القبيح

وأظلم الظلم ، وتنقصُ رب العالمين ، وصرف خالص حقه لغيره ، وعدلٌ غيره به ، كما قال تعالى

(١ : ٦) ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر ، مناف له من

كل وجه ، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين ، والاستكبار عن طاعته ، والنيل له ، والانتقادي

لأوامره الذى لاصلاح للعالم إلا بذلك ، فنتى خلا منه خرب وقامت القيامة ، كما قال صلى الله

عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : الله الله » رواه مسلم . ولأن الشرك تشبيه

للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس فى خصائص الإلهية : من ملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ،

الذى يوجب تعلق الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده ، فمن علق

ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة

ولا نشوراً شبيهاً بمن له الحمد كله ، وله الخلق كله ، وله الملك كله ، وإليه يرجع الأمر كله ،

ويده الخير كله ، فأزمت الأمور كلها بيده سبحانه ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم

يكن . لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، الذى إذا فتح للناس رحمة فلا يسك لها ، وما يسك

فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات :

بالتقدير الغنى بالذات . ومن خصائص الإلهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذى

وقال الخليل عليه السلام : (١٤ : ٣٥ واجتنبني وبتني أن نعبد الأصنام) .

لانقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال ، والخشية والدعاء ، والرجاء والإنابة ، والتوكل والتوبة والاستعانة ، وغاية الحب مع غاية الذل : كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده ، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن فعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ، ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله . فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة . هذا معنى كلام ابن القيم رحمه الله .
وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب . وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يخلدون في النار ، وليسوا عندم بمؤمنين ولا كفار .

ولا يجوز أن يحمل قوله (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) على التائب ، فإن التائب من الشرك مغفور له كما قال تعالى (٣٩ : ٥٣ قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) فهنا عمم وأطلق ؛ لأن المراد به التائب ، وهناك خص وعلق ؛ لأن المراد به من لم يتب . هذا ملخص قول شيخ الإسلام ^(١) .
قوله ﴿ وقال الخليل عليه السلام (١٤ : ٣٥ واجتنبني وبتني أن نعبد الأصنام) ﴾ الضم :

(١) في قرّة العيون : قال النووي رحمه الله تعالى : أما دخول الشرك النار فهو على عمومته فيدخلها ويخلد فيها ، ولا فرق بين الكتابي اليهودي والنصراني ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره ، ولا بين من خالف ملة الاسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجمده وغير ذلك . وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به ، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مصرأ عليها ومات على ذلك ، فهو تحت المشيئة فإن عفى عنه دخل الجنة أولاً ، وإلا عذب في النار ، ثم أخرج منها وأدخل الجنة . اهـ
قلت : هذا قول أهل السنة والجماعة ، لا اختلاف بينهم في ذلك . وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك ، لأن الله تعالى قطع المغفرة عن الشرك وأوجب له الخلود في النار وأطلق ولم يقيد ، ثم قال (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فخص وقيد فيما دون الشرك ، فهذا الذنب الذي هذا شأنه لا يأمن أن يقع فيه فلا يرجى له معه نجاة ، إن لم يتب منه قبل الوفاة .

ما كان منحوتاً على صورة ، والوثن : ما كان موضوعاً على غير ذلك . ذكره الطبري عن مجاهد .
قلت : وقد يسمى الصنم وثناً كما قال الخليل (١) عليه السلام (٢٩ : ١٧) إنما تعبدون
من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً - الآية) ويقال : إن الوثن أعم ، وهو قوى ، فالأصنام
أوثان ، كما أن القبور أوثان .

قوله ﴿ واجنبي وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ أى : اجعلنى وبنى في جانب عن عبادة
الأصنام ، وواعد بيننا وبينها . وقد استجاب الله تعالى دعاءه ، وجعل بنيه أنبياء وجنّبهم
عبادة الأصنام وقد بين ما يوجب الخوف من ذلك بقوله (رب إهن أضللان كثيراً من الناس)
فإنه هو الواقع في كل زمان فإذا عرف الإنسان أن كثيراً وقعوا في الشرك الأكبر وضلوا بعبادة
الأصنام : أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير من الشرك الذي لا يغفره الله .
قال إبراهيم التيمي : ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم ؟ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .
فلا يأمن الوقوع في الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه : من العلم بالله وبما
بعث به رسوله من توحيده ، والنهي عن الشرك به (٢) .

(١) الحلة : أخص من المحبة ، ولذلك اختص الله بها الخليلان : إبراهيم ومحمداً عليهما من
الله أفضل الصلاة والسلام . ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت
أبا بكر ، ولكن الله اتخذني خليلاً » رواه البخاري .

(٢) في قرّة العيون : فإذا كان الخليل إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة وحده ، وابتلاه
بكلمات فأعمن ، وقال (وإبراهيم الذي وفي) وأمر بذبح ولده فامتثل أمر ربه ، وكسر الأصنام
واشتد نكيره على أهل الشرك ، ومع ذلك يخاف أن يقع في الشرك الذي هو عبادة الأصنام ،
لعله أنه لا يصرفه عنه إلا الله بهدأته وتوفيقه ، لا بحوله هو وقوته .

فهذا أمر لا يؤمن الوقوع فيه ؛ وقد وقع فيه الأذكاء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة
فاتخذت الأصنام وعبدت ، فالذي خافه الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر الأمة
بعد القرون المفضلة ، فبنيت للساجد والشاهد على القبور ، وصرفت لها العبادات بأنواعها ،
واتخذ ذلك ديناً ، وهى أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح واللات والعزى ومناة وأصنام العرب
وغيرهم . فما أشبه ما وقع في آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركي =

وفي الحديث «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» ، فسئل عنه ؟ فقال : الرياء»

قال المصنف (وفي الحديث «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فسئل عنه ؟ فقال : الرياء») أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معزواً . وقد رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي ، وهذا لفظ أحمد : حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن عمرو عن محمود بن لبيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة ، إذا جازى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ » .

قال المنذرى : ومحمود بن لبيد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يصح له منه سماع فيما أرى . وذكر ابن أبي حاتم : أن البخارى قال : له صحبة ، ورجحه ابن عبد البر والحافظ .

= العرب وغيرهم ، بل وقع ما هو أعظم من الشرك في الربوبية مما يطول عدّه (٩) فذكر عليه السلام السبب الذى أوجب له الخوف عليه وعلى ذريته بقوله (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) وقد ضلت الأمم بعبادة الأصنام فى زمن الخليل وقبله وبعده . فمن تدبر القرآن عرف أحوال الخلق ، وما وقعوا فيه من الشرك العظيم الذى بعث الله أنبياءه ورسله بالنهى عنه والوعيد على فعله ، والثواب على تركه . وقد هلك من هلك بإعراضه عن القرآن ، وجهله بما أمر الله به ونهى عنه . نسأل الله الثبات على الإسلام والاستقامة على ذلك لئلى أن نلقى الله على التوحيد ، إنه ولى ذلك والقادر عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقال تعالى عن عيسى (٥: ١١٨) إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) رد أمرهم إلى الله كما رده محمد عليه السلام ، وقد بين الله تعالى فيما أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم حكمه فى أهل الشرك بأنه لا يغفره لهم فلا معارضة ، وقد بين حكمه فيهم فى هذا الكتاب العزيز الذى (٤١ : ٤٢) لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

(*) فإن أكثر الناس يعتقدون أن الأقطاب الأربعة وعلى رأسهم القطب العوث يتصرفون فى الكون بالإحياء والإماتة والرزق والضر والنفع ، وأن مجلس أوليائهم تعرض عليه شئون العالم . اقرأ كتب الشعرائى . و « الإبريز » للديباغ ، وكتب التيجانية وغيرها من كتب أولئك الضالين المصلين ، نجد الشرك الذى ما كان يخطر على بال أبى جهل وإخوانه ، لأنهم لم يكونوا بوقاحة هؤلاء وفجورهم .

وقد رواه الطبراني بأسانيد جيدة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج . مات محمود سنة ست وتسعين . وقيل : سنة سبع وتسعين ، وله تسع وتسعون سنة .

قوله ﴿ إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ﴾ هذا من شفقتة صلى الله عليه وسلم بأتمته ورحمته ورأفته بهم ، فلا خير إلا دلمهم عليه وأمرهم به ، ولا شر إلا بينه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه ، كما قال صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه « ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم - الحديث » فإذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كمال علمهم وقوة إيمانهم ، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب ؟ خصوصاً إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون ، وما عرفوا معنى الإلهية التي نفتها كلمة الإخلاص عن كل ماسوى الله^(١) .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عن حذيفة بن اليمان عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الشرك أخفى من ديب النمل . قال أبو بكر : يارسول الله ، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله ، أو مادعى مع الله ؟ قال : ثمكلك أمك ، الشرك فيكم أخفى من ديب النمل » الحديث . وفيه « أن تقول : أعطاني الله وفلان ، والند أن يقول الإنسان : لولا فلان

(١) في قرة العيون : فإذا كان يخافه صلى الله عليه وسلم على أصحابه الذين وحدوا الله بالعبادة ورجعوا إليه وإلى ما أمرهم به من طاعته فهاجروا وجاهدوا من كفر به ، وعرفوا مادعاهم إليه نبهم ، وما أنزله الله في كتابه من الإخلاص والبراءة من الشرك ، فكيف لا يخاف من لانسبة له إليهم في علم ولا عمل مما هو أكبر من ذلك ؟ وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن أمته بوقوع الشرك الأكبر فيهم بقوله في حديث ثوبان الآتي ذكره « حتى يلحق قبائل من أمتى بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان » وقد جرى ما أخبر به صلى الله عليه وسلم وعمت به البلوى في أكثر الأقطار حتى اتخذوه ديناً ، مع ظهور الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة في النهي عنه والتخويف منه كما قال تعالى (٥ : ٧٢) إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) وقال (٢٢ : ٣٠ ، ٣١) فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حفاء لله غير مشركين به) وهذا هو تحقيق التوحيد كما تقدم في الباب قبله . ثم قال تعالى محذراً عباده من الشرك (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) ومن لم تخوفه هذه الآيات وتزجره عن الشرك في العبادة إذا تدرها فلا حيلة فيه .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ مات وهو يدعو من دون الله نداءً دخل النار » رواه البخارى .

قتلى فلان « اه من الدر .

قال المصنف : ﴿ وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من مات وهو يدعو من دون الله نداءً دخل النار » رواه البخارى ^(١) .

قال ابن القيم رحمه الله : الند : الشبيه ، يقال : فلان ند فلان ، ونديده ، أى مثله وشبيهه اه قال تعالى (٢ : ٢٢) فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون .

قوله ﴿ من مات وهو يدعو من دون الله نداءً ﴾ أى يجعل لله نداءً فى العبادة ، يدعو ويسأله ويستغيث به دخل النار . قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

والشرك فأحذره ، فشرک ظاهر ذا القسم ليس بقابل الفجران وهو اتخاذ الند للرحمن أيتاً كان ، من حجر ومن إنسان يدعو ، أو يرجوه ، ثم يخافه ويحببه كحبة الديان واعلم أن اتخاذ الند على قسمين :

الأول : أن يجعله لله شريكاً فى أنواع العبادة أو بعضها كما تقدم ، وهو شرك أكبر . والثانى : ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل : ماشاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت . وكيسير الرياء ؛ فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال له رجل « ماشاء الله وشئت ، قال : أجعلتنى لله نداءً ؟ بل ماشاء الله وحده » رواه أحمد وابن أبى شيبة والبخارى فى الأدب المفرد والنسائى وابن ماجه . وقد تقدم حكمه فى باب فضل التوحيد .

(١) فى قرّة العيون : وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضاً والتخويف منه - والند : المثل والشبيه ، فمن دعا ميتاً أو غائباً وأقبل عليه بوجهه وقلبه رغبة إليه ورهبة منه ، سواء سأله أو لم يسأله ، فهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله ، ولهذا حرم الله تعالى اتخاذ الشفعاء وأنكره على من فعل ذلك أشد الإنكار ، لكونه يناقى الإخلاص الذى هو إقبال القلب والوجه على الله فى كل ما يخافه العبد ويرجوه ويتقرب به ويدين به . ومن العلوم أنه إذا التفت للشفيع يسأله فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى ، وذلك يناقى الإخلاص . ويأتى بيان ذلك فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

ومسلم عن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار »

وفيه : بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلى ، كطلب الشفاعة من الأموات ، فإنها ملك لله تعالى ويده ، ليس بيد غيره منها شيء ، وهو الذى يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر . كما أتى تقريره فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ ومسلم عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار ﴾ .

« جابر » : هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام - بمهملتين - الأنصارى ثم السلمى - بفتحيتين - صحابى جليل هو وأبوه . ولأبيه مناقب مشهورة رضى الله عنهما ^(١) مات بالمدينة بعد السبعين ، وقد كف بصره ، وله أربع وتسعون .

قوله ﴿ من لقي الله لا يشرك به شيئاً ﴾ قال القرطبى : أى لم يتخذ معه شريكاً فى الإلهية ، ولا فى الخلق ، ولا فى العبادة . ومن المعلوم من الشرع الجمع عليه عند أهل السنة : أن من مات على ذلك فلا بد له من دخول الجنة ، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والحنة ، وأن من مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة ، ويخلد فى النار أبد الأبد ، من غير انقطاع عذاب ، ولا تصرُّم آماد .

وقال النووى : أما دخول المشرك النار فهو على عمومه ، فيدخلها ويخلد فيها ، ولا فرق فيه بين السكتابى اليهودى والنصرانى ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره ، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم

(١) كان عبد الله والله جابر من الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة وجعله النبي صلى الله عليه وسلم تقيب بنى سلمة ، ثم حضر بدرآ . وقتل يوم أحد ، فأخذ يكي عليه ولده جابر وأخته فاطمة بنت عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبكيه أو لا تبكيه ، لازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفتموه » .

فيه مسائل :

الأولى : الخوفُ من الشرك .

الثانية : أن الرياء من الشرك .

الثالثة : أنه من الشرك الأصغر .

الرابعة : أنه أخوفُ ما يُخاف منه على الصالحين .

الخامسة : قرب الجنة والنار .

السادسة : الجمع بين قربهما في حديث واحد .

السابعة : أنه مَنْ لقيه لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة . ومن لقيه يُشرك به

شيئاً دخل النار ، ولو كان من أعبد الناس .

الثامنة : المسألة العظيمة : سؤالُ الخليل له ولبنيه وقايةَ عبادةِ الأصنام .

حكم بكفره بمجرد غير ذلك^(١) . وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به . لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولاً ، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة . فإن عفا الله عنه دخل الجنة أولاً ، وإلا عُذِّب في النار ثم أخرج من النار وأدخل الجنة .

وقال غيره : اقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالاعتضاء ، واستدعائه لإثبات الرسالة باللزوم ؛ إذ من كذَّب رسل الله فقد كذَّب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك ، وهو كقولك : من توضأ صحت صلواته ، أى مع سائر الشروط . فالمراد : من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به : إجمالاً في الإجمالى ، وتفصيلاً في التفصيلى^(٢) . انتهى .

(١) يعنى أنهم مستوون في الخلود في النار ، ولكنهم متفاوتون في دركاتهما . ولا يظلم ربك أحداً متقال ذرة .

(٢) يعنى : خالطت حلاوة هذا الإيمان بشاشة قلبه فأتمرت الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة . وإلا فكم من مدع لهذا الإيمان الإجمالى والتفصيلى وهو عرى عنه إجمالاً وتفصيلاً .

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله (رَبِّ إِنْهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ)
العاشرة: فيه تفسير « لا إله إلا الله » ، كما ذكره البخارى .
الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك .

باب

﴿ الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ﴾

وقول الله تعالى: (١٢: ١٠٨ قل: هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا
ومن اتبعنى . وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

قوله: ﴿ باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ﴾

لما ذكر المصنف رحمه الله التوحيد وفضله ، وما يوجب الخوف من ضده . نَبَّهَ بهذه
الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه ، بل يجب عليه أن يدعو
إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم . كما قال الحسن
البربرى لما تلا قوله تعالى (٤١: ٣٣) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ :
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) فقال « هذا حبيب الله ، هذا وليُّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ،
هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه
من دعوته ، وعمل صالحًا في إجابته ، وقال : إننى من المسلمين . هذا خليفة الله (١) » .
قال رحمه الله : وقوله (١٢ : ١٠٨ قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا
ومن اتبعنى . وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

قال أبو جعفر بن جرير : يقول تعالى ذكره لنبى محمد صلى الله عليه وسلم (قل) يا محمد
(هذه) الدعوة التى أدعو إليها ، والطريقة التى أنا عليها ، من الدعاء إلى توحيد الله ، وإخلاص

(١) ذكره العماد ابن كثير فى تفسير الآية (٣٣) من سورة فصلت عن عبد الرزاق عن
معمر عن الحسن البربرى رحمه الله . ويعنى الحسن بذلك : أن الصدق فى حب الله وعبادته
وطاعته يستلزم - ولا بد - الدعوة إلى ذلك والجهاد فيه ، لأن من أحب الله أحب كل ما أحبه الله
وكل من أحب الله ، وكره كل ما كرهه ومن كره . وأحب أن يكون الناس كلهم معه فى حب الله .

عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث

العبادة له دون الآلهة والأوثان. والالتفاء إلى طاعته وترك معصيته (سبيل) وطريقتي، ودعوتي (أدعو إلى الله) تعالى وحده لا شريك له (على بصيرة) بذلك ويقين علم منى به (أنا و) يدعو إليه على بصيرة أيضاً (من اتبعني) وسدقني وآمن بي (وسبحان الله) يقول له تعالى ذكره: وقل: تنزيهاً لله تعالى وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه (وما أنا من المشركين) يقول: وأنا بريء من أهل الشرك به. لست منهم ولا هم منى. انتهى.

قال في شرح المنازل: يريد أن تصل باستدلالاتك إلى أعلى درجات العلم وهي البصيرة التي تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة؛ وهي أعلى درجات العلماء. قال تعالى (قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) أى أنا وأتباعي على بصيرة. وقيل (من اتبعني) عطف على المرفوع في (أدعو) أى أنا أدعو إلى الله على بصيرة، ومن اتبعني كذلك يدعو إلى الله تعالى على بصيرة، وعلى القولين: فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى.

قال المصنف رحمه الله ﷺ فيه مسائل: منها التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه. ومنها: أن البصيرة من الفرائض. ومنها: أن من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيهه لله تعالى عن المسبة. ومنها: أن من قُبِح الشرك كونه مسبة لله تعالى. ومنها: إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك ﷻ. هـ.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى (١٦: ١٢٥) أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة - الآية) ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو؛ فإنه إما أن يكون طالباً للحق محباً له. مؤثراً له غيره إذا عرفه. فهذا يُدعى بالحكمة. ولا يحتاج إلى موعظة وجدال. وإما أن يكون مشتغلاً بضد الحق. لكن لو عرفه آثره واتبعه. فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب. وإما أن يكون معانداً معارضاً، فهذا يُجادل بالتي هي أحسن. فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجدال إن أمكن. انتهى.

قال: ﷺ وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث

معاذاً إلى اليمين قال له : إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب . فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله :

معاذاً إلى اليمين قال له : إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب . فليكن أول ما تدعوهم إليه : شهادة أن لا إله إلا الله - وفي رواية : إلى أن يوحدوا الله - فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة . فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم . فإن هم أطاعوك لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم . واتق دعوة المظلوم . فإنه ليس بينها وبين الله حجاب « أخرجاه » .

قال الحافظ : كان بعث معاذٍ إلى اليمين سنة عشر ، قبل حج النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكره المصنف - يعنى البخارى في أواخر المغازى - وقيل : كان ذلك في آخر سنة تسع عند مُنصرَفه صلى الله عليه وسلم من تبوك . رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك . وأخرجه ابن سعد في الطبقات عنه ، وانفقوا على أنه لم يزل على اليمين إلى أن قدم في خلافة أبي بكر رضى الله عنه ، ثم توجه إلى الشام فمات بها .

قال شيخ الإسلام : ومن فضائل معاذ رضى الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمين مُبَلِّغاً عنه . ومُفَقِّهاً ومعلماً وحاكماً .

قوله ﴿ إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ﴾ قال القرطبي : يعنى به اليهود والنصارى ؛ لأنهم كانوا في اليمين أكثر من مشركى العرب أو أغلب ، وإنما نبهه على هذا ليتبيناً لمناظرتهم . وقال الحافظ : هو كالتوطئة للوصية ليجمع همهته عليها .

قوله ﴿ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ﴾ ^(١) « شهادة » رفع على أنه اسم « يكن » مؤخر . و « أول » خبرها مقدم . ويجوز العكس .

(١) في قرّة العيون : وكانوا يقولونها لكنهم جهلوا معناها الذى دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ماسواه ، فكان قولهم « لا إله إلا الله » لا ينفهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة كحال أكثر التأخرين من هذه الأمة ، فإنهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والشاهد ؛ فيأتون بما ينافيها فيثبتون ما نفتته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم ، وينفون ما أثبتته من الإخلاص كذلك ، وظنوا أن معناها القدرة على الاختراع تقليداً للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم ، وهذا هو توحيد =

— وفي رواية : إلى أن يُوحِّدُوا اللهَ —

قوله ﴿ وفي رواية : إلى أن يوحِّدوا الله ﴾ هذه الرواية ثابتة في كتاب التوحيد من صحيح البخارى . وأشار المصنف بذكر هذه الرواية إلى التنبيه على معنى « شهادة أن لا إله إلا الله » فإن معناها توحيد الله بالعبادة ونفى عبادة ما سواه . وفي رواية « فليكن أول ما تدعوم إليه عبادة الله » وذلك هو الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله ، كما قال تعالى (٢٥٦: ٢) فن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) والعروة الوثقى هي « لا إله إلا الله » وفي رواية للبخارى فقال : « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » قلت : لا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط ، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها ، أحدها : العلم المنافي للجهل . الثانى : اليقين المنافي للشك . الثالث : القبول المنافي للرد . الرابع : الاتقياد المنافي للترك . الخامس : الإخلاص المنافي للشرك . السادس : الصدق المنافي للكذب . السابع : المحبة المنافية لضدها .

== الربوبية الذى أقر به المشركون ؛ فلم يدخلهم فى الإسلام كما قال تعالى (٢٣ : ٨٤ - ٨٩ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ - إلى قوله - فأنى تسحرون) وقوله (١٠ : ٣١ قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ؟) وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير . وهذا التوحيد قد أقر به مشركو الأمم ، وأقر به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم فلم يدخلهم فى الإسلام ، لأنهم قد جحدوا ما دلت عليه هذه الكلمة من توحيد الإلهية ، وهو إخلاص العبادة ونفى الشرك والبراءة منه ، كما قال تعالى (٣ : ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) فهذا التوحيد هو أصل الإسلام . وقال تعالى (١٢ : ٤٠ إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقال (٣٠ : ٤٣ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) وقال تعالى (٤٠ : ١٢ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير) وقال تعالى (٣٩ : ٣ فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص) وأمثال هذه الآيات فى بيان التوحيد الذى دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فى القرآن كثير . وسنذكر بعض ذلك إن شاء الله فى هذا التعليق .

وفيه دليل على أن التوحيد - الذى هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة
ماسواه - هو أول واجب ولهذا كان أول مادعت إليه الرسل عليهم السلام (أن اعبدوا الله
مالكم من إله غيره) وقال نوح (أن لاتعبدوا إلا الله) وفيه معنى « لا إله إلا الله » مطابقة^(١)
قال شيخ الإسلام : وقد علم بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم واتفقت
عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً
رسول الله ، فبذلك بصير الكافر مسلماً ، والعدو ولياً ، والمباح دمه وماله : معصوم الدم
والمال . ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل فى الإيمان ، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو فى
ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان . قال : وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق
المسلمين باطناً وظاهراً ، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء . اهـ

(١) فى قررة العيون : وأما قول المتكلمين ومن تبعهم : إن أول واجب : معرفة الله بالنظر
والاستدلال ، فذلك أمر فطرى فطر الله عليه عباده ، ولهذا كان مفتتح دعوة الرسل أممهم إلى
توحيد العبادة (أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى لاتعبدوا إلا الله . قال تعالى (٢٥ : ٢١)
وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (وقال تعالى
(١٤ : ١٠) قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ؟)

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : هذا يحتمل شيئين « أحدهما » أفى وجوده شك ؟
فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة .
« والمعنى الثانى » أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات
فلا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له . فإن غالب الأمم كانت مقررة بالصانع ، ولكن
تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنون أنها تنفعهم أو تقرهم من الله زلنى اهـ .

قلت : وهذا الاحتمال الثانى يتضمن الأول .

وروى أبو جعفر بن جرير بسنده عن عكرمة ومجاهد وعامر أنهم قالوا : ليس أحد إلا
وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض فهذا إيمانهم . وعن عكرمة أيضاً : تسألهم من
خلق السموات والأرض ؟ فيقولون الله فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره .

وتقدم أن « لا إله إلا الله » قد قيدت بالكتاب والسنة بقيود تقال . منها : العلم واليقين
والإخلاص والصدق والمحبة والقبول والالتقياد ، والكفر بما يعبد من دون الله . فإذا اجتمعت
هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة ، وإن لم تجتمع هذه لم تنفعه ، والناس متفاوتون فى
العلم بها والعمل ، فمنهم من ينفعه قولها ، ومنهم من لا ينفعه كما لا يخفى .

فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم
وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من
أغنيائهم فترد على فقرائهم .

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ وفيه أن الإنسان قد يكون عالماً^(١) وهو لا يعرف معنى
« لا إله إلا الله » أو يعرفه ولا يعمل به ﴾ .
قلت : فما أكثر هؤلاء - لا أكثرهم الله تعالى .

قوله ﴿ فإن هم أطاعوك لذلك ﴾ أي شهدوا وانقادوا لذلك ﴿ فأعلمهم أن الله افترض
عليهم خمس صلوات ﴾ فيه : أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين : قال النووي مامعناه :
إنه يدل على أن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام ولا يلزم من ذلك أن
لا يكونوا مخاطبين بها ، ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة . والصحيح : أن الكفار
مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهى عنه . وهذا قول الأكثرين . اهـ

قوله ﴿ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم^(٢) ﴾
فيه : دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات ، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف
إلى الفقراء . وإنما خص النبي صلى الله عليه وسلم الفقراء لأن حقهم في الزكاة أكد من

(١) يعني عالماً بعلوم الدنيا ، أو عالماً حافظاً لمعلوم الدين ولكنها لا تمس قلبه ولا عقيدته
لأنه تعلمها للدنيا ، وليقال : عالم ، فهو محترف العلم ؛ وقد يكون بارعاً حاذقاً في هذه الحرفة
ولكنه لا ينتفع في نفسه بعلومه ، لأن علمه في ناحية ، وعقيدته ودينه مع تقليد العوام والجمهور
في ناحية أخرى . وهذا حال أكثر العلماء الراسخين اليوم . أصلحهم الله .

(٢) في قرعة الميون : فيه أن الزكاة لا تنفع إلا من وحد الله وصلى الصلوات بشروطها
وأركانها وواجباتها . والزكاة قرينة الصلوات في كتاب الله تعالى ، ويدل على هذه الجملة قوله
تعالى (٩٨ : ٥) وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا
الزكاة ، وذلك دين القيمة) فمن أتى بهذه الأمور أتى ببقية الأركان لقوة الداعى إلى ذلك ، لأن
ذلك يقتضى الإتيان بها لزوماً . قال تعالى (٩ : ٥) فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة
خفلوا سبلهم) قال أنس في الآية « توبتهم : خلع الأوثان وعبادتهم ربهم وإقام الصلاة وإيتاء
الزكاة » وعن ابن مسعود مرفوعاً « أمرت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن لم يترك فلا صلاة له »

فإنهم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ،
حق بقية الأصناف الثمانية .

وفيه : أن الإمام هو الذى يتولى قبض الزكاة و صرفها : إما بنفسه أو نائبه ، فمن امتنع
من أدائها إليه أخذت منه قهراً .
وفى الحديث : دليل على أنه يكفى إخراج الزكاة فى صنف واحد ، كما هو مذهب
مالك وأحمد .

وفيه : أنه لا يجوز دفعها إلى غنى ، ولا إلى كافر غير المؤلف ، وأن الزكاة واجبة فى
مال الصبي والمجنون ، كما هو قول الجمهور ، لعموم الحديث .
قلت : والفقير إذا أفرد فى اللفظ تناول المسكين وبالعكس ، كمنظاره . كما قرره
شيخ الإسلام .

قوله ﴿ وإياك وكرائم أموالهم ﴾ بنصب « كرائم » على التحذير ، جمع كريمة . قال
صاحب المطالع : هى الجامعة للسكال الممكن فى حقها : من غزارة لبن ، وجمال صورة ،
وكثرة لحم ووصوف . ذكره النووى . قلت : وهى خيار المال وأنفسه وأكثره ثمننا .
وفيه : أنه يحرم على العامل فى الزكاة أخذ كرائم المال ، ويحرم على صاحب المال
إخراج شرار المال ، بل يخرج الوسط . فإن طابت نفسه بالسكريمة جاز^(١)
قوله ﴿ واتق دعوة المظلوم ﴾^(٢) أى اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم ،
وهذان الأمران يقيان من رزقهما من جميع الشرور دنيا وأخرى .
وفيه : تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم .

(١) فى قرة العيون : تحذير له من أن يتجاوز ما شرعه الله ورسوله فى الزكاة ، وهو
أخذها من أوساط المال ، لأن ذلك سبب لإخراجها بطيب نفس ونية صحيحة . وكل ما زاد على
المشروع فلا خير فيه . وهذا أصل ينبغى التفطن له .
(٢) فى قرة العيون : يدل على أن العامل إذا زاد على المشروع صار ظالماً لمن أخذ ذلك منه ،
ودعوة المظلوم مقبولة ليس بينها وبين الله حجاب يمنع قبولها .
فعلى العامل أن يتحرى العدل فيما استعمل فيه ، فلا يظلم بأخذ زيادة على الحق ، ولا يجابى
بترك شيء منه ، فعليه أن يقصد العدل من الطرفين . والله أعلم .

فإنه ليس بينها وبين الله حجاب .

قوله : ﴿ فإنه ﴾ أى الشأن ﴿ ليس بينها وبين الله حجاب ﴾ هذه الجملة مفسرة لضمير الشأن . أى : فإنها لا تحجب عن الله فيقبلها .

وفى الحديث أيضاً : قبول خبر الواحد العدل ، ووجوب العمل به ، وبمث الإمام العمال لجباية الزكاة . وأنه يعظ عماله وولاته ، ويأمر بتقوى الله تعالى ، ويعلمهم ، وينهاهم عن الظلم ، ويعرفهم سوء عاقبته . والتنبيه على التعليم بالتدرج . قاله المصنف . قلت : ويبدأ بالأهم فالأهم .

واعلم أنه لم يذكر فى الحديث الصوم والحج ، فأشكل ذلك على كثير من العلماء . قال شيخ الإسلام : أجاب بعض الناس : أن بعض الرواة اختصر الحديث ، وليس كذلك . فإن هذا طعن فى الرواة ؛ لأن ذلك إنما يقع فى الحديث الواحد ، مثل حديث وفد عبد القيس^(١) ، حيث ذكر بعضهم الصيام ، وبعضهم لم يذكره ، فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمر فيهما كذلك . ولكن عن هذا جوابان :

أحدهما : أن ذلك بحسب نزول الفرائض ، وأول ما فرض الله الشهادتين ثم الصلاة . فإنه أمر بالصلاة فى أول أوقات الوحي ، ولهذا لم يذكر وجوب الحج ، كرامة الأحاديث ، إنما جاء فى الأحاديث المتأخرة .

الجواب الثانى : أنه كان يذكر فى كل مقام ما يناسبه . فيذكر تارة الفرائض التى يقاتل عليها : كالصلاة والزكاة . ويذكر تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة ، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم : فيما أن يكون قبل فرض الحج ، وإما أن يكون المحاطب بذلك

(١) روى البخارى ومسلم عن ابن عباس « أن عبد القيس وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : بمن القوم ؟ فقالوا : من ربيعة . قال : مرحبا بالوفد غير خزايا ولا نداهى . فقالوا : يا رسول الله ، إن بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، وإنا لا نصل إليك إلا فى شهر حرام ، فمرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة . فقال : آمرم بأربع ، وأنها كم عن أربع : آمرم بالإيمان بالله وحده . أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من النعم - الحديث » وكان وفد عبد القيس فى سنة تسع .

أخرجاه. ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

لاحج عليه . وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض ؛ ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما ؛ لأنهما عبادتان ظاهرتان ، بخلاف الصوم فإنه أمر باطن من جنس الوضوء والاعتسال من الجنابة ، ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد ، فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوي الصوم وأن يأكل سراً ، كما يمكنه أن يكتم حديثه وجنابته ، وهو صلى الله عليه وسلم يذاكر في الأعمال الظاهرة التي يقاتل الناس عليها ، ويصيرون مسلمين بفعلها . ولهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصوم ، وإن كان واجباً كما في آيتي براءة^(١) نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس . وكذلك لما بعث معاذاً إلى اليمن لم يذكر في حديثه الصوم ، لأنه تبع وهو باطن ، ولا ذكر الحج لأن وجوده خاص ليس بعام ، ولا يجب في العمر إلا مرة . انتهى بمعناه^(٢) .

قوله ﴿ أخرجاه ﴾ أي البخاري ومسلم ، وأخرجه أيضاً أحمد وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

قال ﴿ ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر « لا عطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه . فبات الناس يدوكون ليلتهم : أيهم يعطاها ، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم يرجون أن يعطاها ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه ؟ فأرسلوا إليه ، فأتى به ، فبصق في عينه ودعاه ، فبرأ كأن لم يكن به وجع ،

(١) ما قوله تعالى : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة نفلوا سيلهم إن الله غفور رحيم) الآية الخامسة . ومثلها الآية الحادية عشرة ، وخاتمتها : (فأخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون) .

(٢) ولعل الصواب ما أجاب به بعض العناء من اختصار الراوي للحديث . وليس في ذلك طعن في الرواة ، لأنهم كانوا يروون الحديث بحسب الظروف والناسبات . فقد تكون المناسبة مقتضية لبعض الحديث فيقتصر على هذا البعض . وذلك كثير جداً ، كما تراه في البخاري وغيره . والله أعلم .

قال يومَ خَيْرٍ «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غداً رجلاً يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللهُ ورسولُهُ

فأعطاه الراية ، وقال : انْفُذْ على رِسْلكِ حتى تنزلَ بساحتهم ، ثم ادعُهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يَهْدِيَ اللهُ بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النَّعَمِ » ﴿١﴾ « يَدُوكُونِ » أى : يخوضون .

قوله ﴿١﴾ عن سهل بن سعد ﴿٢﴾ أى ابن مالك بن خالد الأنصارى الخزرجى الساعدى ، أبى العباس صحابى شهير ، وأبو صحابى أيضاً . مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة .

قوله ﴿٣﴾ قال يوم خير ﴿٤﴾ وفى الصحيحين عن سَلَمَةَ بن الأَكْوَعِ قال « كان علي رضى الله عنه قد تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم فى خير ، وكان أرمداً ، فقال : أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فخرج على رضى الله عنه فلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كان مساء الليلة التى فتحتها الله عز وجل فى صباحها قال صلى الله عليه وسلم : لأعطين الراية - أو ليأخذن الراية - غداً رجل يحببه الله ورسوله - أو قال : يحب الله ورسوله - يفتح الله على يديه . فإذا نحن بعلى وما نرجوه ؟ فقالوا : هذا على ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية ففتح الله عليه »

قوله « لأعطين الراية » قال الحافظ : فى رواية بُرَيْدَةَ « إني دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله » وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما ، لكن روى أحمد والترمذى من حديث ابن عباس « كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء ، ولواؤه أبيض » ومثله عند الطبرانى عن بريدة . وعند ابن عدى عن أبى هريرة وزاد « مكتوب فيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

قوله ﴿٥﴾ يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ﴿٦﴾ فيه فضيلة عظيمة لعلى رضى الله عنه . قال شيخ الإسلام : ليس هذا الوصف مختصاً بعلى ولا بالأئمة ، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقى ، يحب الله ورسوله ، لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذين لا يتولونه ، أو يُكفرونه أو يُفَسِّقونه ، كالخوارج ، لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم ، فإن الخوارج تقول فى على مثل ذلك ، لكن هذا باطل ، فإن الله تعالى ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً .

يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ ، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ : أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا . فَلَمَّا أَصْبَحُوا
غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا .

وفيه : إثبات صفة المحبة ، خلافاً للجهمية ومن أخذ عنهم^(١)

قوله ﴿ يفتح الله على يديه ﴾ صريح في البشارة بمحصول الفتح ، فهو علم من أعلام النبوة .
قوله ﴿ فبات الناس يدوكون ليلتهم ﴾ بنصب « ليلتهم » . و « يدوكون » قال المصنف : يخوضون .
أى فيمن يدفعها إليه . وفيه حرص الصحابة على الخير واهتمامهم به ، وعلو مرتبتهم في العلم والإيمان .
قوله ﴿ أيهم ﴾ هو برفع « أى » على البناء لإضافتها وحذف صدر صلتها .

قوله ﴿ فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها ﴾
وفي رواية أبي هريرة عند مسلم أن عمر قال « ما أحبيت الإمارة إلا يومئذ »

قال شيخ الإسلام : إن في ذلك شهادة النبي صلى الله عليه وسلم لعلى بإيمانه باطناً
وظاهراً ، وإثباتاً لموالاته لله تعالى ورسوله ، ووجوب موالاته المؤمنين له . وإذا شهد النبي
صلى الله عليه وسلم لمعين بشهادة ، أو دعا له أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك
الشهادة ، ومثل ذلك الدعاء ، وإن كان النبي يشهد بذلك لخلق كثير ، ويدعو لخلق
كثير . وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس^(٢) وعبد الله بن سلام^(٣) ، وإن كان شهد
بالجنة لآخرين ، والشهادة بمحبة الله ورسوله للذي ضرب في الخمر^(٤) .

(١) في قرّة العيون : وفيه فضيلة أخرى لعلى رضي الله عنه بما خصه : من إعطاء الراية ،
ودعوته أهل خير إلى الإسلام ، وقنالم إذا لم يقبلوا . وفيه : مشروعية الدعوة إلى الإسلام .
(٢) قال له النبي صلى الله عليه وسلم « هو من أهل الجنة » في حديث طويل حين جلس
في بيته حزناً عند نزول (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . ولا تجهروا له بالقول كجهر
بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وكان ثابت رفيع الصوت ، فقال : أنا الذي
كنت أرفع صوتي — الحديث : رواه الإمام أحمد (ج ٣ ص ١٣٧) ورواه مسلم في كتاب
الإيمان حديث ١٨٧ .

(٣) عن سعد بن أبي وقاص قال « ماسمت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على
الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام » رواه البخارى في مناقب الأنصار ، ورواه
مسلم والترمذى وابن ماجه .

(٤) روى البخارى عن عمر قال « كان رجل يسمى عبد الله ويلقب حماراً ؛ وكان =

فقال : أين عليّ بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكى عينيه ، فأرسلوا إليه ، فأتى به . فبصق في عينيه ؛ ودعا له . فبرأ كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية فقال : انفذ عليّ رسلك

قوله ﴿ فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ ﴾ فيه سؤال الإمام عن رعيته ؛ وتفقد أحوالهم . قوله ﴿ فقيل هو يشتكى عينيه ﴾ أى من الرمد ، كما فى صحيح مسلم عن سعيد بن أبي وقاص فقال « ادعوا لى علياً فأتى به أرمداً » الحديث ، وفى نسخة صحيحة بخط المصنف « فقيل : هو يشتكى عينيه ، فأرسل إليه » مبنى للفاعل ، وهو ضمير مستتر فى الفعل راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون مبنياً لما لم يسم فاعله . ولمسلم من طريق إياس بن سلمة ابن الأكواع عن أبيه قال « فأرسلنى إلى عليّ ، فجنثت به أقوده أرمداً » . قوله ﴿ فبصق ﴾ بفتح الصاد ، أى تفل .

قوله ﴿ ودعا له فبرأ ﴾ هو بفتح الراء والهمزة ، أى عوفى فى الحال عافية كاملة كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر^(١) .

وعند الطبرانى من حديث عليّ « فأرمدت ولا صدعت منذ دفع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الراية » .
وفيه : دليل على الشهادتين .

قوله ﴿ فأعطاه الراية ﴾ قال المصنف : فيه الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع ، ومنعها عن سعى .

وفيه : أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافى التوكل .
قوله ﴿ فقال : انفذ على رسلك ﴾ بضم الفاء ، أى امض ، و « رسلك » بكسر الراء وسكون السين ، أى على رفقك من غير مجلبة ، و « ساحتهم » فناء أرضهم وهو ما حوّلها .
وفيه : الأدب عند القتال ، وترك المجلبة والطيش والأصوات التى لا حاجة إليها .

== يضحك رسول الله ، وكان يشرب الخمر فيؤتى به فيقيم عليه الحد ؛ فلغنه بعض الصحابة ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا تلغنه ، فإنه يحب الله ورسوله » الحديث .

(١) فى قرّة العيون : وذلك بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، كما فى الحديث « فدعا فاستجيب له عليه السلام » وفيه : علم من أعلام النبوة أيضاً ، وذلك كله بالله ، ومن الله وحده وهو الذى يملك الضر والنفع ، والعطاء والنزع . لا إله غيره ، ولا رب سواه .

حتى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثم ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ .

وفيه : أمر الإمام عماله بالرفق من غير ضعف ولا انتقاص عزيمة ، كما يشير إليه قوله « ثم ادعهم إلى الإسلام »^(١) أى الذى هو معنى : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإن شئت قلت : الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده ، وإخلاص الطاعة لرسوله صلى الله عليه وسلم . ومن هنا طابق الحديث الترجمة كما قال تعالى لنبيه ورسوله (٣ : ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : والإسلام هو الاستسلام لله ، وهو الخضوع له ، والعبودية له . كذا قال أهل اللغة .

وقال رحمه الله تعالى : ودين الإسلام الذى ارتضاه الله وبعث به رسوله : هو الاستسلام له وحده ، فأصله فى القاب ، والخضوع له وحده بعبادته وحده دون ماسواه . فمن عبده وعبده معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً . ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً ، وفى الأصل : هو من باب العمل ، عمل القلب والجوارح ، وأما الإيمان فأصله : تصديق القلب وإقراره ومعرفته فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب . انتهى .

فتبين أن أصل الإسلام هو التوحيد ونفى الشرك فى العبادة ، وهو دعوة جميع المرسلين وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على السن رسوله ، كما قال تعالى عن نوح أول رسول أرسله (٧١ : ٣ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) .

وفيه : مشروعية الدعوة قبل القتال ، لکن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداءً ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بنى المصطلق وهم غارون^(٢) وإن كانوا لم تبلغهم الدعوة (١) فى قررة العيون : هذا هو شاهد الترجمة ، وهكذا ينبغى لأهل الإسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق إلى الإسلام والدخول فيه ، وينبغى لولاة الأمر أن يكون هذا هو معتمدهم ومرادهم ونيتهم .

(٢) الغار : الغافل . وقال البخارى : غزوة المصطلق من خزاعة : وهى المريسيع . قال ابن إسحاق : وذلك سنة ست . وقال موسى بن عقبة : سنة أربع . وقال النعمان بن =

وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ،

وجبت دعوتهم .

قوله ﴿ وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ﴾^(١) أى فى الإسلام إذا أجاوبك

== راشد عن الزهرى ، كان حديث الإفك فى غزوة المريسيع . وروى البخارى فى أبواب العتق عن عبد الله بن عمر « أن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بنى المصطلق وهم غارون ، وأنعامهم تسقى على الماء ، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم . وأصاب يومئذ جويرة بنت الحارث » وبنو المصطلق بطن شهير من خزاعة . وسبب غزوهم : أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن الحارث بن ضرار وسيدهم أبا جويرة يجمع الناس ويستعد لقتاله ، فجاجأهم رسول الله وهم غافلون ، وأسر منهم أكثرهم وأسلم الحارث بن ضرار .

(١) فى قرة العيون : فيه مما أمر به وشرعه من حقوق « لا إله إلا الله » وهذا يدل على أن الأعمال من الإيمان خلافا للأشاعرة والمرجئة فى قولهم : إنه القول . وزعموا أن الإيمان هو مجرد التصديق ، وتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة ، لأن الدين ما أمر الله به فعلا وما نهى عنه تركا .

وفيه : الرد على المشركين المستدلين على الشرك بكرامات الأولياء ، لدالتها على فضلهم . وأمير المؤمنين على رضى الله عنه وقع له من الكرامات ما لم يقع لغيره . وقد خد الأخاديد وأضرمتها بالنار وقذف فيها من غلا فيه أو اعتقد فيه بعض ما كان يعتقد هؤلاء المشركون مع أهل البيت وغيرهم . فصار من أشد الصحابة رضى الله عنه بعداً عن الشرك ، وشدة على من أشرك حتى أحرقتهم بالنار^(٢) .

وكذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع ما أعطى من الكرامات صار من أبعد الصحابة عن الشرك وذرائعه . وهؤلاء أفضل أهل الكرامات ، فما زادهم ذلك إلاقوة فى التوحيد ، وشدة على أهل الشرك والتنديد ، كما جرى لعمر رضى الله عنه فى الاستسقاء بالعباس وتعمية قبر دانيال لما وجده الصحابة فى بيت مال الهرمزان ، كما أن المعجزات إنما زادت الرسل قوة فى الدعوة إلى التوحيد وشدة على أهل الشرك والإنكار عليهم وجهادهم ، لكن قد يقع من الأحوال الشيطانية لمن استحوز عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه ما قد يلبس على الجهال الذين تلبسوا بالشرك ، ويظنون أن ذلك كرامات ، وهى من مكر الشيطان ، وإغوائه لمن لم يعرف الحق من الباطل ، وقد قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (٤٣ : ٤٣) فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم) فكذلك يجب على كل أحد أن يطلب الحق من القرآن بتدبره ، فإنه الصراط المستقيم ولا يلتفت إلى ما خرقت الشياطين ، كما اغتر به من اغتر فى هذه الأمة من قبلهم .

(*) عبد الله بن سبأ اليهودى وشيعته . والقصة فى البخارى .

فوالله لأن يَهْدِيَ اللهُ بك رجلاً واحداً، خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ « يدوكون »
أى يخوضون .

فيه مسائل :

الأولى : أن الدعوة إلى الله طريقٌ من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثانية : التنبيه على الإخلاص ؛ لأن كثيراً لودعا إلى الحق ، فهو يدعو

إلى نفسه .

إليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التي لا بد لهم من فعلها ، كالصلاة والزكاة ، كما في حديث
أبي هريرة « فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ^(١) » ولما قال عمر
لأبي بكر في قتاله مانع الزكاة : « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم
إلا بحقها ؟ قال أبو بكر : فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها ^(٢) » .

وفيه : بعثُ الإمام الدعوة إلى الله تعالى ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه
الراشدون يفعلون ، كما في المسند عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال في خطبته
« ألا إني والله ما أرسلُ عُمالي إليكم ليضربوا آبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم . ولكن
أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم » .

قوله ﴿ فوالله لأن يَهْدِيَ اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ ﴾ « أن » مصدرية
واللام قبلها مفتوحة لأنها لام القسم . و « أن » والفعل بعدها في تأويل مصدر ، رفع على
الابتداء والخبر « خير » و « حمر » بضم المهملة وسكون الميم ، جمع أحمر . و « النعم » بفتح
النون والعين المهملة ، أى خير لك من الإبل الحمر . وهى أنفسُ أموال العرب .

= وفيه : من أداء الفرائض على الوجه الشرعى والنهى عن تعدى الحدود التي حددها الله
بين الحلال والحرام ، وذلك من الإيمان . فالحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين
ما شرعه الله ، فإذا أخذ الإسلام الذي هو التوحيد والإخلاص ، وأحل ما أحله الله تعالى
وحرم ما حرمه الله تعالى ، وأمر بذلك وجاهد عليه ، فقد قام بما وجب . وبالله التوفيق .
(٢٠١) رواها البخارى ومسلم وغيرها .

- الثالثة : أن البصيرة من الفرائض .
- الرابعة : من دلائل حُسن التوحيد : أنه تنزيه الله تعالى عن المسببة .
- الخامسة : أن من قُبِح الشرك كونه مَسْبَبَةً لله .
- السادسة : وهي من أهمها - إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ، ولو لم يشرك .
- السابعة : كون التوحيد أول واجب .
- الثامنة : أن يُبدأ به قبل كل شيء ، حتى الصلاة .
- التاسعة : أن معنى « أن يُوحّدوا الله » معنى شهادة : أن لا إله إلا الله .
- العاشرة : أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها ، أو يعرفها ولا يعمل بها .
- الحادية عشرة : التنبيه على التعليم بالتدرّج .
- الثانية عشرة : البداءة بالأهم فالأهم .
- الثالثة عشرة : مصرف الزكاة .
- الرابعة عشرة : كشف العالم الشبهة عن المتعلم .
- الخامسة عشرة : النهي عن كرائم الأموال .
- السادسة عشرة : اتقاء دعوة المظلوم .
- السابعة عشرة : الإخبار بأنها لا تُحجَب .
- الثامنة عشرة : من أدلة التوحيد ماجرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء .

قال النووي : وتشبيه أمور الآخرة بأمر الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام ؛ وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها .

- التاسعة عشرة : قوله « لأعطين الراية - الخ » علم من أعلام النبوة .
العشرون : تَقَلُّهُ فِي عَيْنَيْهِ عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِهَا أَيْضًا .
الحادية والعشرون : فضيلة على رضى الله عنه .
الثانية والعشرون : فضل الصحابة في دَوَّكِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَشُغْلِهِمْ عَنْ بَشَارَةِ الْفَتْحِ .
الثالثة والعشرون : الإيمان بالقدر ، لحصولها لمن لم يَسْعَ لها وَمَنْعِهَا عَمَّنْ سَعَى
الرابعة والعشرون : الأدب في قوله « عَلَى رِسْلِكَ » .
الخامسة والعشرون : الدعوة إلى الإسلام قبل القتال .
السادسة والعشرون : أنه مشروع لمن دُعُوا قَبْلَ ذَلِكَ وَقَاتَلُوا .
السابعة والعشرون : الدعوة بالحكمة لقوله : « أَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ » .
الثامنة والعشرون : المعرفة بحقِّ الله في الإسلام .
التاسعة والعشرون : ثواب من اهتدى عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ .
الثلاثون . الحَلْفُ عَلَى الْفِتْيَانِ .

باب

﴿ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ﴾

وفيه : فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد ، وجواز الحلف على الخبر والفتيا ولو لم يُسْتَحْلَفْ .

قوله : ﴿ باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ﴾ .
قلت : هذا من عطف الدال على المدلول (١) .

(١) في قرّة العيون : لأن التوحيد هو معنى هذه الكلمة العظيمة ، وذلك يتبين بما ساقه من الآيات والحديث ، لما فيها من زيادة البيان ، وكشف ما أشكل من ذلك ، وإقامة الحجة على من غلط في معنى « لا إله إلا الله » من أهل الجهل والإلحاد .

وقول الله تعالى: (١٧ : ٥٧) أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا

فإن قيل : قد تقدم في أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى « لا إله إلا الله » وما تضمنته من التوحيد ، كقوله تعالى (١٧ : ٢٣) وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) وسابقها ولاحقها . وكذلك ما ذكره في الأنواب بعدها . فما فائدة هذه الترجمة ؟ .

قيل : هذه الآيات المذكورات في هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الإخلاص وما دلت عليه : من توحيد العبادة . وفيها : الحجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين يدعوم ويسألهم ؛ لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات ، كآية الأولى (١٧ : ٥٦) قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه ، والعزير ، والملائكة ، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهى ، كافي هذه الآية من التهديد والوعيد على ذلك . وهذا يدل على أن دعاهم من دون الله شرك بالله ، ينافي التوحيد ، وينافي شهادة أن لا إله إلا الله ؛ فإن التوحيد أن لا يدعى إلا الله وحده . وكلمة الإخلاص نفت هذا الشرك ، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له . و« الدعاء مخ العبادة »^(١) وفي هذه الآية : أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضر ولا تحويله من مكان إلى مكان ، ولا من صفة إلى صفة . ولو كان المدعو نبياً أو ملكاً . وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله كائناً من كان ؛ لأن دعوته تحون داعيه أحوج ما كان إليها ، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره . وهذه الآية تقرر التوحيد ، ومعنى : لا إله إلا الله .

وقوله تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾^(٢) يبين أن هذا سبيل

(١) رواه الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم .
(٢) في قرّة العيون : أى أولئك الذين يدعوم أهل الشرك بمن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين كالمسيح وأمه والعزير . فهؤلاء دينهم التوحيد وهو بخلاف من دعاهم من دون الله ، ووصفهم بقوله (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) فيطلبون القرب من الله بالإخلاص له وطاعته فيما أمر ، وترك ما نهاهم عنه . وأعظم القرب التوحيد الذى بعث الله به أنبياءه ورسله وأوجب عليهم العمل به والدعوة إليه ، وهذا الذى يقربهم إلى الله أى إلى عفوه ورضاه ، ووصف ذلك بقوله (ويرجون رحمته ويخافون =

الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين . قال قتادة « تقرّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه »
= عذابه) فلا يرجون أحداً سواه ولا يخافون غيره ، وذلك هو توحيده ؛ لأن ذلك بمنهم
من الشرك ، ويوجب لهم الطمع في رحمة الله والهرب من عقابه ، والداعى لهم - والحالة هذه - قد
عكس الأمر ، وطلب منهم ما كانوا ينكرون من الشرك بالله في دعائهم لمن كانوا يدعونه من
دون الله . ففيه معنى قوله (٣٥ : ١٤) ويوم القيامة يكفرون بشرككم) وقوله (٤٦ : ٦) وإذا
حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) .

وفيه : الرد على من ادعى أن شرك المشركين إنما هو بعبادة الأصنام . وتبين بهذه الآية أن
الله تعالى أنكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم ، وأن دعاء
الأموات والغائبين لطلب نفع أو دفع ضرر هو من الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله ، وأن
ذلك ينافى مادلت عليه كلمة الإخلاص .

فتدبر هذه الآية العظيمة يتبين لك التوحيد ، وما ينافيه من الشرك والتنديد ؛ فإنها نزلت
فيمن يعبد الملائكة والسيح وأمه والعزير فهم المعنيون بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم من
دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً) ثم بين تعالى أن هؤلاء المشركين قد خلفوا
من كانوا يدعونه في دينه فقال (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب)
وقدم المعمول لأنه يفيد الحصر ، يعنى يبتغون إلى ربهم الوسيلة لا إلى غيره . وأعظم الوسائل
إلى الله تعالى التوحيد الذى بعث الله به أنبياءه ورسله ؛ وخلق الخلق لأجله . ومن التوسل
إليه : التوسل بأسمائه وصفاته ، كما قال تعالى (٧ : ١٨٠) والله الأسماء الحسنى فادعوه بها)
وكما ورد في الأذكار المأثورة من التوسل بها في الدعوات كقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم
إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض إذا الجلال والإكرام »
وقوله « اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم
يكن له كفواً أحد » وغير ذلك من الأعمال الصالحة الخالصة التى لم يشبهها شرك . فالتوسل إلى
الله هو بما يحبه ويرضاه ، لا بما يكرهه ويأباه من الشرك الذى نزه نفسه عنه بقوله (سبحان
الله عما يشركون) وقوله (سبحان الله وما أنا من المشركين) وقوله في الإنكار على من اتخذ
الشفعاء (١٠ : ١٨) قل : أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى
عما يشركون) وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير يأمر عباده بإخلاص العبادة له ، وينهاهم
عن عبادة ما سواه ، ويعظم عقوبته ، كما قد جرى على الأمم المكذبة للرسول فيما جاء وهم به من
التوحيد والنهى عن الشرك . فأوقع الله تعالى بهم ما أوقع كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم ،
فإنهم عصوا الرسول فيما أمرهم به من التوحيد وتمسكوا بالشرك وقالوا لنوح (١١ : ٢٧)
وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) وقالوا لهود (١١ : ٥٣) ما جئنا ببينة ،
وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين) الآيات . وقالوا الصالح (١١ : ٦٢) =

وقرأ ابن زيد (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ^(١)) قال العباد ابن كثير : وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين . وذكره عن عدة من أئمة التفسير .
قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : في هذه الآية ذكر المقامات الثلاث : الحب ، وهو ابتغاء القرب إليه والتوسل إليه بالأعمال الصالحة ، والرجاء والخوف . وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الإسلام كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم « والله يا رسول الله ما أتيتك إلا بعد ما حلفتُ عدد أصابعي هذه : أن لا آتيك . فبالذي بعثك بالحق ، ما بعثك به ؟ قال : الإسلام ؟ قال : وما الإسلام ؟ قال : أن أسلم قلبك ، وأن توجّه وجهك إلى الله ، وأن تصلى الصلوات المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة » وأخرج محمد بن نصر المروزي من حديث خالد بن معدان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للإسلام صُوًى ومنازاً كمنار الطريق ^(٢) . من ذلك : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهذا معنى قوله تعالى (٣١ : ٢٢) ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور) .

== قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟) وقالوا الشيب « ١١ : ٨٧ (أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا ؟) .

قد بر ما قص الله تعالى في كتابه مما دعت إليه الرسل وما أوقع بمن عصاهم . فإن الله تعالى أقام به الحجة على كل مشرك إلى يوم القيامة . وأما ماورد في معنى الآية عن ابن مسعود قال « كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » . قلت : وهذا لا يخالف ما تقدم ، لأن هذه الآية حجة على كل من دعا مع الله ولياً من الأولين والآخرين ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذه الآية : وهذه الأقوال كلها حق فإن الآية نعم من كان معبوده عابداً لله ، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر . (١) يعنى أن جميع الصالحين الذين يدعواهم المشركون ويستغيثون بهم إما توسلاً إلى الله ليقتضى حوائجهم ، وإما استقلالاً بأن يطلبوا منهم قضاء الحاجة معتقدين بأن الله وهبهم التسكين والتصرف ، أولئك الصالحون مشغولون بأنفسهم يدعون الله لها ويتوسلون إليه بعبادته مخلصين له الدين ظانفين عذابه راجين رحمته ، وإذا لم يملكوا لأنفسهم نفعا ولا دفع ضرر ، فكيف يملكون لغيرهم ضرراً أو نفعا ؟

(٢) الصوى : الأعلام المنصوبة من الحجارة في المفازة المجهولة ، يستدل بها على الطريق ، واحداثها صوة - كقوة - أراد أن للإسلام طرائق وأعلاماً يهتدى بها .

وقوله (٤٣ : ٢٦-٢٨) وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون .
إلا الذي فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه لعلهم يرجعون) .
وقوله (٩ : ٣١) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (الآية .

وقوله تعالى ﴿ ٤٣ : ٢٦-٢٨ - وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ؛
إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه ﴾ أي « لا إله إلا الله » .
فتدبر كيف عبّر الخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذي دلت عليه
ووضعت له ^(١) : من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة في الخارج :
كالسكواكب والهيكل والأصنام التي صورها قوم نوح على صور الصالحين : ودَّ وسوَاع
وَيَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ، وغيرها من الأوثان والأنداد التي كان يعبدها المشركون بأعيانها .
ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذي فطره ، وهو الله وحده لا شريك له ؛ فهذا هو الذي
دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة . كما قال تعالى (٢٢ : ٦٢) بأن الله هو الحق وأن
ما يدعون من دونه هو الباطل (فكل عبادة يقصد بها غير الله : من دعاء وغيره فهي
باطلة ، وهي الشرك الذي لا يغفره الله ، قال تعالى (٤٠ : ٧٣ ، ٧٤) ثم قيل لهم : أين ما كنتم
تشركون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً . كذلك
يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ) .

وقوله تعالى ﴿ ٩ : ٣١) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ ^(٢) أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ
(١) في قرة العيون : فبر عن المنفى بها بقوله (إنني براء مما تعبدون) وعبر عما أثبتته
بقوله (إلا الذي فطرني) فقصر العبادة على الله وحده ونفاها عن كل ماسواه ببراءته من
ذلك . فما أحسن التفسير لهذه الكلمة وما أعظمه .

قال العباد ابن كثير في قوله تعالى (وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه) أي هذه الكلمة . وهي
عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ماسواه من الأوثان وهي « لا إله إلا الله » جعلها في ذريته
يقصد به فيها من هداة الله من ذرية لإبراهيم عليه السلام (لعلهم يرجعون) أي إليها .
قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله (وجعلها كلمةً باقيةً في
عقبه) يعني « لا إله إلا الله » لا يزال في ذريته من قولها .

(٢) الأحبار : هم العلماء ، والرهبان : هم العباد . قال السدي : استنصحو الرجال ونبذوا
كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى في الآية (٩ : ٣١) وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً
لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) فصار ذلك عبادة لهم . وجعلوا أحبارهم ورهبانهم =

ابن مريم (١).

وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي فقال: « يا رسول الله ، لسنا نعبدهم . قال : أليس يُحِلُّونَ لِسَکْمِ ما حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال : بلى . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فتلك عبادتهم (٢) » فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أرباباً ، كما هو الواقع في هذه الأمة ، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله . فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة . فأثبتوا مانفته من الشرك وتركوا ما أنبتته من التوحيد .

وقوله تعالى (٢ : ١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله فكل من اتخذ ندماً الله يدعوهم من دون الله ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه : من قضاء حاجاته وتفريج كرباته - كحال عبادة القبور والطواغيت والأصنام - فلا بد أن يعظموهم ويحبوهم = مشرعين في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ، فأخذوهم بذلك أرباباً ، لأن التشريع من خصائص الربوبية كما أن العبادة من مستحقات الربوبية . وقال تعالى (٣ : ٨٠) ولا تأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أي أئتمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟

(١) في قرّة العيون : أي اتخذوه رباً بعبادتهم له من دون الله ، وقال تعالى (٥ : ١١٦ ، ١١٧) وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم . وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) فمن تدبر هذه الآيات تبين له معنى « لا إله إلا الله » وتبين له التوحيد الذي جحدته أكثر من يدعى العلم في هذه القرون وبما قبلها من متأخري هذه الأمة ، وقد عمت البلوى بالجهل بعد القرون الثلاثة لما وقع الغلو في قبور أهل البيت وغيرهم وبنيت عليها المساجد ، وبنيت لهم المشاهد ، فاتسع الأمر وعظمت الفتنة في الشرك المنافي للتوحيد لما حدث الغلو في الأموات وتمظيمهم بالعبادة . فهذه الأمور التي وقع فيها الأكثر ، عاد العروف منكراً والمنكر معروفاً ، والبدعة سنة والسنة بدعة . نشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً ، كما بدأ ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس » وفي رواية « يصلحون ما أفسد الناس » .

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير مطولاً .

لذلك ؛ فإنهم أحبوهم مع الله . وإن كانوا يحبون الله تعالى^(١) ويقولون « لا إله إلا الله » ويصلون ويصومون ، فقد أشركوا بالله في المحبة بمحبة غيره . وعبادة غيره . فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه ؛ لأن المشرك لا يقبل منه عمل ، ولا يصح منه . وهؤلاء وإن قالوا « لا إله إلا الله » فقد تركوا كل قيد قيّدت به هذه الكلمة العظيمة : من العلم بدلولها . لأن المشرك جاهل بمعناها ، ومن جهله بمعناها جعل الله شريكاً في المحبة وغيرها ، وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الإخلاص ، ولم يكن صادقاً في قولها ؛ لأنه لم ينف مانفته من الشرك ، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص ، وترك اليقين أيضاً ؛ لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شك فيه ، ولم يقبله وهو الحق . ولم يكفر بما يعبد من دون الله ، كما في الحديث . بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذهم الندى ومحبتهم له وعبادته إياه من دون الله ، كما قال تعالى (والذين آمنوا أشد حُباً لله) لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه ، ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعاً لله ، ويكفرون بما عبد من دون الله . فهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وعلى التوحيد الذي هو معناها الذي دعا إليه جميع المرسلين ، فتدبر .

(١) هم في الواقع ما أحبوا الله حقيقة ، لأن حب الله لا يكون إلا عن معرفة بالله ، بأسمائه وصفاته . ومن أحب الله على الحقيقة لا يمكن أن يتخذ من دونه نداً . وليس معنى (كحب الله) أى كحبهم لله . ولكن معناها والله أعلم : يحبونهم حباً من جنس الحب الذي لا يكون إلا لله . وهو حب العبادة : غاية الحب في غاية النذل والتعظيم . فهذا هو الحب الذي ينشأ عنه الدعاء واللجأ والضراعة وطلب تفرج الكروب ونحوها . مما يجرده المؤمنون لله وحده ، وهم أشد حباً لله . والمشركون مجردونه لأوليائهم أو يشركونهم مع الله ، ولا يرجون لله وقاراً .

وقال في قرة العيون : الأنداد : الأمثال والنظراء كما قال العماد ابن كثير وغيره من المفسرين فكل من صرف من العبادة شيئاً لغير الله رغبة إليه أو رهبة منه ، فقد اتخذ نداً لله ، لأنه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : فتوحيد المحبوب : أن لا يتمدى محبوه أى مع الله بعبادته له ، وتوحيد الحب أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يندلها له ، فهذا الحب وإن سمي عشقاً فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقره عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن لا تكون محبته لغير الله ، فلا يجب إلا الله ، كما في =

قال ﴿ وقول الله تعالى (١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب - الآية) ﴾ يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها ، وهو قوله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً) .

قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى (قل) يا محمد ^(١) للمشركين الذين عبدوا غير الله (ادعوا الذين زعمتم من دونه) من الأصنام والأنداد ، وارغبوا إليهم (فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم) أي بالكيفية (ولا تحويلاً) أي ولا أن يحولوه إلى غيركم . والمعنى : أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له ، الذي له الخلق والأمر .

قال العوفي عن ابن عباس في الآية : « كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً ، وهم الذين يدعون . يعنى الملائكة والمسيح وعزيراً » .

== الحديث الصحيح « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره المرء أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار » ومحنة رسوله هي من محبته . ومحنة المرء إن كانت لله فهي من محبته ، وإن كانت لغير الله فهي منقصة لمحبة الله مضعفة لها . ويصدق هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء إلى محبوبه - وهو الكفر - بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشد ، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه شيئاً ، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خير بين الكفر وإلقائه في النار لاختر أن يلقى في النار ولا يكفر ، كان أحب إليه من نفسه . وهذه المحبة هي فوق ما يجده العشاق من محبة محبوبهم ، بل لانظير لهذه المحبة ، كما لا مثيل لمن تعلقت به ، وهي محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد ، وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والالتقياد ظاهراً وباطناً . وهذا لانظير له في محبة مخلوق ولو كان الخلق من كان ، ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في المحبة الخاصة كان شركاً لا يغفره الله كما قال تعالى (٢ : ١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله) والصحيح أن معنى الآية : أن الذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم . كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً ، كما لا يماثل محبوبهم غيره . وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته ، وكل مكروه في محبة غيره فهو قرعة عين في محبته . انتهى .

(١) يستعمل المفسرون هذا الخطاب كثيراً ، تفسيراً لخطاب الله ، ولكن يلاحظ أن الله لم يخاطب رسوله ولا مرة واحدة بهذا الخطاب « يا محمد » بل كل خطاب الله « يا أيها النبي ، يا أيها الرسول » فينبغي أن يكون ذلك كذلك . والله أعلم .

وروى البخارى فى الآيه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « ناس من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا » وفى روايه : « كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » .

وقول ابن مسعود هذا : يدل على أن الوسيله هى الإسلام ، وهو كذلك على كلا القولين . وقال السدى عن أبى صالح عن ابن عباس فى الآيه قال « عيسى وأمه وعزيراً » وقال مغيرة عن إبراهيم : كان ابن عباس يقول فى هذه الآيه « هم عيسى وعزير والشمس والقمر » وقال مجاهد « عيسى وعزير والملائكة » .

وقوله ﴿ يرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فكل داع دعا عبادة أو استغاثه لابدله من ذلك : فيما أن يكون خائفاً . وإما أن يكون راجياً ، وإما أن يجتمع فيه الوصفان .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فى هذه الآيه ، لما ذكر أقوال المفسرين : وهذه الأقوال كلها حق ، فإن الآيه تعم من كان معبوده عابداً لله ، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر . والسلف فى تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآيه على نوع التمثيل ، كما يقول الترجمان لمن سأله : مامعنى الخبز؟ فيريه رغيفاً . فيقول : هذا . فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه ، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآيه . فالآيه خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً ، وذلك المدعو يبتغى إلى الله الوسيله ويرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثه أو غيرها فقد تناولته هذه الآيه ، كما تناول من دعا الملائكة والجن : فقد نهى الله تعالى عن دعائهم ، وبيّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله ، لا يرفعونه بالسكليه ولا يُحوّلونه من موضع إلى موضع ، كتغيير صفته أو قدره ، ولهذا قال (ولا تحويلاً) فذكر نكرة نعم أنواع التحويل . فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله اه .

وفى هذه الآيه رد على من يدعو صالحاً ويقول : أنا لا أشرك بالله شيئاً ، الشرك عبادة الأصنام .

قال ﴿ وقوله ﴾ (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى -

(الآية) ﴿ قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليته إمام الحنفاء ، ووالده من بعث بعده من الأنبياء ، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها : إنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان فقال (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلمهم يرجعون) أى هذه السكلمة وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ماسواه من الأوثان ، وهى « لا إله إلا الله »^(١) جعلها فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام (لعلمهم يرجعون) أى : إليها .

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله (وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلمهم يرجعون) يعنى « لا إله إلا الله » لا يزال فى ذريته من يقولها .

وروى ابن جرير عن قتادة (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) قال : كانوا يقولون : الله ربنا (٤٣ : ٨٧) ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله) فلم يبرأ من ربه . رواه عبد بن حميد . وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) قال « الإخلاص والتوحيد ، لا يزال فى ذريته من يعبد الله ويوحده » .

قلت : فتبين أن معنى « لا إله إلا الله » توحيد الله بإخلاص العبادة له والبراءة من كل ما سواه .

قال المصنف رحمه الله : ﴿ وذكر سبحانه أن هذه البراءة ، وهذه الموالاتة ، هى شهادة أن لا إله إلا الله ﴾ .

وفى هذا المعنى يقول العلامة الحافظ ابن القيم رحمه الله فى الكافية الشافية :

وإذا تولاه امرؤ دون الورى طرأ تولاه العظيم الشأن

قال : ﴿ وقول تعالى (اتخذوا أحيابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله - الآية) ﴾ .

الأحياب : هم العلماء ، والرهبان : هم العباد . وهذه الآية قد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعدى بن حاتم ، وذلك « أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه هذه الآية . قال : فقلت : إنهم لم يعبدوه . فقال : بلى ، إنهم حرموا عليهم

(١) فإن « لا إله إلا الله » مطابقة لقوله « إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى » لأن

كلتاها مركبة من جملتين : نفى ، وهى « لا إله » و « إننى براء مما تعبدون » وإثبات ، وهى « إلا الله » و « إلا الذى فطرنى » فينبغى أن يلاحظ المسلم عند نطقه بكلمة الشهادة ذلك وبحقته علماً وعملاً .

الحلال ، وحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم بإهم « رواه أحمد والترمذى وحسنه ، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبرانى من طرق .

قال السدى : استنصحو الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) فإن الحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين ما شرعه الله .

فظهر بهذا أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله ، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله . أو تحريم ما أحله الله ، وأطاعه في معصية الله ، واتبعه فيما لم يأذن به الله ، فقد اتخذ رباً ومعبوداً وجعله لله شريكاً ، وذلك يناهى التوحيد الذى هو دين الله الذى دلت عليه كلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » فإن الإله هو المعبود ، وقد سعى الله تعالى طاعتهم عبادة لهم ، وسماهم أرباباً ، كما قال تعالى (٣ : ٨٠) ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) أى شركاء لله تعالى فى العبادة (أى أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟) وهذا هو الشرك . فكل معبود رب ، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذ المطيع المتبع رباً ومعبوداً ، كما قال تعالى فى آية الأنعام (٦ : ١٣١) وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة ، ويشبه هذه الآية فى المعنى قوله تعالى (٤٣ : ٢١) أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) والله أعلم .

قال شيخ الإسلام فى معنى قوله (اتخذوا أرباباً من دون الله) وهؤلاء الذين اتخذوا أرباباً من دون الله ، اتخذوا أرباباً حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين . أحدهما : أن يعلموا أنهم ندوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله ، اتباعاً لرؤسائهم ، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل . فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم . فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين ، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله ، مشركاً مثل هؤلاء .

الثانى : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم فى معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاصى ؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، كما قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما الطاعة فى المعروف » .

وقوله (٢: ١٦٦) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله

ثم ذلك المحرم للحلال والحلال للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع؛ فهذا لا يؤاخذ الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه. ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول. فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لاسيما إن اتبع في ذلك هواه ونصره باليد واللسان، مع علمه أنه مخالف للرسول. فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال. وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه. فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كالنجاشي وغيره. وقد أنزل الله في هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى (٣: ١٩٩) وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم) وقوله (٥: ٨٣) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق - الآية) وقوله (٧: ١٥٩) ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه مثله: من الاجتهاد في التقليد. فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القيلة. وأما من قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق؛ فهذا من أهل الجاهلية، وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً. كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوا مقعده من النار. وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والتغطية والحبيصة، فإن ذلك لما أحب المال منه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له، وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك. وفي الحديث «إن يسير الرياء شرك» وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب. انتهى.

وقال أبو جعفر بن جرير في معنى قول الله تعالى (وتجعلون له أنداداً) أى وتجعلون لمن خلق ذلك أنداداً وهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم في معاصي الله. انتهى.

قلت: كما هو الواقع من كثير من عباد القبور.

قال ﴿وقوله (٢: ١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله - الآية﴾

والذين آمنوا أشد حبا لله .

قال العماد ابن كثير رحمه الله : يذكر الله حال المشركين به في الدنيا ومآلهم في الآخرة ، حيث جعلوا الله أندادا ؛ أى أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه . وهو الله لا إله إلا هو ، ولا ضده ، ولا ند له ، ولا شريك معه . وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « قلت يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك » .

وقوله ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ ولحبهم لله تعالى وتام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يشركون به شيئاً ، بل يعبدونه وحده ، ويتوكلون عليه ، ويلجأون في جميع أمورهم إليه . ثم توعّد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك . فقال تعالى (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً) قال بعضهم : تقدير الكلام ، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً ، أى إن الحكم له وحده لا شريك له ؛ فإن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه (وأن الله شديد العذاب) كما قال تعالى (٨٩ : ٢٥ ، ٢٦ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد) يقول : لو علموا ما يعاينون هناك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهموا عما هم فيه من الضلال ، ثم أخبر عن كفرهم بأعوانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين . فقال تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا ، فتقول الملائكة^(١) (٢٨ : ٦٣ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) ويقولون (٣٤ : ٤١

(١) قال العماد ابن كثير في تفسير سورة القصص : وقوله تعالى (وقال الذين حق عليهم القول) يعنى الشياطين والمرتدة والدعاة إلى الكفر (ربنا هؤلاء الذين أغويانا أغويناهم كما غويانا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) فشهدوا عليهم أنهم أغووهم ، ثم تبرأوا من عبادتهم اه . والدعاة إلى الكفر : هم من بنى آدم ممن كانوا رؤساء وشيوخاً لأوثك الغاوين كأصحاب الطرق الصوفية . فإنهم الذين زينوا لمريديهم ومتبوعيههم الشرك والكفر بالله ورسوله . فإن أساس طريقهم الشيطانية : أن يعبد المرید شيخه بأنواع التعظيم والخوف واعتقاد أنه جاسوس قلبه يدخل ويخرج والمرید لا يشعر . وأنه قبل أن يذكر الله يستحضر الشيخ في قلبه . ويمظمونهم بأنواع الطاعة العمياء أحياء وأمواتاً - كما هو مدون في كتبهم - من شروط المرید وما يسمونه العهد الوثيق ، وتجداً كثر هذا الكفر والضلال في كتب الشعرائى . وأما آيات سورة الأحقاف فإنها صريحة في أن الذين يكفرون بشرك المشركين : هم من عباد الله الصالحين الذين اتخذهم الناس آلهة بعد موتهم ، واتخذوا قبورهم أوثاناً ، =

قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) والجن أيضاً يتبرأون منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم ، كما قال تعالى (٤٦ : ٥ ، ٦) ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) . انتهى كلامه .

روى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) . مباحاة ومضاهاة للحق سبحانه بالأنداد (والذين آمنوا أشد حبا لله) من الكفار لأوثانهم .

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ ومن الأمور المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله : آية البقرة في الكفار الذين قال الله تعالى فيهم (وما هم بخارجين من النار) ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله . فدل على أنهم يحبون الله حبا عظيما ، فلم يدخلهم في الإسلام ، فكيف بمن أحب الندأ أكبر من حب الله ؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ؟ ﴿ اه .
ففي الآية بيان أن من أشرك مع الله تعالى غيره في المحبة فقد جعله شريكا لله في العبادة واتخذ نداء من دون الله ، وأن ذلك هو الشرك الذي لا يفره الله ، كما قال تعالى في أولئك (وما هم بخارجين من النار) وقوله (ولو يرى الذين ظلموا إذ برؤن العذاب المراد بالظلم هنا الشرك ، كقوله (٧ : ٨٢) ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) كما تقدم . فمن أحب الله وحده ، وأحب فيه وله فهو مخلص ، ومن أحبه وأحب معه غيره ، فهو مشرك ، كما قال تعالى (٢ : ٢١ ، ٢٢) يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما معناه : فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجة أو تفریح كربة ، لزم أن يكون محبا له ؛ ومحبته هي الأصل في ذلك . انتهى .

فكلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » تنفي كل شرك في أي نوع كان من أنواع العبادة ، وثبتت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى . وقد تقدم بيان أن « الإله » هو المألوه الذي تأله

== وما كانوا يحبون ذلك ولا يرضون به ، من أمثال الحسين وإخوته وأبيه وأبنائهم والإمام الشافعي في مصر وأبي حنيفة وعبد القادر في بغداد ونحوهم ، فإنهم يتبرأون يوم القيامة من أولئك المشركين .

القلوب بالحبة وغيرها من أنواع العبادة . فلا إله إلا الله ، نفت ذلك كله عن غير الله ، وأثبتته لله وحده . فهذا هو مادلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة ، فلا بد من معرفة معناها واعتقاده ، وقبوله ، والعمل به باطناً وظاهراً . والله أعلم .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه ، أى مع الله تعالى بعبادته له ، وتوحيد الحب : أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له ، فهذا الحب - وإن سمي عشقاً - فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرّة عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ماسواهما ، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لحبة الله تعالى ، فلا يحب إلا الله ، ولا يحب إلا الله ، كما في الحديث الصحيح « ثلاث من كن فيه » الحديث^(١) ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي من محبة الله ، ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته ، وإن كانت لغير الله فهي منقصة لحبة الله مضعفة لها ؛ ويصدق هذه الحبة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى محبوبه - وهو الكفر - بمنزلة كراهيته لإلقائه في النار أو أشد ، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه وحياته شيئاً ، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خيّر بين الكفر وبين إلقائه في النار لاختار أن يلقى في النار ولا يكفر ، كان أحب إليه من نفسه ، وهذه الحبة هي فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبهم ، بل لا نظير لهذه الحبة . كما لا مثل لمن تعلقت به وهي محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد . وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانتقاد ظاهراً وباطناً . وهذا لا نظير له في محبة المخلوق ، ولو كان المخلوق من كان . ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يغفره الله . كما قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حُباً لله) والصحيح : أن معنى الآية : أن الذين آمنوا أشد حُباً لله من أهل الأنداد لأناداهم . كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً ، كما لا يماثل محبوبهم غيره . وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته . وكل مكروه في محبة غيره فهو قرّة عين في محبته . ومن ضرب لمحبه

(١) رواه البخارى عن أنس بلفظ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها . وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله . وأن يكره أن يعوّد في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، حَرَّمَ مَالَهُ وَدَمَهُ .

الأمثال التي في محبة الخلق المخلوق كالوصل ، والهجر والتجنى بلا سبب من المحب ، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً ، فهو مخطئ . أقبح الخطأ وأخشه ، وهو حقيق بالإبعاد والمقت . انتهى

﴿ وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرَّمَ مَالَهُ وَدَمَهُ وَحَسَابَهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ قوله : في الصحيح : أى صحيح مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم - فذكره .

وأبو مالك اسمه : سعد بن طارق . كوفي ثقة . مات في حدود الأربعين ومائة . وأبوه طارق بن أشيم - بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحر - ابن مسعود الأشجعي ، صحابي له أحاديث قال مسلم : لم يرو عنه غير ابنه . وفي مسند الإمام أحمد عن أبي مالك قال : وسمعتة يقول للقوم « مَنْ وَحَدَّ اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرَّمَ مَالَهُ وَدَمَهُ وَحَسَابَهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » ورواه الإمام أحمد من طريق يزيد بن هارون . قال : أخبرنا أبو مالك الأشجعي عن أبيه . ورواه أحمد عن عبد الله بن إدريس قال : سمعت أبا مالك قال : قلت لأبي - الحديث . ورواية الحديث بهذا اللفظ تفسر « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » .

قوله ﴿ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم علم وعلق عصمة المال والدم في هذا الحديث بأمرين . الأول : قول « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » عن علم ويقين ، كما هو قيد في قولها في غير ما حديث كما تقدم . والثاني : الكفر بما يعبد من دون الله ، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى ، بل لا بد من قولها والعمل بها^(۱) .

قلت : وفيه معنى (۲ : ۲۵۶) فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) .

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ وهذا من أعظم ما يبين معنى : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فإنه لم يجعل

(۱) في قرّة العيون : فيه دليل أنه لا يحرم ماله ودمه إلا إذا قال « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ قَالَهَا وَلَمْ يَكْفُرْ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَدَمَهُ وَمَالَهُ حَلَالٌ لِكَوْنِهِ لَمْ يَنْكُرِ الشَّرْكَ وَيَكْفُرْ بِهِ ، وَلَمْ يَنْفَعْ كَمَا نَفَعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَتَأْمَلْ هَذَا الْمَوْضِعَ فَإِنَّهُ عَظِيمُ النِّفَعِ .

التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه . فيا لها من مسألة ما أجلها وبإله من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمنازع ﴿ انتهى .

قلت : وهذا هو الشرط المصحح لقوله : « لا إله إلا الله » فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التي ذكرها المصنف رحمه الله أصلاً . قال تعالى (٣٩ : ٨) وقاتلوم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وقال (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى ، ويقوموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعاً . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بي ، وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقوموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » وهذان الحديثان تفسير الآيتين : آية الأنفال ، وآية براءة . وقد أجمع العلماء على أن من قال : « لا إله إلا الله » ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها . أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفي والإثبات .

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله في قوله « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله » معلوم أن المراد بهذا . أهل عبادة الأوثان ، دون أهل الكتاب ، لأنهم يقولون : « لا إله إلا الله » ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف .

وقال القاضي عياض : اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال « لا إله إلا الله » تعبير عن الإجابة إلى الإيمان ، وأن المراد بذلك : مشركو العرب ، وأهل الأوثان ، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد ، فلا يكتفى في عصمته بقول « لا إله إلا الله » إذ كان يقولها في كفره . انتهى ملخصاً .

وقال النووي : لا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم

وحسابه عَلَى الله عز وجل .»

وشرحُ هذه الترجمة : ما بعدها من الأبواب .

كما جاء في الرواية « ويؤمنوا بي وبما جئت به » .

وقال شيخ الإسلام ، لما سئل عن قتال التتار فقال : كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم ، فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه ، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين ببعض شرائعه . كما قاتل أبو بكر والصحابة رضی الله عنهم مانعي الزكاة . وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم . قال : فأما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات ، أو الصيام ، أو الحج ، أو عن التزام تحريم الدماء ، أو الأموال ، أو الحرم ، أو الميسر ، أو نسكاح ذوات المحارم ، أو عن التزام جهاد الكفار ، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها ، التي يكفر الواحد بجحودها . فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء . قال : وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة ، بل هم خارجون عن الإسلام انتهى .

قوله ﴿ وحسابه على الله ﴾ أي الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى حساب الذي يشهد بلسانه بهذه الشهادة ، فإن كان صادقاً جازاه بجنات النعيم ، وإن كان منافقاً عذبه بالمذاب الأليم . وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر ، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافية ظاهراً والتزم شرائع الإسلام وجب الكف عنه .

قلت : وأفاد الحديث أن الإنسان قد يقول « لا إله إلا الله » ولا يكفر بما يعبد من دون الله ، فلم يأت بما يعصم دمه وماله كما دل على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث .

قوله ﴿ وشرحُ هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب ^(١) ﴾ قلت : وذلك أن ما بعدها من

(١) في قرة العيون : فقد ذكر فيها رحمه الله تعالى ما يبين التوحيد وما ينافية ، وما يقرب منه ، وما يوصل إليه من الوسائل ، ويان ما كان عليه السلف من بعدم عن الشرك في العبادة وشدة إنكارهم له وجهادهم على ذلك ، وقد جمع هذا الكتاب على اختصاره من بيان التوحيد مالا يعذر أحد عن معرفته وطلبه بإقبال وتدبر . وكذلك الرد على أهل الأهواء جميعهم ، فمن حفظه واستحضره وجد ذلك واستغنى به عن غيره في الرد على كل مبتدع ، فقد بره تجدد ذلك بيناً ، وسيأتي التبييه على ذلك إن شاء الله تعالى .

فيه أكبر المسائل وأهما : وهى تفسير التوحيد ، وتفسير الشهادة :
ويُنَبِّها بأمور واضحة .

منها : آية الإسراء بَيِّنَ فيها الرَّدَّ عَلَى المشركين الذين يَدْعُونَ الصالحين
ففيها : بيانُ أَنَّ هذا هو الشرك الأكبر .

ومنها : آية براءة ، بَيِّنَ فيها أَنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم
أرباباً من دُون الله ، وَبَيِّنَ أَنهم لم يُؤمروا إلا بأن يَعْبُدُوا إلهاً واحداً ، مع أن
تفسيرها الذى لا إشكال فيه : طاعةُ العلماء والعبادِ فى المعصية ، لا دُعَاؤهم إياهم .

ومنها : قول الخليل عليه السلام للكفار (إننى براءٌ مما تعبدون إلا الذى
فطرنى) فاستثنى من المعبودين رَبَّهُ ، وذكر سبحانه أَنَّ هذه البراءة وهذه
الموالاتة : هى تفسير شهادة أن لا إله إلا الله ، فقال : (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فى
عَقِبِهِ لَعَلَّهم يَرْجِعُونَ) .

ومنها : آية البقرة فى الكفار الذين قال فيهم (وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ مِنَ النَّارِ)

الأبواب فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنى « لا إله إلا الله » وفيه أيضاً : بيان أشياء كثيرة
من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع ، مما تركه من مضمون :
« لا إله إلا الله » فمن عرف ذلك هو تحققة تبين له معنى « لا إله إلا الله » وما دلت عليه من
الإخلاص ونفى الشرك ، وبضدها تتبين الأشياء ، فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ما هو
أعظم منه من الشرك الأكبر المنافى للتوحيد ، وأما الأصغر فإنما ينافى كماله ، فمن اجتنبه فهو
الموحد حقاً ، وبمعرفة وسائل الشرك والنهى عنها لتجتنب تعرف الغايات التى نهى عن
الوسائل لأجلها ، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص بل يقتضيه . وفيه أيضاً
من أدلة التوحيد : إثبات الصفات ، وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله ؛ وكل ما يعرف
بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدل على أنه هو المعبود وحده ، وأن العبادة لا تصلح
إلا له ، وهذا هو التوحيد ، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله .

ذكر أنهم يُحِبُّونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ (١) . فدلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يَحِبُّونَ اللَّهَ حُبًّا عَظِيمًا وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ . فَكَيْفَ بَيْنَ أَحَبِّ النَّدَى كَبْرَ (٢) مِنْ حُبِّ اللَّهِ ؟ فَكَيْفَ بَيْنَ لَمْ يُحِبِّ إِلَّا النَّدَى وَحْدَهُ ؟ وَلَمْ يُحِبِّ اللَّهَ ؟

ومنها : قوله صلى الله عليه وسلم : « من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه . وحسابه على الله » وهذا من أعظم ما يبين معنى « لا إله إلا الله » فإنه لم يجعل التلقظَ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرارُ بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لاشريك له ، بل لا يحرمُ ماله ودمه حتى يُضَيَّفَ إلى ذلك الكفر بما يُعْبُدُ من دون الله . فإن شكَّ أو توقَّفَ لم يحرمُ ماله ودمه .

فيها من مسألة ما أعظمها وأجلها ، وبالله من بيان ما أوضحه ، وحقه ما أقطعها للنزاع .

(٢) الظاهر أن المعنى : أنهم يحبون أندادهم من جنس حب الله الذي هو حب التعظيم والدل والخضوع ؛ لأنه ليس كل حب يكون عبادة حتى يكون فيه تعظيم وخضوع . ولذلك قال « كحب الله » ولم يقل : كحبهم لله . فهم في الوقت الذي يحبونهم أعظم الحب ، يخافونهم أشد الخوف ؛ معتقدين أنهم يخلفون عليهم خيراً مما يندرونه لهم وينبجونه من طيب ما لهم ويرجون منهم المساعدة والعونة على كشف الضر ودفع البأساء ، ويحذرون انتقامهم بحرق زرعهم وإهلاك أولادهم وأنفسهم ، ويروون عن سدتهم روايات مكذوبة في تأييد دعاويهم نهويلا عليهم وتمكيناً للضلال والشرك من أنفسهم . فهم لا يرجون لله وقاراً كما يرجون لهم ولا يخشون الله كما يخشونهم . فتجدون أنفسهم بسخاء في سبيل التقرب إلى أولئك اللوث من أوليائهم بما لا تجود بشره في سبيل الله ؛ برأ للوالدين أو صلة للأرحام أو إطعاماً لجار بائس ، أو مسكين من أهل قريته ، هذا شأن عباد القبور واللوث اليوم . دقق في أحوالهم وطبقها على آيات الشركين في القرآن تجدهم زادوا على مشركي الجاهلية الأولى . والله المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) إن من تحقق محبة مشركي زماننا لأهلهم التي يسمونها بالأولياء يعلم يقيناً : أنهم يحبونها أكثر من محبتهم لله . ويتصدقون لوجوهها بما لا يقدر أن يتصدقوا بشره لوجه الله

باب

﴿ من الشرك : لبس الحلقة والخيط ونحوهما ، لرفع البلاء أو دفعه ﴾
وقول الله تعالى : ﴿ ٣٨ : ٣٩ قل : أفأرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادني
الله بضراً هل هن كاشفات ضره ، أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟
قل : حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ .

قوله ﴿ باب من الشرك : لبس الحلقة والخيط ونحوهما ، لرفع البلاء أو دفعه ﴾ .
رفعهُ : إزالته بعد نزوله . ودفعه : منعه قبل نزوله .

قال ﴿ وقول الله تعالى (٣٨ : ٣٩) : أفأرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله
بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ ﴾ .
قال ابن كثير : أي لا تستطيع شيئاً من الأمر (قل حسبي الله) أي الله كافي من توكل
عليه (عليه يتوكل المتوكلون) كما قال هود عليه السلام حين قال قومه (١١ : ٥٤ - ٥٦) إن
نقول إلا اعتراضك بعض آهتنا بسوء . قال : إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون .
من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو
أخذ بناصيتها . إن ربي على صراط مستقيم) قال مقاتل في معنى الآية : فسألم النبي
صلى الله عليه وسلم فسكتوا : أي لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها^(١) .

(١) في قررة العيون : فإذا كان لهمتهم التي يدعون من دون الله لاقدرة لها على كشف ضر
أراده الله بعبده ، أو إمساك رحمة أنزلها على عبده فيلزمهم بذلك أن يكون الله تعالى هو
معبودهم وحده لزوماً لا محيد لهم عنه . وذكر تعالى مثل هذا السؤال عن خليله إبراهيم لمن
حاجه في الله فقال (٢ : ٢٥٨) أنا أحي وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق
فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين) فأقام الله تعالى الحججة على
للشركيين بما يبطل شركهم بالله وتسويتهم غيره به في العبادة بضرب الأمثال وغير ذلك ، وهذا
في القرآن كثير كقوله تعالى (٢٢ : ٧٣) يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين
تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه
منه ، ضعف الطالب والمطلوب) وقال تعالى (٢٩ : ٤١ - ٤٣) مثل الذين اتخذوا من دون
الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون =

عن عمران بن حصين رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً في يده حلقة من صُفر ، فقال : ما هذه ؟ قال : من الواهنة .

وإنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله ، لاعلى أنهم يكشفون الضر ، ويجيبون دعاء المضطر ، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده . كما قال تعالى (١٦ : ٥٣ ، ٥٤) ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم برهم يشركون) . قلت : فهذه الآية وأمثالها تبطل تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضرر ، وأن ذلك شرك بالله وفي الآية بيان أن الله تعالى وَسَمَّ أهل الشرك بدعوة غير الله والرغبة إليه من دون الله . والتوحيد ضد ذلك . وهو أن لا يدعو إلا الله ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يتوكل إلا عليه ، وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله . كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة وأئمتها ، كما تقدم .

قال **عمران بن حصين** « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً في يده حلقة من صُفر . فقال : ما هذه ؟ قال : من الواهنة . قال : انزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وهناً ؛ فإنك لو ميتٌ وهى عليك ما أفلحت أبداً » . رواه أحمد بسند لا بأس به .

قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد حدثنا المبارك عن الحسن قال : أخبرني عمران ابن حصين « أن النبي صلى الله عليه وسلم أبصر على عَصُد رجل حلقة - قال : أراها من صفر - فقال : ويحك ، ما هذه ؟ قال : من الواهنة . قال : أما إنها لا تزيدك إلا وهناً .

= إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقال (١٦ : ٢٠ ، ٢١) والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . أموات غير أحياء ، وما يشعرون بأني يبعثون ؟)

ذكر العباد ابن كثير رحمه الله تعالى في هذه الآية مارواه ابن أبي حاتم عن قيس بن الحجاج ، عن حنش الصنعاني عن ابن عباس مرفوعاً « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ورفقت الأقلام ، واعمل لله بالشكر في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب . وأن مع العسر يسراً » ،

فقال : انزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وهناً ، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً »

ابنذاها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً » رواه ابن حبان في صحيحه ، فقال : « فإنك إن مت وكِلت إليها » والحاكم وقال : صحيح الإسناد . وأقره الذهبي .
وقال الحاكم : أكثر مشايخنا على أن الحسن سمع من عمران . وقوله في الإسناد « أخبرني عمران » يدل على ذلك .

قوله : ﴿ عن عمران بن حصين ﴾ أي ابن عبيد بن خلف الخزاعي ، أبو نجيد - بنون وجيم مصغر - صحابي ابن صحابي . أسلم عام خير ، ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة .
قوله ﴿ رأى رجلاً ﴾ في رواية الحاكم « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عضدى حلقة صفر ، فقال : ماهذه ؟ » الحديث . فالجهم في رواية أحمد وهو عمران راوى الحديث قوله ﴿ ماهذه ؟ ﴾ يحتمل أن الاستفهام للاستفصال عن سبب لبسها ، ويحتمل أن يكون للإنكار . وهو أظهر .

قوله ﴿ من الواهنة ﴾ قال أبو السعادات^(١) : الواهنة : عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها ، فيرقى منها . وقيل : هو مرض يأخذ في العضد ، وهي تأخذ الرجال دون النساء^(٢) ، وإنما نهى عنها ؛ لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم ، وفيه اعتبار المقاصد^(٣) .

قوله ﴿ انزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وهناً ﴾ النزع : هو الجذب بقوة ، أخبر أنها لا تنفعه ، بل تضره وتزيده ضعفاً . وكذلك كل أمر نهى عنه ، فإنه لا ينفع غالباً ، وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه .

قوله ﴿ فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً ﴾ لأنه شرك . والفلاح : هو الفوز والظفر والسعادة .

(١) هو ابن الأثير ، ولد سنة ٥٤٤ هـ وتوفي سنة ٦٠٦ هـ عدة تأليف . منها : النهاية في غريب الحديث .
(٢) ومن هذا الباب : ما يفعله الجاهليون اليوم من إلباس أولادهم خلاخيل الحديد وغيره يعتقدون أن ذلك يحفظهم من الموت الذي أخذ إخوتهم الذين ماتوا قبلهم . ومنه لبس حلقة الفضة للبركة أو لمنع البواسير ، ولبس خواتيم لها فصوص مخصوصة للحفاظ من الجن وغيرها .
(٣) في قرّة العيون : وإنما نهى عنها لكونه يظن أنها تمنع عنه هذا الداء أو ترفعه ، فأمره صلى الله عليه وسلم بنزعها لذلك وأخبر أنها لا تزيد إلا وهناً ؛ فإن المشرك يعامل بنقيض قصده لأنه علق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه ، فإذا كان هذ بحلقة صفر فما الظن بما هو أطم وأعظم ؟ كما وقع من عبادة القبور والمشاهد وغيرها كما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل .

رواه أحمد بسند لا بأس به .

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ فيه شاهد لكلام الصحابة : أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر ، وأنه لم يعذر بالجهالة . وفيه الإنكار بالتعليق على من فعل مثل ذلك ﴾ .

قوله ﴿ رواه أحمد بسند لا بأس به ﴾ هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حسان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن ابن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هُنب بن أفصى بن دُعَمَى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان - الإمام العالم أبو عبد الله الذهلي ، ثم الشيباني المروزي ، ثم البغدادي ، إمام أهل عصره ، وأعلمهم بالغة والحديث ، وأشدهم ورعاً ومتابعة للسنة ، وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ، أنته الدنيا فأباها ، والشبه فنفاها ، خُرِجَ به من مرو وهو حمل ، فولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة في شهر ربيع الأول . وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك ، وهي سنة تسع وسبعين ، فسمع من هشيم وجريير بن عبد الحميد وسفيان بن عيينة ومعتز بن سليمان ويحيى بن سعيد القطان ومحمد بن إدريس الشافعي ويزيد ابن هرون وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن مهدي ، وخلق لا يحصون بمكة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وغيرها من البلاد . روى عنه ابنه : صالح وعبد الله ، والبخاري ، ومسلم وأبو داود وإبراهيم الحربي وأبو زرعة الرازي وأبو زرعة الدمشقي وعبد الله بن أبي الدنيا وأبو بكر الأثرم وعثمان بن سعيد الدارمي وأبو القاسم البغوي ، وهو آخر من حدث عنه ، وروى عنه من شيوخه عبد الرحمن بن مهدي والأسود بن عامر . ومن أقرانه : علي بن المديني ويحيى بن معين ، قال البخاري : مرض أحمد ليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لاثنتي عشرة خات منه . وقال حنبل : مات يوم الجمعة في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة . وقال ابنه عبد الله والفضل بن زياد : مات في ثاني عشر ربيع الآخر رحمه الله تعالى .

وله عن عُقبة بن عامر مرفوعاً « مَنْ تعلق تيممة فلا أتم الله له ، ومَنْ تعلق ودعة فلا ودع الله له » وفي رواية « مَنْ تعلق تيممة فقد أشرك » .

قوله ﴿ وله عن عُقبة بن عامر مرفوعاً « من تعلق تيممة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » وفي رواية « من تعلق تيممة فقد أشرك ^(١) » ﴾ الحديث الأول رواه الإمام أحمد كما قال المصنف ، ورواه أيضاً أبو يعلى ، والحاكم وقال: صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي . قوله ﴿ وفي رواية ﴾ أى من حديث آخر رواه أحمد . فقال : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبي منصور عن دجين الحجري عن عُقبة ابن عامر الجهني « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل إليه رهط ، فبايع تسعة وأمسك عن واحد ، فقالوا : يا رسول الله ، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا ؟ فقال : إن عليه تيممة ، فأدخل يده فقطعها ، فبايعه وقال : من تعلق تيممة فقد أشرك » ورواه الحاكم بنحوه ، ورواته ثقات . قوله ﴿ عن عُقبة بن عامر ﴾ صحابي مشهور ، فقيه فاضل . ولِي إِمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين . ومات قريباً من الستين .

قوله ﴿ من تعلق تيممة ﴾ أى علقها متعلقاً بها قلبه في طلب خير أو دفع شر . قال المنذرى : خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات ، وهذا جهل وضلالة ؛ إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى .

وقال أبو السعادات : التمام جمع تيممة ، وهى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم ، يتقون بها العين في زعمهم ، فأبطلها الإسلام .

قوله « فلا أتم الله له » دعاء عليه .

قوله « ومن تعلق ودعة » بفتح الواو وسكون المهملة . قال في مسند الفردوس : شئ يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين .

قوله ﴿ فلا ودع الله له ﴾ بتخفيف الدال : أى لا جعله في دعة وسكون . قال أبو السعادات : وهذا دعاء عليه .

قوله ﴿ وفي رواية : من تعلق تيممة فقد أشرك ﴾ قال أبو السعادات : إنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا دفع البقادر المكتوبة عليهم ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذى هو دافعه .

(١) فى قرة العيون : وهذا الحديث فيه التصريح بأن تعليق التمام شرك لما يقصده من علقها لدفع ما يضره أو جلب ما ينفعه ، وهذا أيضاً يناق كمال الإخلاص الذى هو معنى « لا إله =

ولابن أبي حاتم عن حذيفة « أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحُمى فقطعه وتلا قوله: (١٢: ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .
فيه مسائل :

الأولى : التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوها لمثل ذلك .

الثانية : أن الصحابي لومات وهي عليه ما أفلح . فيه شاهد لكلام الصحابة

أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر .

قال المصنف رحمه الله : ﴿ ولابن أبي حاتم عن حذيفة « أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه ، وتلا قوله تعالى (١٢ : ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ﴾ .
قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن أشكاب حدثنا يونس بن محمد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم الأحول عن عروة قال : « دخل حذيفة على مريض ، فرأى في عضده سيراً ، فقطعه أو - انتزعه - ثم قال (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) »
وابن أبي حاتم : هو الإمام أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي التميمي الحنظلي الحافظ ، صاحب الجرح والتعديل والتفسير وغيرها . مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة .
وحذيفة : هو ابن اليمان . واسم اليمان : حُسيل - بمهملتين مصغراً - ويقال : حِسل - بكسر ثم سكون - العبسي - بالوحدة - حليف الأنصار ، صحابي جليل من السابقين ، ويقال له : صاحب السر^(١) وأبوه أيضاً صحابي . مات حذيفة في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة ست وثلاثين .

قوله ﴿ رأى رجلاً في يده خيط من الحمى ﴾ أي عن الحمى . وكان الجهال يلقون التمام

«إلا الله» لأن الخلق لا يلتفت قلبه لطلب نفع أو دفع ضرر من سوى الله كما تقدم في قوله (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ؟) فكالم التوحيد لا يحصل إلا بترك ذلك وإن كان من الشرك الأصغر فهو عظيم ، فإذا كان هذا قد خفي على بعض الصحابة رضي الله عنهم في عهد النبوة ، فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب بعد ما حدث من البدع والشرك ؟ كما في الأحاديث الصحيحة ، وتقدمت الإشارة إلى ذلك . وهذا مما يبين معنى « لا إله إلا الله » أيضاً ، فإنها نفت كل الشرك قليلاً وكثيره كما قال تعالى (٣: ١٨) شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)

(١) لأن النبي صلى الله عليه وسلم استصحبه في عودته من غزوة تبوك حين أخذ في طريق

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة .

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضر لقوله: « لا تزيدك إلا وهناً » .

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك .

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئاً وُكِّل إليه (١) .

والحيوط ونحوها لدفع الحمى (*) وروى وكيع عن حذيفة « أنه دخل على مريض يعود فمس عضده ، فإذا فيه خيط ، فقال : ما هذا ؟ قال : شيء رُقَى لي فيه ، فقطعه وقال : لو مت وهو عليك ماصليت عليك » وفيه : إنكار مثل هذا ، وإن كان يعتقد أنه سبب ، فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى ورسوله مع عدم الاعتماد عليها . وأما التماسم والحيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك ، مما يعلقه الجهال فهو شرك يجب إنكاره وإزالته بالقول والفعل ، وإن لم يأذن فيه صاحبه .

قوله ﴿ وتلا قوله (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ﴾ استدلل حذيفة رضى الله

عنه العقبه التي كان المنافقون كمنوا عندها لينفروا راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقع عنها فيموت . فأطعمه الله على ما بيتوا . وأعلمه بأسمائهم . فأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بأسمائهم إذ ناداهم بأسمائهم حين حاذاهم . ثم استكتم حذيفة أسماءهم اتقاء الفتنة . ولم يكن عند حذيفة سر في الدين ، كما يدعى الضالون من الصوفية ؛ لأن الإسلام علانية لا سر فيه ، وإنما الأسرار في النصرانية وكنائسها وقسما ورهبانيتها .

(١) إنما وكله الله إليه لأنه أعرض عن رحمة ربه واستغنى عن الله وتمسك بالسبب الأضعف بل تمسك بلا شيء ، فوكله الله إلى ما تمسك به فلم ينفعه شيئاً .

(*) ولا يزال هذا معتقداً عند أهل الجاهلية الثانية . يتخذون خيوطاً يعقدونها بأيدي من اسمه محمد ، وبعض ذلك يعملونه يوم الجمعة ، وبعض ذلك يعملونه على مقاس باب الكعبة ثم يعقدونه أربعين عقدة بمن أسمائهم محمد ، ويقرأون عند كل عقدة (قل هو الله أحد) . ويزعمون أن هذا الخيط نافع من العقم ، فلا تلبسه عقيم في زعمهم إلا وتحمل . وهذا من أعظم الانحطاط إلى أحط دركات البكم والصمم والعمى ، بل إلى الهيمية أن يعتقد في خيوط . ومثله اتخذ سبع من أنواع الحبوب تعلق في كيس مع سررة الطفل . وأشبه ذلك كثير فاش فيمن يتسمون بأسماء إسلامية ، وهم من أجهل المشركين الشرك الأكبر . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السابعة: التصريح بأن من تعلق تيممة فقد أشرك .
الثامنة: أن تعليق الحيط من الحمى من ذلك .
التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في
الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة .
العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك .
الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تيممة أن الله لا يُتِمُّ له ، ومن تعلق
ودعة فلا ودع الله له^(١) . أى ترك الله له .

عنه بالآية على أن هذا شرك^(٢) . ففيه صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله
في الشرك الأكبر؛ لشمول الآية له، ودخوله في مسمى الشرك، وتقدم معنى هذه الآية عن
ابن عباس وغيره في كلام شيخ الإسلام وغيره . والله أعلم .

وفي هذه الآثار عن الصحابة: ما يبين كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه أو ينافي كاله .

(١) ودع: فسره المصنف بترك . أى فلا ترك الله له ما يجب . وفسره غيره بأنه دعاء عليه
الاي يجعله الله في دعة ولا سكون .

(٢) في قرّة العيون: فإذا كان يقع مثل هذا في تلك القرون المفضلة فكيف يؤمن أن يقع
ما هو أعظم منه؟ لكن لغلبة الجهل به وقع منهم أعظم مما وقع من مشركي العرب وغيرهم
في الجاهلية مما قد تقدم التنبيه عليه، حتى إن كثيراً من العلماء في هذه القرون اشتد نكيرهم
على من أنكر الشرك الأكبر، فصاروا هم والصحابة رضى الله عنهم على طرفي نقيض، فالصحابة:
ينكرون القليل من الشرك، وهؤلاء ينكرون على من أنكر الشرك الأكبر، ويجعلون النهي
عن هذا الشرك بدعة وضلالة، وكذلك كانت حال الأمم مع الأنبياء والرسل جميعهم فما بعثوا
به من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده، والنهي عن الشرك به، وقد بعث الله تعالى
خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم بذلك كما بعث به من قبله، فمكس هؤلاء المتأخرون مادعا
إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشركي العرب وغيرهم، فنصر هؤلاء مانهيه عنه من الشرك
غاية النصرة . وأنكروا التوحيد الذي بعث به غاية الإنكار، فإنه صلى الله عليه وسلم لما قال
لقريش « قولوا: لا إله إلا الله فتلحقوا » عرفوا معناها الذي وضعت له وأريد منها فقالوا (٣٨):

٧-٥ أ جعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا الشيء عجاب (الآيات . وقال تعالى (إنهم كانوا إذا
قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون) وفي صحيح البخارى وغيره في سؤال هرقل لأبى سفيان عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال له « فإنا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به
شيئاً، واركبوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة » .

باب

﴿ ماجاء في الرقي والتأمم ﴾

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضى الله عنه : « أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره . فأرسل رسولا : أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت » .

قوله ﴿ باب ماجاء في الرقي والتأمم ﴾

أى : من النهى وما ورد عن السلف في ذلك .

قوله ﴿ في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري » أنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فأرسل رسولا : أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت » هذا الحديث في الصحيحين .

قوله ﴿ عن أبي بشير ﴾ بفتح أوله وكسر المعجمة ، قيل : اسمه قيس بن عبيد قاله ابن سعد ، وقال ابن عبد البر : لا يوقف له على اسم صحيح ، وهو صحابي ، شهد الخندق ، ومات بعد الستين . ويقال : إنه جاوز المائة .

قوله ﴿ في بعض أسفاره ﴾ قال الحافظ : لم أقف على تعيينه .

قوله ﴿ فأرسل رسولا ﴾ هو زيد بن حارثة . روى ذلك الحارث بن أبي أسامة في مسنده ، قاله الحافظ .

قوله ﴿ أن لا يبقين ﴾ بالثناة التحتية والقاف المفتوحتين ، و « قلادة » مرفوع على أنه فاعل . و « الوتر » بفتحتين . واحد أوتار القوس . وكان أهل الجاهلية إذا اخولق الوتر أبدلوه بغيره ، وقلدوا به الدواب ، اعتقاداً منهم أنه يدفع عن الدابة العين^(١) .

قوله ﴿ أو قلادة إلا قطعت ﴾ معناه : أن الراوى شك هل قال شيخه : قلادة من وتر

(١) وأصل معنى القسلادة : ما يوضع في المنق من الخلى والزينة للنساء ، والحبل يوضع في عنق الدابة لتقاد به . ومثل ذلك ما يعلقه بعض الناس اليوم على السيارات من صورة قرد ونحوه ، وما يضعه بعضهم على أبواب البيوت والحوانيت من حدوة حمار أو حصان ، وتعليق سنابل من الحنطة أو غير ذلك كله من عمل الجاهلية المنهى عنه أشدّ النهى وقد يصل إلى الشرك الأكبر عند بعضهم حين يمتقد فيه أنه هو الذى يدفع حقيقة الضر والسوء .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

أو قال : قلادة وأطلق ولم يقيده ؟ ويؤيد الأول ماروى عن مالك : أنه سئل عن القلادة ؟ فقال « مسمعت بكراحتها إلا في الوتر » ولأبى داود « ولا قلادة » بغير شك .

قال البغوى فى شرح السنة : تأول مالك أمره عليه الصلاة والسلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين . وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم والقلائد ويعلقون عليها العوذ ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات . فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً .

قال أبو عبيد : كانوا يقلدون الإبل الأوتار ؛ لثلاث أسبابها العين ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بإزالتها إعلماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً . وكذا قال ابن الجوزى وغيره .

قال الحافظ : ويؤيده حديث عقبه بن عامر ، رفعه « من تعلق تيممة فلا أتم الله له » رواه أبو داود . وهى معلق من القلائد خشية العين ونحو ذلك . انتهى .

قال المصنف رحمته وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » رواه أحمد وأبو داود .

وفيه قصة ولفظ أبى داود : عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت « إن عبد الله رأى فى عنق خيطاً ، فقال : ما هذا ؟ قلت خيط رقى لى فيه . قالت : فأخذه ثم قطعه ، ثم قال : أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ^(١) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » فقلت : لقد كانت عيني تقذف ، وكنت أختلف إلى فلان اليهودى ، فإذا رقى سكنت . فقال عبد الله : إنما ذلك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقى كف عنها . إنما كان يكفيك أن تقولى كما كان رسول الله صلى الله عليه

(١) من أول الحديث إلى هنا ليس فى سنن أبى داود فى باب تعليق التائم . وهو عند ابن ماجه بلفظ « كانت عجوز تدخل علينا من الحمرة . وكان لنا سرير طويل القوائم . وكان عبد الله إذا دخل تنضح وصوت ، فدخل يوماً ، فلما سمعت صوتته احتجبت منه ، فجاء مجلس إلى جانبي فمضى فوجد مس خيط ، فقال : ما هذا ؟ فقلت : رقى لى فيه من الحمى ، فحذبه فقطعه فرمى به ، ثم قال : لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - الخ » .

يقول : « إن الرقي والتأمم والتولة شرك » رواه أحمد وأبو داود .

وسلم يقول « أذهب الباس ، رب الناس ، واشف أنت الشافي ، لاشفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » ورواه ابن ماجة وابن حبان ، والحاكم وقال : صحيح ، وأقره الذهبي .

قوله ﴿ إن الرقي ﴾ قال المصنف (هي التي تسمى العزائم ، وخس منه الدليل ما خلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحمة) يشير إلى أن الرقي الموصوفة بكونها شركاً هي التي يستعان فيها بغير الله ، وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته ، ولما أتور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهذا حسن جائز ، أو مستحب .

قوله (فقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحمة) كما تقدم ذلك في باب من حقق التوحيد . وكذا رخص في الرقي من غيرها ، كما في صحيح مسلم عن عوف بن مالك « كنا نرقي في الجاهلية ، قلنا : يارسول الله ، كيف ترى في ذلك ؟ فقال : اعرضوا على رقاكم . لا بأس بالرقي ما لم تكن شركاً » وفي الباب أحاديث كثيرة .

قال الخطابي : وكان عليه السلام قد رقى ورقي ، وأمر بها وأجازها ؛ فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها ، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب ، فإنه ربما كان كفوفاً أو قولاً يدخله شرك .

قلت : من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها ، وأنها تدفع عنهم الآفات ويعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعوتهم . وبنحو هذا ذكر الخطابي .

وقال شيخ الإسلام : كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به ، فضلاً عن أن يدعو به ، ولو عرف معناه ؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية ، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية ، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام^(١) .

(١) وذلك مثل قول أرباب الطرق الصوفية في أورادهم « كركدن كرددن دهمه ، أصباوت أهيا شراها جلاجوت » وأمثالها مما يقولون عنه إنه ذكر الله ، فهذا كله ليس من دين الإسلام في شيء . لأن الإسلام عربي مبين ، وهذا وغيره يدل على أن أصل هذه الطرق الصوفية خدعة يهودية هندية فارسية يونانية . كادوا بها للمسلمين ففروهم شيعاً وأحزاباً وملاً وقلوبهم من الشرك في الإلهية والشرك في الربوبية . فوصلوا من ذلك إلى ما يريدون من تفويض الدولة الإسلامية .

« التأمم » : شىء يُعلق على الأولاد من العين ، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ، ويجعله من المنهى عنه ، منهم ابن مسعود رضى الله عنه .

وقال السيوطى : قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاث شروط : أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته ، وباللسان العربى وما يعرف معناه ، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى .

قوله ﴿ والتأمم ﴾ قال المصنف ﴿ شىء يعلق على الأولاد من العين ﴾ وقال الخلاخالى : التأمم : جمع نيمة ، وهى ما يعلق بأعناق الصبيان من خرازات وعظام لدفع العين ، وهذا منهى عنه ، لأنه لا دافع إلا الله ، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته . قال المصنف ﴿ لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهى عنه . منهم ابن مسعود ﴾ .

اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا فى جواز تعليق التأمم التى من القرآن وأسماء الله وصفاته ، فقالت طائفة : يجوز ذلك ، وهو قول عبد الله بن عمرو ابن العاص^(١) وهو ظاهر ماروى عن عائشة ، وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد فى رواية . وحلوا الحديث على التأمم التى فيها شرك .

وقالت طائفة : لا يجوز ذلك ، وبه قال ابن مسعود وابن عباس . وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم ، وبه قال جماعة من التابعين ، منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد فى رواية اختارها كثير من أصحابه ، وجزم بها المتأخرون ، واحتجوا بهذا الحديث وما فى معناه^(٢)

(١) الرواية بذلك ضعيفة . ولا تدل على هذا ؛ لأن فيها أن ابن عمرو كان يحفظه أولاده الكبار . ويكتبه فى ألواح ويلقنه فى عنق الصغار . فالظاهر أنه كان يلقنه فى اللوح ليحفظه الصغير ، لا على أنه نيمة ، والنيمة تكتب فى ورقة لا فى لوح . وبدليل تحفيظه الكبار . وكيفما كان فهو عمل فردى من عبد الله بن عمرو ، لا يترك به حديث رسول الله وعمل كبار الصحابة الذين لم يعملوا مثل عبد الله بن عمرو رضى الله عنهم .

(٢) فى قررة العيون : والمقصود بيان أن هذه الأمور الشركية وإن خفيت فقد نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لكمال علمهم بما دلت عليه لا إله إلا الله من نفي الشرك قليله وكثيره لتعلق القلب بغير الله فى دفع ضرر أو جلب نفع ، وقد عمّت البلوى بما هو أعظم =

و « الرقى » : هي التي تسمى العزائم ، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك
رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحمة .
و « التولة » : شيء يصنعونه يزعمون أنه يجب المرأة إلى زوجها، والرجل
إلى امرأته .

قلت : هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل . الأول : عموم النهي ولا مخصص
للعوم ، الثاني : سد الذريعة ، فإنه يفضى إلى تعليق ما ليس كذلك ، الثالث : أنه إذا علق
فلا بد أن يتمنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك ^(١) .

وتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف رضى الله تعالى عنهم يتبين لك بذلك
غربة الإسلام ، خصوصاً إن عرفت عظيم ما وقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة من تعظيم
القبور واتخاذ المساجد عليها والإقبال إليها بالقلب والوجه ، وصرف جل الدعوات والرغبات
والرهبات وأنواع العبادات التي هي حق الله تعالى إليها من دونه ، كما قال تعالى (١٠:١٠٦) ،
١٠٧ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين ،
وإن يمسسك الله يضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به
من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) ونظائرهما في القرآن أكثر من أن تحصر .

قوله ﴿ التولة ﴾ قال المصنف هي ﴿ شيء يصنعونه يزعمون أنه يجب المرأة إلى زوجها ،
والرجل إلى امرأته ﴾ وبهذا فسرها ابن مسعود راوى الحديث ، كما في صحيح ابن حبان

== من ذلك بأضعاف مضاعفة ، فمن عرف هذه الأمور الشركية المذكورة في هذين البابين عرف
ما وقع مما هو أعظم من ذلك كما تقدم بيانه ، وفيه : ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من
التحذير من الشرك والتغليظ في إنكاره ، وإن كان من الشرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر .
(١) ولأن فعل ذلك استهزاء أشد استهزاء بآيات الله ومناقضة لما جاءت به ومحادة لله

ولرسوله ، فإن الله أنزل القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، وشفاء لما في
الصدور ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً . وإنه لتذكرة للمتقين . وإنه لحسرة على الكافرين .
وإنه لحق اليقين . ولم ينزل القرآن ليتخذ حجبا وتماثم . ولا ليتلاعب به المتأكلون به .
الذين يشترون به ثمناً قليلاً . والذين يقرأونه على المقابر ، وأمثال ذلك مما ذهب بحرمة القرآن
وجرأ الرؤساء على ترك الحكم به .

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً « من تعلق شيئاً وكل إليه » رواه أحمد

والترمذى .

والحاكم « قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، هذه الرقى والتائم قد عرفناها . فما التولة ؟ قال : شيء تصنعه النساء يتحبن به إلى أزواجهن » .

قال الحافظ : التولة - بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً - شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها ، وهو ضرب من السحر^(١) والله أعلم .

وكان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى .

قال المصنف ﴿ وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً « من تعلق شيئاً وكل إليه » رواه أحمد والترمذى ﴾ ورواه أبو داود والحاكم ، وعبد الله بن عكيم : هو بضم المهملة مصغراً . ويكنى أبا معبد ، الجهني السكوفي . قال البخارى : أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يعرف له سماع صحيح . وكذا قال أبو حاتم . قال الخطيب : سكن الكوفة وقدم المدائن فى حياة حذيفة . وكان ثقة . وذكر ابن سعد عن غيره : أنه مات فى ولاية الحجاج .

قوله ﴿ من تعلق شيئاً وكل إليه ﴾ التعلق يكون بالقلب ، ويكون بالفعل ، ويكون بهما^(٢) « وكل إليه » أى وكله الله إلى ذلك الشيء الذى تعلقه ، فمن تعلق بالله وأنزل

(١) وإن زعم الذين يصنعونها للنساء : أنهم مسلمون ومتدينون ، وأن ما يكتبونه من القرآن وأسماء الله ، فإنهم يفعلون ذلك تضليلاً بالقرآن وإلحاداً فيه ؛ لأنهم يكتبونه على طريقة اليهود حروفاً مقطعة وبمداد خاص ، ويمزجونه بأدعية جاهلية وبخطوط يزعمونها على صورة خاتم سليمان الذى كان فيه سر ملكه - كما يزعم اليهود الذين يعتقدون كفر سليمان ، وأنه كان يسخر الجن بالسحر لبعجزة من الله . وعلى هذه العقيدة اليهودية الدجالون الذين يكتبون التائم والتولات ، ويزعمون أن للحروف والأسماء خداما يقومون بما يطلب منهم من الأعمال السحرية . ويتخذون أنواعاً من البخور والأدوات المخصوصة التى يوحى بها شياطينهم . وكل ذلك من الكفر العظيم .

(٢) فى قرة العيون : التعلق يكون بالقلب وينشأ عنه القول والفعل . وهو النضاف القلب عن الله إلى شيء يعتقد أنه يفعله أو يدفع عنه كما تقدم بيانه فى الأحاديث فى هذا الباب والذى قبله وهو ينافى قوله تعالى (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فإن كان من الشرك الأصغر فهو ينافى كمال التوحيد ، وإن كان من الشرك الأكبر كعبادة أرباب القبور والمشاهد والطواغيت ونحو ذلك فهو كفر بالله ، وخروج عن دين الإسلام ، ولا يصح معه قول ولا عمل .

وروى أحمد عن رُوَيْفِع قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يارُوَيْفِع ،

حوائجهم به ، والتجأ إليه ، وفوض أمره إليه ، كفاه وقرب إليه كل بعيد وبسر له كل عسير ، ومن تعلق بغيره أو سكن إلى رأيه وعقله ودوانه وتمأنه ونحو ذلك ، وكله الله إلى ذلك وخذله ، وهذا معروف بالنصوص والتجارب ، قال تعالى (٦٥ : ٣) ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشام بن القاسم حدثنا أبو سعيد المؤدب حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال « لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت ، فقلت : حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامى هذا وأوجز . قال : نعم ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود : يا داود ، أما وعزتي وعظمتي ، لا يعتمصم بى عبد من عبادى دون خلقى ، أعرف ذلك من نيته ، فتكيدته السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن : إلا جعلت له من بينهن مخرجاً . أما وعزتي وعظمتي لا يعتمصم عبد من عبادى بمخلوق دونى ، أعرف ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السماء من يده ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم لا أبالى بأبى أوديتها هلك » . قال المصنف ﴿ وروى الإمام أحمد عن رُوَيْفِع قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يارُوَيْفِع ، لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وترأ أو استنجى برجيع دابة أو عظم ، فإن محمداً برىء منه ﴾ .

الحديث رواه الإمام أحمد عن يحيى بن إسحاق والحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن ابن لهيعة . وفيه قصة اختصرها المصنف . وهذا لفظ الحسن : حدثنا ابن لهيعة حدثنا عياش بن عباس عن شُيْم بن بيتان قال : حدثنا رُوَيْفِع بن ثابت قال : « كان أحدنا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما يغم له النصف ، حتى إن أحدنا ليصير له النصل والريش ، وللآخر القدح . ثم قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحديث « ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان حدثنى الفضل حدثنا عياش بن عباس : أن شُيْم بن بيتان أخبره أنه سمع شيبان القتباني - الحديث ^(١) . ابن لهيعة فيه مقال .

(١) الحديث رواه أبو داود فى باب ما ينهى عنه أن يستنجى به : حدثنا يزيد بن خالد =

لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس : أن من عقد لحيته أو تقلد وترّاً .

وفي الإسناد الثاني : شيان القتباني . قيل : فيه مجهول . وبقية رجالهما ثقات .
قوله ﴿ لعل الحياة ستطول بك ﴾ فيه علم من أعلام النبوة ، فإن رويها طالت حياته إلى سنة ست وخسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها ، وهو من الأنصار . وقيل : مات سنة ثلاث وخمسين .

قوله ﴿ فأخبر الناس ﴾ دليل على وجوب إخبار الناس ، وليس هذا مختصاً برويها ، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به ، فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية . قاله أبو زرعة في شرح سنن أبي داود .
قوله ﴿ أن من عقد لحيته ﴾ بكسر اللام لا غير ، والجمع لحي بالكسر والضم . قاله الجوهري قال الخطابي : أما نهي عن عقد اللحية فيفسر على وجهين . أحدهما : ما كانوا يفعلونه في الحرب ، كانوا يعقدون لحاهم ، وذلك من زى بعض الأعاجم يفتلون بها ويعقدونها . قال أبو السعادات : تكبراً ومجيباً ، ثانيهما : أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجدد ، وذلك من فعل أهل التأنيث . قال أبو زرعة بن العراقي ، والأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة ، كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع . وفيه « أن من عقد لحيته في الصلاة »^(١) .

قوله « أو تقلد وترّاً » أى جملة قلادة في عنقه أو عنق دابته . وفي رواية محمد بن الربيع

== ابن عبد الله بن موهب الهمداني أخبرنا الفضل يعني ابن فضالة المصري عن عياش بن عباس القتباني - بكسر القاف - أن شميم بن بيتان أخبره عن شيان القتباني أن مسلمة بن مخلد استعمل رويها بن ثابت على أسفل الأرض . قال شيان : فسرنا معه - الخ . ثم ساق له سندا آخر : حدثنا يزيد بن خالد حدثنا مفضل عن عياش أن شميم بن بيتان أخبره بهذا الحديث أيضاً عن أبي سالم الجيشاني عن عبد الله بن عمرو . هـ . وليس في أحدهما ابن لهيعة . وقال المنذرى : ورواه النسائي .

(١) في قرة العيون : قلت : ويشبه هذا ما يفعله كثير من قتل أطراف الشارب فيترك أطرافه لذلك وهي بعضه ، وفي حديث زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يأخذ من شاربه فليس منا » رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال : صحيح . وفي الصحيح « خالفوا المشركين : احفوا الشوارب ، واعفوا اللحى » وذلك يدل على الوجوب . وذكر ابن حزم الإجماع على أنه فرض ، فيتعين النهي عن ذلك .

أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً برىء منه .

وعن سعيد بن جبير قال : « من قطع تيممة من إنسان كان كعدل رقبة » .
رواه وكيع .

وله عن إبراهيم قال : « كانوا يكرهون التأمم كلها ، من القرآن وغير القرآن »

« أو تقلد وترا - يريد تيممة » .

فإذا كان هذا فيمن تقلد وترا . فكيف بمن تعلق بالأموال ، وسألهم قضاء الحاجات ،
وتفريج السكرات ، الذي جاء النهي عنه وتغليظه في الآيات المحكمات ؟
قوله ﴿ أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً برىء منه ﴾ قال النووي : أى برىء
من فعله ، وهذا خلاف الظاهر . والنووي كثيراً ما يتأول الأحاديث بصرفها عن ظاهرها ،
فيغفر الله تعالى له .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً « لا تستنجوا بالروث ولا العظام ،
فإنه زاد إخوانكم من الجن » وعليه لا يجزى الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد ،
لما روى ابن خزيمة والدارقطنى عن أبي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن
يستنجى بعظم أو روث ، وقال : إنهما لا يطهران » .

قوله ﴿ وعن سعيد بن جبير قال « من قطع تيممة من إنسان كان كعدل رقبة » رواه
وكيع ﴾ هذا عند أهل العلم له حكم الرفع ؛ لأن مثل ذلك لا يقال بالرأى ، ويكون هذا
مرسلاً ؛ لأن سعيداً تابعي^(١) . وفيه : فضل قطع التأمم لأنها شرك .

ووكيع : هو ابن الجراح بن وكيع السكوفي ، ثقة إمام ، صاحب تصانيف ، منها الجامع
وغيره . روى عنه الإمام أحمد وطبقته . مات سنة سبع وتسعين ومائة .

قوله ﴿ وله عن إبراهيم قال : كانوا يكرهون التأمم كلها - من القرآن وغير القرآن ﴾

(١) في قرّة العيون : فعلى هذا يجب النهي عن تعليق التأمم والترغيب في قطعها وأن ذلك
مما يجب ، وفيه مع ما تقدم أنه شرك ، وبيان حال السلف رضى الله عنهم من تعظيم الشرك قليله
وكثيره والنهي عنه ، فلما اشتدت غربة الإسلام في أواخر هذه الأمة صار إنكار هذا وما هو
أعظم منه أعظم المنكرات حتى عند من ينتسب إلى العلم كما لا يخفى .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الرقي والتأمم .

الثانية : تفسير التولة .

الثالثة : أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء .

الرابعة : أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك .

الخامسة : أن التيمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء : هل هي

من ذلك أم لا ؟

السادسة : أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك .

السابعة : الوعيد الشديد على من تعلق وترأ .

الثامنة : فضل ثواب من قطع تيمة من إنسان .

التاسعة : أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف ، لأن مراده

أصحاب عبد الله .

باب

(من تبرك بشجر أو حجر ونحوها)

وإبراهيم هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي ، يكنى أبا عمران ، ثقة من كبار الفقهاء . قال المزي : دخل على عائشة ، ولم يثبت له سماع منها . مات سنة ست وتسعين ، وله خمسون سنة أو نحوها .

قوله ﴿ كانوا يكرهون التأمم - إلى آخره ﴾ مراده بذلك : أصحاب عبد الله بن مسعود ، كملقمة والأسود وأبي وائل والحارث بن سويد ، وعبيدة السلماني ومسروق والربيع ابن خنيم وسويد بن غفلة وغيرهم ، وهم من سادات التابعين وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم في حكاية أقوالهم ، كما بين ذلك الحفاظ كالعراق وغيره .

قوله ﴿ باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوها ﴾ كقعة وقبر ونحو ذلك ، أى فهو مشرك

وقول الله تعالى (٥٣ : ١٩) أفرايتم اللات والعزى ٢٠ ومناة الثالثة الأخرى

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٥٣ : ١٩ - ٢٣ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى - الآيات ﴾ وكانت اللات لثقيف ، والعزى لقريش وبنى كنانة ، ومناة لبني هلال . وقال ابن هشام : كانت لهذيل وخزاعة .

فأما « اللات » فقرأ الجمهور بتخفيف التاء ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح ورويس عن يعقوب بتشديد التاء .

فعلى الأولى : قال الأعمش : سمو اللات من الإله ، والعزى من العزيز . قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى ، فقالوا : اللات مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . قال : وكذا العزى من العزيز .

وقال ابن كثير : اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحواله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش . قال ابن هشام : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبه ، فهدمها وحرقها بالنار .

وعلى الثانية : قال ابن عباس « كان رجلا يلت السويق للحاج ؛ فلما مات عكفوا على قبره » ذكره البخارى . قال ابن عباس « كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويسلوه عليها ؛ فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق^(١) » وعن مجاهد نحوه وقال « فلما مات عبده » رواه سعيد بن منصور . وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس « أنهم عبده » وبنحو هذا قال جماعة من أهل العلم . قلت : لا منافاة بين القولين . فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تأليها وتعظيماً .

(١) وفى النهاية : السلاء السمن . وفى فتح البارى (ج ٨ ص ٤٣٣) وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس - ولفظه فيه زيادة - « كان يلت السويق على الحجر ، فلا يشرب منه أحد إلا سمن ، فعبده » واختلف فى اسم هذا الرجل : فعن مجاهد « كان رجلا فى الجاهلية على صخرة بالطائف وعليها له غنم فكان يسلؤ من رسلها . ويأخذ من زبيب الطائف والأطط فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر به من الناس . فلما مات عبده . وزعم بعض الناس أنه عامر بن الظرب . اه مختصراً .

ولمثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثاناً . وفيه : بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام .

وأما « العزى » فقال ابن جرير : كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة - بين مكة والطائف - كانت قريش يعظمونها . كما قال أبو سفيان يوم أحد « لنا العزى ولا عزى لكم » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » وروى النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال : « لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة - وكانت بها العزى ، وكانت على ثلاث سمرات - فقطع السمرات ، وهدم البيت الذى كان عليها . ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره . فقال : ارجع ، فإنك لم تصنع شيئاً ، فرجع خالد ؛ فلما أبصرته السدنة أمعنوا فى الجبل وهم يقولون : يا عزى يا عزى ، فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحمض التراب على رأسها فعمها بالسيف فقتلها . ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : تلك العزى « قلت : وكل هذا وما هو أعظم منه يقع فى هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات وفى المشاهد .

وأما « مناة » فكانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج وأصل اشتقاقها : من اسم الله المنان ، وقيل : لكثرة ما يُمنى - أى يُراق - عندها من الدماء للتبرك بها .

قال البخارى رحمه الله ، فى حديث عروة عن عائشة رضى الله عنها « إنها صنم بين مكة والمدينة » قال ابن هشام « فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فهدمها عام الفتح » فعنى الآية كما قال القرطبي : أن فيها حذفاً تقديره : أفرأيتم هذه الآلهة : أنعمت أو ضرت ، حتى تكون شركاء لله تعالى ؟

وقوله (ألكم الذكركم وله الأنثى ؟) قال ابن كثير : أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى وتختارون لكم الذكور ؟ قوله (تلك إذا قسمة ضيزى) أى جور وباطلة . فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً ، فتزهدون أنفسكم عن الاناث وتجعلوهن لله تعالى . وقوله (إن هى إلا أسماء سميتوهن أنتم وآبائكم) أى من تلقاء أنفسكم (ما أنزل الله بها من سلطان) أى من حجة (إن تتبعون إلا الظن) أى ليس لهم مستند إلا

عن أبي واقد الليثي قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

حسن ظنهم بأبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم^(١) (وما تهوى الأنفس) وإلا حظ أنفسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين . قوله (واقدا جاءهم من ربهم الهدى) قال ابن كثير : ولقد أرسل الله تعالى إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءهم ولا اتقادوا له . اه .

ومطابقة الآيات للترجمة من جهة أن عباد هذه الأوثان إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائها والاستعانة بها والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها ويؤمنونه ببركتها وشفاعتها وغير ذلك ، فالتبرك بقبور الصالحين كاللوات ، وبالأشجار والأحجار كالعزى ومناة^(٢) من ضمن فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان ، فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عباد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك ؛ على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك .
فإنه المستعان .

قوله ﴿ عن أبي واقد الليثي قال « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعلفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال

(١) الظن هنا : ظن المشركين بأوليائهم أنها تسمع الدعاء وتجييب ، فإنهم ليس لهم علم بذلك لامن طريق حواسهم . ولا من خبر صادق ، وإنما هو مما يشيعه السدنة ترويحاً لتجارتهن الحاضرة . ويزيد الجاهلين تعلقاً بأوليائهم من دون الله : ما تهوى أنفسهم من قضاء حاجاتهم بغير الأسباب السكونية ، فهم يعظمون أولئك الموتى لهوى أنفسهم وقضاء وطهرهم لا حباً في الإيمان والمؤمنين . ولذلك تراهم ينتقلون من ميت إلى آخر إذا لم يجدوا مسألتهم قضيت عند الأول . وهكذا ترى السدنة إذا انتقلوا من وظيفة عند هذا الولي الذي كان في نظرهم كبيراً أصبح الولي الذي انتقلوا عند قبره أعظم بركة وأكثر كرامات . والله يقول : إن هؤلاء جميعاً لا يتبعون إلا هوى أنفسهم . وهم كاذبون أعظم الكذب في دعواهم حب الأولياء والصالحين .
(٢) ما كانوا يتبركون بالعزى ومناة على أنها أحجار مجردة ، وإنما كانوا يعتقدون فيها البركة من العزى التي كانت امرأة يزعمون أنها ولية ودفنت عند هذه الشجيرات . وكذلك مناة . ولذلك سماوا الأشجار العزى والحجر مناة ، كما يسمى الناس اليوم النحاس الذي يقام على القبر حسينا وزينب وغيرها من الصالحين ، فهم يتبركون بها على هذه العقيدة الجاهلية .

حُنين ، ونحن حَدَثناه عهد بكفر ، وللمشركين سِدْرَةٌ يَعْكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذاتُ أنواط ، فررنا بسدرة ؛

لها ذات أنواط ، فررنا بسدرة ، فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، إنها السنن ، قاتم والذي نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهاً كإلههم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون) لتركبن سنن من كان قبلكم » رواه الترمذى وصححه .

أبو واقد : اسمه الحارث بن عوف ، وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة . قاله الترمذى . وقد رواه أحمد وأبو يعلى وابن أبي شيبه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى بنحوه .

قوله ﴿ عن أبي واقد ﴾ قد تقدم ذكر اسمه في قول الترمذى . وهو صحابى مشهور . مات سنة ثمان وستين ، وله خمس وثمانون سنة .

قوله ﴿ خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ﴾ وفي حديث عمرو بن عوف وهو عند ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبرانى قاله « غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ، ونحن ألف ونيف حتى إذا كنا بين حنين والطائف - الحديث » .

قوله ﴿ ونحن حدثناه عهد بكفر ﴾ أى قريب عهدنا بالكفر ، فقيه : دليل على أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا ، وأن المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة . ذكره المصنف رحمه الله .

قوله ﴿ وللمشركين سِدْرَةٌ يَعْكفون عندها ﴾ العكوف : هو الإقامة على الشيء فى المكان ، ومنه قول الخليل عليه السلام (٥٢:٢١ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟) وكان عكوف المشركين عند تلك السدرة تبركاً بها وتعظيماً لها^(١) وفى حديث عمرو « كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط . وكانت تعبد من دون الله » .

قوله ﴿ وينوطون بها أسلحتهم ﴾ أى : يملقونها عليها للبركة .

(١) كما يعكف اليوم عباد القبور عندها ، ويجاورون . معتقدين أن لهم بذلك الزلفى والقربى . ويعتقد الجاهلون لهم ذلك ، فيعاونونهم بالنذور لتلك القبور والصدقات ، قربة لأولئك الموتى . وكل ذلك من الشرك الأكبر .

فقلنا : يارسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، إنها السنن . قلمت ، والذي نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (٧ : ١٣٨) اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

قلت : ففي هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك ، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها .

قوله ﴿ فقلنا : يارسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط ﴾ قال أبو السعادات : سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك . وأنواط جمع نوط ، وهو مصدر سمي به المنوط . ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله وقصدوا التقرب به ، وإلا فهم أجل قدراً من أن يقصدوا مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله ﴿ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ﴾ وفي رواية « سبحان الله ! » والمراد تعظيم الله تعالى وتنزيهه عن هذا الشرك بأى نوع كان ، مما لا يجوز أن يطلب أو يقصد به غير الله . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعمل التكبير والتسبيح في حال التعجب ، تعظيماً لله وتنزيهاً له إذا سمع من أحد ما لا يليق بالله مما فيه هضم للربوبية أو الإلهية . قوله ﴿ إنها السنن ﴾ بضم السين : أى الطرق .

قوله ﴿ قلمت ، والذي نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ شبه مقالاتهم هذه بقول بنى إسرائيل ، بجامع أن كلا طلب أن يجعل له ما ياله ويعبده من دون الله ، وإن اختلف اللفظان . فالعنى واحد ، فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة .

ففيه : الخوف من الشرك ، وأن الإنسان قد يستحسن شيئاً يظن أنه يقر به إلى الله ، وهو أبعد ما يبعده من رحمته ويقربه من سخطه ، ولا يعرف هذا على الحقيقة إلا من عرف ما وقع في هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور ، من الغلو فيها وصرف جل العبادة لها ، ويحسبون أنهم على شيء ، وهو الذنب الذى لا يغفره الله .

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعى المعروف بابن أبى شامة فى كتابه انبذع والحوادث : ومن هذا القسم أيضاً ما قد عمَّ الابتلاء به من تزوين الشيطان للعامة : تخليق الحيطان والعُمد ، وإسراج مواضع مخصوصة فى كل بلد ، يحكى لهم حاك أنه رأى فى

منامه بها أحداً من شهر بالصلاح والولاية ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم لفرائض الله تعالى وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها ، وهى من عيون وشجر وحائط وحجر . وفى مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة كموينة الحمى خارج باب توما ، والعمود الخلق داخل باب الصغير ، والشجرة الملعونة خارج باب النصر فى نفس قارة الطريق ، سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها ، فما أشبهها بذات أنواع الواردة فى الحديث ^(١) . انتهى .

وذكر ابن القيم رحمه الله نحو ما ذكره أبو شامة ، ثم قال : فما أمرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت ، ويقولون : إن هذا الحجر وهذه الشجرة ، وهذه العين تقبل النذر ، أى تقبل العبادة من دون الله ؛ فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له ، وسيأتى ما يتعلق بهذا الباب عند قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » .

وفى هذه الجملة من الفوائد : أن ما يفعله من يعتقد فى الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والمكوف عندها والذبح لها هو الشرك ، ولا يفتقر بالعوام والطعام ، ولا يستبعد كون الشرك بالله تعالى يقع فى هذه الأمة ، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً وطلبوه من النبي صلى الله عليه وسلم حتى بين لهم أن ذلك كقول بنى إسرائيل (٧ : ١٣٨) اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فكيف لا يخفى على من هو دونهم فى العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبُعد المهذ بأثار النبوة ؟ ! بل خفى عليهم عظام الشرك فى الإلهية والربوبية ، فأكثرُوا فعله واتخذوه قربة .

(١) وفى مصر كذلك من هذه القبور المنامية ونحوها كقبر الحسين وزينب رضى الله عنهما ، وكثير مما يسمى بالأربعين ، بناء على عقيدة أجبث من عقيدة أهل الجاهلية الأولى ، وهى عقيدة أن الولي يتشكل فى أربعين جسماً . وزعم الدباغ مبالغة فى الوقاحة والضلال أنه يكون للولي ثلاثمائة وستون جسماً . وكفى فى مصر من هذه المواضع الشركية من قبور وأشجار وأحجار . عجل الله بتطهير البلاد منها كما طهر الحجاز بيد جلاله الملك عبد العزيز آل سعود ، رحمه الله وأجزل مثوبته . ومد فى حياة ولده جلاله الملك سعود وأعز به العرب والمسلمين ، وأعلايه منار الإسلام .

قال : إنكم قوم تجهلون (لَتَرَ كُفْبَنَ سَنَنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) رواه الترمذى وصححه .
فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النجم .

الثانية : معرفة صورة الأمر الذى طلبوا ^(١) .

الثالثة : كونهم لم يفعلوا .

الرابعة : كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك . لظنهم أنه يحبه .

الخامسة : أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل .

السادسة : أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم .

السابعة : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعذرهم الأمر ، بل رد عليهم بقوله :

وفىها : أن الاعتبار فى الأحكام بالمعاني لا بالأسماء ، ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم طلبتهم كطلبة بنى إسرائيل ، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط . فالمشرك مشرك وإن سمي شركه ما سماه . كمن يسمي دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيما ومحبة ، فإن ذلك هو الشرك ، وإن سماه ما سماه . وقس على ذلك .

قوله ﴿ لَتَرَ كُفْبَنَ سَنَنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ﴾ ^(٢) بضم الموحدة وضم السين أى طرفهم

(١) يعنى أنهم لم يطلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه من دون الله ، لأنهم كانوا أجل وأعقل من ذلك ، وإنما طلبوا شجرة يأذن لهم النبي فيها فيتبركون بها ويعلقون عليها أسلحتهم دون أن يصلوا أو يتصدقوا لها ، فبين لهم أن ما طلبوا من التبرك ولو لم يكن صلاة ولا صياما ولا صدقة هو الشرك بعينه . وفيه إبطال لشبهة مشركى هذا الزمان وزعمهم أن ما يفعلونه تبرك وتعظيم لا بأس به .

(٢) أى اليهود والنصارى ، وقد وقع كما أخبر به صلى الله عليه وسلم فى هذه الأمة فركبوا طريق من كان قبلهم ممن ذكرنا كما هو فى الأحاديث الصحيحة كحديث « لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدختموه » قالوا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال « فئن ؟ » وهو فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، وفى رواية « ومن الناس إلا أولئك ؟ »

«الله أكبر إنها السنن ، لتبعن سنن من كان قبلكم» فغلظ الأمر بهذه الثلاث .
الثامنة : الأمر الكبير ، وهو المقصود : أنه أخبر أن طلبتهم كطلبه بنى
إسرائيل لما قالوا لموسى (اجعل لنا إلهاً) .

التاسعة : أن نفى هذا من معنى «لا إله إلا الله» مع دقته وخفائه على أولئك
العاشرة : أنه حلف على الفتيا ، وهو لا يحلف إلا لمصلحة .

الحادية عشرة : أن الشرك فيه أكبر وأصغر ، لأنهم لم يرتدوا بهذا^(١) .
الثانية عشرة : قولهم «ونحن حدثنا عهد بكفر» فيه أن غيرهم لا يجمل ذلك .
الثالثة عشرة : التكبير عند التعجب ، خلافا لمن كرهه .
الرابعة عشرة : سد الذرائع .

الخامسة عشرة : النهي عن التشبه بأهل الجاهلية .
السادسة عشرة : الغضب عند التعليم .

السابعة عشرة : القاعدة الكلية لقوله «إنها السنن» .
الثامنة عشرة : أن هذا علم من أعلام النبوة ، لكونه وقع كما أخبر .
التاسعة عشرة : أن مازم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا .

ومناهجهم . وقد يجوز فتح السين على الأفراد أى طريقهم . وهذا خبر صحيح . والواقع
من كثير من هذه الأمة يشهد له .

وفيه : علم من أعلام النبوة من حيث إنه وقع كما أخبر به صلى الله عليه وسلم .
وفي الحديث : النهي عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه ،
إلا ما دلّ الدليل على أنه من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

(١) ليس ما طلبوه من الشرك الأصغر ، ولو كان منه لما جعله النبي صلى الله عليه وسلم
نظير قول بنى إسرائيل (اجعل لنا إلهاً) وأقسم على ذلك ، بل هو من الشرك الأكبر كما أن
ماطلبه بنو إسرائيل من الأكبر . وإنما لم يكفروا بطلبهم لأنهم حدثنا عهد بالإسلام ، ولأنهم
لم يفعلوا ما طلبوه ولم يقدموا عليه ، بل سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فتأمل .

العشرون : أنه متقررٌ عندهم أن العبادات مبناهما على الأمر ، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر . أما « مَنْ ربك ؟ » فواضح ، وأما « مَنْ نبيك ؟ » فن إخباره بأبناء الغيب . وأما « ما دينك ؟ » فن قولهم « اجعل لنا » إلى آخره .
الحادية والعشرون : أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين .
الثانية والعشرون : أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة ، لقولهم : « ونحن حدثاء عهد بكفر » .

باب

(ماجاء في الذبح لغير الله)

قال المصنف رحمه الله : ﴿ وفيه : التنبيه على مسائل القبر ، أما : مَنْ رَبُّكَ ؟ فواضح . وأما : « مَنْ نبيك ؟ » فن إخباره بأبناء الغيب . وأما : « ما دينك ؟ » فن قولهم (اجعل لنا إلهاً) الخ . وفيه : أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة خلافاً لمن ادعى خلاف ذلك ، وفيه : الغضب عند التعليم ، وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى فإنه قاله لنا لنحذره ﴿ قاله المصنف رحمه الله .

وأما ما ادعاه بعض المتأخرين من أنه يجوز التبرك بآثار الصالحين فممنوع من وجوه : منها : أن السابقين الأولين من الصحابة ومن بعدهم لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبي صلى الله عليه وسلم ، لا في حياته ولا بعد موته . ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، وأفضل الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم . وقد شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن شهد له بالجنة ؛ وما فعله أحد من الصحابة والتابعين مع أحد من هؤلاء السادة ، ولا فعله التابعون مع ساداتهم في العلم والدين وهم الأسوة . فلا يجوز أن يقاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد من الأمة ، وللنبي صلى الله عليه وسلم في حال الحياة خصائص كثيرة لا يصلح أن يشاركه فيها غيره .

ومنها : أن في المنع عن ذلك سداً لذريعة الشرك كما لا يخفى .

قوله : ﴿ باب ماجاء في الذبح لغير الله ﴾ أي : من الوعيد ، وأنه شرك بالله .

وقول الله تعالى (٦ : ١٦٢ ، ١٦٣ قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

قوله ﴿ وقول الله تعالى : (٦ : ١٦٢ ، ١٦٣ قل إن صلاتي ^(١) ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له) الآية ﴾ .

قال ابن كثير : يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له : بأنه أخلص لله صلواته وذبيحته ؛ لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه ، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى .

قال مجاهد : النسك الذبح في الحج والعمرة . وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير : (ونسكي) ذبحي . وكذا قال الضحاك . وقال غيره (ومحياي ومماتي) أي : وما آتية في حياتي .

وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح (لله رب العالمين) خالصاً لوجهه (لا شريك له وبذلك) الإخلاص (أمرت وأنا أول المسلمين) أي من الأمة لأن إسلام كل نبي متقدم .

قال ابن كثير : وهو كما قال ، فإن جميع الأنبياء قبله كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى (٢١ : ٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وذكر آيات في هذا المعنى .

ووجه مطابقة الآية للترجمة : أن الله تعالى تعبد عباده بأن يتقربوا إليه بالنسك ، كما تعبدهم بالصلاة وغيرها من أنواع العبادات ، فإن الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع

(١) في قرة العيون : يشمل الفرائض والنوافل والصلوات كلها عبادة . وقد اشتملت على نوعي الدعاء : دعاء المسألة ، ودعاء العبادة فما كان فيها من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة وما كان فيها من الحمد والثناء والتسبيح والركوع والسجود وغير ذلك من الأركان والواجبات فهو دعاء عبادة . وهذا هو التحقيق في تسميتها صلاة ، لأنها اشتملت على نوعي الدعاء الذي هو صلاة لغة وشرعاً ﴿ ﴾ قرره شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله تعالى .

﴿ ﴾ وهي مأخوذة من « الصلاة » لأنها الصلة والمنحة التي وصل الله بها حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم ومنحه إياها في ليلة الوصل الأعظم : ليلة المعراج . وهي أقوى صلة بين المبد وبين ربه . لأنه فيها يناجي ربه كما في الأحاديث ، ومن ثم كانت قرة عين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مفزعه عند كل أمر يهجم . وكانت الفارق بين المسلم والكافر . فمن تركها فلا حظ له في الإيمان بالله وجهه ، ولا صلة بينه وبين ربه مهما حاول .

وقوله : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) .

عن علي رضي الله عنه قال : « حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع

العبادة له دون كل ماسواه ، فإذا تقربوا إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد جعلوا لله شريكا في عبادته ، وهو ظاهر في قوله (لا شريك له) نفي أن يكون لله تعالى شريك في هذه العبادات ، وهو بحمد الله واضح ^(١)

قوله ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك ، الدالتان على التقرب والتواضع والافتقار وحسن الظن ، وقوة اليقين ، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عِدَّتِهِ ، عكسَ حال أهل الكِبَرِ والثَّمَرَةِ ، وأهل النِفْيِ عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم ، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر ، ولهذا جمع بينهما في قوله : (قل : إن صلاتي ونسكي - الآية) والنسك : الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه . فإنهما أجل ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله ، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب ؛ لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى من الكوثر . وأجلُّ العبادات البدنية : الصلاة ، وأجلُّ العبادات المالية : النحرُ وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها ، كما عرفه أربابُ القلوب الحية ، وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص ، من قوة اليقين وحسن الظن : أمر عجيب ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثير الصلاة ، كثير النحر . اهـ

قلت : وقد تضمنت الصلاة من أنواع العبادات كثيراً ، فمن ذلك : الدعاء والتكبير ، والتسبيح والقراءة والتسميع والثناء ، والقيام والركوع ، والسجود والاعتدال ، وإقامة الوجه لله تعالى ، والإقبال عليه بالقلب ، وغير ذلك مما هو مشروع في الصلاة ، وكل هذه الأمور من أنواع العبادة التي لا يجوز أن يُصرف منها شيء لغير الله ، وكذلك النسك يتضمن أموراً من العبادة كما تقدم في كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

قوله ﴿ وعن علي بن أبي طالب قال : « حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع

(١) في قرة العيون : والقصود أن هذه الآية دلت على أن أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يُصرف منها شيء لغير الله كائنا من كان . فمن صرف منها شيئاً لغير الله فقد وقع فيها نفاه تعالى من الشرك بقوله (وما أنا من المشركين) والقرآن كله في تقرير هذا التوحيد في عبادته وبيانه ونفي الشرك والبراءة منه .

كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله .

كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من آوى مُحَدَّثًا ، ولعن الله من غير منار الأرض « رواه مسلم من طرق » وفيه قصة .

ورواه الإمام أحمد كذلك عن أبي الطفيل قال « قلنا لعلی : أخبرنا بشيء أسره إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما أسرَ إليّ شيئاً كتّمه الناس ، ولكن سمعته يقول : لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى مُحَدَّثًا ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من غير نخوم الأرض - يعنى : المنار » .

وعلى بن أبي طالب : هو الإمام أمير المؤمنين أبو الحسن الهاشمي ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء . وكان من أسبق السابقين الأولين ، ومن أهل بدر وبيعة الرضوان ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ورابع الخلفاء الراشدين ، ومناقبه مشهورة رضى الله عنه . قتله ابن ماجم الخارجي في رمضان سنة أربعين .

قوله ﴿ لعن الله ﴾ اللعن : البعدُ عن مظانِّ الرحمة ومواطنها . قيل واللعين والملعون : من حَقَّتْ عليه اللعنة ، أو دُعِيَ عليه بها .

قال أبو السعادات : أصل اللعن : الطرد والإبعاد من الله ، ومن الخلق : السب والدعاء .

قال شيخ الإسلام رحمه الله مامعناه : إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلّي سبحانه على من استحق الصلاة من عباده . قال تعالى (٣٣ : ٤٤ ، ٤٤) هو الذي يصلّي عليكم وملائكته ليخْرِجَكُم من الظلماتِ إلى النور وكان بالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا . تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) وقال (٣٣ : ٦٤) إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً) وقال (٣٣ : ٦١) ملعونين أينما تُفغفوا أخذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا) والقرآن كلامه تعالى أوحاه إلى جبريل عليه السلام وبلغه رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجبريل سمعه منه كما سيأتى في الصلاة إن شاء الله تعالى ، فالصلاة ثناء الله تعالى كما تقدم . فالله تعالى هو المصلّي وهو المنيب ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وعليه سلف الأمة . قال الإمام أحمد رحمه الله : « لم يزل الله متكلمًا إذا شاء » .

قوله ﴿ من ذبح لغير الله ﴾ قال شيخ الإسلام رحمه الله في قوله تعالى (٢ : ١٧٣) وما أهلَ به لغير الله ^(١) ظاهره : أنه ما ذبح لغير الله ، مثل أن يقول : هذا ذبيحة لكذا . وإذا كان هذا

(١) وفي سورة المائدة الآية (الثالثة) وسورة الأنعام الآية (١٤٥) وسورة النحل الآية =

هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ماذبجه للحم ، وقال فيه : باسم المسيح أو نحوه . كما أن ماذبجناه مقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبجناه للحم ، وقلنا عليه : بسم الله . فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة ، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى ؛ فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله . وعلى هذا : فلو ذبح لغير الله مقرباً إليه يحرم ^(١) . وإن قال فيه : بسم الله ، كما قد يفعله طائفة من منافق هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك ^(٢) وإن كان هؤلاء مرتدين لاتباع ذبيحتهم بحال . لكن يجتمع في الذبيحة مانعان . الأول : أنه مما أهل به لغير الله . والثاني : أنها ذبيحة مرتد . ومن هذا الباب : ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن ^(٣) ، ولهذا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذبائح الجن اه . قال الزمخشري : كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن ، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك .

وذكر إبراهيم المرزى : أن ماذبج عند استقبال السلطان تقرباً إليه ، أفتى أهل بخارى

== (١١٥) : (وما أهل لغير الله به) وأصل الإهلال : رفع الصوت والإعلام . فالمقصود بما أهل به لغير الله : ما أعلن عنه أنه مندور به لغير الله . سواء كان هذا الإهلال والإعلام قبل الذبج كأن يقال : هذه شاة السيدة فلانة والسيد فلان ، فيعرف الناس ذلك ، وأنها مهل بها لغير الله ولو سمي الذابج باسم الله . فإن هذه التسمية اللفظية لاغية . والعبرة بالإهلال الحقيقي بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير الله . وكذلك أيضاً ما سمي من الطعام أو الشراب ، أو غيره نذراً وقربة لغير الله . فكل طعام يصنع ليوزع على العاكفين عند هذه القبور والطواغيت باسمها وعلى بركتها هو مما أهل به لغير الله .

(١) بل يكون هذا الذبج شركاً أكبر (ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، وماواه النار ، وما للظالمين من أنصار) .

(٢) وهم الذين يكتبون الحجب والتأمم والتعاويد ونحوها ، فإنهم يتحرون بها يوم السبت في ساعة كذا أو غيره من الأيام والساعات . ويذبحون ويبخرون عند نزول الكواكب الفلاني في منزلة كذا ونحو هذا . وهم في البلاد الإسلامية كثير - لاكثرهم الله - ويعتقد العامة فيهم الصلاح والتقوى ، مع أنهم مشركون مرتدون مفسدون للعقول بدجلهم بهذه التأمم والحجب ومتخذون آيات الله هزواً ، ومقربون بهذه المناسك لغير الله ، فيالله ما أشد غربة الإسلام . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

(٣) وغير مكة ، باسم الزار وإخراج الجن للتلبس بالإنس . ويدقون لذلك الطبول .

لعن الله من لعن والديه . لعن الله من آوى مُحدثًا . لعن الله من غير منار الأرض .
رواه مسلم .

بتحريمه ؛ لأنه مما أهل به لعن الله .

قوله ﴿ لعن الله من لعن والديه ﴾ يعنى أباه وأمه وإن عليا . وفي الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من الكبائر شتم الرجل والديه ، قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم يسبُّ أبا الرجل فيسب أباه ، ويسبُّ أمه ، فيسب أمه » .

قوله ﴿ لعن الله من آوى مُحدثًا ﴾ أى : منعه من أن يؤخذ منه الحق الذى وجب عليه . و « آوى » بفتح الهمزة ممدودة : أى ضمه إليه وحماه .

قال أبو السعادات : أويت إلى المنزل ، وأويت غيرى ، وآويته . وأنكر بعضهم

المقصور المتعدى .

وأما « محدثا » فقال أبو السعادات : يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر : من نصر جانبا وآواه وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يقتص منه . وبالفتح : هو الأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والصبر عليه ؛ فإنه إذا رضى بالبدعة وأقر فاعلمها ولم ينكر عليه فقد آواه .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث

فى نفسه ، فكلما كان الحدث فى نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم .

قوله ﴿ ولعن الله من غير منار الأرض ﴾ بفتح الميم : علامات حدودها . قال أبو السعادات فى النهاية - فى مادة « تخم » - ملعون من غير تخوم الأرض : أى معالمها وحدودها ، واحدها تخم . قيل : أراد حدود الحرم خاصة ، وقيل : هو عام فى جميع الأرض ، وأراد المعالم التى يهتدى بها فى الطريق . وقيل : هو أن يدخل الرجل فى ملك غيره فيقطعها ظلماً . قال : ويروى « تخوم » بفتح التاء على الأفراد وجمعه تُخْم بضم التاء والحاء . اهـ .

وتغييرها : أن يقدمها أو يؤخرها ، فيكون هذا من ظلم الأرض الذى قال فيه النبى

صلى الله عليه وسلم « من ظلم شبراً من الأرض طوّقه يوم القيامة من سبع أرضين ^(١) »

فقيه : جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين .

(١) رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم عن عائشة ، وعن سميد بن زيد رضى الله عنهما .

وعن طارق بن شهاب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « دخل الجنة رجل في ذباب . ودخل النار رجل في ذباب . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟

وأما لعن الفاسق المعين : ففيه قولان ، أحدهما : أنه جائز . اختاره ابن الجوزي وغيره ، والثاني : لا يجوز ، اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الإسلام .

قوله ﴿ وعن طارق بن شهاب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم لا يماوزوه أحد حتى يقرب له شيئاً . قالوا لأحدهما : قرب . قال : ليس عندي شيء أقرب : قالوا قرب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً . فخلوا سبيله ، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب ، قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة » رواه أحمد ﴾ .

قال ابن القيم رحمه الله : قال الإمام أحمد رحمه الله ^(١) : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال « دخل رجل الجنة في ذباب - الحديث » .

وطارق بن شهاب : هو البجلي الأحمسي ، أبو عبد الله . رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو رجل . قال البغوي : نزل الكوفة . وقال أبو داود : رأى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه شيئاً ، قال الحافظ : إذا ثبت أنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم فهو صحابي . وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابي ، وهو مقبول على الراجح . وكانت وفاته - على ما جزم به ابن حبان - سنة ثلاث وثمانين .

قوله ﴿ دخل الجنة رجل في ذباب ﴾ أى من أجله .

قوله ﴿ قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ ﴾ كأنهم تقالوا ذلك ، وتعجبوا منه . فبين لهم

(١) الحديث في كتاب الزهد ص ١٥ س ١٨ وفي الحلية ج ١ ص ٢٠٣ موقوفاً فيهما كليهما على سليمان في الزهد وعلى سلمان في الحلية . وهو خطأ في الحلية ، لأن الحافظ ابن حجر قال في تعجيل المنفعة : سليمان بن ميسرة الأحمسي عن طارق بن شهاب وعنه الأعمش وحبيب ابن أبي ثابت ، وثقه ابن معين . وقال ابن حبان في ثقات التابعين : روى عن طارق بن شهاب وله صحة ، وقال ابن خلفون في الثقات : وثقه العجلي ويحيى والنسائي . اهـ

قال : مر رجلان على قوم لهم صنم . لا يجوزُهُ أحد حتى يُقربَ له شيئاً ، فقالوا لأحدهما : قرب . قال : ليس عندي شيء أُقرب . قالوا له : قرب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً ، فخلوا سبيله ، فدخل النار .

النبي صلى الله عليه وسلم ماصيِّر هذا الأمر الحقير عندهم عظيماً يستحق هذا عليه الجنة ، ويستوجب الآخر عليه النار .

قوله ﴿ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم ﴾ الصنم : ما كان منحوتاً على صورة ، ويطلق عليه الوزن كما مر^(١) .

قوله ﴿ لا يجاوزهُ ﴾ أى : لا يمر به ولا يتعداه أحد حتى يقرب إليه شيئاً وإن قل . قوله ﴿ قالوا له قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله ، فدخل النار ﴾ فى هذا : بيان عظمة الشرك ، ولو فى شيء قليل ، وأنه يوجب النار^(٢) . كما قال تعالى (٥ : ٧٢) إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) .

وفى هذا الحديث : التحذير من الوقوع فى الشرك ، وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدري أنه من الشرك الذى يوجب النار .

وفيه : أنه دخل النار بسبب لم يقصده ابتداءً ، وإنما فعله تخلصاً من شر أهل الصنم .
وفيه : أن ذلك الرجل كان مسلماً قبل ذلك ، وإلا فلو لم يكن مسلماً لم يقل دخل النار فى ذباب .

وفيه أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان ، ذكره المصنف بمعناه

(١) قال فى النهاية : كل ماعبد من دون الله ، بل كل مايشغل عن الله يقال له : صنم .
(٢) فى قرة العيون : لأنه قصد غير الله بقلبه أو اتقاد بعمله فوجبت له النار ، ففهم معنى حديث مسلم الذى تقدم فى باب الخوف من الشرك عن جابر مرفوعاً « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به دخل النار » فإذا كان هذا فيمن قرب للصنم ذباباً فكيف بمن يستسمن الإبل والبقر والغنم ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان يعبد من دون الله ، من ميت أو غائب ، أو طاغوت أو مشهد أو شجر ، أو حجر أو غير ذلك ؟ وكان هؤلاء المشركون فى أواخر هذه الأمة يعدون ذلك أفضل من الأضحية فى وقتها الذى شرعت فيه ، وربما اكتفى بعضهم بذلك عن أن يضحي لشدة رغبته وتعظيمه ورجائه لمن كان يعبد من دون الله ، وقد عمت البلوى بهذا وما هو أعظم منه .

وقالوا للآخر: قَرَّب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل .
فضربوا عنقه فدخل الجنة « رواه أحمد .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير (إن صلاتي ونسكي).

الثانية : تفسير (فصل لربك وانحر).

الثالثة : البداءة بلعنة من ذبح لعنير الله .

الرابعة : لعن من لعن والديه ، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك .

الخامسة : لعن من آوى محدثاً ، وهو الرجل يُحدث شيئاً يجب فيه حق

الله ، فيلتجىء إلى من يجيره من ذلك .

السادسة : لعن من غير منار الأرض ، وهي المراسيم التي تفرق بين حقل

وحق جارك ، فتغيرها بتقديم أو تأخير .

السابعة : الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم .

الثامنة : هذه القصة العظيمة ، وهي قصة الذباب .

التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده ، بل فعله

تخلصاً من شرهم^(١) .

قوله ﴿ وقالوا للآخر: قرب. قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل ﴾

ففيه بيان فضيلة التوحيد والإخلاص^(٢) .

(١) الظاهر : أنه لم يكن متخلصاً ، وإلا لم يدخل النار ، الآية (إلا من أكرهه وقلبه

مطمئن بالإيمان) .

(٢) في قرة العيون : فقيه : معرفة قدر الشرك في قلوب أهل الإيمان ونفرتهم عنه

وصلابهم في الإخلاص ، كما في حديث أنس الذي في البخاري وغيره الآتي إن شاء الله تعالى

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » وفيه « وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه

الله منه كما يكره أن يقذف في النار »

العاشرة : معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين ، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم ، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر ؟ .
الحادية عشرة : أن الذي دخل النار مسلم ، لأنه لو كان كافراً لم يقل « دخل النار في ذباب » .

الثانية عشرة : فيه شاهد للحديث الصحيح « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » .

الثالثة عشرة : معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم ، حتى عند عبدة الأوثان .

باب

(لا يُذبح لله بما كان يُذبح فيه لغير الله)

وقول الله تعالى (١٠٨ : ٩) لا تقم فيه أبداً ، لمسجد أُسسَ على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين)

قال المصنف رحمه الله : ﴿ وفيه معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم ، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر ﴾ .

قوله ﴿ باب : لا يُذبح لله بما كان يُذبح فيه لغير الله تعالى ﴾ (١)

« لا » نافية ، ويحتمل أنها للنهي وهو أظهر . قوله ﴿ وقول الله تعالى (١٠٨ : ٩) لا تقم فيه أبداً » الآية ﴿ قال المفسرون : إن الله تعالى نهى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار ، والأمة تبع له في ذلك ، ثم إنه تعالى حثه على الصلاة في مسجد قباء الذي أُسس من أول يوم بنى على التقوى ؛ وهي طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ، ومعقلاً ومنزلاً

== وفيه : تفاوت الناس في الإيمان ، لأن هذا الرجل الذي قرب الذباب لم يكن له عمل يستحق به دخول النار قبل ما فعله مع هذا الضم ، كما هو ظاهر الحديث ، والله أعلم .

(١) في قرّة العيون : أشار رحمه الله تعالى إلى ما كان الناس يفعلونه في نجد وغيرها قبل دعوتهم إلى التوحيد : من ذبحهم للجن لطلب الشفاء منهم لمرضاهم ويتخذون للذبح لهم مكاناً مخصوصاً في دورهم . فنفي الله سبحانه الشرك بهذه الدعوة الإسلامية . قلله الحمد على زوال الشرك والبدع والفساد بطلمة الهاعى إلى توحيد رب العالمين .

للإسلام وأهله ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاة في مسجد قباء كعمرة » وفي الصحيح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور قباء راكباً وماشيّاً » وقد صرح أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء جماعة من السلف ، منهم ابن عباس ، وعروة ، وعطية ، والشعبي ، والحسن وغيرهم .

قلت : ويؤيده قوله في الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) وقيل : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لحديث أبي سعيد قال « تمارى رجالان في المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم ، فقال رجل : هو مسجد قباء ، وقال الآخر : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو مسجدي هذا » رواه مسلم ، وهو قول عمر ، وابنه ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم .

قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولا مناقاة بين الآية والحديث ؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أُسِّس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى ، وهذا بخلاف مسجد الضرار الذي أُسِّس على معصية الله كما قال تعالى (١٠٧ : ٩) والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَى ، وَاللَّهُ بِشَهَادَاتِهِمْ لَكَاذِبُونَ) فهذه الأمور نهى الله نبيه عن القيام فيه للصلاة . وكان الذين بنوه جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى غزوة تبوك فسألوه أن يصلى فيه ، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية . فقال « إنا على سفر ؛ ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه نزل الوحي بخبر المسجد ، فبعث إليه فهدمه قبل قدومه إلى المدينة^(١) وجه مناسبة الآية للترجمة : أن المواضع المعدة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله

(١) كان أبو عامر الفاسق الحزرجي قد ذهب إلى هرقل بعد غزوة أحد ، يستعديه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده هرقل ومناه ، فأرسل إلى جماعة من قومه من أهل النفاق والريب يعدمهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم ، فبنوا هذا المسجد ، والذي هدمه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وحرقه مالك بن الدخشم أخو بني سالم بن عوف ، ومعن بن عدى ، أو أخوه عامر بن عدى .

عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال « نذر رجل أن ينحر إبلًا بيوانة ،
فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد ؟

كما أن هذا المسجد لما أعد لمصيبة الله صار محل غضب لأجل ذلك ، فلا تجوز الصلاة فيه
لله . وهذا قياس صحيح ، يؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتى .

قوله ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ روى الإمام أحمد وابن خزيمة وغيرهما عن عويم
ابن ساعدة الأنصارى « أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد قباء . فقال : إن الله قد
أحسن عليكم الثناء بالطهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ فقالوا :
والله يارسول الله مانع شئنا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أديبارهم من
الغانط ، فغسلنا كما غسلوا » وفي رواية عن جابر وأنس « هو ذاك فمليكموه » رواه ابن ماجه
وابن أبى حاتم ، والدارقطنى ، والحاكم .

قوله ﴿ والله يحب المطهرين ﴾ قال أبو العالیه : إن الطهور بالماء الحسن ، ولكنهم
المتطهرون من الذنوب . وفيه : إثبات صفة الحجة ، خلافاً للأشاعرة ونحوهم .

قوله ﴿ عن ثابت بن الضحاك قال « نذر رجل^(١) أن ينحر إبلًا بيوانة ، فسأل النبي
صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا . قال :
فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو فـ
ينذرك ، فإنه لا وفاء لنذير في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود ،
وإسناده على شرطهما ﴾ .

(١) روى أبو داود بعد هذا الحديث عن سارة بنت مقسم الثقفى أنها قالت : سمعت
ميمونة بنت كرم قالت « خرجت مع أبى فى حجه ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
وسمعت الناس يقولون : رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت أبده بصرى . فدنا إليه أبى وهو
على ناقه ، معه درة كدرة الكتاب ، فسمعت الأعراب والناس يقولون : الطبطبية الطبطبية .
فدنا إليه أبى فأخذ بقدمه ، قالت فأقر له ووقف فاستمع منه ، فقال : يارسول الله ، إني نذرت
إن ولد لى ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة فى عقبه من الثنايا عدة من الغنم - قال : لا أعلم
إلا أنها قالت خمسين - فقال رسول الله : هل بها من الأوثان شئ ؟ قال : لا : قال : فأوف
بما نذرت لله - الحديث » .

قالوا : لا . قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا .

قوله ﴿ عن ثابت بن الضحاك ﴾ أي : ابن خليفة الأشعري ، صحابي مشهور . روى عنه أبو قلابة وغيره . مات سنة أربع وستين .

قوله ﴿ ببوانة ﴾ بضم الباء . وقيل : بفتحها . قال البغوي : موضع في أسفل مكة دون يلملم . قال أبو السعادات : هضبة من وراء يثبع .

قوله ﴿ فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ ﴾ فيه : المنع من الوفاء بالذنر إذا كان في المكان وثن ، ولو بعد زواله . قاله المصنف رحمه الله .

قوله ﴿ فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ ﴾ قال شيخ الإسلام رحمه الله ^(١) : العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد . إما بعود السنة ، أو بعود الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك ^(٢) والمراد به هنا : الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية . فالعيد يجمع أموراً منها : يوم عائد ، كيوم الفطر ويوم الجمعة . ومنها : اجتماع فيه ، ومنها : أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات . وقد يختص العيد بمكان بعينه ، وقد يكون مطلقاً . وكل من هذه الأمور قد يسمى عيداً . فالزمان كقول النبي صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة « إن هذا يوم قد جعله الله للمسلمين عيداً » والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس « شهدت العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » والمكان كقول النبي صلى الله عليه وسلم « لا تتخذوا قبوري عيداً » وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم « دعهما يا أبا بكر ؛ فإن لكل قوم عيداً » انتهى ^(٣)

(١) في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم .

(٢) وهي التي يسميها الناس اليوم الموالد والذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء ، وهي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم . ولذلك لا يذكر الناس ويعرفون إلا من أقيمت له هذه الذكرانات ، ولو كان أجهل خلق الله وأفسقهم . فكلمها كسدت سوق طاغوت من هؤلاء قام السدنة بهذا العيد لتحفي في نفوس العامة عبادته وتكثر الهدايا والقرايين باسمه . وقد امتلأت البلاد الإسلامية بهذه الذكرانات ، وعمت بها المصيبة وعادت بها الجاهلية إلى بلاد الإسلام ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولم ينج منها إلا نجد والحجاز فيما نعلم بفضل الله ، ثم بفضل آل سعود الذين قاموا بحماية دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب .

(٣) في قرّة العيون : وقد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور التي تعبد من =

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَوْفِ بِنَدْرِكَ ، فَإِنَّهُ لَا وِفَاءَ لِنَذْرِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ .

قال المصنف رحمه الله فيه : استفصال المقتى ، والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ، ولو بعد زواله .

قلت : وفيه سد الذريعة ، وترك مشابهة المشركين ، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك . قوله ﴿ فَأَوْفِ بِنَدْرِكَ ﴾ هذا يدل على أن الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغير الله . أى في محل أعيادهم . معصية ، لأن قوله : « فَأَوْفِ بِنَدْرِكَ » تعقيب لوصف بالحكم بالفاء ، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم . فيكون سبب الأمر بالوفاء خلوه عن هذين الوصفين . فلما قالوا « لا » قال « أوفِ بِنَدْرِكَ » وهذا يقتضى أن كون البقعة مكاناً لعيدهم ، أو بها وثن من أوثانهم : مانع من الذبح بها ولو نذره . قاله شيخ الإسلام .

وقوله ﴿ فَإِنَّهُ لَا وِفَاءَ لِنَذْرِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ﴾ دليل على أن هذا نذر معصية لو قد وجد في المكان بعض الموانع . وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به بإجماع العلماء . واختلفوا : هل تجب فيه كفارة يمين ؟ على قولين ، هما روايتان عن أحمد . أحدهما : تجب = دون الله ويسمونها عيدا كمولد البدوى بمصر وغيره ، بل هى أعظم لما يوجد فيها من الشرك والمعاصى العظيمة .

قال المصنف رحمه الله تعالى : وفيه استفصال المقتى ، والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله .

قلت : وفيه المنع من اتخاذ آثار المشركين محلاً للعبادة ، لكونها صارت محلاً لما حرم الله من الشرك والمعاصى . والحديث وإن كان في النذر فيشمل كل ما كان عبادة لله ، فلا تفعل في هذه الأماكن الحبيثة التى اتخذت محلاً لما يسخط الله تعالى ، فهذا صار الحديث شاهداً للترجمة والمصنف رحمه الله تعالى لم يرد التخصيص بالذبح وإنما ذكر الذبح كالمثال . وقد استشكل جعل محل اللات بالطائف مسجداً .

والجواب - والله أعلم - : أنه لو ترك هذا المحل في هذه البلدة لكان يخشى أن تفتن به قلوب الجهال فيرجع إلى جهله وثناً . كما كان يفعل فيه أولاً ، فجعله مسجداً والحالة هذه ينسى ما كان يفعل فيه وينهب به أثر الشرك بالكلية . فاختص هذا المحل لهذه العلة وهى قوة المعارض والله أعلم .

ولا فيما لا يملك ابن آدم» رواه أبو داود . وإسناده على شرطهما .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله (لا تتم فيه أبدأ) .

الثانية : أن المعصية قد تؤثر في الأرض . وكذلك الطاعة .

الثالثة : رد المسألة المشكّلة إلى المسألة البينة ، ليزول الإشكال .

الرابعة : استفصال المفتى إذا احتاج إلى ذلك .

الخامسة : أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع .

السادسة : المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ، ولو بعد زواله .

السابعة : المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله .

الثامنة : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة ؛ لأنه نذر معصية .

وهو المذهب . وروى عن ابن مسعود وابن عباس . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ؛ لحديث عائشة رضی الله عنها مرفوعاً « لا نذر في معصية ، وكفارته كفارة يمين » رواه أحمد وأهل السنن^(١) واحتج به أحمد وإسحاق ، والثاني : لا كفارة عليه . وروى ذلك عن مسروق والشعبي والشافعي . لحديث الباب . ولم يذكر فيه كفارة . وجوابه : أنه ذكر الكفارة في الحديث المتقدم . والمطلق يحمل على المقيد .

قوله ﴿ ولا فيما لا يملك ابن آدم ﴾ قال في شرح المصابيح : يعني إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بأن قال : إن شفى الله مريضاً فله على أن أعتق عبد فلان ونحو ذلك . فأما إذا التزم في الذمة شيئاً ، بأن قال : إن شفى الله مريضاً . فله على أن أعتق رقبة ، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها ، فإذا شفى مريضه ثبت ذلك في ذمته .

قوله ﴿ رواه أبو داود وإسناده على شرطهما ﴾ أى : البخارى ومسلم .

(١) قال الترمذى : هذا حديث لا يصح ، لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة وقال غيره : لم يسمعه الزهري من أبي سلمة ، وإنما سمعه من سليمان بن أرقم وسليمان متروك . وقال مثل هذا أبو داود بعد إخرجه إياه .

التاسعة : الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده .

العاشر : لا نذر في معصية .

الحادية عشرة : لا نذر لابن آدم فيما لا يملك .

باب

﴿ من الشرك النذر لغير الله ﴾

وقول الله تعالى : (٧٦ : ٧ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً)

وقوله : (٢ : ٢٧٠ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) .

وأبو داود : اسمه سليمان بن الأشعث بن إسحق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني صاحب الإمام أحمد ، ومصنف السنن والمراسيل وغيرها ، ثقة إمام حافظ من كبار العلماء . مات سنة خمس وسبعين ومائتين . رحمه الله تعالى .

قوله ﴿ باب : من الشرك النذر لغير الله تعالى ﴾

أى : لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره الله ، فيكون النذر لغير الله تعالى شركاً في العبادة .

وقوله تعالى (٧٦ : ٧ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مُستطيراً) فالآية دلت

على وجوب الوفاء بالنذر ، ومدح من فعل ذلك طاعة لله ، ووفاء بما تقرب به إليه . "

وقوله تعالى (٢ : ٢٧٠ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) .

قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات ، من النفقات والندورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه . هـ .

إذا علمت ذلك : فهذه النذور الواقعة من عباد القبور ، تقرباً بها إليهم ، ليقضوا لهم

حوائجهم وليشفعوا لهم ، كل ذلك شرك في العبادة بلا ريب ، كما قال تعالى (٦ : ١٣٦

وجعلوا لله مما ذرأ من الخبز والأنعام نصيباً . فقالوا : هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا .

فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وأما ما نذر لغير الله ، كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك ، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات . والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة ، وكذلك الناذر للمخلوقات ، فإن كلاهما شرك . والشرك ليس له حرمة ، بل عليه أن يستغفر الله من هذا ، ويقول ما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من حلف وقال في حلفه : واللوات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله ^(١) » .

وقال فيمن نذر للقبور أو نحوها دهنًا لتَنَوَّرَ به ويقول : إنها تقبل النذر كما يقوله بعض الضالين : وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين ، لا يجوز الوفاء به ، وكذلك إذا نذر مالا للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة . فإن فيهم شبهاً من السدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة ، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام (ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟) والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه ، قال تعالى : (٧ : ١٣٨) وجاوزنا بني إسرائيل البحر ، فاتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) فالنذر لأوثك السدنة والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية . وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها ، أو لسدنة الأبداد في الهند ^(٢) والمجاورين عندها ^(٣) .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) فى القاموس : البد - بضم الباء - الصنم ، معرب ، بت ، والجمع بددة - كقردة - وأبداد ، تخرج وأخراج . وهو اسم لصنم من أصنام الهنود .

(٣) فى قرّة العيون : وذلك لأن الناذر لله وحده علق رغبته به وحده ، لعله بأنه تعالى ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن . وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع : فتوحيد القصد هو توحيد العبادة ، ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله ، والعبادة إذا صرفت لغير الله صار ذلك شركاً بالله لالتفاته إلى غيره تعالى فيما يرغب فيه أو يرهب ، فقد جعله شريكاً لله فى العبادة فيكون قد أثبت مانفته « لا إله إلا الله » من إلهية غير الله ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص ، وكل هذه الأبواب التي ذكرها المصنف رحمه الله تعالى تدل على أن من أشرك مع الله غيره بالقصد والطلب فقد خالف ما نفته « لا إله إلا الله » فعكس مدلولها فأثبت مانفته ونفى ما أثبتته من التوحيد . وهذا معنى قول شيخنا . وشرح هذه الترجمة فابعداً من الأبواب . فكل شرك وقع أو قد يقع ، فهو ينافى كلمة الإخلاص وما تضمنته من التوحيد .

وقال الرافعي في شرح المنهاج : وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ ، أو على اسم من حلّها من الأولياء ، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين ، فإن قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة - تعظيم البقعة والمشهد ، أو الزاوية ، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه ، أو بنيت على اسمه ، فهذا النذر باطل غير منعقد ، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ، ويرون أنها مما يدفع بها البلاء ويُسْتَجْلَبُ بها النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء ، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم : إنه استند إليها عبد صالح ، وينذرون لبعض القبور السُّرْحِ والشموع والزيت ، ويقولون : القبر الفلاني ، أو المكان الفلاني يقبل النذر ، يعنون بذلك : أنه يحصل به الغرض للمأمول من شفاء مريض ، أو قدوم غائب ، أو سلامة مال ، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة ، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لاشك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً . ومن ذلك : نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء ؛ فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركاً وتعظيماً ، ظاناً أن ذلك قرينة ، فهذا مما لا ريب في بطلانه . والإيقاد المذكور محرم ، سواء انتفع به هناك منتفع أم لا .

قال الشيخ قاسم الحنفي في شرح درر البحار : النذر الذي ينذره أكثر العوام على ماهو مشاهد ، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ، فيأتي إلى بعض الصالحاء ويجعل على رأسه سترة ، ويقول : يابسي فلان ، إن رد الله غائبي ، أو عوفي مريضى ، أو قضيت حاجتى ، فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الماء كذا ، أو من الشمع والزيت كذا . فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه ؛ منها : أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ؛ لأنه عبادة ، والعبادة لا تكون لمخلوق ، ومنها : أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك ، ومنها : أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر - إلى أن قال : إذا علمت هذا . فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها : فحرام بإجماع المسلمين .

نقله عنه ابن نجيم في البحر الرائق . ونقله المرشدى في تذكرته وغيرها عنه ، وزاد : قد

وفي الصحيح عن عائشة رضی الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ نذر أن يُطِيعَ اللهَ فليُطِعْهُ .

ابتلى الناس بهذا لاسياً في مولد البدوي ^(١) .

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء : فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله ، فيكون باطلا . وفي التنزيل (٦ : ١٢١) ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ، (٦ : ١٦٢) قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له (والنذر لغير الله إشراك مع الله ، كالذبح لغيره .

قوله ﴿ وفي الصحيح عن عائشة رضی الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » ﴾ .

قوله ﴿ في الصحيح ﴾ أى : صحيح البخارى .

قوله ﴿ عن عائشة ﴾ : هى أم المؤمنين ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وابنة الصديق رضی الله عنهما . تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهى ابنة سبع سنين ، ودخل بها وهى ابنة تسع ^(٢) . وهى أفضه النساء مطلقاً ، وهى أفضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إلا خديجة ، ففيها خلاف ^(٣) . ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح رضی الله عنها .

(١) أحمد البدوي بطنطا لا يعرف له تاريخ صحيح ، واضطربت الأقوال فيه ، والمشهور : أنه كان جاسوساً لدولة المثلثين . وكان داهية في المكر والخديعة . وقبره أكبر الأصنام في الديار المصرية ، مثل هبل الأكبر ، أو اللات في الجاهلية . يؤتى عنده من أنواع الشرك الأكبر ، وتقدم له من النذور ، ويجعل له الفلاحون النصف والربع في أنعامهم وزروعهم ، بل وأولادهم ، فيأتى الرجل بنصف مهر ابنته ويضعه في الصندوق قائلاً : هذا نصيبك يا بدوي . ويقام له كل عام ثلاثة موالد يشد الرحال إليها الناس من أقصى القطر المصري ، ويجتمع في الموالد أكثر من ثلاثمائة ألف حاج إلى هذا الضم الأكبر . عجل الله بهدمه وحرقة هو وغيره من كل صنم في مصر وغيرها .

(٢) عقد عليها قبل الهجرة بسنة . وبنى بها بعد الهجرة بسبعة أشهر تقريباً .

(٣) في قررة العيون : بل لا يقال : خديجة أفضل . ولا عائشة أفضل . والتحقيق : أن خديجة من الفضائل في بدء الوحي مالميس لعائشة : من سبقها إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وتأيدته في تلك الحال التي بدىء بالوحي فيها كما في صحيح البخارى وغيره ، فما زالت كذلك =

وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ .

فيه مسائل :

الأولى : وجوب الوفاء بالنذر .

الثانية : إذا ثبت كونه عبادة لله ، فصرفه إلى غيره شرك .

الثالثة : أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به .

قوله ﴿ من نذر أن يطيع الله فليطعه ﴾ أى : فليفعل ما نذره من طاعة الله . وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة لشرط يرجوه ، كان شفى الله مريضى فعلى أن أتصدق بكذا ، ونحو ذلك وجب عليه ، إن حصل له ما علق نذره على حصوله . وحكى عن أبى حنيفة : أنه لا يلزم الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع ، كالصوم ، وأما ما ليس كذلك ، كالاعتكاف فلا يجب عليه الوفاء به .

قوله ﴿ ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه ﴾ زاد الطحاوى « وليكفر عن يمينه » وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية

قال الحافظ : اتفقوا على تحريم النذر فى المعصية ، وتنازعوا : هل ينعقد موجبا للكفارة أم لا ؟ وتقدم . وقد يستدل بالحديث على صحة النذر فى المباح ، كما هو مذهب أحمد وغيره ، يؤيده مارواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وأحمد والترمذى عن بريدة « أن امرأة قالت : يارسول الله ، إنى نذرت أن أضرب على رأسك بالذئف ، فقال : أوفى بنذرك » وأما نذر اللجاج والغضب فهو يمين عند أحمد ، فيخير بين فعله وكفارة يمين ، لحديث عمران بن حصين مرفوعا « لا نذر فى غضب » وكفارته كفارة يمين « رواه سعيد ابن منصور وأحمد والنسائى ، فإن نذر مكروها كالطلاق استحب أن يكفر ولا يفعله .

== حتى توفيت رضى الله عنها قبل الهجرة ، ولعائشة من العلم والأحاديث والأحكام ما ليس لحديجة ، لعلها بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن ، وبيان الحلال والحرام . وكان الصحابة رضى الله عنهم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، يرجعون إليها فيما أشكل عليهم من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وحديثه . صلوات الله وسلامه عليه ، ورضى عن أصحابه وأزواجه .

باب

﴿ من الشرك الاستعاذة بغير الله ﴾

وقول الله تعالى (٧٢ : ٦) وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ، فزادهم رهقاً .

قوله : باب ﴿ من الشرك الاستعاذة بغير الله تعالى ﴾

« الاستعاذة » : الالتجاء والاعتصام ، ولهذا يسمى المستعاذ به : معاذاً وملجأً ، فالعائذ بالله قد هرب عما يؤذيه أو يهلكه ، إلى ربه ومالسه ، واعتصم واستجار به ، والتجأ إليه ، وهذا تمثيل . وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله ، والاعتصام به ، والانطراح بين يدي الرب ، والافتقار إليه ، والتدلل له ، أمر لا يحيط به العبارة . قاله ابن القيم رحمه الله . وقال ابن كثير : الاستعاذة : هي الالتجاء إلى الله ، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر . والعياذ يكون لدفع الشر ، واللياذ لطلب الخير . انتهى .

قلت : وهي من العبادات التي أمر الله تعالى بها عباده ، كما قال تعالى (٤١ : ٣٦) وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وأمثال ذلك في القرآن كثير كقوله (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) فما كان عبادة لله فصرفه لغير الله شرك في العبادة ، فمن صرف شيئاً من هذه العبادات لغير الله فقد جعله شريكاً لله في عبادته ، ونازع الرب في إلهيته ، كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابداً لغير الله ، ولا فرق . كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله تعالى .

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٧٢ : ٦) وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً^(١) ﴾ .

(١) في قرّة العيون : قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى في تفسيره هذه الآية : عن ابن عباس رضی الله عنهما قال : « كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول : أعوذ بعزير هذا الوادي ، فزادهم ذلك إثمًا . وقال بعضهم : فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بالجن باستعاذتهم بعزير جراءة عليهم ، وازدادوا هم بذلك إثمًا . وقال مجاهد : فازداد الكفار طغيانًا . وقال ابن زيد : وزادهم الجن خوفاً .

وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
« مَنْ نزل منزلاً ، فقال :

قال ابن كثير : أى كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس ، لأنهم كانوا يعوذون بنا : أى
إذا نزلوا وادياً أو مكاناً متوحشاً من البرارى وغيرها ، كما كانت عادة العرب فى جاهليتها
يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم بشيء يسوؤهم ، كما كان أحدهم يدخل
بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم
من خوفهم منهم زادوهم رهقاً : أى خوفاً وإرهاباً وذعراً ، حتى يبقوا أشد منهم مخافةً
وأكثر تعوداً بهم - إلى أن قال : - قال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم « رهقا » أى خوفاً .
وقال العوفي : عن ابن عباس « فزادوهم رهقا » أى : إثمًا ، وكذا قال قتادة . اهـ .
وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بوادٍ قفر وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد
هذا الوادى من سفهاء قومه ، يريد كبير الجن . وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الاستعاذة
بغير الله .

وقال ملا على قارى الحنفى : لا يجوز الاستعاذة بالجن ، فقد ذم الله الكافرين على ذلك
وذكر الآية وقال : قال تعالى (٦ : ١٢٨) ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم
من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت
لنا . قال : النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم) فاستمتع الإنسى
بالجنى فى قضاء حوائجه وامتنال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات ، واستمتع الجنى بالإنسى
تعظيمه إياه ، واستعاذته به وخضوعه له . انتهى ملخصاً .

قال المصنف ﴿ وفيه : أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من
الشرك ﴾ .

قوله ﴿ وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من
نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل من
منزله ذلك ﴾ رواه مسلم .

هى خولة بنت حكيم بن أمية السلمية ، يقال لها : أم شريك ، ويقال : إنها هى الواهبة^(١)

(١) التى وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم .

أعوذ بكلمات الله التامات ، من شر ما خلق .

وكانت قبلُ تحتَ عثمان بن مظعون .

قال ابن عبد البر : وكانت سالحة فاضلة .

قوله ﴿ أعوذ بكلمات الله التامات ﴾ شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلا عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن ، فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته .

قال القرطبي : قيل : معناه الكلمات التي لا يلحقها نقص ولا عيب ، كما يلحق كلام البشر . وقيل : معناه الشافية الكافية . وقيل : الكلمات هنا هي القرآن ، فإن الله أخبر عنه بأنه (١٠ : ٥٧ و ١٧ : ٨٢ و ٤١ : ٤٤ هُدَى و شفاء) وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى . ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى كان من باب المندوب إليه المرغب فيه ، وعلى هذا فتح المستعيذ بالله أو بأسمائه وصفاته : أن يصدق الله في التجائه إليه ، ويتوكل في ذلك عليه ، ويحضر ذلك في قلبه ، فتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق . وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق . قالوا : لأنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك ، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويد التي لا يعرف معناها ، خشية أن يكون فيها شرك .

وقال ابن القيم : ومن ذبح للشيطان ودعا ، واستعاذ به ، وتقرّب إليه بما يجب فقد عبده ، وإن لم يسم ذلك عبادة ويسميه استخداما . وصدق ، هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به . اهـ .

قوله ﴿ من شر ما خلق ﴾ قال ابن القيم رحمه الله : أى من كل شر فى أى مخلوق قام به الشر : من حيوان أو غيره ، إنسياً كان أو جنياً ، أو هامة^(١) أو دابة ، أو ريحاً ، أو صاعقة أى نوع كان من أنواع البلاء فى الدنيا والآخرة .

(١) الهامة : ما كان أهل الجاهلية يتوهمونه طائراً أو شبهه تتصور فيه روح المقتول لاتزال تنادى على قبره بالأخذ بشأره . وهى خرافة من خرافاتهم أبطلها الإسلام ، وفى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » .

لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك « رواه مسلم .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الجن .

الثانية : كونه من الشرك .

الثالثة : الاستدلال على ذلك بالحديث ؛ لأن العلماء يستدلون به على أن

كلمات الله غير مخلوقة . قالوا : لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك .

الرابعة : فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره .

الخامسة : أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب

نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

باب

﴿ من الشرك أن يستغيث بغير الله ، أو يدعو غيره ﴾

و « ما » ههنا موصولة ، وليس المراد بها العموم الإطلاق ، بل المراد التقيدي الوصفي ، والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر ؛ لامن شر كل ما خلقه الله ، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر ، والشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يفضى إليه .

قوله : ﴿ لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك ﴾ قال القرطبي : هذا خبر صحيح وقول صادق ، علمنا صدقه دليلاً وتجربة ، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته ، فلدغنتي عقرب بالمهدبة ليلاً ، فتفكرت في نفسي ، فإذا بي قد نسبت أن أتموذ بتلك الكلمات .

قوله : ﴿ باب من الشرك أن يستغيث بغير الله ، أو يدعو غيره ﴾

قال شيخ الإسلام رحمه الله : الاستغاثة : هي طلب العوّث ، وهو إزالة الشدة ،

كالاستنصار : طلب النصر . والاستعانة : طلب العون .

وقال غيره : الفرق بين الاستغاثة والدعاء : أن الاستغاثة لاتكون إلا من المكروب ،

والدعاء أعم من الاستغاثة ؛ لأنه يكون من المكروب وغيره . فعطف الدعاء على الاستغاثة

من عطف العام على الخاص . فبينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان في مادة وينفرد

الدعاء عنها في مادة ؛ فكل استغاثة دعاء ، وليس كل دعاء استغاثة .

وقوله ﴿ أو يدعو غيره ﴾ اعلم أن الدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة ، ويراد به في القرآن هذا تارة وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما . فدعاء المسألة : هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر ، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً ؛ كقوله تعالى : (٥ : ٧٩ قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم ؟) وقوله : (٦ : ٧١ قل : أئدعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هदानا الله ؟ كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا . قل : إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وقال : (١٠ : ١٠٦ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة ، قال الله تعالى : (٧ : ٥٥ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) وقال تعالى : (٦ : ٤٠ ، ٤١ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) وقال تعالى : (٧٢ : ١٨ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) وقال تعالى : (١٣ : ١٥ له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو بباله ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) وأمثال هذا في القرآن في دعاء المسألة أكثر من أن يحصر ، وهو يتضمن دعاء العبادة ؛ لأن السائل أخلص سؤاله لله ، وذلك من أفضل العبادات ، وكذلك الذي ذكر الله ، والتالي لكتابته ونحوه طالب من الله في المعنى ؛ فيكون داعياً عابداً .

فتبين بهذا من قول شيخ الإسلام : أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة ؛ كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، وقد قال تعالى عن خليله (١٩ : ٤٨ ، ٤٩ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعوربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيماً . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً) فصار الدعاء من أنواع العبادة ، فإن قوله : (وأدعوربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيماً) كقول زكريا : (١٩ : ٤)

رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك ربَّ شقياً) وقد أمر الله تعالى به في مواضع من كتابه كقوله : (٧ : ٥٥ ، ٥٦ أذعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفاً وطمعاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين) وهذا هو دعاء المسألة المتضمن للعبادة ، فإن الداعي يرغب إلى المدعو ، ويخضع له ويتذلل .

وضابط هذا : أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعله لله عبادة ، فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مشرك مصادم لما بعث الله به رسوله من قوله (٣٩ : ١٤ قل الله أعبد مخلصاً له ديني) وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قال شيخ الإسلام رحمه الله في الرسالة السنية : فإذا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بمن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة ، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب . منها : الغلوف في بعض المشايخ ؛ بل الغلوف في علي بن أبي طالب ، بل الغلوف في المسيح ، فكل من غلاف في نبي أو رجل صالح ، وجعل فيه نوعاً من الإلهية ، مثل أن يقول : ياسيدي فلان انصرتني ، أو أغثنني ، أو ارزقتني ، أو أنا في حسبك ، ونحو هذه الأقوال . فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل ، فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، ليُعبد وحده لا شريك له ، ولا يُدعى معه إله آخر . والذين يدعون مع الله آلهة أخرى ، مثل المسيح والملائكة والأصنام ، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تُنزل المطر أو تنبت النبات ، وإنما كانوا يعبدونهم ، أو يعبدون قبورهم ، أو يعبدون صورهم ، يقولون : (٣٩ : ٣) ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى) ، (١٠ : ١٠١) ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فبعث الله سبحانه رسوله ، تنهى أن يُدعى أحد من دونه ، لادعاء عبادة ولا دعاء استغاثة . اهـ .

وقال أيضاً : من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوم ويسألهم ككفرٍ إجماعاً .

نقله عنه صاحب الفروع وصاحب الإنصاف وصاحب الإقناع وغيرهم . وذكره شيخ الإسلام ، ونقلته عنه في الرد على ابن جزجيس في مسألة الوسائط .

وقال ابن القيم رحمه الله : ومن أنواعه - يعنى الشرك - طلبُ الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم ، وهذا أصل شرك العالم . فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، فضلا عن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ، وسيأتى تنمة كلامه في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادى رحمه الله في رده على السبكي في قوله « إن المبالغة في تعظيمه - أى : الرسول صلى الله عليه وسلم - واجبة » .

إن أريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيما ، حتى الحج إلى قبره ، والسجود له والطواف به ، واعتقاد أنه يعلم الغيب ، وأنه يعطى ويمنع ، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع ، وأنه يقضى حوائج السائلين ويفرج كربات المسكروين ، وأنه يشفع فيمن يشاء ، ويدخل الجنة من يشاء - : فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك ، وانسلاخ من جملة الدين .

وفي الفتاوى البزازية من كتب الحنفية : قال علماؤنا : من قال : أرواح المشايخ حاضرة تعلم : يكفر .

وقال الشيخ صنع الله الحنفى رحمه الله - في كتابه في الرد على من ادعى أن الأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة : هذا وأنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن الأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم ، ويستغاث بهم في الشدائد والبلبات وبهممهم تكشف المهمات . فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات ، مستدلين أن ذلك منهم كرامات ، وقالوا : منهم أبدال ونقباء ، وأوتاد ونجباء ، وسبعون وسبعة وأربعون وأربعة ، والقطب : هو العوثر للناس ، وعليه المدار بلا التباس ، وجوزوا لهم الذبائح والندور ، وأنبتوا لهم فيهما الأجور ، قال : وهذا كلام فيه تفریط وإفراط ، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدى ، لما فيه من روائح الشرك المحقق ، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ، ومخالفة العقائد الأئمة ، وما اجتمعت عليه الأمة ، وفي التنزيل (٤ : ١١٤) ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتوا لله ونصّله جهنم وساءت مصيرا .

ثم قال : فأما قولهم : إن الأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات ، فيرده قوله تعالى (٢٧ : ٦١ - ٦٤) إله مع الله (٧ : ٥٤) إله الخلق والأمر ، (٣ : ١٨٩ و ١٩ : ٥٠ و ٢٠ : ١٢٣)

و ٤٢:٢٤ و ٤٢:٤٢ و ٤٩:٤٥ و ٢٧:٤٨ و ١٤:٤٨ لله ملك السموات والأرض) ونحوها من الآيات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير، ولا شيء غيره في شيء ما بوجه من الوجوه فالكل تحت ملكه وقهره تصرفاً وملكاً، وإحياء وإماتة وخلقاً. وتمدح الرب تبارك وتعالى بانفراده بملكه في آيات من كتابه كقوله (٣:٣٥ هل من خالق غير الله؟)، (٤٠:٣٥) والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير، إن تدعوم لا يسمعون دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم. ويوم القيامة يكفرون بشرككم. ولا ينبتك مثل خبير) وذكر آيات في هذا المعنى.

ثم قال: فقوله في الآيات كلها «من دونه» أى من غيره، فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته، من ولى وشيطان تستمده، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يُمدُّ غيره؟ إلى أن قال: إن هذا القول وخيم، وشرك عظيم، إلى أن قال: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة. قال جل ذكره (٢٩: ٣٠) إنك ميت وإنهم ميتون)، (٣٩: ٤٢) الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)، (٣: ١٨٥ و ٢١: ٣٥ و ٢٩: ٥٧) كل نفس ذائقة الموت)، (٧٤: ٣٨) كل نفس بما كسبت رهينة) وفي الحديث «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث - الحديث^(١)» فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان، فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلاً عن غيره. فإذا عجز عن حركة نفسه، فكيف يتصرف في غيره؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح مطلقة متصرفة (٢: ١٤٠ قل أنتم أعلم أم الله؟).

قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أوليائه، لا قصد لهم فيه ولا تحدى، ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم بنت عمران، وأسيد بن حضير، وأبي مسلم الخولاني.

قال: وأما قولهم فيستغاث بهم في الشدائد، فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره (٢٧: ٦٢) أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض، أإله مع الله؟)، (٦: ٦٣، ٦٤) قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

هذه لتكون من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أتم تشركون (وذكر آيات في هذا المعنى ، ثم قال : فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره ، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين ، وأنه المستغاث لذلك كله ، وأنه القادر على دفع الضر ، القادر على إيصال الخير . فهو المتفرد بذلك ، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي .

قال : والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال ، أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه ، كقولهم : يا يزيد ، يا للمسلمين ، بحسب الأفعال الظاهرة . وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير ، أو في الأمور المعنوية من الشدائد ، كالمرض وخوف الفرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه : فمن خصائص الله ، لا يطلب فيها غيره .

قال : وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال ، وينادونهم ويستنجدون بهم . فهذا من المنكرات . فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة - تأميراً : فقد وقع في وادى جهل خطير ، فهو على شفا حفرة من السعير . وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات ، فحاش لله أن يكون أولياء الله بهذه المشابة ؛ فهذا ظن أهل الأوثان ، كذا أخبر الرحمن (١٠ : ١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ، (٣٩ : ٣ مانعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (٣٦ : ٢٣ ألتخذ من دونه آلهة إن يرؤدن الرحمن بضر لاتغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون ؟) فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره على وجه الإمداد منه : إشراك مع الله ؛ إذ لا قادر على الدفع غيره ، ولا خير إلا خيره .

قال : وأما ما قالوا : إن منهم أبدالاً وبقباء ، وأوتاداً ونجباء ، وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة ، والقطب : هو العوث للناس : فهذا من موضوعات إفكهم . كما ذكره القاضي المحدث في سراج المریدین ، وابن الجوزی ، وابن تيمية . انتهى باختصار .

والمقصود : أن أهل العلم مازالوا ينكرون هذه الأمور الشركية التي عمت بها البلوى واعتقدها أهل الأهواء . فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكتاب . والبصير النبيل يدرك الحق من أول دليل ، ومن قال قولاً بلا برهان فقولته ظاهر البطلان ؛ مخالف ما عليه أهل الحق والإيمان ، المتمسكون بحكم القرآن ، المستجيبون لداعي الحق والإيمان . والله المستعان . وعليه التكلان .

وقول الله تعالى (١٠ : ١٠٦) ، ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين .

قال ﴿ وقوله تعالى (١٠ : ١٠٦) ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت ، فإنك إذا من الظالمين ﴾ .

قال ابن عطية : معناه : قيل لى « ولا تدع » فهو عطف على « أقم » وهذا الأمر والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، إذا كانت هكذا فأحرى أن يحذر من ذلك غيره . والمخاطب خرج مخرج الخصوص . وهو عام للأمة .

قال أبو جعفر بن جرير فى هذه الآية : يقول تعالى ذكره : ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعك فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يضرك فى دين ولا دنيا ، يعنى بذلك : الآلهة والأصنام ، يقول : لاتعبدها راجياً نفعها أو خائفاً ضررها ؛ فإنها لاتنفع ولا تضر . فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله (فإنك إذا من الظالمين) يقول من المشركين بالله الظالم لنفسه^(١) .

قلت : وهذه الآية لها نظائر كقوله (٢٦ : ٢١٣) فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) وقوله (٢٨ : ٨٨) ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو) فى هذه الآيات بيان أن كل مدعو يكون إلهاً ، والإلهية حق لله لا يصلح منها شئ لغيره . ولهذا قال (لا إله إلا هو) كما قال تعالى (٢٢ : ٦٢) ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلىّ الكبير) وهذا هو التوحيد الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، كما قال تعالى (٩٨ : ٥) وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) والدين : كل ما يُدان الله به من العبادات الظاهرة والباطنة . وفسره ابن جرير فى تفسيره بالدعاء ، وهو فرد من أفراد العبادة ، على عادة السلف فى التفسير ، يفسرون الآية ببعض أفراد معناها ، فمن صرف منها شيئاً لقبر أو صنم أو وثن أو غير ذلك فقد إتخذة معبوداً وجعله شريكاً لله فى

(١) فالظلم فى هذه الآية هو الشرك كما قال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه (٣١ : ١٣) يا بنى ، لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) بل هو أظلم الظلم كما فى الحديث عن ابن مسعود « أظلم الظلم أن تجعل لله نداً وهو خلقك » لأنه اغتصاب حق الربوبية من العبادة والدعاء والنذر ونحوه ، وصرفه للعبد الذى لا يستحقه .

١٠٧ وإن يمسسك الله بضر، فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله

الإلهية التي لا يستحقها إلا هو؛ كما قال تعالى (٢٣ : ١١٧) ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون) فتبين بهذه الآية ونحوها أن دعوة غير الله كفر وشرك وضلال .

وقوله ﴿ ١٠ : ١٠٧ ﴾ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴿ ١ ﴾ . فإنه المنفرد بالملك والقهر ، والعطاء والمنع ، والضر والنفع ، دون كل ماسواه . فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده ، المعبود وحده ؛ فإن العبادة لا تصلح إلا للملك الضر والنفع . ولا يملك ذلك ولا شيئاً منه غيره تعالى ؛ فهو المستحق للعبادة وحده ، دون من لا يضر ولا ينفع .

وقوله تعالى (٣٩ : ٣٨) قل : أفأرأيتم ماتدعون من دون الله ، إن أرادني الله بضرٍ هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادني برحمة ؛ هل هن ممسكات رحمته ؟ قل : حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) وقال (٣٥ : ٢) ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم) فهذا ما أخبر به الله تعالى في كتابه من تفرده بالإلهية والربوبية ، ونصب الأدلة على ذلك . فاعتقد عبّاد القبور والمشاهد نقيض ما أخبر به الله تعالى ، واتخذوه شركاء لله في استجلاب المنافع ودفع المكارها ، بسؤالهم والاتجاه إليهم بالرغبة والرهبه والتضرع ، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها إلا الله تعالى ، واتخذوه

(١) في قرة العيون : هذا في حق المستغيث . أخبر الله تعالى أنه هو الذى يتفضل على من سأله ولا يقدر أحد أن يمنعه شيئاً من فضل الله عليه ، فهو المعطى والمانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع . وفي هذا المعنى ما في حديث ابن عباس ، وفيه « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك » فمن تدبر هذه الآية وما في معناها علم أن ما وقع فيه الأكثر من دعوة غير الله هو الظلم العظيم ، والشرك الذى لا يضر ، وأنهم قد أثبتوا ما نفته « لا إله إلا الله » من الشرك فى الإلهية ، ونفوا ما أثبتته من الإخلاص كما قال تعالى (٣٩ : ٢) فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص) والدين : هو طاعة الله فيما أمر به وشرعه ، ونهى عنه وحرمه . وأعظم ما أمر به التوحيد والإخلاص ، وأن لا يقصد العبد بشيء من عمله سوى الله تعالى الذى خلقه لعبادته ، وأرسل بذلك رسله ، وأزل به كتبه (لكلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وأعظم ما نهى عنه : الشرك به فى ربوبيته وإلهيته .

يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).
وقوله (٢٩ : ١٧) إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ،
فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ، وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).
وقوله (٤٦ : ٥ ، ٦) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دَعْوَاهُمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ،
وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ).

شركاء الله في ربوبيته وإلهيته . وهذا فوق شرك كفار العرب القائلين (مانعدهم إلا ليقربونا
إلى الله زلفى) (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فإن أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم ويقربوهم إلى الله.
وكانوا يقولون في تلييتهم : لبيك ؛ لا شريك لك * إلا شريكا هو لك * تملكه وما ملك .
وأما هؤلاء المشركون فاعتقدوا في أهل القبور والمشاهد ما هو أعظم من ذلك . فجلوا لهم
نصيحا من التصرف والتدبير ، وعلومهم معاذاً لهم وملاذاً في الرغبات والرهبات (سبحان الله
عما يشركون) .

وقوله ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي : لمن تاب إليه .

قال ﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى (فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ، وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ﴾
يأمر تعالى عباده باتباع الرزق عنده وحده دون ما سواه ممن لا يملك لهم رزقاً من السموات
والأرض شيئاً . فتقديم الظرف يفيد الاختصاص . وقوله (واعبدوه) من عطف العام على
الخاص ؛ فإن ابتغاء الرزق عنده من العبادة التي أمر الله بها .

قال الهادي ابن كثير رحمه الله تعالى (فاتبغوا) أي فاطلبوا (عند الله الرزق) أي لا عند غيره .
لأنه المالك له ، وغيره لا يملك شيئاً من ذلك (واعبدوه) أي اخلصوا له العبادة وحده لا شريك له
(واشكروا له) أي على ما أنعم عليكم (إليه ترجعون) أي يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله .

قال ﴿ وَقَوْلُهُ (٤٦ : ٥ ، ٦) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دَعْوَاهُمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾
نفي سبحانه أن يكون أحد أضل ممن يدعو غيره وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه إلى
يوم القيامة : والآية تم كل من يدعى من دون الله ، كما قال تعالى (١٧ : ٥٦) قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ
مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) وفي هذه الآية أخبر أنه لا يستجيب

وأنه غافل عن داعيه (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله ^(١) .

قال أبو جعفر بن جرير في قوله (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) يقول تعالى ذكره : وإذا أُجمع الناس ليوم القيامة في موقف الحساب كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء ، لأنهم يتبرأون منهم (وكانوا بعبادتهم كافرين) يقول تعالى ذكره : وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا ولا شئنا بعبادتهم إيانا . تبرأنا إليك منهم ياربنا ، كما قال تعالى (٢٥ : ١٧ ، ١٨) ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول : أأنتم أضلّتم عبادي هؤلاء ؛ أم هم ضلّوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً)

(١) في قرّة العيون : وأخبر أن المدعو لا يستجيب لما طلب منه من ميت أو غائب ، أو ممن لا يقدر على الاستجابة مطلقاً من طاغوت ووثن ، فليس لمن دعا غير الله إلا الحية والحسران . ثم قال تعالى (وهم عن دعائهم غافلون) كما قال في آية يونس (١٠ : ٢٨ ، ٢٩) ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أتم وشركاؤكم ، فزيلنا بينهم ، وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون ، فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ، إن كنا عن عبادتكم لعافلين) ثم قال (٤٦ : ٦) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) فلا يحصل للمشرك يوم القيامة إلا نقيض قصده ، فيتبرأ منه ومن عبادته وينكر ذلك عليه أشد الإنكار ، وقد صار المدعو للداعي عدواً ، ثم أخبر تعالى أن ذلك الدعاء عبادة بقوله (وكانوا بعبادتهم كافرين) فدلّت أيضاً على أن دعاء غير الله عبادة له ، وأن الداعي له في غاية الضلال .

وقد وقع من هذا الشرك في هذه الأمة ماعم وطم ، حتى أظهر الله من بينه بعد أن كان مجهولاً عند الخاصة والعامة إلا من شاء الله تعالى ، وهو في الكتاب والسنة في غاية البيان ، لكن القلوب انصرفت إلى مازين لها الشيطان ، كما جرى للأمم مع الأنبياء والرسلين لما دعواهم إلى توحيد الله : جرى لهم من شدة العداوة ما ذكره الله تعالى . كما قال تعالى (٥١ : ٥٣ ، ٥٤) كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون) ويشبه هذه الآية في المعنى (٣٥ : ١٣ ، ١٤) ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينشك مثل خير) أخبر تعالى أن ذلك الدعاء شرك بالله ، وأنه لا يغيره لمن لقيه به ؛ فتدبر هذه الآيات وما في معناها كقولها (٧٢ : ١٨) وأن الساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً) (٧٢ : ٢٠) قل : إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً) وهو في القرآن أكثر من أن يستقصى .

قال ابن جرير (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله) من الملائكة والإنس والجن^(١) وساق بسنده عن مجاهد قال: عيسى وعزير والملائكة.

ثم قال: يقول تعالى ذكره^(٢) قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى: تنزيهاً لك ياربنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون (ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) نواليهم (أنت ولينا من دونهم) انتهى.

قلت: وأكثر ما يستعمل الدعاء في الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة ومن بعدهم من العلماء: في السؤال والطلب، كما قال العلماء من أهل اللغة وغيرهم: الصلاة لغة: الدعاء، وقد قال تعالى (١٤، ١٣: ٣٥) والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير - الآيتين) وقال (٦: ٦٣ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية) وقال (١٠: ١٢) وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً) وقال (٤١: ٥١) وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) وقال (٤٩: ٤١) لا يسأم الإنسان من دعاء الخير - الآية) وقال (٨: ٩) إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم - الآية).

وفي حديث أنس مرفوعاً «الدعاء مُخَّ العبادة» وفي الحديث الصحيح «ادعوا الله وأتمم موقنون بالإجابة» وفي آخر «من لم يسأل الله يفضب عليه» وحديث «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه. وقوله «الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض» رواه الحاكم وصححه. وقوله «سلوا الله كل شيء حتى الشُّع إذا انقطع - الحديث». وقال ابن عباس رضي الله عنهما «أفضل العبادة الدعاء، وقرأ (٤٠: ٦٠) وقال ربكم ادعوني أستجب لكم - الآية)» رواه ابن المنذر والحاكم وصححه. وحديث «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان - الحديث» وحديث «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» وأمثال هذا في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر في الدعاء الذي هو السؤال والطلب، فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة فقد صادم النصوص وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفاً وخلفاً.

(١) سياق ابن جرير هكنا، يقول تعالى ذكره: ويوم نحشر هؤلاء المكذبين بالساعة العابدين الأوثان وما يعبدون من دون الله من الملائكة والإنس والجن.
(٢) أى: عند تفسير قوله تعالى (قالوا: سبحانك - إلى قوله - وكانوا قوماً بوراً).

وأما ما تقدم من كلام شيخ الإسلام، وتبعه العلامة ابن القيم رحمهما الله تعالى من أن الدعاء نوعان : دعاء مسألة ، ودعاء عبادة . وما ذكر بينهما من التلازم وتضمن أحدهما للآخر . فذلك باعتبار كون الذاكر والتالى والمصلى والمتقرب بالنسك وغيره طالباً فى المعنى . فيدخل فى مسمى الدعاء بهذا الاعتبار ، وقد شرع الله تعالى فى الصلاة الشرعية من دعاء المسألة مالا تصح الصلاة إلا به ؛ كما فى الفاتحة وبين السجدين وفى التشهد ، وذلك عبادة كالركوع والسجود . فتدبر هذا المقام يتبين لك جهل الجاهلین بالتوحيد .

ومما يبين هذا المقام ويزيده إيضاحاً : قول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى قوله تعالى (١٧ : ١١٠) قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيّما ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) : وهذا الدعاء المشهور أنه دعاء المسألة . قالوا : كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو ربه ويقول مرة « يا الله » ومرة « يا رحمن » فظن المشركون أنه يدعو إلهين ، فأنزل الله هذه الآية . ذكر هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التسمية ، والمعنى : أى اسم سميتوه به من أسماء الله تعالى ، إما « الله » وإما « الرحمن » فله الأسماء الحسنى . وهذا من لوازم المعنى فى الآية . وليس هو عين المراد . بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد فى القرآن وهو دعاء السؤال ، ودعاء الثناء .

ثم قال : إذا عرف هذا فقول (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) يتناول نوعى الدعاء ، لكنه ظاهر فى دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، ولهذا أمر بإخفائه . قال الحسن « بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعفاً . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ، ولم يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم » وقوله تعالى (١٨٦ : ٢) وإذا سألك عبادى عنى فأبى قريب ، أوجب دعوة الداع إذا دعان) يتناول نوعى الدعاء ، وبكل منهما فسرت الآية . قيل : أعطيه إذا سألنى ، وقيل : أثيبه إذا عبدنى ، وليس هذا من استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه . بل هذا استعماله فى حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً . وهذا يأتى فى مسألة الصلاة ، وأنها نقلت عن مسأها فى اللغة وصارت حقيقة شرعية ، واستعملت فى هذه العبادة مجازاً للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوى ، وهى باقية على الوضع اللغوى ، وضم إليها أركان وشرائط . فعلى ما قررناه : لا حاجة إلى شىء من ذلك ، فإن المصلى من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء : إما دعاء عبادة وثناء ، أو دعاء طلب ومسألة ، وهو فى الحالين داع . اهـ ملخصاً من البدائع .

وقوله: (٢٧ : ٦٣ آمنٌ يُجيبُ المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟) .

قال ﴿ وقوله (٢٧ : ٦٣ آمنٌ يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون) بين تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده ^(١) فذكر ذلك سبحانه محتجاً عليهم في اتخاذهم الشفعاء من دونه ، ولهذا قال (إله مع الله ؟) يعنى يفعل ذلك . فإذا كانت آلهتهم لا تجيبهم في حال الاضطرار ، فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده . وهذا أصح ما فسرت به الآية كسابقتهما من قوله (آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . آمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ إله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون) ولاحقتها إلى قوله (آمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمة . إله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . آمن يبدو الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ إله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

فتأمل هذه الآيات يتبين لك أن الله تعالى احتج على المشركين بما أرقوا به على ما جحدوه : من قَضْر العبادة جميعها عليه ، كما فى فاتحة الكتاب (إياك نعبد وإياك نستعين) .

قال أبو جعفر بن جرير : قوله (آمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء - إلى قوله - قليلاً ما تذكرون) يقول تعالى ذكره : أم ما تشركون بالله خير ، أم الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازل به عنه ؟ وقوله (ويجعلكم خلفاء الأرض) يقول : يستخلف بعد أمواتكم فى الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم ، وقوله (إله مع الله) إله سواه يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم هذه النعم ؟ وقوله (قليلاً ما تذكرون)

(١) فى قرّة العيون : وهذا بما أقر به مشركو العرب وغيرهم فى جاهليتهم كما قال تعالى (٦٥ : ٣٠) فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون أخبر تعالى أنهم يخلصون الدعاء له إذا وقعوا فى شدة .

وروى الطبراني بإسناده « أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ،

يقول تذكراً قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون ، وتعتبرون حجج الله عليكم يسيراً .
فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته . اهـ

قوله ﴿ وروى الطبراني بإسناده « أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين . فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله ﴾ .

« الطبراني » : هو الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني ، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها . روى عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم الديري وخلق كثير . مات سنة ستين وثلاثمائة روى هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

قوله ﴿ أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين ﴾ لم أقف على اسم هذا المنافق .

قلت : هو عبد الله بن أبي كما صرح به ابن أبي حاتم في روايته .
قوله ﴿ فقال بعضهم ﴾ أى الصحابة رضى الله عنهم ، هو أبو بكر رضى الله عنه .
قوله ﴿ قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ﴾ لأنه صلى الله عليه وسلم يقدر على كفاه (١) .

(١) في قرّة العيون : فعله أراد : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يترك المنافقين أن يفعل بهم ما يستحقونه مخافة أن يفتن بعض المؤمنين من قبيلة المنافق ، وفي السنة ما يدل على ذلك ، كما فعل مع ابن أبي وغيره . وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقدر أن يغيبهم من ذلك المنافق ، فيكون نهيهم صلى الله عليه وسلم عن الاستغاثة به حمايةً لجناب التوحيد ، وسداً لدرائع الشرك ، كمنظأره مما للاستغاث به قدرة عليه مما كان يستعمل لغة وشرعاً مخافة أن يقع من أمته استغاثة بمن لا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا يستجيب من الأموات والغائبين ، والطواغيت والشياطين والأصنام وغير ذلك . وقد وقع من هذا الشرك العظيم ما عمت به البلوى كما تقدم ذكره حتى إنهم أشركوهم مع الله في ربوبيته وتدير أمر خلقه ، كما أشركوهم معه في إلهيته وعبوديته ، والوسائل لها حكم الغايات في النهى عنها . والله أعلم

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنه لا يُستغاث بي ، وإنما يُستغاث بالله .
فيه مسائل :

الأولى : أن عطف الدعاء على الاستغاث من عطف العام على الخاص .

الثانية : تفسير قوله (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) .

الثالثة : أن هذا هو الشرك الأكبر .

الرابعة : أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين .

الخامسة : تفسير الآية التي بعدها .

السادسة : كون ذلك لا ينفع في الدنيا ، مع كونه كفرأ .

السابعة : تفسير الآية الثالثة^(١)

الثامنة : أن طلب الرزق لا ينبغى إلا من الله ، كما أن الجنة لا تُطلب إلا منه

التاسعة : تفسير الآية الرابعة .

العاشرة : أنه لأضل ممن دعا غير الله .

الحادية عشرة : أنه غافل عن دعاء الداعي ، لا يدرى عنه^(٢)

قوله ﴿ إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله ﴾ فيه : النص على أنه لا يستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا بمن دونه ، كره صلى الله عليه وسلم أن يستعمل هذا اللفظ في حقه ، وإن كان مما يقدر عليه في حياته ؛ حماية لجناب التوحيد ، وسداً لذرائع الشرك وأدباً وتواضعاً

(١) يعنى : (فابتنوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) .

(٢) يعنى : أن المدعو غافل عن دعاء الداعي بما هو مشغول به في قبره من نعيم ، إن كان من المؤمنين الصالحين ، كالحسين وأبيه رضى الله عنهما ، أو من عذاب أليم ، كالتجاني المشرك الحبيث وابن عربى الحامى أكبر الدعاة إلى وحدة الوجود ، وابن الفارض وأشباههما ممن اتخذهم الناس ولياً معبوداً لعظم ما بنى عليه من القبة ، أو بالظنون واتباع الأهواء ، وهم كثير جداً ، بل أكثر أولئك الطواغيت منهم ، ومن أرباب الطرق الدجالين .

الثانية عشرة : أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له .

الثالثة عشرة : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو .

الرابعة عشرة : كفر المدعو بتلك العبادة .

الخامسة عشرة : هي سبب كونه أضل الناس .

السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة^(١)

السابعة عشرة : الأمر العجيب ، وهو إقرار عبدة الأوثان : أنه لا يجب

المضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعو نه في الشدائد مخلصين له الدين .

الثامنة عشرة : حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حي التوحيد ، والتأدب مع الله

لربه ، وتحذيراً للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال . فإذا كان هذا فيما يقدر عليه صلى الله عليه وسلم في حياته ، فكيف يجوز أن يستغاث به بعد وفاته ، ويطلب منه أمور لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ؟ كما جرى على السنة كثير من الشعراء كالبوصيري^(٢) والبرعي

(١) يعنى (أمن يجب المضطر إذا دعاه) فبالجمع بين الآيتين يظهر أنه لا يقدر أحد من

المدعويين أن يجيب الداعي إلا الله .

(٢) مثل قوله في البردة :

يا أكرم الخلق ما لي من ألود به سواك عند حدوث الحادث العمم

ويزعمون أن البوصيري أعظم من مدح النبي صلى الله عليه وسلم ويذكرونه أكثر مما يذكرون حسان بن ثابت وغيره من الصحابة رضى الله عنهم ؛ لأنهم في زعمهم لم يبلغوا من الغلو والإطراء ما بلغ البوصيري . وهذا هو الغلو الذي جر إلى الشرك والكفر برسول الله صلى الله عليه وسلم كما كفرت النصارى بعيسى ابن مريم عليه السلام من طريق هذا الغلو . وقد حذرنا الله منه في كتابه الكريم بقوله (٤ : ١٧١ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) وحذرنا النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى ومسلم « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فأنا عبد الله ورسوله » صلى الله عليه وسلم . وإنما تعظيمه صلى الله عليه وسلم وجه باتباع سنته وإقامة ملته ، ودفع كل ما يلصقه الجاهلون بها من الحرافات . فقد ترك أكثر الناس هذا وشغلوا بهذا الغلو والإطراء الذى أوقعهم في هذا الشرك العظيم .

ونحمد الله أن عافانا بفضلته وجعلنا مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم معظمين له =

باب

قول الله تعالى (٧ : ١١٩ ، ١٢٠) أَيْشُرْكَونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يَخْلُقُونَ ؟
وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ).

وغيرهم ، من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ،
ويعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء ، الذى له الخلق والأمر وحده ،
وله الملك وحده ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . قال تعالى (٧ : ١٨٨ قل : لا أملك لنفسى
نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله) فى مواضع من القرآن^(١) (٧٢ : ٢١ قل إني لا أملك لكم
ضراً ولا رشداً) فأعرض هؤلاء عن القرآن ، واعتقدوا نقيض ما دلت عليه هذه الآيات
الحكميات ، وتبعهم على ذلك الضلال الخلق الكثير والجم الغفير . فاعتقدوا الشرك بالله ديناً ،
والهدى ضلالاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . فأعظمها من مصيبة عمت بها البلوى ، فعاندوا
أهل التوحيد ، وبدعوا أهل التجريد ؛ فآله المستعان .

قوله ﴿باب قول الله تعالى

(٧ : ١١٩ ، ١٢٠) أَيْشُرْكَونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يَخْلُقُونَ ؟ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ
وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٢﴾ .

قوله ﴿أَيْشُرْكَونَ﴾ أى فى العبادة . قال المفسرون : فى هذه الآية توبيخ وتعنيف

== ومحين بما يحبه الله ورسوله لنا على مثل ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان .
وقد عظمت المصيبة بهذا الشرك حتى اتخذ أعداء الرسول - الزاعمون جهلاً وكذباً حبه - هذه
البردة ورداً كالقرآن وأعظم من القرآن ، وكتبوها مجودة بماء الذهب كما كتبوا القرآن ،
وربما اشتدت عنايتهم بها أكثر من القرآن . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) فى سورة (١٠ : ٤٩ قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله) .

(٢) فى قرّة العيون : وهذا لما احتج به تعالى على المشركين لما وقع منهم من اتخاذ الشفعاء
والشركاء فى العبادة لأنهم مخلوقون فلا يصلح أن يكونوا هم شركاء لمن هم خلقه وعبيده ، وأخبر
أنهم مع ذلك لا يستطيعون لهم نصراً ، أى لمن سألهم النصرة (ولا أنفسهم ينصرون) فإذا كان
المدعو لا يقدر على أن ينصر نفسه ، فلأن لا ينصر غيره من باب الأولى .

فبطل تعلق المشرك بغير الله بهذين الدليلين العظيمين ، وهو كونهم عبيداً لمن خلقهم
لعبادته ، والمبدل لا يكون معبوداً .

الدليل الثانى : أنه لا قدرة لهم على نفع أنفسهم ، فكيف يرجى منهم أن ينفعوا غيرهم ؟
قدبر هذه الآية وأمثالها فى القرآن العظيم .

وقوله : (٣٥ : ١٣) والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطْمِير . إن

للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئاً وهو مخلوق ، والمخلوق لا يكون شريكاً
للخالق في العبادة التي خلقهم لها ، و بين أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ،
فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه ؟ وهذا برهان ظاهر على
بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله ، وهذا وصف كل مخلوق ، حتى الملائكة والأنبياء
والصالحين . وأشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم قد كان يستنصر ربه على المشركين
ويقول « اللهم أنت عضدى ونصيرى ، بك أحول ، وبك أصول ، وبك أقاتل » وهذا
كقوله (٢٥ : ٣) واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم
ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) وقوله (٧ : ١٨٨) قل : لا أملك لنفسي
نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ،
إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقوله (٧٢ : ٢١ - ٢٣) قل : إني لأملك لكم ضراً
ولا رشداً . قل : إني لن يُجبرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بلاغاً من
الله ورسالاته .

فكفي بهذه الآيات برهاناً على بطلان دعوة غير الله كائناً من كان . فإن كان نبياً أو
صالحاً فقد شرفه الله تعالى بإخلاص العبادة له ؛ والرضا به رباً ومعبوداً ، فكيف يجوز أن
يجعل العابد معبوداً مع توجيه الخطاب إليه بالنهي عن هذا الشرك ؟ كما قال تعالى (٢٨ : ٨٨)
ولا تدع مع الله الهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه
ترجعون) وقال (١٢ : ٤٠) إن الحكم إلا لله ؛ أمر ألا تعبدوا إلا إياه) فقد أمر عباده من
الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده ؛ ونهاهم أن يعبدوا معه غيره ، وهذا
هو دينه الذي بعث به رسله ، وأنزل به كتبه ، ورضيه لعباده ، وهو دين الإسلام ، كما
روى البخارى عن أبي هريرة في سؤال جبريل عليه السلام ، قال « يا رسول الله ،
ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة
المفروضة ، وتصوم رمضان - الحديث » .

﴿ وقول الله تعالى (٣٥ : ١٣) والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطْمِير ، إن
تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ،

تَدْعُوهم لا يسمعو دِعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويومَ القيامةِ

ولا ينبئك مثل خبير^(١) ﴿ يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم ، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو ، وهي الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على استجابته ، فتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته ، فكيف إذا عُدت بالكلية ؟ فنفي عنهم الملك بقوله (ما يملكون من قطمير) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، وعطاء والحسن وقتادة « القطمير : اللقافة التي تكون على نواة التمر » كما قال تعالى (١٦ : ٧٣) ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون) وقال (٣٤ : ٢٢ ، ٢٣) قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ونفي عنهم سماع الدعاء بقوله (إن تدعوهم لا يسمعو دِعاءكم) لأنهم ما بين ميت وغائب عنهم ، مشتغل بما خلق له ، مسخر بما أمر به كالملائكة ، ثم قال (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) لأن ذلك ليس لهم ؛ فإن الله تعالى لم يأذن لأحد من عباده في دعاء أحد منهم ، لا استقلالاً ولا واسطة ، كما تقدم بعض أدلة ذلك وقوله (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) فتبين بهذا أن دعوة غير الله شرك^(٢) . وقال تعالى (١٩ : ٨١ ، ٨٢) واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكنونون

(١) في قرة العيون : يخبر الخبير أن الملك له وحده ، والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدييره ، ولهذا قال (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) فإن من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب في طلب نفع أو دفع ضرر إلى أحد سواه تعالى وتقدس بل يجب إخلاص الدعاء له الذي هو من أعظم أنواع العبادة ، وأخبر تعالى أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئاً وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم . ولو فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم ، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشركهم ، أى ينكروه ويتبرأون ممن فعله معهم ؛ فهذا الذى أخبر به الخبير الذى (لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) وأخبر أن ذلك الدعاء شرك به ، وأنه لا ينفره لمن لقيه به ، فأهل الشرك ماصدقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع ، بل قالوا : إن البت يسمع ، ومع سماعه ينفع ، فتركوا الإسلام والإيمان رأساً ، كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة .

(٢) وتبين أنهم كانوا يدعون عبادةً صالحين ، يتبرأون من الشرك الذى هو دعاء غير الله ويتبرأون من أولئك المشركين الزاعمين حب أولئك الصالحين ، وأنهم محسوبون عليهم .

يكفرون بِشرككم ، ولا يُنبئُك مثلُ خبير) .
وفي الصحيح عن أنس قال « شُجَّ النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ،

عليهم ضداً) وقوله تعالى (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) قال ابن كثير : يتبرأون منكم ، كما قال تعالى (٤٦ : ٥ ، ٦) ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) قال : وقوله ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أى ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى . فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

قلت : والمشركون لم يسلموا للعلم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم ؛ فقالوا : تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها (١) ، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير من أن كل معبود يعادى عابده يوم القيامة ويتبرأ منه ، كما قال تعالى (١٠ : ٢٨ - ٣٠) ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أتم وشركاؤكم فزِيلْنَا بينهم ، وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين . هنالك تَبَلُّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ : ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحق : وضل عنهم ما كانوا يفترون) .

أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قال مجاهد : (إن كنا عن عبادتكم لغافلين) قال : يقول ذلك كل شيء كان يعبد من دون الله .

فالسكيس يستقبل هذه الآيات التي هي الحجة والنور والبرهان والإيمان والقبول والعمل فيجرد أعماله لله وحده دون كل ماسواه ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا دفعا ، فضلا عن غيره . قوله ﴿ وفي الصحيح عن أنس رضى الله عنه قال « شُجَّ النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحُدٍ وكُسرَت رِباعيته . فقال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ فنزلت (٣ : ١٢٨) ليس لك من الأمر شيء) ﴾ .

(١) يعنى : قالوا ذلك بلسان حالهم ، لأنهم أصروا على دعائهم والاستغاثة بهم بعد أن ونحهم الله بأن الذى يستغاث به ويدعى ينبغى أن يكون سمياً بصيراً بيده الخير . والذى يدل على أنهم لم يكونوا يقولوا ذلك بصريح القول : ما حكى الله من جواب قوم إبراهيم وأبيه لما سألهم (هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟) فإنهم أعرضوا عن الجواب الصريح عن السؤال . وقالوا (بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) فجوابهم هذا حيدة عن الجواب المطابق للسؤال .

وَكُسِّرَتْ رِبَاعِيَّتَهُ ، فَقَالَ : كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجَّوْا نَبِيَّهُمْ ؟ فَزَلَّتْ (٣ : ١٢٨) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » .

قوله ﴿ في الصحيح ﴾ أي الصحيحين . علقه البخاري ، قال : وقال حميد وثابت عن أنس . ووصله أحمد والترمذي والنسائي عن حميد عن أنس . ووصله مسلم عن ثابت عن أنس . وقال ابن إسحاق في المغازي : حدثنا حميد الطويل عن أنس قال « كسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وشج وجهه ، فحمل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ » فأنزله الله الآية . قوله ﴿ شج النبي صلى الله عليه وسلم ﴾ قال أبو السعادات : الشج في الرأس خاصة في الأصل ، وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه ، ثم استعمل في غيره من الأعضاء ، وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي صلى الله عليه وسلم السفلى وجرح شفته العليا ^(١) . وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجَّه في وجهه ، وأن عبد الله بن قتيبة جرحه في وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ^(٢) وأن مالك بن سنان معن الدم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وازدرده . فقال له : « لن تمسك النار » .

قال القرطبي : والرباعية - بفتح الراء وتخفيف الياء - وهي كل سن بعد ثنية .

قال النووي رحمه الله : وللإنسان أربع رباعيات .

قال الحافظ : والمراد : أنها كسرت ، فذهب منها فلقة ، ولم تقلع من أصلها .

قال النووي : وفي هذا : وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؛

لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب . ولتعرف الأمم ما أصابهم ويأتسوا بهم .

قال القاضي : وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا ، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ

(١) روى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبي وقاص قال « فما حرصت على قتل رجل

قط حرصى على قتل أخى عتبة لما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد » .

(٢) في الطبراني من حديث أبي أمامة قال « رمى عبد الله بن قتيبة رسول الله صلى الله

عليه وسلم يوم أحد فشج وجهه وكسرت رباعيته . فقال : خذها وأنا ابن قتيبة . فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه : مالك أتمأك الله . فسلط الله عليه

تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعته قطعة قطعة » .

وفيه عن ابن عمر رضی الله عنهما: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول -

على أجسام البشر، ليتيقن أنهم مخلوقون مر بوبون . ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات ، ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصرارى وغيرهم . انتهى . قلت : يعنى من الغلو والعبادة .

قوله ﴿ يوم احد ﴾ هو شرقى المدينة . قال صلى الله عليه وسلم : « أحد جبل يحبنا ونحبه ^(١) » وهو جبل معروف كانت عنده الواقعة المشهورة . فأضيفت إليه .

قوله ﴿ كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم ﴾ زاد مسلم : « كسروا ربا عيته وأدموا وجهه » . قوله ﴿ فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) ^(٢) ﴾ قال ابن عطية : كأن النبي صلى الله عليه وسلم لحقه في تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش ؛ فقليل له بسبب ذلك (ليس لك من الأمر شيء) أى : عواقب الأمور بيد الله ، فأمنض أنت لشأنك ، ودّم على الدعاء لربك .

وقال ابن إسحاق : (ليس لك من الأمر شيء) فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم . قوله ﴿ وفيه عن ابن عمر رضی الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر - « اللهم العن فلانا وفلانا » بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) . وفى رواية « يدعو على صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام » فنزلت (ليس لك من الأمر شيء) .

(١) رواه البخارى فى الصحيح عن أنس .

(٢) فى قرّة العيون : وقد قال تعالى (قل إن الأمر كله لله) وقال تعالى (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، والمقصود : أن الذى له الأمر كله والمملك كله لا يستحق غيره شيئاً من العبادة ، ولهذا المعنى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمتدين) فالذى ليس له من الأمر شيء وهو خيرة الله من خلقه ما زال يدعو الناس أن يخلصوا العبادة للذى له الأمر كله وهو الله تعالى ، فهذا دينه صلى الله عليه وسلم الذى بعث به ، وأمر أن يبلغه أمته ويدعوهم إليه كما تقدم فى باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، فإياك أن تتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين الذى شرعه الله ورسوله لهم ، وخصهم به .

إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر - « اللهم المنّ فلاناً وفلاناً ، بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء - الآية) » .

قوله ﴿ وفيه ﴾ أي : في صحيح البخارى . ورواه النسائى .

قوله ﴿ عن ابن عمر ﴾ هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، صحابى جليل ، شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاح . مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها ، أو في أول التي تليها .

قوله ﴿ أنه سمع رسول الله ﴾ هذا القنوت على هؤلاء بعد ماشج وكسرت ربايعته يوم أحد قوله ﴿ اللهم المنّ فلاناً وفلاناً ﴾ قال أبو السعادات : أصل اللعن : الطرد والإبعاد من الله ومن الخلق السب والدعاء ، وتقدم كلام شيخ الإسلام رحمه الله .

قوله ﴿ فلاناً وفلاناً ﴾ يعنى صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ، كما بيّنه في الرواية الآتية .

وفيه : جواز الدعاء على المشركين بأعيانهم في الصلاة ، وأن ذلك لا يضر في الصلاة . قوله ﴿ بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ﴾ قال أبو السعادات : أى أجاب الله حمده وتقبله . وقال السهلى : مفعول « سمع » محذوف ؛ لأن السمع متعلق بالأقوال والأصوات دون غيرها ، فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة للسمع ، فاجتمع في الكلمة الإيجاز والدلالة على الزائد ، وهو الاستجابة لمن حمده .

وقال ابن القيم رحمه الله ما معناه : عدّى « سمع الله لمن حمده » باللام المتضمنة معنى استجاب له . ولا حذف هناك ، وإنما هو مضمن .

قوله ﴿ ربنا ولك الحمد ﴾ في بعض روايات البخارى بإسقاط الواو . قال ابن دقيق العيد : كأن إثباتها دال على معنى زائد ؛ لأنه يكون التقدير : ربنا استجب ولك الحمد . فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر .

قال شيخ الإسلام : والحمد ضد الذم ، والحمد يكون على محاسن الممود مع الحجة له . كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له .

وفي رواية « يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام فنزلت (ليس لك من الأمر شيء) » .

وفيه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكذا قال ابن القيم : وفرق بينه وبين المدح بأن الإخبار عن محاسن الغير : إيمان يكون إخباراً مجرداً عن حب وإرادة ، أو يكون مقروناً بحبه وإرادته . فإن كان الأول فهو المدح ؛ وإن كان الثاني فهو الحمد . فالحمد : إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتمظيمه . ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء ، بخلاف المدح ؛ فإنه خبر مجرد . فالقائل إذا قال « الحمد لله » أو قال « ربنا ولك الحمد » تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة ، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى ، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغى إلا لمن هذا شأنه ، وهو الحميد الجيد . وفيه : التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد ، وهو قول الشافعى وأحمد وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة ، وقالوا : يقتصر على « سمع الله لمن حمده » .

قوله ﴿ وفي رواية يدعوه على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ﴾ . وذلك لأنهم رهوس المشركين يوم أحد ، هم وأبو سفيان بن حرب ، فما استجيب له صلى الله عليه وسلم فيهم ، بل أنزل الله (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم) فتاب عليهم فأسلموا وحسن إسلامهم . وفي هذا كله : معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، الذى له الأمر كله ، يهدى من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته .

وفي هذا من الحجج والبراهين ما يبين بطلان ما يعتقده عبادة القبور فى الألياء والصالحين بل فى الطواغيت من أنهم ينفعون من دعائهم ، ويمنعون من لأذبحهم . فسبحان من حال بينهم وبين فهم الكتاب . وذلك عدله سبحانه ، وهو الذى يحول بين المرء وقلبه ، وبه الحول والقوة .

قوله ﴿ وفيه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عليه (٢٦ : ٢١٤ وأنذر عشيرتك الأقربين) قال : يامعشر قريش - أو كلمة نحوها - اشترؤا أنفسكم . لا أغنى عنكم من الله شيئاً . ياعباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك

حين أنزل عليه (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) .

من الله شيئاً . ياصفية عمه رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئاً . يافاطمة بنت محمد ، سلىنى من مالى ماشئت ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ﴿ .
قوله ﴿ وفيه ﴾ أى : وفى صحيح البخارى .

قوله ﴿ عن أبى هريرة ﴾ اختلف فى اسمه . وصحح النووى أن اسمه : عبد الرحمن ابن صخر ، كما رواه الحاكم فى المستدرک عن أبى هريرة قال « كان اسمى فى الجاهلية عبد شمس ابن صخر ، فسميت فى الإسلام عبد الرحمن » وروى الدولابى بإسناده عن أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم سماه عبد الله » وهو دَوْمِيٌّ ، من فضلاء الصحابة وحفاظهم . حفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم أكثر مما حفظه غيره^(١) مات سنة سبع أو ثمان ، أو تسع وخمسين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

قوله ﴿ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾ فى الصحيح من رواية ابن عباس « صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا » .

قوله ﴿ حين أنزل عليه (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ﴾ عشيرة الرجل : هم بنو أبيه الأذنون أو قبيلته ؛ لأنهم أحق الناس ببرك وإحسانك الدينى والدنيوى ، كما قال تعالى (٦٦ : ٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقَوِّدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) وقد أمره الله تعالى أيضاً بالندارة العامة ، كما قال تعالى (٣٦ : ٦) لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) ، (١٤ : ٤٤) وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب) .

(١) روى البخارى فى أول البيوع عن سعيد بن السيب وأبى سلمة بن عبد الرحمن : أن أباهريرة قال « إنكم تقولون : إن أباهريرة يكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل حديث أبى هريرة ؟ وإن إخوتى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكنت أنزم رسول الله على ملء بطنى ، فأشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا . وكان يشغل إخوتى من الأنصار عمل أموالهم . وكنت امرءاً مسكيناً من مساكين الصفة أعى حين ينسون . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث محدثه : إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى ألقى مقالتي هذه ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعى ما أقول . فبسطت نمرة على ، حتى إذا قضى رسول الله مقالته جمعها إلى صدرى . فما نسيت من مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك من شيء » .

فقال : يامعشر قريش - أو كلمة نحوها - اشترُوا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً . ياعباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً . ياصفية عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنك من الله شيئاً .

قوله ﴿ يامعشر قريش ﴾ المعشر : الجماعة .

قوله ﴿ أو كلمة نحوها ﴾ هو بنصب « كلمة » عطف على ما قبله .

قوله ﴿ اشترُوا أنفسكم ﴾ أى بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له وطاعته فيما أمر به والالتفاء عما نهى عنه . فإن ذلك هو الذى ينبجى من عذاب الله لا الاعتماد على الأنساب والأحساب ؛ فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب .

قوله ﴿ لا أغني عنكم من الله شيئاً ^(١) ﴾ فيه حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين ، ورجب إليهم ليشفعوا له وينفموه أو يدفعوا عنه ، فإن ذلك هو الشرك الذى حرمه الله تعالى ، وأقام نبيه صلى الله عليه وسلم بالإندار عنه ، كما أخبر تعالى عن المشركين فى قوله (٣٩ : ٣) والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلنى (١٠ : ١٨) هؤلاء شفعاؤنا عند الله (فأبطل الله ذلك ونزّه نفسه عن هذا الشرك ، وسيأتى تقرير هذا المقام إن شاء الله تعالى . وفى صحيح البخارى « يابنى عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً » .

قوله ﴿ ياعباس بن عبد المطلب ﴾ بنصب « ابن » ويجوز فى « عباس » الرفع والنصب . وكذا فى قوله « ياصفية عمّة رسول الله ، ويافاطمة بنت محمد » .

(١) فى قرّة العيون : هذا هو معنى ما تقدم من أنه تعالى هو المتصرف فى خلقه بما شاء مما اقتضته حكمته فى خلقه وعلمه بهم ، والعبد لا يعلم إلا ما علمه الله ، ولا ينجو أحد من عذابه وعقابه إلا بإخلاص العبادة له وحده والبراءة من عبادة ماسوا . كما قال تعالى (٥ : ٧٢) إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) والنبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث أنذر الأقرين نذارة خاصة وأخبر أنه لا يغنى عنهم من الله شيئاً ، وبلغهم وأعذر إليهم . فأنذر قريشاً بيظونها وقبائل العرب فى مواسمها ، وأنذر عمه وعمته وابنته وهم أقرب الناس إليه ، وأخبر أنه لا يغنى عنهم من الله شيئاً إذا لم يؤمنوا به ويقبلوا ما جاء به من التوحيد وترك الشرك به . وسائر شرائع الإسلام وعباداته .

ويافاطمة بنت محمد ، سألني من مالي ماشئت ، لا أغني عنك من الله شيئاً .

قوله ﴿سألني من مالي ماشئت﴾ (١) . بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الإيمان والعمل الصالح .

وفيه : أنه لا يجوز أن يسأل العبد إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا . وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا منه تعالى ؛ فإن ما عند الله لا يُنال إلا بتجريد التوحيد ، والإخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده أن يتقربوا إليه به ، فإذا كان لا ينفع بنته ولا عمه ولا عمته ولا قرابته إلا ذلك ، فغيرهم أولى وأحرى . وفي قصة عمه أبي طالب معتبر .

فانظر إلى الواقع الآن من كثير من الناس من الالتجاء إلى الأموات والتوجه إليهم بالرغبات والرهبات ، وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عن غيرهم - يتبين لك أنهم ليسوا على شيء (٧ : ٣٠) إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) أظهر لهم الشيطان الشرك في قالب محبة الصالحين ، وكل صالح يبرأ إلى الله من هذا الشرك في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ولا ريب أن محبة الصالحين إنما تحصل

(١) في قرّة العيون : لأن هذا هو الذي يقدر عليه صلى الله عليه وسلم . وما كان أمره إلى الله سبحانه فلا قدرة لأحد عليه ، كما في هذا الحديث . ولما مات أبو طالب وكان يحوط رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحميه ولم ينكر ملة عبد المطلب من الشرك بالله وقال صلى الله عليه وسلم « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله تعالى (٩ : ١١٣) ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) فأخبر أن أبا طالب من أصحاب النار لما مات على غير شهادة أن لا إله إلا الله ، فلم ينفعه حمايته النبي صلى الله عليه وسلم من أن يكون من المشركين ولا الاعتراف بأن النبي صلى الله عليه وسلم على الحق بدون البراءة من الشرك ، لأنه لم يبرأ من ملة أبيه فكل تعلق على غير الله من طلب شفاعة أو غيرها شرك بالله يكون عليه وبالاً في الدنيا والآخرة ، والشفاعة لا تكون إلا لأهل الإخلاص خاصة ، كما قال تعالى (٦ : ٥١) وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) والآيات في هذا المعنى كثيرة وكذلك الأحاديث والله أعلم . وسيأتي في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيتين^(١) .

الثانية : قصة أحد .

الثالثة : قنوت سيد المرسلين، وخلفه سادات الأولياء يؤمنون في الصلاة .

الرابعة : أن المدعو عليهم كفار .

الخامسة : أنهم فعلوا أشياء مافعلها غالب الكفار ، منها : شجّهم نبيهم

وحرصهم على قتله . ومنها : التمثيل بالقتلى ، مع أنهم بنو عمهم .

السادسة : أنزل الله عليه في ذلك (ليس لك من الأمر شيء) .

السابعة : قوله (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) فتاب عليهم فأمنوا .

الثامنة : القنوت في النوازل .

بموافقتهم في الدين ، ومتابعتهم في طاعة رب العالمين ، لا بأجزاء من أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله إشرافاً بالله ، وعبادة لغير الله ، وعداوة لله ورسوله والصالحين من عباده ، كما قال تعالى (١١٦ : ٥ ، ١١٧) وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ، أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنتُ قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم . وكنتُ عليهم شهيداً مادمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في هذه الآية بعد كلام سبق : ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمر به وهو محض التوحيد فقال (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم) ثم أخبر أن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم ، وأنه بعد الوفاة لا اطلاع له عليهم ، وأن الله عز وجل المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال (وكنتُ عليهم شهيداً مادمت فيهم ؛

(١) يعني قوله تعالى (لا يستطيعون لهم نصراً) وقوله (ما يملكون من قطمير) لأنه إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد ولد آدم لا يبغي عن قرابته شيئاً . فغيره أولى أن يعجز عن ضرر أو نفع لنفسه أو لغيره .

التاسعة : تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم .

العاشر : لمن المعين في القنوت .

الحادية عشرة : قصته صلى الله عليه وسلم لما أنزل عليه (وأنذر عشيرتك

الأقربين) .

الثانية عشرة : جدّه صلى الله عليه وسلم بحيث فعل ما أنسب بسببه إلى

الجنون ، وكذلك لو يفعله مسلم الآن .

الثالثة عشرة : قوله للأبعد والأقرب « لا أغنى عنك من الله شيئاً » حتى قال :

« يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئاً » فإذا صرح وهو سيد المرسلين

بأنه لا يغنى شيئاً عن سيدة نساء العالمين ، وآمن الإنسان أنه صلى الله عليه وسلم

لا يقول إلا الحق ، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم ، تبين له

التوحيد وغربة الدين .

فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد (وصف الله سبحانه بأن شهادته فوق كل شهادة وأعم اه .

قلت : ففي هذا بيان أن المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله : من توحيد الذي هو

دينهم الذي اتفقوا عليه ودعوا الناس إليه ، وفارقوه فيه إلا من آمن ، فكيف يقال لمن دان

بدينهم ، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده : إنه قد تنقصهم بهذا التوحيد

الذي أطاع به ربه ، واتبع فيه رسله عليهم السلام ، ونزه به ربه عن الشرك الذي هو

هضم للربوبية ، وتنقص للإلهية وسوء ظن برب العالمين ؟ .

والمشركون هم أعداء الرسل وخصماؤهم في الدنيا والآخرة ، وقد شرعوا لأتباعهم أن

يتبرأوا من كل مشرك ويكفروا به ، ويبغضوه ويعادوه في ربهم ومعبودهم (٦ : ١٤٩ قل

فله الحجة البالغة فلو شاء لهذاكم أجمعين) .

باب

قول الله تعالى : (٣٤ : ٢٣ حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العليُّ الكبير^(١)) .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى :

(٣٤ : ٢٣ حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم) ﴿ أى زال الفزع عنها . قاله ابن عباس وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبي والحسن وغيرهم .

وقال ابن جرير : قال بعضهم : الذى فُزِعَ عن قلوبهم : الملائكة . قالوا : وإنما فُزِعَ

(١) فى قرّة العيون : وهذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمر أربعة :

(الأول) أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع الله والذى لا يملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض لا ينفع ولا يضر ، فإله تعالى هو الذى يملكهم ويدبرهم ويتصرف فىهم وحده .
(الثانى) قوله (وما لهم فىهما من شرك) أى فى السموات والأرض ، أى وما لهم شرك مثقال ذرة من السموات والأرض .

(الثالث) قوله (وما له منهم من ظهير) والظهير : المعين ؛ فليس لله معين من خلقه ، بل هو الذى يمينهم على ما ينفعهم لكمال غناه عنهم ، وضرورتهم إلى ربهم فيما قل وكثر من أمور دنياهم وأخراهم .

(الرابع) قوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه . وأخبر تعالى أن من اتخذ شفيماً من دونه حرم شفاعته الشفعاء ، قال تعالى (١٠ : ١٨) ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل : أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) لأن اتخاذ الشفعاء شرك ، لقوله تعالى فى حقهم « سبحانه وتعالى عما يشركون » والمشرك منفية الشفاعة فى حقه كما قال تعالى (٧٤ : ٤٨) فما تنفعهم شفاعتنا الشافعين) وقال (٦ : ٩٤) ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فىكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) وذلك أن متخذ الشفيع لا بد أن يرغب إليه ويدعوه ويرجوه ويخافه ويحبه لما يؤمله منه . وهذه من أنواع العبادة التى لا يصرف منها شيء لغير الله وذلك هو الشرك الذى ينافى الإخلاص .

عن قلوبهم من غَشِيَّةٍ تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي^(١) .
وقال ابن عطية : في الكلام حذف يدل عليه الظاهر . كأنه قال : ولا هم شفعا كما
تزعمون أتم ، بل هم عَبَدَةٌ مسلمون لله أبداً ، يعني : منقادون ، حتى إذا فزع عن قلوبهم .
والمراد : الملائكة ، على ما اختاره ابن جرير وغيره .

قال ابن كثير : وهو الحق الذي لا مِرْيَةَ فيه ؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار .
وقال أبو حيان : تظاهرت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قوله (حتى
إذا فزع عن قلوبهم) إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمره الله به ،
سمعت كبراً سلسلة الحديد على الصّفوان ، فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة . قال : وبهذا المعنى
- من ذكر الملائكة في صدر الآية - تنسق هذه الآية على الأولى ، ومن لم يشعر أن
الملائكة مشار إليهم من أول قوله (الذين زعمتم) لم تصل له هذه الآية بما قبلها^(٢) .

قوله ﴿ قالوا : ماذا قال ربكم ؟ ﴾ ولم يقولوا : ماذا خلق ربنا ؟ ولو كان كلام الله مخلوقاً
لقالوا : ماذا خلق ؟ انتهى من شرح سنن ابن ماجه .

. ومثله الحديث « ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ » وأمثال هذا في الكتاب والسنة كثير .
قوله ﴿ قالوا الحق ﴾ أى قال الله الحق . وذلك لأنهم إذا سمعوا كلام الله صغقوا ،
ثم إذا أفاقوا أخذوا يسألون ، فيقولون : ماذا قال ربكم ؟ فيقولون : قال الحق .

قوله ﴿ وهو العلى الكبير ﴾ علو القدر وعلو القهر وعلو الذات ، فله العلو الكامل من
جميع الوجوه ، كما قال عبد الله بن المبارك - لَمَّا قيل له : بما نعرف ربنا ؟ قال « بأنه على عرشه

(١) ذكره عن ابن مسعود من عدة طرق ، وساق بسنده حديث أبي هريرة الذي رواه
البخارى الآتى بمد صفحة .

وقد قال البخارى في تفسير سورة الحجر عن طي بن عبد الله : قلت لسفيان : إن إنساناً
روى عنك عن عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة أنه قرأ « فرغ » بضم الفاء وبالراء للثقله
المهملة وبالعين المعجمة . فقال سفيان : هكذا قرأ عمرو بن دينار . فلا أدري سمعه هكذا
أم لا ؟ قال الحافظ ، وهذه القراءة رويت عن الحسن وقتادة ومجاهد . والقراءة المشهورة
بالتزين والعين المهملة . وقرأها ابن عامر مبنياً للفاعل . ومعناه بالزاي والعين المهملة : أدهش
الفزع عنهم . ومعنى التى بالراء والعين المعجمة : ذهب عن قلوبهم ما حل فيها .

(٢) قال أبو حيان : ولهذا اضطرب المفردون في تفسيرها .

في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ،

بِأَنَّ مِنْ خَلْقِهِ ﴿ تَسْكَا مِنْهُ بِالْقُرْآنِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى (٢٠ : ٥ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ،
(٢٥ : ٥٩ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ) فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ (٧ : ٥٣ و ١٠ : ٣
و ١٤ : ٢ و ٣٢ : ٤ و ٥٧ : ٤) .

قوله ﴿ الكبير ﴾ أى الذى لا أكبر منه ولا أعظم منه تبارك وتعالى .

قوله ﴿ فى الصحيح ﴾ عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
« إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ عَلَى
صَفْوَانٍ ، يَنْفُذُ ذَلِكَ ، حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سَفِيَانٌ
بِكَلْفِهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيَلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يَلْقِيهَا الْآخَرَ إِلَى
مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّى يَلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ ، فَرَبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يَلْقِيهَا ،
وَرَبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرَكَهُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ ، فَيَقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا
وَكَذَا : كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ » .

قوله ﴿ فى الصحيح ﴾ أى صحيح البخارى ^(١) .

قوله ﴿ إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ﴾ أى إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْأَمْرِ الَّذِي يُوحِيهِ إِلَى جَبْرِيلَ
بِمَا أَرَادَهُ ؛ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآتِي ، وَكَأَنَّ رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ جُرَيْرٍ
عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ « إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ صِلَاصَةً كَجَزِّ السِّلْسَلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ »
وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدُودِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : « لَمَّا أَوْحَى الْجِبَارُ إِلَى مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا الرَّسُولَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِيُبْعَثَهُ بِالْوَحْيِ ، فَسَمِعَتْ الْمَلَائِكَةُ صَوْتَ الْجِبَارِ
يَتَكَلَّمُ بِالْوَحْيِ . فَلَمَّا كَشَفَ عَنْ قُلُوبِهِمْ سَأَلُوا عَمَّا قَالَ اللَّهُ ؟ فَقَالُوا : الْحَقُّ . وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ
لَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا » .

قوله ﴿ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ﴾ أى لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى . قَالَ الْحَافِظُ :

(١) رَوَاهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ « إِلَّا مِنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ » مِنْ سُورَةِ الْحَجْرِ ، وَفِي تَفْسِيرِ سُورَةِ
سَبَأٍ وَغَيْرِ هَذَيْنِ الْمَوْضِعَيْنِ . حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا سَفِيَانُ بْنُ عَيْنَةَ حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ
عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ نَحْوَ هَذَا .

كأنه سلسلة على صفوان يَنْفُذُهم ذلك ، حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العليُّ الكبير . فيسمعها مُسترق السمع - ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - وَصَفَه سفيان بكفه ، فخرَّفها وبدَّد بين أصابعه -

خضعاناً - بفتحيتين - من الخضوع . وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه . وهو مصدر بمعنى خاضعين .

قوله ﴿ كأنه سلسلة على صفوان ﴾ أى كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان ، وهو الحجر الأملس .

قوله ﴿ ينفذهم ذلك ﴾ هو بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة « ذلك » أى القول ، والضمير فى « ينفذهم » للملائكة ، أى ينفذ ذلك القول للملائكة : أى يخلص ذلك القول ويمضى فيهم حتى يفزعوا منه . وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس « فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا » وعند أبى داود وغيره مرفوعاً « إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتهم جبريل » الحديث .

قوله ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ تقدم معناه .

قوله ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ﴾ أى قالوا : قال الله الحق ، علموا أن الله لا يقول إلا الحق .

قوله ﴿ فيسمعها مسترق السمع ﴾ أى يسمع الكلمة التى قضاها الله ، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً . وفى صحيح البخارى عن عائشة مرفوعاً « إن الملائكة تنزل فى العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قُضِيَ فى السماء ، فتسترق الشياطين السمع ؛ فتوحيه إلى الكهَّان » .

قوله ﴿ ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بكفه ﴾ أى وصف ركوب بعضهم فوق بعض . وسفيان هو ابن عيينة أبو محمد الهلالى الكوفى ، ثم المسكى ، ثقة حافظ ، قبيح ، إمام حجة . مات سنة ثمان وتسعين ومائة ، وله إحدى وتسعون سنة .

قوله ﴿ فخرَّفها ﴾ بجاء مهملة وراء مشددة وفاء . قوله ﴿ وبدَّد ﴾ أى فرق بين أصابعه .

فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيَلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يَلْقِيهَا الْآخَرَ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّى يَلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ ، فَرَبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يَلْقِيهَا ، وَرَبَّمَا أَتَقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهَ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ . يُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كَذَا وَكَذَا ؟

قوله ﴿ فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيَلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ﴾ أى يسمع الفوقانى الكلمة ، فيلقيها إلى آخر تحته ، ثم يلقيها إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن .

قوله ﴿ فَرَبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يَلْقِيهَا ﴾ الشهاب : هو النجم الذى يرمى به ، أى ربما أدرك الشهابُ المسترقَّ ، وهذا يدل على أن الرمي بالشهب قبل المبعث . لما روى أحمد وغيره - والسياق له فى المسند من طريق معمر - : أنبأنا الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق : من الأنصار - قال : فرُمى بنجم عظيم ، فاستنار ، قال : ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا فى الجاهلية ؟ قال : كنا نقول : لعله يولد عظيم أو يموت عظيم - قلت للزهرى : أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غلظت حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم - قال : فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمرا سبح حمله العرش ، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا . ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ، حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطفُ الجنُّ السمعَ فيرمون ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يقرِّفون فيه ويزيدون »^(١) . قال عبد الله : قال أبى : قال عبد الرزاق « ويخطف الجن ويرمون » وفى رواية له « لكنهم يزيدون فيه وقرفون وينقصون » .

قوله ﴿ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ ﴾ أى الكاهن أو الساحر .

و « كَذْبَةٌ » بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة .

قوله ﴿ يُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كَذَا وَكَذَا ؟ ﴾ هكذا فى نسخة بخط

(١) قال الحافظ ابن كثير : وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث صالح بن كيسان والأوزاعى ويونس ومعتقل بن عبد الله ، أربعمتهم عن الزهرى عن طى بن الحسين عن ابن عباس عن رجل من الأنصار .

فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء^(١) .

وعن النّوّاس بن سمران رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة ،

المصنف ، كالذي في صحيح البخارى سواء .

قال المصنف ﴿ وفيه : قبول النفوس للباطل ؛ كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون
بمائة كذبة ؟ ﴾ .

وفيه : أن الشيء إذا كان فيه شيء من الحق فلا يدل على أنه حق كله ، فكثيراً
ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل ، ليكون أقبل لباطلهم ، قال تعالى (٤٢ : ٢) ولا تلبسوا
الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) .

وفي هذه الأحاديث وما بعدها وما في معناها : إثبات علو الله تعالى على خلقه على ما يليق
بجلاله وعظمته ، وأنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة ، وهذا قول أهل
السنة قاطبة سلفاً وخلفاً ، خلافاً للأشاعرة والجهمية ، ونفاة المعتزلة . فإياك أن تلتفت إلى
ما زخره أهل التعطيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قوله ﴿ وعن النّوّاس بن سمران قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد
الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة - أو قال رجدة -
شديدة ، خوفاً من الله عز وجل . فإذا سمع ذلك أهل السموات صُعقوا وخرّوا لله سجداً ،
فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمرّ جبريل
على الملائكة ، كلما مرّ بسماه سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال
الحق ، وهو العلي الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى
حيث أمره الله عز وجل » .^(٢)

(١) يعنى : أن قول الكاهن والساحر والمراف قد يصادف بعض الواقع ؛ فيفتن الجاهلون
المخرفون بذلك ، ويحتجون بهذه المصادفة على تصديق كذبه الذي لا يحد ، وهو مبنى على
اقتراء الكذب على الله ، ودعوى معرفة الغيب الذي لا يلمه إلا الله ، وسيأتى بيانه في
باب الكهان .

(٢) في قرة العيون : قوله « أن يوحى بالأمر » فيه بيان معنى ما تقدم في الحديث قبله من
قوله « إذا قضى الله الأمر » قوله « تكلم بالوحي » فيه : التصريح بأنه يتكلم بالوحي فيوجه

— أوقال : رعدة - شديدة ، خوفاً من الله عز وجل . فإذا سمع ذلك أهل السموات

هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم بسنده كما ذكره العماد ابن كثير في تفسيره .

النواس بن سمان - بكسر السين - بن خالد الكلابي ، ويقال : الأنصاري ، صحابي .
ويقال : إن أباه صحابي أيضاً .

قوله ﴿ إذا أراد الله أن يوحى بالأمر - إلى آخره ﴾ فيه : النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحي . وهذا من حجة أهل السنة على النفاة . لقولهم : لم يزل الله متكلماً إذا شاء .

قوله ﴿ أخذت السموات منه رجفة ﴾ السموات مفعول مقدم ، والفاعل « رجفة »
أى : أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة ، أى : ارتجفت . وهو صريح في أنها تسمع كلامه تعالى ، كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة . قال « إذا قضى الله أمراً تكلم تبارك وتعالى رجفت السموات والأرض والجبال ، وخرت الملائكة كلهم سجداً » .

قوله ﴿ أوقال : رعدة شديدة ﴾ شك من الراوى . هل قال النبي صلى الله عليه وسلم رجفة ، أو قال رعدة . والراء مفتوحة فيهما .

قوله ﴿ خوفاً من الله عز وجل ﴾ وهذا ظاهر في أن السموات تخاف الله ، بما يجعل

== إلى جبريل عليه السلام ، ففيه : الرد على الأشاعرة في قولهم : إن القرآن عبارة عن كلام الله .
قوله « أخذت السموات منه رجفة - أوقال : رعدة شديدة - خوفاً من الله عز وجل »

في هذه معرفة عظمة الله ويوجب للعبدة الخوف منه تعالى . وفيه : إثبات العلو . قوله « فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرروا لله سجداً » هيئة وتعظيماً لربهم وخشية لما سمعوا من كلامه تعالى وتقدس . قوله « فيكون أول من يرفع رأسه جبريل » لأنه ملك الوحي عليه السلام .

قوله « فيكلمه الله من وحيه بما أراد » فيه : التصريح بأنه تعالى يوحى إلى جبريل بما أراد من أمره كما تقدم في أول الحديث ، قوله « ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسما سألها ملائكتها » وهذا أيضاً من أدلة علو الرب تعالى وتقدس . قوله « ماذا قال ربنا يا جبريل ؟

فيقول (قال الحق وهو العلي الكبير) فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل » وهذا دليل بأنه تعالى قال ويقول ، وأهل البدع من الجهمية ومن تلقى عنهم كالأشاعرة جحدوا ما أثبتته الله تعالى في كتابه ، وأثبتته رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته من علوه وكلامه ، وغير ذلك من صفات كماله التي أثبتتها لنفسه وأثبتها له رسوله والمؤمنون من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل السنة والجماعة على ما يليق بجلال الله وعظمته - تشبيهات اختلقوها ما أنزل الله بها من سلطان .

صُعقوا وخرُّوا لله سُجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق ، وهو العليُّ الكبير : فيقولون

تعالى فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها . وقد أخبر تعالى : أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه كما قال تعالى (١٧ : ٤٤) تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم . إنه كان حليماً غفوراً) وقال تعالى : (١٩ : ٩٠) تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرُّ الجبال هداً) وقال تعالى : (٢ : ٧٤) وإن منها لما يهبط من خشية الله) وقد قرر العلامة ابن القيم رحمه الله أن هذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة ، مستدلاً بهذه الآيات وما في معناها .

وفي البخارى عن ابن مسعود قال « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » وفي حديث أبي ذر « أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ في يده حصيات ، فسمع لهن تسبيح - الحديث » وفي الصحيح قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل اتخاذ المنبر . ومثل هذا كثير .

قوله ﴿ صُعقوا وخرُّوا لله سُجداً ﴾ الصعوق : هو النشى ، ومعه السجود .
قوله ﴿ فيسكون أول من يرفع رأسه جبريل ﴾ بنصب « أول » خبر يكون مقدم على اسمها . ويجوز العكس . ومعنى جبريل : عبد الله ، كما روى ابن جرير وغيره عن علي بن الحسين قال : كان اسم جبريل : عبد الله ، واسم ميكائيل : عُبيد الله ، وإسرافيل : عبد الرحمن . وكل شيء رجع إلى « إيل » فهو مُعبَّد لله عز وجل . وفيه : فضيلة جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى (٨١ : ١٩ - ٢١) إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مُطاع ثم أمين) .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم .
وقال أبو صالح في الآية^(١) « جبريل يدخل في سبعين حجاً من نور بغير إذن » .
(١) أى في قوله تعالى (ذى قوة عند ذى العرش مكين) كما ساق ذلك الحافظ ابن كثير وقد نقلها الشارح رحمه الله مختصرة .

كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل «
فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية .

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك ، خصوصاً ما تعلق على الصالحين ،
وهي الآية التي قيل : إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب .

الثالثة : تفسير قوله (قالوا الحق ، وهو العلي الكبير) .

الرابعة : سبب سؤالهم عن ذلك .

الخامسة : أن جبرائيل يجههم بعد ذلك بقوله : « قال كذا وكذا » .

السادسة : ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل .

السابعة : أنه يقول لأهل السموات كلهم ، لأنهم يسألونه .

الثامنة : أن الفشى يعم أهل السموات كلهم .

التاسعة : ارتجاف السموات بكلام الله .

العاشرة : أن جبرائيل هو الذى ينتهى بالوحي إلى حيث أمره الله .

ولأحمد بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل
في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل
والدر والياقوت ما الله به عليم » فإذا كان هذا عظيم هذه المخلوقات ، فخالفها أعظم وأجل
وأكبر . فكيف يسوى به غيره في العبادة : دعاء وخوفاً ورجاء وتوكلاً ، وغير ذلك من
العبادات التي لا يستحقها غيره ؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى ،
وقد قال تعالى (٢١ : ٢٦ - ٢٩) بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .
يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن
يقبل منهم : إني إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين .

قوله ﴿ فينتهى جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض ﴾

- الحادية عشرة : ذكر استراق الشياطين .
الثانية عشرة : صفة ركوب بعضهم بعضاً .
الثالثة عشرة : إرسال الشهاب .
الرابعة عشرة : أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وتارة يلقيها في
أذن وليّه من الإنس قبل أن يدركه .
الخامسة عشرة : كون الكاهن يصدق بعض الأحيان .
السادسة عشرة : كونه يكذب معها مائة كذبة .
السابعة عشرة : أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء
الثامنة عشرة : قبول النفوس للباطل ، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون
بمائة ؟

وهذا تمام الحديث . والآيات المذكورة في هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذي هو
مدلول شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن الملك العظيم الذي تُصعق الأملاك من كلامه خوفاً منه
ومهابة ، وترجف منه مخلوقات ، الكامل في ذاته وصفاته ، وعلمه وقدرته ، وملكه وعزه
وغناه عن جميع خلقه ، وافتقارهم جميعاً إليه ، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم ، لعلمه وحكمته
لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يجعل له شريك من خلقه في عبادته التي هي حقه عليهم ،
فكيف يجعل المربوب رباً ، والعبد معبوداً ؟ أين ذهبت عقول المشركين ؟ سبحان الله
عما يشركون .

وقال تعالى : (١٩ : ٩٣-٩٥) إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً
لقد أحصاهم وعدّهم عدداً . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) فإذا كان الجميع عبيداً فلم يعبُد
بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع ؟ ثم قد أرسل رسوله
من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك الشرك ، وتنهاهم عن عبادة ماسوى الله . انتهى من
شرح سنن ابن ماجه .

التاسعة عشرة : كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ، ويحفظونها ويستدلون بها .

العشرون : إثبات الصفات ، خلافاً للأشعرية المعطلة .
الحادية والعشرون : أن تلك الرجفة والغشى خوفاً من الله عز وجل .
الثانية والعشرون : أنهم يخرون لله سجداً .
باب الشفاعة^(١)

قوله ﴿باب الشفاعة﴾ أي : بيان ما أثبتته القرآن منها وما نفاه . وحقيقة ما دل القرآن على إثباته .

(١) في قرّة العيون : الشفاعة نوعان . شفاعة منفية في القرآن ، وهي الشفاعة للكافر والمشرک ، قال تعالى (٢ : ٢٥٤ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقال (٧٤ : ٤٨ فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وقال (٢ : ٤٨ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) ونحو هذه الآيات كقوله (١٠ : ١٨) ويصدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل : أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ؟) يخبر تعالى أن من اتخذ هؤلاء شفعاء عند الله أنه لا يعلم أنهم يشفعون له بذلك ومالا يعلمه لا وجود له ، فنفي وقوع هذه الشفاعة وأخبر أنها شرك بقوله (سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى (٣٩ : ٣) والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا يقربونا إلى الله زلفي ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) فأبطل شفاعة من اتخذ شفيعاً يزعم أنه يقربه إلى الله وهو يبعده عنه وعن رحمته ومغفرته ، لأنه جعل لله شريكاً يرغب إليه ويرجوه ويتوكل عليه ويحبه كما يحب الله تعالى أو أعظم .

النوع الثاني : الشفاعة التي أثبتتها القرآن ، وهي خالصة لأهل الإخلاص ، وقيدتها تعالى بأمرين .

الأول : إذنه للشافع أن يشفع كما قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وإذنه تعالى لا يصدر إلا إذا رحم عبده الموحد المذنب . فإذا رحمه الله تعالى أذن للشافع أن يشفع له .
الأمر الثاني : رضاه عنن أذن للشافع أن يشفع فيه . كما قال تعالى « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » فالإذن بالشفاعة له بعد الرضاء ، كما في هذه الآية ، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد .

وقول الله عز وجل: (٦: ٥١) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) وقوله: (٣٩: ٤٤) قُلْ: اللَّهُ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا

قوله ﴿ وقول الله عز وجل (٦ : ٥١) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ الإِذْءَارُ هُوَ الإِعْلَامُ بِأَسْبَابِ المَخَافَةِ ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْهَا .

قوله ﴿ به ﴾ قال ابن عباس « بالقرآن (الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) وهم المؤمنون » وعن الفضيل بن عياض « ليس كل خلقه عاتب ، إنما عاتب الذين يعقلون ، فقال : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ) وَهَمُ الْمُؤْمِنُونَ أَصْحَابُ الْقُلُوبِ الوَاعِيَةِ » .

قوله ﴿ ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع ﴾ قال الزجاج : موضع « ليس » نصب على الحال ، كأنه قال : متخلفين من كل وليٍّ وشفيع . والعامل فيه « يخافون » .

قوله ﴿ لعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى : فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة^(١)

وقوله ﴿ ٣٩ : ٤٤) قُلْ : اللَّهُ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا^(٢) ﴾ وقبلها (أَمْ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شَفْعَاءَ ؛

قُلْ : أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ؟) وهذه كقوله تعالى (١٠ : ١٨) وَيَعْبُدُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ : وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ : أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا

لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) فبين تعالى في هذه الآيات

وأمثالها : أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتفٍ وممتنع ، وأن اتخاذهم شفعاء شركٌ ، يتبره

الرب تعالى عنه . وقد قال تعالى (٤٦ : ٢٨) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا

أَلِهَةً ؟ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ، وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) فبين تعالى : أن دعواهم أنهم

يشفعون لهم بتألههم : أن ذلك منهم إفكٌ وافتراء .

(١) في قرّة العيون : وتركوا التعلق على الشفعاء وغيرهم ، لأنه ينافي الإخلاص الذي

لا يقبل الله من أحد عملاً بدونه .

(٢) في قرّة العيون : دلت الآية على أن الشفاعة له سبحانه ، لأنها لا تقع إلا لأهل التوحيد

بإذنه سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى في الآية السابقة ، وقال تعالى (١٠ : ٣) يدبر الأمر ما من

شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم) فلا شفاعة إلا لمن هى له سبحانه ، ولا تقع إلا بمن أذن

له فيها . فتدبر هذه الآيات العظيمة في اتخاذه الشفعاء .

وقوله : (٢ : ٢٥٥ من ذا الذي يشفعُ عنده إلا بإذنه ؟) .

وقوله تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) أى : هو مالِكها ، فليس لمن تُطلب منه شيء منها ، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل من سواه ، لأن ذلك عبادة وتأليه لا يصلح إلا لله .
قال البيضاوى : لعله ردُّ لما عسى أن يجيبوا به ، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون .
وقوله تعالى (له ملك السموات والأرض) تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه ؛ لأنه مالك الملك . فاندرج في ذلك ملك الشفاعة ، فإذا كان هو مالِكها بطل أن تطلب ممن لا يملكها^(١) (٢ : ٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) ، (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

قال ابن جرير : نزلت لما قال الكفار : مانعبد أوثاننا^(٢) هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى . قال الله تعالى (له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون) .

قال (وقوله ٢ : ٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) قد تبين مما تقدم من الآيات : أن الشفاعة التي نفاها القرآن هي التي تُطلب من غير الله وفي هذه الآية : بيان أن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه ، كما قال تعالى (٢٠ : ١٠٩ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورَضِيَ له قولاً) فيبين أنها لا تنفع لأحد إلا بشرطين : إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع ، ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه ، وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه ، ولقى العبد به ربه مخلصاً غير شاك في ذلك ، كما دل على ذلك الحديث الصحيح . وسيأتى ذلك مقررأً أيضاً في كلام شيخ الإسلام رحمه الله .

(١) في قرة العيون : فليس لأحد في ملكه مثقال ذرة دونه سبحانه وبجمده ، والإسلام هو أن تسلم قلبك وجوارحك لله بالإخلاص كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « فبالذي بعثك بالحق ، ما بعثك به ؟ قال : الإسلام . قال : وما الإسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك ، وأن توجه وجهك إلى الله ، وأن تصلى الصلاة المكتوبة ، وأن تؤدى الزكاة المفروضة » والآيات في بيان الإخلاص كثيرة . وهو أن لا يلتفت القلب ولا الوجه في جميع الأعمال كلها إلا لله وحده . كما قال تعالى (فادعوا الله مخلصين له الدين) فأمره تعالى بإخلاص الدعاء له وحده ، وأخبر أنه الدين الذي تصح معه الأعمال وتقبل .

قال شيخ الإسلام : الإخلاص : محبة الله وإرادة وجهه .

(٢) الأولى « مانعبد أولياءنا » ولم أجد هذه الجملة كلها في تفسير ابن جرير .

وقوله : (٥٣ : ٢٦) وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) .

وقوله (٣٤ : ٢٢ ، ٢٣) قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أُذِن له) .

وقوله ﴿ (٥٣ : ٢٦) وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) ﴾ قال ابن كثير رحمه الله (وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) كقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أُذِن له) فإذا كان هذا في حق الملائكة المقرّبين ^(١) ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله ، وهو لم يشرع عبادتها ، ولا أُذِن فيها ، بل قد نهى عنها على السنة جميع رسله ، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه ؟

قال ﴿ وقوله تعالى (٣٤ : ٢٢ ، ٢٣) قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أُذِن له) ﴾ .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على هذه الآيات : وقد قطع الله الأسباب التى يتعلق بها المشركون جميعها . فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع ، والنفع لا يكون إلا بمن فيه خصلة من هذه الأربع : إما مالك لما يريد عابده منه ، فإن لم يكن مالكاً كان

(١) في قرّة العيون : فإذا كان هذا في حق الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بقوله (٤١ : ٢٦ - ٢٩) بل عباد مكرمون - الآيات) فظهر من هذه الآيات المحكمات : ما بين حقيقة الشفاعة المثبتة في القرآن التى هى ملك لله لا يملكها غيره . وقيد حصولها بقيدتين - كما في هذه الآية وغيرها ، كما تقدم قريباً . الأول : إذنه للشافع أن يشفع كما قال تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) والثانى : رضاه عن من أذن من الموحدين . فاختصت الشفاعة بأهل الإخلاص خاصة ، وأن اتخذ الشفعاء بلا إذن من دين المشركين قد أنكره الله عليهم فيما تقدم من الآيات .

شريكا للمالك ، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً ، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده . فنفي الله سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً ، منتقلاً من الأعلى إلى الأدنى . فنفي الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك ، وأثبت شفاعته لا نصيب فيها للمشرك ، وهي الشفاعه بإذنه . فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ، وتجريداً للتوحيد ، وقطعاً لأصول الشرك وموداه لمن عقلها . والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحتها ، وتضمنه له ، ويظنونها في نوع وقوم قد خلوا من قبل ولم يُعقبوا وارثاً ، فهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن . ولعمرك إن كان أولئك قد خلوا ، فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم ، أو دونهم وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك .

ثم قال : ومن أنواعه - أى الشرك - طلب الحوائج من الموتي ، والاستغاثة بهم ، وهذا أصل شرك العالم ؛ فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، فضلاً عن استغاث به ، وسأله أن يشفع له إلى الله . وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ؛ فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه ، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه ، وإنما السبب كمال التوحيد فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن ، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها . وهذه حالة كل مشرك . فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ، ومعاداة أهل التوحيد ، رنسة أهله إلى التنقص بالأموات ، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك ، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبيهم ومعاداتهم ، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص ؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا ، وأنهم أمرهم به ، وأنهم يوالونهم عليه ، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان ، وما أكثر المستجيبين لهم . وما نجى من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرّد توحيد الله ، وعادى المشركين في الله ، وتقرب بمقتهم إلى الله ، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده ؛ فجرد حبه لله ، وخوفه لله ، ورجائه لله ، وذله لله ، وتوكله على الله ، واستغاثته بالله ، والتجأته إلى الله ، واستغاثته بالله ، وقصده لله ، متبعاً لأمره ، متطلباً لمرضاته . إذا سأل سأل الله ، وإذا استعان استعان بالله ، وإذا عمل عمل الله . فهو لله ، وبالله ومع الله . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

وهذا الذي ذكره هذا الإمام في معنى هذه الآية هو حقيقة دين الإسلام ، كما قال تعالى : (٤ : ١٢٥) ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ؟) .

قال أبو العباس : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عوناً لله . ولم يبق إلا الشفاعة . فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كما قال (٢١: ٢٨) ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فهذه الشفاعة التي يظنّها المشركون هي مُنتَفِيةٌ يوم القيامة ، كما نفاها القرآن وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم « أنه يأتي فيسجدُ لربه ويحمده » لا يبدأ بالشفاعة أولاً . ثم يقال له « ارفع رأسك وقلُ يسمع ، وسلُ تعط ، واشفع تُشفع » . وقال أبو هريرة : « من أسعدُ الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » فتلك الشفاعةُ لأهل الإخلاص . ياذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله .

قوله ﴿ قال أبو العباس ﴾ هذه كنية شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني ، إمام المسلمين رحمه الله .

قوله ﴿ نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عوناً لله . ولم يبق إلا الشفاعة . فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كما قال تعالى : (٢١ : ٢٨) ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فهذه الشفاعة التي يظنّها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم « أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده » لا يبدأ بالشفاعة أولاً ، ثم يقال له « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه واشفع تشفع » وقال له أبو هريرة « من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص ياذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله .

وحقيقتها: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص ، فيفقرهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ، ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة ياذنه في مواضع . وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص « انتهى كلامه » .

قوله ﴿ وقال أبو هريرة ﴾ إلى آخره . هذا الحديث رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة ورواه أحمد وصححه ابن حبان وفيه « وشفاعتي لمن قال : لا إله إلا الله مخلصاً ، يصدق قلبه

وحقيقته : أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء مَنْ أذنَ له أن يشفع ، ليُكرمَه وينالَ المقامَ المحمود .
فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع . وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص . اه كلامه .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيات .

الثانية : صفة الشفاعة المنفية .

الثالثة : صفة الشفاعة المثبتة .

الرابعة : ذكر الشفاعة الكبرى ، وهي المقام المحمود .

لسانه ، ولسانه قلبه » وشاهده في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة . فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً » .

وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الإسلام هنا ، فقام مقام الشرح والتفسير لما في هذا الباب من الآيات ، وهو كافٍ وافٍ بتحقيق مع الإيجاز . والله أعلم .

وقد عرّف الإخلاص بتعريف حسن فقال : الإخلاص محبة الله وحده وإرادة وجهه . اه وقال ابن القيم رحمه الله في معنى حديث أبي هريرة : تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تُنال بها شفاعة تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تُنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم ، فقلب النبي صلى الله عليه وسلم ما في زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد ، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع . ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شقيقاً أنه يشفع له وينفعه عند الله ، كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع من والاهم ، ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه في الشفاعة ،

الخامسة : صفة ما يفعله صلى الله عليه وسلم أنه لا يبدأ بالشفاعة ، بل يسجد فإذا أُذِنَ له شَفَعَ .

السادسة : مَنْ أَسْعَدُ النَّاسَ بِهَا .

السابعة : أَنَّهَا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ .

الثامنة : بَيَانُ حَقِيقَتِهَا .

ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله ، كما قال في الفصل الأول (٢ : ٢٥٥) من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وفي الفصل الثانى (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وبقى فصل ثالث ، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيدَه واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم . فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب مَنْ عَقَلَهَا ووعاها . اهـ
وذكر أيضاً رحمه الله تعالى أن الشفاعة ستة أنواع :

(الأول) الشفاعة الكبرى التى يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام ، حتى تنتهى إليه صلى الله عليه وسلم فيقول « أنا لها » وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم فى الموقف . وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد .

(الثانى) شفاعته لأهل الجنة فى دخولها . وقد ذكرها أبو هريرة فى حديثه الطويل المتفق عليه .

(الثالث) شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفع لهم أن لا يدخلوها .

(الرابع) شفاعته فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم . والأحاديث بها متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة ، وبدعوا من أنكروها ، وصاحوا به من كل جانب ، ونادوا عليه بالضلال .

(الخامس) شفاعته لقوم من أهل الجنة فى زيادة نوابهم ورفع درجاتهم ، وهذه مما لم يَنَازِعَ فيها أحد . وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعاً ، كما قال تعالى (٦ : ٥١) وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليٌ ولا شفيع) .

باب

قول الله تعالى (٢٨ : ٥٦) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

(السادس) شفاعته في بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه . وهذه خاصة بأبي طالب وحده .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٢٨ : ٥٦) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

سبب نزول هذه الآية : موت أبي طالب على ملة عبد المطلب ، كما سيأتي بيان ذلك في حديث الباب .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى لرسوله : إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، أَى : لَيْسَ إِلَيْكَ ذَلِكَ ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، كما قال تعالى (٢ : ٢٧٢) لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وقال تعالى (١٢ : ١٠٣) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ .

قلت : والمنفي هنا هداية التوفيق والقبول : فَإِنَّ أَمْرَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِ . وأما الهداية المذكورة في قول الله تعالى (٤٢ : ٥٢) وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فإنها هداية الدلالة والبيان ، فهو المبين عن الله ، والدال على دينه وشرعه .

وقوله ﴿ في الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه قال « لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل ، فقال له : يا عم ، قل : لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله . فقال له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأعاد . فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبي أن يقول : لا إله إلا الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فأنزل الله عز وجل (٩ : ١١٣) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قَرَبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) وأنزل الله في أبي طالب (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ﴿

وفي الصحيح عن ابن المسيّب عن أبيه قال « لَمَّا حَضَرَتْ أبا طالبِ الوفاةُ
جاءه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده عبدُ الله بن أبي أمية وأبو جهل .
فقال له : يا عمّ ، قلْ : لا إله إلا الله ،

قوله ﴿ في الصحيح ﴾ أى فى الصحيحين . و ﴿ ابن المسيب ﴾ هو سعيد بن المسيب بن
حزَن بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى المخزومى ، أحد العلماء
والفقهاء الكبار السبعة من التابعين . اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل .
وقال ابن المدينى : لأعلم فى التابعين أوسع علماً منه . مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين .
وأبوه المسيب صحابى ، بقى إلى خلافة عثمان رضى الله عنه ، وكذلك جده حزَن ،
صحابى استشهدَ بالجماعة .

قوله ﴿ لما حضرت أبا طالب الوفاة ﴾ أى علاماتها ومقدماتها .

قوله ﴿ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾ يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين .
فإنهما من بنى مخزوم ، وهو أيضاً مخزومى ، وكان الثلاثة إذ ذاك كفاراً ؛ فقتل أبو جهل على
كفره ، وأسلم الآخران .

قوله ﴿ يا عمّ ﴾ منادى مضاف ، يجوز فيه إثبات الياء وحذفها . حذفت الياء هنا ،
وبقيت الكسرة دليلاً عليها .

قوله ﴿ قل : لا إله إلا الله ﴾ أمره أن يقولها لعلم أبى طالب بما دلت عليه من نفي
الشرك بالله ، وإخلاص العبادة له وحده ، فإن من قالها عن علم ويقين فقد برىء من الشرك
والمشركين ودخل فى الإسلام ؛ لأنهم يعلمون ما دلت عليه ، وفى ذلك الوقت لم يكن بمكة
إلا مسلم أو كافر . فلا يقولها إلا من ترك الشرك وبرىء منه . ولما هاجر النبي صلى الله عليه
وسلم وأصحابه إلى المدينة كان فيها المسلمون الموحدون ، والمناقون الذين يقولونها بألسنتهم
وهم يعرفون معناها لكن لا يعتقدونها ، لما فى قلوبهم من المداوة والشك والريب ، فهم مع
المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن ، وفيها اليهود ، وقد أقرتهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم لما هاجر ، ووادعهم بأن لا يخونوه ولا يظاهروا عليه عدواً كما هو مذكور فى كتب
الحديث والسير .

كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال له : أترغبُ عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأعادا .

قوله ﴿ كلمة ﴾ قال القرطبي : بالنصب على أنه بدل من « لا إله إلا الله » ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

قوله ﴿ أحاج لك بها عند الله ﴾ هو بتشديد الجيم من الحاجة ، والمراد بها بيان الحجة بها لو قالها في تلك الحال . وفيه : دليل على أن الأعمال بالخواتيم ، لأنه لو قالها في تلك الحال معتقداً ما دلت عليه مطابقة من النفي والإثبات لنفعته .

قوله ﴿ فقال له : أترغبُ عن ملة عبد المطلب ؟ ﴾ ذكرناه الحجة للمعونة التي يحتاج بها المشركون على المرسلين ، كقول فرعون لموسى (٥١:٢٠ فما بالُ القرون الأولى ؟) وكقوله تعالى (٢٣:٤٣ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) .

قوله ﴿ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأعادا ﴾^(١) فيه : معرفتهما لمعنى « لا إله إلا الله » لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبريء من ملة عبد المطلب ، فإن ملة عبد المطلب هي الشرك بالله في إلهيته . وأما الربوبية فقد أقرها بها كما تقدم . وقد قال عبد المطلب لأبيرة « أنا ربُّ الإبل ، والبيت له رب يمنعك » وهذه المقالة منهما عند قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمه « قل : لا إله إلا الله » استكباراً عن العمل بملولها . كما قال الله تعالى عنهما وعن أمثالهما من أولئك المشركين (٣٧ : ٣٥ ، ٣٦ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون : أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) فرد عليهم بقوله (٣٧:٣٧ بل جاء بالحق وصدق المرسلين) فبين تعالى أن استكبارهم عن قول « لا إله إلا الله » لدلالاتها على نفي عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله ، فإن دلالة هذه الكلمة على نفي ذلك دلالة تضمن ، ودلالاتها عليه وعلى الإخلاص دلالة مطابقة .

ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه ، وهو القادر عليه دون من سواه ، فلو كان عند النبي صلى الله عليه وسلم - الذي هو أفضل خلقه - من هداية القلوب - وتفريج الكرب ، ومغفرة الذنوب ، والنجاة من العذاب ،

(١) في قرة العيون : فيه مضرة أصحاب السوء والحذر من قربهم والاستماع لهم . ففيه معنى قول الناظم :

إذا ما صحبت القوم فاصب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنك » فأُنزل الله عز وجل (١١٣:٩) ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي - الآية)

ونحو ذلك شيء : لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه ، فسبحان من بهرت حكمته العقول ، وأرشد العباد إلى ما يداهم على معرفته وتوحيده وإخلاص العمل له وتجريده .

قوله ﴿ فكان آخر ما قال ﴾ الأحسن فيه الرفع على أنه اسم « كان » وجملة « هو » وما بعدها الخبر .

قوله ﴿ هو على ملة عبد المطلب ﴾ الظاهر أن أبا طالب قال « أنا » فغيره الراوى استقباحاً للفظ المذكور ، وهو من التصرفات الحسنة ، قاله الحافظ .

قوله ﴿ وأبى أن يقول لا إله إلا الله ﴾ قال الحافظ : هذا تأكيد من الراوى فى نفي وقوع ذلك من أبى طالب .

قال المصنف رحمه الله ﴿ وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه ، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان ، ومضرة تعظيم الأسلاف ﴾ .

أى : إذا زاد على المشروع ، بحيث يجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع .
قوله ﴿ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنك » ﴾ قال النووى : وفيه جواز الحلف من غير استحلاف ، وكان الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطيباً لنفس أبى طالب .

وكانت وفاة أبى طالب بمكة قبل الهجرة بقليل .

قال ابن فارس : مات أبو طالب ولرسول الله صلى الله عليه وسلم تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً .

وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بعد موت أبى طالب بثمانية أيام .

قوله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي - الآية ﴾ .
أى ما ينبغى لهم ذلك . وهو خبر بمعنى النهى ، والظاهر أن هذه الآية نزلت فى أبى طالب .

وأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي ظَالِبٍ (٥٦ : ٢٨) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (١) .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) الثانية : تفسير قوله (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) .

الثالثة : وهي المسألة الكبيرة : تفسير قوله « قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » بخلاف ما عليه مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ (٢) .

فإن الإتيان بالفناء المفيدة للترتيب في قوله « فَأَنْزَلَ اللَّهُ » بعد قوله « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنَبِّئْ بِكَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ » يفيد ذلك .

وقد ذكر العلماء لنزول هذه الآية أسباباً أخرى . فلا مناقاة ؛ لأن أسباب النزول قد تعدد

(١) الهداية تطلق على خلق الهدى في القلب ، وتحويله من الضلال والكفر والفسوق إلى الهدى والإيمان والطاعة ، وتسديده على صراط الله المستقيم وثبتيته عليه ، وهذه مختصة بالله تعالى ، لأنه هو الذي يقبب القلوب ويصرفها ، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء . ومن يهدي الله فما له من مضل . ومن يضل فما له من هاد . وهي المنفعة في الآية عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن غيره من باب أولى . فمن ادعاها من مشايخ الطرق الصوفية ونحوهم ، وزعم أنه يدخل قلوب مريديه وتلاميذه ويعلم ما فيها ويصرفها على ما يريد - فهو كاذب ضال مضل . ومن صدق ذلك فهو ضال مكذب لله ولرسوله ، وتطلق على العلم والدلالة والارشاد بالقرآن ونحوه على طريق النجاة والسعادة ، وهذه يقدر عليها الخلق وهي المثبتة للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (٤٢ : ٥٢) وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

وقد أوجب الله على أهل العلم أن يقوموا بها فيرشدوا الناس ويهدوهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى صراط الله المستقيم . وأكثر الناس لا يعيز الفرق بين الهديتين . فبعضهم يعتدى على الحدود ، وبعضهم يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، محتجاً بالآية (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . . . الخ) وهذا وذاك جهل وضلال .

(٢) كثير من أدعياء العلم يجهلون « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » فيحكمون على كل من تلفظ بها بالاسلام ولو كان مجاهرًا بالكفر الصراح ، كعبادة القبور واللوثى والأوثان واستحلال المحرمات المعلوم تحريمها من الدين ضرورة والحكم بغير ما أنزل الله واتخاذ أجارهم وربانهم أرباباً من دون الله ، =

- الرابعة: أن أبا جهل وَمَنْ معه يعرفون مراد النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ قال للرجل «قل لا إله إلا الله» فقبَّحَ الله مَنْ أبو جهل أعلمُ منه بأصل الإسلام .
- الخامسة: جدُّه صلى الله عليه وسلم ومُبالغته في إسلام عمه .
- السادسة: الردُّ على مَنْ زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه .
- السابعة: كونه صلى الله عليه وسلم استغفر له فلم يُغفر له ، بل نُهيَ عن ذلك
- الثامنة: مَضْرَّةُ أصحاب السوء على الإنسان .
- التاسعة: مَضْرَّةُ تعظيم الأسلاف والأكابر .

قال الحافظ: أما نزول الآية الثانية فواضح في قصة أبي طالب ، وأما نزول الآية التي قبلها ففيه نظر ، ويظهر أن المراد أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة ، وهي عامة في حقه وحق غيره . يوضح ذلك ما يأتي في التفسير^(١) فأنزل الله بعد ذلك (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين - الآية) ونزل في أبي طالب (إنك لا تهدي من أحببت) كله ظاهر في أنه مات على غير الإسلام ، ويصغف ما ذكره الشَّهْبَلِيُّ أنه روى في بعض كتب المسعودي أنه أسلم ؛ لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيح . انتهى .

وفيه: تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم ؛ لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولى .

== ولو كانت لهؤلاء الجهلة قلوب يفقهون بها لعدوا أن معنى « لا إله إلا الله » البراءة من عبادة غير الله ، وإعطاء العهد والميثاق بالقيام بأداء حق الله في العبادة ، يدل على ذلك قول الله تعالى (٢: ٢٥٦) فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى (وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم للخوارج بكثرة الصلاة والصيام وقراءة القرآن المشحون بلا إله إلا الله . ومع ذلك فقد حكم عليهم بالكفر ، وبأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . وقال « لو أدركتهم لقتلتهم قتل عاد » كما في الصحيحين . ولو كان مجرد التلغظ بلا إله إلا الله كافياً ، ما وقعت الحرب والعداء بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين للمشركين الذين كانوا يفهمون « لا إله إلا الله » أكثر مما يفهمها أدياء العلم في هذا الزمن . ولكن طبع الله على قلوبهم ، فهم لا يفقهون . (١) ساق البخاري قصة موت أبي طالب في كتاب الجنائز في الباب الحادي والثمانين . ولم يتكلم عليه الحافظ في الفتح ، بل حوله إلى التفسير . وساقه في تفسير سورة براءة ، فقول الحافظ تفصيل القول فيه على سورة القصص .

العاشرة : استدلال الجاهلية بذلك .

الحادية عشرة : الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم ؛ لأنه لو قالها لنفعته .

الثانية عشرة : التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين لأن في القصة

أنهم لم يجادلوه إلا بها ، مع مبالغته صلى الله عليه وسلم وتكثيره ، فلاجل عظمتها ووضوحها عندم اقتصروا عليها .

باب

﴿ ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين ﴾

وقول الله عز وجل (١٧١:٤) يا أهل الكتاب ، لاتغفلوا في دينكم ، ولاتقولوا

على الله إلا الحق) .

قوله ﴿ باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين ﴾ .

قوله ﴿ تركهم ﴾ بالجذر عطفًا على المضاف إليه . وأراد المصنف رحمه الله تعالى : بيان

ما يؤول إليه الغلو في الصالحين من الشرك بالله في الإلهية الذي هو أعظم ذنب عصى الله به ، وهو ينافي التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص : شهادة أن لا إله إلا الله .

قوله ﴿ وقول الله عز وجل (١٧١:٤) يا أهل الكتاب لاتغفلوا في دينكم ، ولاتقولوا على الله إلا

الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكنتم ألقاها إلى مريم وروح منه) ﴾ الغلو : هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد ، أي : لاترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله فتزولوه

المنزلة التي لاتبغى إلا لله . وانحطاب - وإن كان لأهل الكتاب - فإنه عام يتناول جميع

الأمم ، تحذيراً لهم أن يفعلوا ببنيهم صلى الله عليه وسلم فعل النصارى في عيسى ، واليهود في العزيز^(١) كما قال تعالى (٥٧ : ١٦) ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل

(١) في قرة العيون : وقد وقع ذلك الشرك في العبادة في هذه الأمة نظماً وشرّاً كما في كلام

البوصيري والبرعي وغيرها . وفما فعلوه من الغلو والشرك محادة لله ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فأين ما وقع فيه هؤلاء الجهلة من قول من قال للنبي صلى الله عليه وسلم « أنت سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا » فكفره ذلك صلى الله عليه وسلم أشد الكراهة ؟ كما سيأتي في الكلام على هذا الحديث إن شاء الله تعالى ، وقول القائل « ماشاء الله وشئت » فقال « أ جعلتني لله نداً ؟ بل ماشاء الله وحده » .

في الصحيح عن ابن عباس رضی الله عنهما في قول الله تعالى : (٧١ : ٢٣)
وقالوا : لا تَذَرُنَّ آلِهَتِكُمْ ، ولا تَذَرُنَّ وُدًّا ولا سُوءَاعًا ، ولا يَفُوتَ وَيَعُوقَ
وَنَسْرًا) قال « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نُوح فلما هلكوا أوحى

من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمدُ فقست قلوبهم ،
وكثير منهم فاسقون) ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تُطروني كما أطرت النصارى
ابن مريم » ويأتى .

فكل من دعا نبياً أو ولياً من دون الله فقد اتخذهُ إلهاً ، وضاهأ النصارى في شركهم ،
وضاهأ اليهود في تفریطهم ، فإن النصارى غلوا في عيسى عليه السلام ، واليهود عادوه
وسبوه وتنقصوه . فالنصارى أفرطوا ، واليهود فرطوا . وقال تعالى (٥ : ٧٥) ما المسيح
ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صِدِّيقة كانا يا كلان الطعام) ففي هذه
الآية وأمثالها الرد على اليهود والنصارى .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى ، وغلا في
الدين بإفراط فيه أو تفریط فقد شابههم . قال : وعلى رضی الله عنه حرق الغالية من الرافضة ،
فأمر بأخاديد خُدَّت لهم عند باب كِنْدَةَ^(١) فقتلهم فيها . واتفق الصحابة على قتلهم .
لكن ابن عباس مذهبه أن يُقتلوا بالسيف من غير تحريق . وهو قول أكثر العلماء .

قوله ﴿ في الصحيح عن ابن عباس رضی الله عنهما في قول الله تعالى (٧١ : ٢٣) وقالوا :
لا تَذَرُنَّ آلِهَتِكُمْ ، ولا تَذَرُنَّ وُدًّا ولا سُوءَاعًا . ولا يَفُوتَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال : هذه
أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى
مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، ولم تُعبد ، حتى إذا هلك
أولئك ونسى العلم عبَدت ﴿ قوله (في الصحيح) أى : صحيح البخارى .

(١) باب من أبواب الكوفة . الثلاثة المحرقون : وهم عبد الله بن سبأ اليهودى وأتباعه .
قالوا : إن علينا إلههم ، فنهاهم فلم ينتهوا فحرقهم . وإنما أراد ابن سبأ بذلك إحداث فتنة ،
وخلق شيع . وفتح ثغرة في صفوف المسلمين . وقد حدث ما أراد هذا اليهودى للمعون .
ووجد في الناس كثير من أطاعه وأله علياً وأبناءه . وكفر بالله ورسوله ، وعادى علياً
والمؤمنين . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الشیطانُ إلى قومهم : أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ،

وهذا الأثر اختصره المصنف . ولفظ مافي البخارى : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « صارت الأوثان التي في قول نوح في العرب بعدُ . أما « وَدَّ » فكانت لكلب بدوَمَةَ الجنادل . وأما « سُواع » فكانت لهذيل ، وأما « يغوث » فكانت لمراد ، ثم لبني غُطيف بأجرف عند سبأ . وأما « يعوق » فكانت لهمدان . وأما « نسر » فكانت لحَمِيرَ لآل ذى الكلاع : أسماء رجال صالحين في قوم نوح - إلى آخره .
وروى عكرمة والضحاك وابن إسحاق نحو هذا .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا مهرا ن عن سفيان عن موسى عن محمد ابن قيس « أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة ؛ فصوروهم ، فلما ماتوا جاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر فعبدوهم »
قوله ﴿ أن انصبوا ﴾ هو بكسر الصاد المهملة .

قوله ﴿ أنصاباً ﴾ جمع نُصب . والمراد به هنا : الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم ، وسموها بأسمائهم . وفي سياق حديث ابن عباس ما يدل على أن الأصنام تسمى أوثاناً . فاسم الوثن يتناول كل معبود من دون الله ، سواء كان ذلك المعبود قبراً أو مشهداً ، أو صورة أو غير ذلك ^(١) .

(١) في قرّة العيون : فصارت هذه الأصنام بهذا التصوير على صور الصالحين سلماً إلى عبادتها . وكل ما عبد من دون الله ، من قبر أو مشهد ، أو صنم ، أو طاغوت . فالأصل في عبادته هو الغلو . كما لا يخفى على ذوى البصائر : كما جرى لأهل مصر وغيرهم ، فإن أعظم آلهتهم أحمد البدوى وهو لا يعرف له أصل ولا فضل ولا علم ولا عبادة . ومع هذا فصار أعظم آلهتهم مع أنه لا يعرف إلا أنه دخل المسجد يوم الجمعة فبال فيه ثم خرج ولم يصل . ذكره السخاوى عن أبى حيان . فزين لهم الشيطان عبادته فاعتقدوا أنه يتصرف في الكون ، ويطيء الحريق وينجى الغريق ، وصرفوا له الإلهية والربوبية وعلم الغيب . وكانوا يعتقدون أنه يسممهم ويستجيب لهم من الديار البعيدة ، وفيهم من يسجد على عتبة حضرته . وكان أهل العراق ومن حولهم كأهل عمان يعتقدون في عبد القادر الجيلانى ، كما يعتقد أهل مصر في البدوى . وعبد القادر من متأخرى الحنابلة وله كتاب الغنية ، وغيره ممن قبله وبعده من الحنابلة أفضل =

وسمّوها بأسمائهم ، ففعلوا . ولم تُعبَد ، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عُبدت »

قوله ﴿ حتى إذا هلك أولئك ﴾ أي الذين صوروا تلك الأصنام .

قوله ﴿ ونسى العلم ﴾ ورواية البخاري « وينسخ » وللكشميني « ونسخ العلم » أي درست آثاره بذهاب العلماء ، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك ، فوقعوا في الشرك ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله .

قوله ﴿ عبت ﴾ لما قال لهم إبليس : إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر ، هو الذي زين لهم عبادة الأصنام وأمرهم بها ، فصار هو معبودهم في الحقيقة ، كما قال تعالى (٣٦ : ٦٠ - ٦٢) ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً . أفلم تكونوا تعقلون ؟) وهذا يفيد الحذر من الغلو ووسائل الشرك ، وإن كان القصد بها حسناً . فإن الشيطان أدخل أولئك في الشرك من باب الغلو في الصالحين والإفراط في محبتهم ، كما قد وقع مثل ذلك في هذه الأمة : أظهر لهم الغلو والبدع في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم ، ليوغمهم فيما هو أعظم من

== منه في العلم والزهد ، لكن فيه زهد وعبادة ، وقتنوا به أعظم فتنة ، كما جرى من الرافضة مع أهل البيت .

وسبب ذلك الغلو : دعوى أن له كرامات . وقد جرت الكرامات لمن هو خير منه وأفضل كبعض الصحابة والتابعين ، وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به . وأعظم من هذا : عبادة أهل الشام لابن عربي وهو إمام أهل الوحدة الذين هم أكفر أهل الأرض . وأكثر من أن يعتقد فيه هؤلاء لافضل له ولولادته كأناس بمصر وغيره ، وجرى في نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا ، وفي الحجاز واليمن وغيرها : من عبادة الطواغيت والأشجار والأحجار والقبور ما عمت به البلوى ، كعبادتهم للجن ، وطلبهم الشفاعة منهم . والأصل في ذلك الغلو تزيين الشيطان .

وذكر أهل السير أن التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك » حتى كان عمرو بن لحي الخزاعي ، فبينما هو يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه فقال « لبيك لا شريك لك » فقال الشيخ : « لا شريكاً هو لك » . فأنكر ذلك عمرو ، وقال : ما هذا ؟ فقال الشيخ : « تملكه وما ملك » . فإنه لا بأس بهذا . فقالها عمرو . فدانت بها العرب .

وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف « لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم » .

ذلك ، من عبادتهم لهم من دون الله ^(١) وفي رواية أنهم قالوا : ما عظم أولنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله « أى يرجون شفاعته أولئك الصالحين الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم وسموها بأسمائهم . ومن هنا يعلم أن اتخاذ الشفعاء ورجاء شفاعتهم بطلبها منهم : شرك بالله ، كما تقدم بيانه في الآيات المحسكات .

قوله ﴿ وقال ابن القيم رحمه الله : قال غير واحد من السلف « لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم ﴾ .

قوله ﴿ وقال ابن القيم رحمه الله ﴾ هو الإمام العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية . قال الحافظ السخاوي : العلامة الحجة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان . المجمع عليه بين الموافق والمخالف ، صاحب التصانيف السائرة ، والمحاسن الجمة . مات سنة إحدى وخمسين وسبعائة .

قوله ﴿ وقال غير واحد من السلف ﴾ هو بمعنى ما ذكره البخاري وابن جرير ، إلا أنه

(١) وما جر إلى هذا الغلو الذي أدى إلى عبادتهم من دون الله إلا تعظيم قبورهم ، وبناء القباب عليها ، وسترها بالأستار ، وإيقاد السرج ، وقيام السدنة وشياطين الإنس عندها لدعوة الناس إلى عبادتها بأنواع النذور فيعود عليهم من تلك الأموال . وإلا فكم من عباد صالحين من الصحابة وأفاضل العلماء الذين كان لهم قدم صدق في الإسلام ، مدفونون في مقابر مصر والشام وغيرهما ، هم أفضل آلاف اللرات من أمثال البدوي والدسوقي - بل نعالهم أشرف وأكرم من هذا البدوي وأضرابه - لا يعرفهم أولئك الشركون ؛ لأنهم لم ينصب على قبورهم تلك الأنصاب ولم تتخذ عليها تلك الأوثان . ولذلك كان الذي يزعم أنه يزور للموعظة وتذكر الدار الآخرة ، تلك القبور التي نصبت عليها هذه الأنصاب والمقاصير من أجهل الناس وأبعدهم عن هدى الإسلام ، الذي لا يعرف تلك القباب وإنما يعرف القبور التي لا يبنى عليها ولا يكتب عليها ولا تستر بالأستار الحرير وغيرها ، فإنه من أمحل المحال الاتعاط بهذه الأوثان والأنصاب ، ومن أعظم الجهل أن تسمى هذه قبوراً تسن زيارتها كما تسن زيارة القبور التي وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بها ، فنسألك اللهم أن تعجل بهم هذه الأوثان وتطهر الأرض منها كلها ، تحقيقاً لما أمر به نبيك صلى الله عليه وسلم وبعث به على بن أبي طالب إلى اليمن ، صيانة للتوحيد من قدر الشرك الذي أعظم أسبابه هذه القبور .

ذكر عكوفهم على قبورهم قبل تصويرهم تماثيلهم . وذلك من وسائل الشرك ، بل هو الشرك ؛ لأن العكوف لله في المساجد عبادة . فإذا عكفوا على القبور صار عكوفهم تعظيماً ومحبة : عبادة لها .

قوله ﴿ ثم طال عليهم الأمد فصدّوهم ﴾ أى طال عليهم الزمان . وسبب تلك العبادة والموصل إليها : هو ما جرى من الأولين من التعظيم بالعكوف على قبورهم ، ونصب صورهم في مجالسهم ؛ فصارت بذلك أوثاناً تعبد من دون الله ، كما ترجم به المصنف رحمه الله تعالى . فإنهم تركوا بذلك دين الإسلام الذى كان أوثاقك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك ، وكفروا بعبادة تلك الصور واتخذوهم شفعاء . وهذا أول شرك حدث في الأرض .

قال القرطبي : وإنما صوروا أوثانهم الصور ليتأسوا بهم ، ويتذكروا أفعالهم الصالحة ، فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم ، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها . اهـ .

قال ابن القيم رحمه الله : وما زال الشيطان يوحى إلى عبّاد القبور ويلقى إليهم أن البناء والعكوف عليهما من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين ، وأن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها ، والإقسام على الله بها ، فإن شأن الله أعظم من أن يُقسَمَ عليه ، أو يسأل بأحد من خلقه

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله . واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور ، وبطاف به ويستلم ويقبل ، ويحج إليه ويذبح عنده ، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذ عياداً ومنسكاً ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم . وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم : من تجديد التوحيد ، وأن لا يعبد إلا الله .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل هذه الرتبة العالية ، وحطمهم عن منزلتهم ، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر ، فيغضب المشركون وتشمئز قلوبهم ، كما قال تعالى (٣٩ : ٤٥) وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطفام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم

وعن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تُطْرُونِي ^(١) كما

بالعظائم وتقرأوا الناس عنهم ، ووالوا أهل الشرك وعظموهم ، وزعموا أنهم أولياء الله ، وأنصار
 (١) حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر - وهو الصادق - أن بعض هذه الأمة يتبع سنن
 أهل الكتاب في اتباع الهوى والقول على الله بلا علم وابتداع دين لم يشرعه الله. فقد وقع مانهى
 عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن كثيراً ممن ينتسب إلى الإسلام يطرى النبي غاية الإطراء فيعتقد
 فيه أنه يعلم الغيب ، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وقد نفى الله عنه ذلك في القرآن
 فقال (٧: ١٨٨) قل : لا أملك لنفسي نقماً ولا ضراً إلا ما شاء الله. ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت
 من الخير وما مسمى السوء) . (٦ : ٥٠ قل : لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب) .
 (٤٦ : ٩ قل : ما كنت بدعاً من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) فكفروا به واعتقدوا
 ما أوحته إليهم الشياطين . وكثير منهم يعتقدون أنه يتصرف في الدنيا بعد موته ويزور من شاء
 في المشارق والمغرب . وقد بلغت الوقاحة بالدجال أحمد التجاني : أن زعم أن النبي صلى الله عليه
 وسلم يحضر مجلس مكائه وتصديته ، ومجالس كل من اتبعه في طريقه الضال ، فصار هؤلاء الزائغون
 إذا جلسوا للخطب واللعن الذي يسمونه صلاة الفأخ ، ويزعمون بوقاحتهم وجفورهم : أن المرة
 الواحدة منها أفضل من القرآن ستة آلاف مرة . وينشرون ثوبا أبيض في وسط حلقهم ليجلس
 عليه النبي والحلفاء ، وإنما زعم الدجال التجاني هذا تمويهاً على أشباه الأنعام العامة ، ليتبعوه
 على دجله وباطله ، ويربهم أنه أتى بما لم يسبق إليه . وصدق ، فإنه لم يسبق إلى هذه الوقاحة في
 الكفر . فعوذ بالله من عمى القلوب ، وشرع مالم يأذن به الله . بل تكاد السموات يتفطرن
 منه . وبعضهم يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم يزوره وشرع لمن الدين ما يخالف شرعه الذي
 آتاه الله وأكمله وارتضاه ديناً قبل موته صلى الله عليه وسلم ، ادعى ذلك الشعراني في كتاب
 اليهود المحمدية . وزعم أن شيخه الخواص كان لا يفارق النبي صلى الله عليه وسلم طرفه عين ،
 وهذا كله كذب وبهتان . فكم وقع بين الصحابة من الخلافات ما كان أولى أن يجيئهم فيها
 النبي صلى الله عليه وسلم ، ليرجمهم فيها إلى الصواب الذي يطفىء الفتنة ، لو أمكن ظهوره ،
 ولكنها لا تعنى الأبصار ولكن تعنى القلوب التي في الصدور . وبعضهم يعتقد أن السموات
 والأرض وما بينهما مملوءة بالنبي ، ولو كشف عنا الحجاب لرأيناه عياناً ، فإذا سمع أهل التروير
 هذه الحرافقة أفنوا أعمارهم في الحلوات يهجمون ويزمزمون ، وأنفقوا أموالهم كلها على
 الدجالين المشعوذين الذين أغوهم ، كل ذلك طمعاً في المحال أن يروا النبي عياناً مالمثل السماء
 والأرض وما بينهما . وقد انجر بنا الكلام إلى ذكر شيء من باطلهم تحذيراً لمن يقع في جبايلهم
 وإنذاراً لمن وقع . وهذا زر يسير مما نعرفه عنهم وهو مسطور في كتبهم وأساطيرهم المطبوعة
 والنشورة ، وليعلم الناظر في هذا أني كنت على عقيدتهم الحبيثة سنين ، فأقتدني الله منها على يد =

أطرت النصارى ابن مريم .

دينه ورسوله ، ويأبى الله ذلك (٨ : ٣٤ وما كانوا أوليائه ، إن أوليائه إلا المتقون) . اه
كلام ابن القيم رحمه الله .

وفي القصة فوائد ذكرها المصنف رحمه الله^(١) .

ومنها : رد الشبه التي يسميها أهل الكلام عقليات ، ويدفعون بها ماجاء به الكتاب
والسنة : من توحيد الصفات ، وإثباتها على ما يليق بجلال الله وعظمته وكبريائه .
ومنها : مضرّة التقليد .

ومنها : ضرورة الأمة إلى ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم علماً وعملاً بما يدل عليه
الكتاب والسنة فإن ضرورة العبد إلى ذلك فوق كل ضرورة .

قوله ﴿ وعن عمر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لاتطرونى كما
أطرت النصارى ابن مريم . إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » أخرجاه ﴾ .

قوله ﴿ عن عمر ﴾ هو ابن الخطاب بن نفيل - بنون وقاء مصغراً - العدوى ،
أمير المؤمنين ، وأفضل الصحابة بعد الصديق رضى الله عنهم ولي الخلافة عشر سنين ونصفاً ،
فامتلات الدنيا عدلاً ، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر . واستشهد في ذى الحجة
سنة ثلاث وعشرين رضى الله عنه .

قوله ﴿ لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ﴾^(٢) الإطراء : مجاوزة الحد في المدح ،
والكذب فيه . قاله أبو السعادات . وقال غيره : أى لاتمدحونى بالباطل ، ولا تتجاوزوا
الحد في مدحى

== بعض الصالحين ، فاستيقظت من نوم البدعة الذميمة ، ولاحت لى أنوار شمس السنة ،
فالمدح لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

(١) كان الشارح رحمه الله قد ذكرها بنقص السادسة والحادية عشرة والسابعة عشرة
والثامنة عشرة . فاكثفينا بنص المصنف رحمه الله لعدم التكرار .

(٢) فى قرّة العيون : كما قال تعالى (٤ : ١٧١ يا أهل الكتاب لاتغلو فى دينكم ولا تقولوا
على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلنته ألقاها إلى مريم وروح منه) .
قوله « إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » أمرهم صلى الله عليه وسلم أن لا يتجاوزوا
هذا القول . وقد أمر الله عباده بالصلاة والسلام عليه ، لأن أشرف مقامات الأنبياء ؛ العبودية
الخاصة والرسالة .

إنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبد الله ورسوله « أخرجه .

قوله ﴿ إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله ﴾ أى لا تمدحونى فتغلو فى مدحى كما غلت النصرارى فى عيسى عليه السلام فادّعوا فيه الإلهية وإنما أنا عبد الله ورسوله ، فصِفونى بذلك كما وصفنى ربى ، فقولوا : عبد الله ورسوله ، فأبى المشركون إلا مخالفة أمره ، وارتكاب نهيه ، وعظموه بما نهام عنه وحذرهم منه ، وناقضوه أعظم مناقضة ، وضاهوا النصرارى فى غلوهم وشركهم ، ووقعوا فى الحذور ، وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطول عده ، وصفنوا فيه مصنفات وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عن بعض أهل زمانه ^(١) : أنه جوز الاستغاثه بالرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما يستغاث فيه بالله ؛ ووصف فى ذلك مصنفاً رده شيخ الإسلام ، وردّه موجود بحمد الله . ويقول : إنه يعلم مفاتيح الغيب التى لا يعلمها إلا الله . وذكر عنهم أشياء من هذا النمط . نعوذ بالله من عمى البصيرة .

وقد اشتهر فى نظم البوصيرى قوله :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العم

وما بعده من الآيات التى مضمونها : إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد فى أضييق الحالات ، وأعظم الاضطرار لتغير الله ، فناقضوا الرسول صلى الله عليه وسلم بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة ، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاققة ، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم فى قالب محبة النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه ، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذى بعثه الله به فى قالب تنقيصه ، وهؤلاء المشركون هم المنتقصون الناقصون ، أفرطوا فى تعظيمه بما نهام عنه أشد النهى ، وفرطوا فى متابته ، فلم يعبأوا بأقواله وأفعاله ، ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له ، وإنما يحصل تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم بتعظيم أمره ونهيه ، والاهتداء

(١) هو على بن يعقوب بن جبريل البكرى ، المتوفى يوم الاثنين سابع ربيع الآخر سنة ٧٢٤ هـ والرد عليه اسمه تلخيص كتاب الاستغاثه طبع بالمطبعة السلفية سنة ١٣٤٦ هـ ، على نفقة جلالة إمام الموحدين ، ناصر السنة وقامع البدعة ، الملك الصالح الموفق عبد العزيز آل سعود . المتوفى فى ربيع الأول سنة ١٣٧٣ هـ . وأطال الله فى خليفته جلالة الملك سعود . ووقفه لإحياء سيرة سلفه الصالحين من نشر راية الإسلام وإعلاء كلمته ، بطبع الكتب النافعة ، وإقامة حدود الله .

وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والغلو ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » .

ولمسلم عن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هلك المنتظمون - قالها ثلاثاً » .

بهديه ، واتباع سنته ، والدعوة إلى دينه الذى دعا إليه ونُصرتَه ، وموالاته من عمل به ، ومعاداته من خالفه . فنعكس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علماً وعملاً ، وارتكبوا ما نهى الله عنه ورسوله . فالله المستعان .

قوله ﴿ وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والغلو ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » ﴾ .

هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه . وقد رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس^(١) .

وهذا اللفظ رواية أحمد : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة جَمِيع : « هَلُمَّ الْقَطْ لِي . فَلَقَطْتُ لَهُ حَصِيَّاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ . فَلَمَّا وَضَعْنِ فِي يَدِهِ قَالَ : نَمِّ بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا . وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوفَ فِي الدِّينِ ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوفِ فِي الدِّينِ » .

قال شيخ الإسلام : هذا عام في جميع أنواع الغلوفى الاعتقادات والأعمال . وسبب هذا اللفظ العام رمى الجمار ، وهو داخل فيه ؛ مثل الرمى بالحجارة الكبار ، بناء على أنه أبلغ من الصغار . ثم علاه بما يقتضى مجانبه هذى من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به ، فإن المشارك لهم في بعض هديهم يُخاف عليه من الهلاك .

قوله « ولمسلم عن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « هلك المنتظمون - قالها ثلاثاً » .

قال الخطابى : المنتظم : المتعمق فى الشيء ، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل

(١) ورواه أيضاً الإمام أحمد وأبو داود ، وإنما اقتصر المصنف على ما هو أرجح وأقوى .

فيه مسائل :

الأولى : أن مَنْ فهم هذا الباب وباين بعده تبين غربة الإسلام ، ورأى من قدرة الله ، وتقليبه للقلوب العجب .

الثانية : معرفة أول شرك حدث في الأرض : أنه بشبهة الصالحين .

الثالثة : أول شيء غُيِّرَ به دين الأنبياء ، وما سبب ذلك ، مع معرفة أن الله أرسلهم .

الرابعة : قبول البدع ، مع كون الشرائع والفِطْرَ تردها .

الخامسة : أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل ، فالأول : محبة الصالحين .

والثاني : فعل أناس من أهل العلم شيئاً أرادوا به خيراً ، فظن مَنْ يعدم أنهم أرادوا به غيره .

السادسة : تفسير الآية التي في سورة نوح .

السابعة : جِبلة الآدمي^(١) في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد .

الثامنة : فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر .

التاسعة : معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ، ولو حَسُن قصد الفاعل .

العاشر : معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه .

الكلام الداخلين فيما لا يفهمهم ، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم .

ومن التنطع : الامتناع من المباح مطلقاً ، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز ، ومن لبس الكتان والقطن ، ولا يلبس إلا الصوف ، ويمتنع من نكاح النساء ، ويظن أن هذا من الزهد المستحب . قال الشيخ تقي الدين : فهذا جاهل ضال . انتهى .

وقال ابن القيم رحمه الله : قال الغزالي : والمتنطعون في البحث والاستقصاء .

وقال أبو السعادات : هم المتعمقون الغالون في الكلام ، المتكلمون بأقصى حلوهم .

مأخوذ من النطع ، وهو الغار الأعلى من الفم ، ثم استعمل في كل متعمق قولاً وفعلاً .

(١) الجبلة - بكسرتين فلام مشددة وكشبة أيضاً - : الحلقة والطبيعة ، والمعنى : أن

الإنسان مجبول على نقصان الحق في قلبه وزيادة الباطل ، إلا من رحم الله وأنزل في قلوبهم السكينة ، فإن إيمانهم لا يزال يزيد ولا ينقص .

الحادية عشرة : مَضْرَّة العكوف على القبر لأجل عمل صالح .
الثانية عشرة : معرفة النهي عن التماثيل ، والحكمة في إزالتها .
الثالثة عشرة : معرفة شأن هذه القصة ، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها .
الرابعة عشرة : وهي أعجب وأعجب : قراءتهم إياها في كتب التفسير
والحديث ، ومعرفة معني الكلام ، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم ، حتى
اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات ، فاعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه
فهو الكفر المبيح للدم والمال .

الخامسة عشرة : التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة .
السادسة عشرة : ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك .
السابعة عشرة : البيان العظيم في قوله « لا تطروني كما أطرت النصارى
ابن مريم » فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين .
الثامنة عشرة : نصيحته إيانا بهلاك المتنطمين .
التاسعة عشرة : التصريح بأنها لم تعبد حتى نسى العلم ، ففيها بيان معرفة
قدر وجوده ، ومضرة فقدته .

المشرون : أن سبب فقد العلم موت العلماء .

باب

(ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده؟)

وقال النووي : فيه كراهة التعرف في الكلام بالتشويق وتكلف الفصاحة ، واستعمال
وحشى اللفظة ودقائق الاعراب في مخاطبة العوام ونحوهم .

قوله ﴿ قالها ثلاثاً ﴾ أي قال هذه الكلمة ثلاث مرات ، مبالغة في التعليم والإبلاغ ،
فقد بلغ البلاغ المبين . صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

قوله : باب ﴿ ما جاء من التغليظ فيمن عبداً الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده ؟ ﴾
أي : الرجل الصالح ؛ فإن عبادته هي الشرك الأكبر ، وعبادة الله عنده وسيلة إلى

في الصحيح عن عائشة : « أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسته رأيتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، فقال : أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح ، أو العبد الصالح ، بنوا على قبره مسجداً .

عبادته ، ووسائل الشرك محرمة ؛ لأنها تؤدي إلى الشرك الأكبر ، وهو أعظم الذنوب .
قوله ﴿ في الصحيح عن عائشة رضى الله عنها : « أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسته رأيتها بأرض الحبشة ^(١) وما فيها من الصور ، فقال : أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح ، بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور . أولئك شرار الخلق عند الله » فهؤلاء جمعوا بين الفتنين : فتنة القبور وفتنة التماثيل ﴾ .

قوله ﴿ في الصحيح ﴾ أى الصحيحين .

قوله ﴿ أن أم سلمة ﴾ هى هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية . تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبي سلمة سنة أربع . وقيل : ثلاث ، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة ^(٢) ماتت سنة اثنتين وستين .

قوله ﴿ ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾ وفي الصحيحين « أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم » ، و « الكنيسة » بفتح الكاف وكسر النون : معبد النصارى .

قوله ﴿ أولئك ﴾ بكسر الكاف ، خطاب للمرأة .

قوله ﴿ إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح ﴾ هذا - والله أعلم - شك من بعض رواة الحديث : هل قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا أو هذا ؟ ففيه : التحرى في الرواية . وجواز الرواية بالمعنى .

(١) لأن دين الحبشة : النصرانية . وقد أسلم النجاشي وجماعة من أهلها لما هاجر إليها جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين : الهجرة الأولى .

(٢) ثم عادت مع زوجها أبي سلمة إلى مكة ، وهاجر أبو سلمة إلى المدينة ، وحبسها بنو المغيرة بمكة سنة ، ثم لحقت بزوجها في المدينة . وتوفى أبو سلمة رضى الله عنه سنة أربع من الهجرة .

وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » (١) .
فهؤلاء جمعوا بين فئتين : فئنة القبور ، وفئنة التماثيل .

قوله ﴿ وصوروا فيه تلك الصور ﴾ الإشارة إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنيسة .

قوله ﴿ أولئك شرار الخلق عند الله ﴾ وهذا يقتضى تحريم بناء المساجد على القبور ، وقد لعن صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك كما سيأتى .

قال البيضاوى : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ، ويعملونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً لعنهم النبي صلى الله عليه وسلم . قال القرطبي : وإنما صوروا أولئهم الصور ليتأسوا بها ، ويتذكروا أعمالهم الصالحة ، فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم ، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها . فحذر النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك (٢) .

قوله ﴿ فهؤلاء جمعوا بين فئتين : فئنة القبور ، وفئنة التماثيل ﴾ هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، ذكره المصنف رحمه الله تنبيهاً على ما وقع من شدة الفئنة بالقبور والتماثيل ، فإن الفئنة بالقبور كالفئنة بالأصنام أو أشد .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع صلى الله عليه وسلم

(١) إنما كانوا شرار الخلق لأنهم ضلوا وأضلوا ، وسنوا لمن بعدهم الغلو في القبور وأهلها المفضى بالغالين إلى عبادتها ، وكل من فعل فعلهم من هذه الأمة التي سبق عليها القول بأن بعضها يتبع سنن المشركين من أهل الكتاب فهو مثلهم ، وفي مثل هؤلاء ورد الحديث الذي في الصحيح « ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » وقال تعالى (١٦: ٢٥) ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم - الآية (٢) في قرّة العيون : ولم يذكر غير بناء المساجد والتصوير لكونه ذريعة إلى عبادة من بنوا عليه المسجد وصوروا صورته ، فبذلك صاروا شرار الخلق . فانظر إلى ما وقع في هذه الأمة من ذرائع الشرك والوقوع فيه مما هو أعظم من هذا ، كالبناء على القبور وتعظيمها وعبادتها ، ومع ذلك يعتقدونه ديناً وهو الشرك الذي حرّمه الله ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، بالنهي عنه .

ولهما عنها قالت : « لما نُزِلَ برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِقَ يطرح خميصة

عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك ، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين ، وتماثيل يزعمون أنها طلاسمة السكواكب ونحو ذلك . فإن الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر . ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ، ويخشعون ويخضعون ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجد لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد ، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي صلى الله عليه وسلم مادتها . حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً ، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته ، كما يقصد بصلاته بركة المساجد ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها ؛ لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس . فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون ، سداً للذريعة . وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ورسوله ، والمخالفة لدينه ، وابتداع دين لم يأذن به الله ، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم : أن الصلاة عند القبور منهي عنها ، وأنه صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذها مساجد ، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك : الصلاة عندها ، واتخاذها مساجد ، وبناء المساجد عليها . وقد تواترت النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم بالنهاي عن ذلك والتغليظ فيه . وقد صرح عامة الطوائف بالنهاي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة . وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك . وطائفة أطلقت الكراهة . والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم ، إحساناً للظن بالعلماء ، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن فاعله والنهاي عنه . اه كلامه رحمه الله تعالى .

قوله ﴿ ولهما عنها - أي عن عائشة رضي الله عنها - قالت : « لما نُزِلَ برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِقَ يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتمَّ بها كشفها ، فقال - وهو كذلك - : لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا ولولا ذلك أبرز

له على وجهه ، فإذا اغتمَّ بها كشفها فقال - وهو كذلك - : لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدٍ يحذرُ ما صنعوا .

قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً ^(١) « أخرجاه » .

قوله ﴿ ولها ﴾ أى البخارى ومسلم . وهو يفنى عن قوله فى آخره « أخرجاه » .

قوله ﴿ لما نزل ﴾ هو بضم النون وكسر الزاى : أى نزل به ملك الموت والملائكة الكرام عليهم السلام .

قوله ﴿ طفق ﴾ بكسر الفاء وفتحها ، والكسر أفصح . وبه جاء القرآن ، ومعناه : جعل

قوله ﴿ خميسة ﴾ يفتح المعجمة والصاد المهملة : كساء له أعلام .

قوله ﴿ فإذا اغتمَّ بها كشفها ﴾ أى عن وجهه .

قوله ﴿ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ﴾ ^(٢) يبين أن من فعل

مثل ذلك حلَّ عليه من اللعنة ما حلَّ على اليهود والنصارى .

قوله ﴿ يحذر ما صنعوا ﴾ الظاهر : أن هذا من كلام عائشة رضى الله عنها ، لأنها فهمت

من قول النبى صلى الله عليه وسلم ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذى كانت تفعله اليهود

والنصارى فى قبور أنبيائهم ، فإنه من الغلو فى الأنبياء ، ومن أعظم الوسائل إلى الشرك .

ومن غربة الإسلام أن هذا الذى لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعليه - تحذيراً لأمته

(١) « نزل » بضم النون وكسر الزاى : أى نزل به علامات الوفاة ، وخاف على أمته أن

يتخذوا قبره مسجداً ويغلون فيه فيشركون بالله كما فعل الذين لعنهم فحذرهم من ذلك ، جزاء

الله خير الجزاء .

(٢) هذا هو الشاهد للترجمة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لعنهم على تحرى الصلاة عندها

وإن كان المصلى إنما يصلى لله . فمن كان يصلى عند القبور ويتخذها مساجد فهو ملعون ، لأنه

ذريعة إلى عبادتها ، فكيف إذا عبد المقبور فيها بأنواع العبادة ، وسأله مالا قدرة له عليه .

وهذا هو الغاية التى يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة إليها ؟ وليست اللعنة خاصة باليهود

والنصارى لأشخاصهم أو أزمانهم أو أسمائهم ، وإنما هى لأعمالهم ، وكذا هى لكل من فعل

فعلهم . فمن فعل ما هو أعظم من فعلهم أولى باللعن ، وإنما أراد صلى الله عليه وسلم تحذير أمته

أن يتعرضوا لما تعرض له اليهود والنصارى من اللعنة ، ولذلك قالت عائشة « يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره » .

ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً « أخرجاه .

أن يفعلوه معه صلى الله عليه وسلم ومع الصالحين من أمته - قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة ، واعتقدوه قرابة من القربات ، وهو من أعظم السيئات والمنكرات ، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله .

قال القرطبي في معنى هذا الحديث : وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة مَنْ فيها ، كما كان السبب في عبادة الأصنام . انتهى .

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم ، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف ابن يعقوب حيث قال (١٢ : ٣٨) واتبعته ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) نكرة في سياق النفي تعم كل شرك .

قوله ﴿ ولولا ذلك ﴾ أى ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي صلى الله عليه وسلم مسجداً لأبرز قبره ، وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم في البقيع .

قوله ﴿ غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً ﴾ روى بفتح الخاء وضمها ، فعلى الفتح يكون هو الذى خشى ذلك صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم أن يدفنوه فى المكان الذى قبض فيه . وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة ، فلم يبرزوا قبره . خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلوا وتعظيما بما أبدى وأعاد من النهى والتحذير منه ولعن فاعله .

قال القرطبي : ولهذا بالغ المسلمون فى سد الذريعة فى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فأغلوها حيطان تربته وسدوا المداخل إليها . وجعلوها محدة بقبره صلى الله عليه وسلم ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين ، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوها حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره ^(١) انتهى .

(١) وكان هذا الوضع قد جعل القبر لاصقاً بالجدار الذى فيه باب الرحمة . ولكن قد أزيل هذا الوضع وأخلى حول القبر من جهاته الأربع . وأصبح كثير من المصلين يستقبلونه ممن يكون فى الموضع الخاص بالأغوات ، وفى المكان الخاص بالنساء ، وأصبح عرضة لأن يطاق به . وقد رأيت كثيراً من العامة يطوفون به . ويحاولون التمسح به لولا منع الجند =

ولمسلم عن جُنْدُب بن عبد الله قال : سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموتَ بِخَمْسٍ وهو يقول «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليلٌ، فإن الله قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا .

قوله ﴿ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس ، وهو يقول «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل . فإن الله قد اتخذني خليلًا ، كما اتخذ إبراهيم خليلًا . ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا . ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » ﴿ .

قوله ﴿عن جندب بن عبد الله ﴿أى ابن سفيان البجلي ، وينسب إلى جده ، صحابي مشهور . مات بعد الستين .

قوله ﴿إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ﴿ أى أمتنع عما لا يجوز لي أن أفعله وأتخله فوق الحجة . والتخليل هو المحبوب غاية الحب ، مشتق من التخله - بفتح الخاء - وهى تخلل المودة فى القلب ، كما قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح منى وبذا سمي التخليل خليلًا

هذا هو الصحيح فى معناها . كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم رحمهم الله تعالى .

قال القرطبي : وإنما كان ذلك لأن قلبه صلى الله عليه وسلم قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته فلا يسع خلّة غيره .

قوله ﴿فإن الله قد اتخذنى خليلًا ﴿ فيه بيان أن التخله فوق الحجة .

= الذين خصصتهم الحكومة العمودية لذلك المنع . ومهما حرص الجند على أداء وظيفتهم ؛ فلن يمكنهم - ولا أى قوة - أن تمنع هذا منمآ باتاً . اللهم إلا العلم الذى يثير قلوب الجمهور الإسلامى ويعرفهم حقيقة محبة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنها إنما تكون باتباع دينه كما كان أصحابه رضى الله عنهم يفعلون ، وهم أشد الناس حباً لله ولرسوله . وأن يعود الناس إلى الأمر الأول الذى كان عليه السلف الصالح فى كل شئونهم ، فعند ذلك لا حاجة لجند ولا قوة . والله يهدى الناس إلى ما فيه صلاح دينهم وديانهم .

وقد ذكر الشارح بعد هذا . بعض ما ذكر المصنف من المسائل المستنبطة من حديث الباب حذفناها لعدم التكرار .

ولو كنت مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا ، لَأَتَّخِذْتَ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ،

قال ابن القيم رحمه الله : وأما ما يظنه بعض المغالطين من أن المحبة أكل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ، ومحمد حبيب الله - فمن جهلهم ، فإن المحبة عامة ، والخلة خاصة ، وهي نهاية المحبة . وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله قد اتخذ خليلاً ، ونفى أن يكون له خليل غير ربه ، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر بن الخطاب ، ومعاذ بن جبل وغيرهم رضي الله عنهم . وأيضاً ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، ويحب الصابرين ، وختلته خاصة بالخليلين .

قوله ﴿ ولو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً ﴾ فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة . وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية ، وما شر أهل البدع ، وأخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وهم أول من بنى عليها المساجد . قاله المصنف رحمه الله ، وهو كما قال بلا ريب ^(١) وفيه إشارة إلى خلافة أبي بكر ؛ لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره . وقد استخلفه على الصلاة بالناس ، وغضب صلى الله عليه وسلم لما قيل : يصلى بهم عمر ^(٢) وذلك في مرضه الذي توفي فيه صلى الله عليه وسلم .

واسم أبي بكر : عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . الصديق الأكبر ، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد

(١) فإن أول من فعل ذلك العبيدون الذين زعموا كذباً أنهم فاطميون . شيدوا للحسين - رضي الله عنه وبرأه الله منهم ومن شيعتهم ومحبيهم - قبراً بالقاهرة ، ورفعوا عليه قبة عظيمة وبنوا له المسجد المشهور الذي بالقاهرة ، يقام فيه من الأعمال الشركية ما يغضب الله ورسوله وآل بيته وكل من في قلبه حب لله ورسوله والإيمان الصحيح . وقد صنف كثير من العلماء السالفين في بيان كذب أولئك العبيديين ، وبيان نحلتهن الكافرة الفاجرة ، وأنهم كانوا يظهرون الرفض ويظنون الكفر . ومن كتب في ذلك الإمام أبو بكر الباقلاني في كتاب نفيس سماه « كشف الأسرار وهتك الأستار » والإمام ابن الجوزي وغيرهم . انظر في ذلك « البداية والنهاية » للعلاء ابن كثير في حوادث سنة ٤٠٣ (ج ١١ ص ٢٤٩) .

(٢) الذي قال ذلك وعرضه : عائشة رضي الله عنها كما في صحيح البخاري : قالت « إن أبا بكر رجل أسيء ، لا يملك نفسه إذا صلى . فمر عمر يصلى بالناس . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك .
فقد نهى عنه في آخر حياته .

ثم إنه لعن - وهو في السياق - مَنْ فعله . والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبين

بقوله من أهل العلم مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة ، وله ثلاث وستون سنة رضى الله عنه .

قوله ﴿ ألا ﴾ حرف استفتاح ﴿ ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد - الحديث ﴾ قال الخليلي : وإنكار النبي صلى الله عليه وسلم صنيعهم هذا مخرج على وجهين . أحدهما : أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً .

الثاني : أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة ، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء والأول : هو الشرك الجلى ، والثاني : الخلفي ، فلذلك استحقوا اللعن .

قوله ﴿ فقد نهى عنه في آخر حياته ﴾ أى كما في حديث جندب . وهذا من كلام شيخ الإسلام . وكذا ما بعده .

قوله ﴿ ثم إنه لعن ، وهو في السياق ^(١) من فعله ﴾ كما في حديث عائشة . قلت : فكيف يسوغ بمد هذا التخليط من سيد المرسلين أن تعظم القبور ويبنى عليها ، وبصلى عندها وإليها ؟ هذا أعظم مشاققة ومحادة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لو كانوا يعقلون .

قوله ﴿ والصلاة عندها من ذلك ، وإن لم يبين مسجد ﴾ أى من اتخاذها مساجد ، للمعون فاعله .

وهذا يقتضى تحريم الصلاة عند القبور وإليها .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعاً « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة

(١) أى في سياق الموت ، أصله « سواق » قلبت الواو ياء لكسر السين ، كأن روحه

تساق لتخرج من البدن ، وسواق وسواق مصدران من ساق يسوق .

مسجد ، وهو معنى قولها « خشى أن يتخذ مسجداً » فإن الصحابة لم يكونوا
ليبنوا حول قبره مسجداً . وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً ،

والحام « رواه أحمد وأهل السنن ، وصححه ابن حبان والحاكم .

قال ابن القيم رحمه الله : وبالجملة ، فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه ، وفهم عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاصده ، جزم جزمًا لا يَحْتَمِلُ التَّقْيِضُ أن هذه المبالغة واللحن
والنهي بصيغته - صيغة « لا تفعلوا » وصيغة « إني أنها كم عن ذلك » - ليس لأجل
التنجاسة ، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه ، وارتكب ماعنه نهاه ، واتبع
هواه ، ولم يخش ربه ومولاه ، وقلّ نصيبه أو عدم من « لا إله إلا الله » فإن هذا وأمثاله
من النبي صلى الله عليه وسلم صيانة لحى التوحيد أن يلحقه الشرك ويفشاه ، وتجريد له
وغضب لربه أن يعدل به سواه ، فأبى المشركون إلا معصية لأمره . وارتكاباً لنهيه ،
وغرّهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين ، وكما كنتم لها أشد تعظيماً وأشد
فيهم غلواً كنتم بقرّبهم أسعد ، ومن أعدائهم أبعد ، ولعمر الله ، من هذا الباب دخل الشيطان
على عباد يفتو و يعوق ونسر ، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة ؛ فجمع
المشركون بين العلو فيهم والظعن في طريقتهم ؛ فهدى الله أهل التوحيد لسلك طريقتهم
وإنزلهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية ، وسلب خصائص الإلهية عنهم .

قال الشارح رحمه الله تعالى : وعن علل بخوف الفتنة بالشرك : الإمام الشافعي ،
وأبو بكر الأثرم ، وأبو محمد المقدسي ، وشيخ الإسلام ، وغيرهم رحمهم الله ، وهو الحق الذي
لا ريب فيه .

قوله ﴿ فإن الصحابة لم يكونوا لينبوا حول قبره مسجداً ﴾ أى لما علموا من تشديده في
ذلك ، وتغليظه النهى عنه ، ولعن من فعله .

قوله ﴿ وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً ﴾ أى وإن لم يبن مسجد ،
بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً ، يعنى وإن لم يقصد بذلك ، كما إذا عرض لمن أراد
أن يصلى فأوقع الصلاة في ذلك الموضع الذى حانت الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك
الموضع بخصوصه ، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً .

بل كل موضع يُصَلَّى فيه يسمى مسجداً ، كما قال صلى الله عليه وسلم « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً « إن من شرار الناس

قوله ﴿ كما قال صلى الله عليه وسلم « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » ﴾ (١) أى فسمى الأرض مسجداً ، تجوز الصلاة فى كل بقعة منها ، إلا ما استثنى من المواضع التى لا تجوز الصلاة فيها كالمقبرة ونحوها .

قال البغوى فى شرح السنة : أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا فى بيئهم وكنائسهم ؛ فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا ، تخفيفاً عليهم وتيسيراً ، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس . انتهى .

قوله ﴿ ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً « إن من شرار الناس من تدرکہم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد » ورواه أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه (٢) .

قوله ﴿ إن من شرار الناس ﴾ بكسر الشين . جمع شرير .

(١) رواه البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه ، وفيه زيادة « فأما رجل أدركته الصلاة فليصل حيث أدركته » .

(٢) فى قرة العيون : قلت وقد وقع هذا فى الأمة كثيراً كما وقع فى أهل الجاهلية قبل بعث النبى صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى على ذوى البصائر . وقد زاد هؤلاء التأخرون من هذه الأمة على ما وقع من أهل الجاهلية من هذا الشرك بأمر . منها : أنهم يخلصون عند الاضطرار لغير الله وينسون الله . ومنها : أنهم يعتقدون أن آلهتهم من الأموات يتصرفون فى الكون دون الله وجمعوا بين نوعى الشرك فى الإلهية والربوبية ، وقد سمعنا ذلك منهم مشافهة . ومن ذلك قول ابن كمال من أهل عمان وأمثاله : أن عبد القادر الجيلانى يسمع من دعاه ومع سماعه ينفع ، فزعم أنه يعلم الغيب وهو ميت ، فلقد ذهب عقل هذا وصل فكفر بما أنزله الله فى كتابه كقوله (٣٥ : ١٤) إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) فما صدقوا الخير فيما أخبر به عن آلهتهم التى كانوا يبدونها من دون الله ، ولا آمنوا بما أنزله الله فى كتابه ، بل بالغوا وعاندوا فى رده وكذبوا وأحدوا . وكابروا المعقول والنقول ، فآله الستعان .

من تُدرِكهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد « ورواه أبو حاتم في صحيحه .

قوله ﴿ من تدرِكهم الساعة وهم أحياء ﴾ أى مقدماتها ، كخروج الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها . وبعد ذلك ينفخ في الصور نفخة الفزع .

قوله ﴿ والذين يتخذون القبور مساجد ﴾ معطوف على خبر « إن » فى محل نصب على نية تكرار العامل ، أى وإن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد أى بالصلاة عندها وإليها ، وبناء المساجد عليها ، وتقدم فى الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لعنهم على ذلك ، تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحهم مثل اليهود والنصارى . فما رفع أكرهم بذلك رأساً ؛ بل اعتقدوا أن هذا الأمر قرابة إلى الله ، وهو مما يبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته . والعجب أن أكثر من يدعى العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك ، بل ربما استحسنوه ورغبوا فى فعله ؛ فلقد اشتدت غربة الإسلام وعاد العروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، نشأ على هذا الصغير ، وهم عليه الكبير .

قال شيخ الإسلام : أما بناء المساجد على القبور : فقد صرح عامة الطوائف بالنبى عنه ، متابمة للأحاديث الصحيحة . وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريمه . قال : ولا ريب فى القطع بتحريمه ، ثم ذكر الأحاديث فى ذلك - إلى أن قال - : وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم ، تتعين إزالتها بهدم أو غيره . هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين .

وقال ابن القيم رحمه الله : يجب هدم القباب التى بنيت على القبور ؛ لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما فى القرافة من الأبنية منهم ابن الجيمزى ، والظهير الترمينى وغيرهما .

وقال القاضى ابن كنج : ولا يجوز أن تخصص القبور ، ولا أن يبنى عليها قباب ، ولا غير قباب ، والوصية بها باطلة .

فيه مسائل :

الأولى : ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ، ولو صحت نية الفاعل .

الثانية : النهى عن التمايل ، وغِلظ الأمر في ذلك .

الثالثة : العبرة في مبالغته صلى الله عليه وسلم في ذلك . كيف بين لهم هذا أولاً ، ثم قبل موته بخمس ، قال ماقال ، ثم لما كان في السياق لم يكتب بما تقدم .

الرابعة : نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر .

الخامسة : أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم .

السادسة : لعنه إياهم على ذلك .

وقال الأذرى : وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية وإنفاق الأموال الكثيرة ، فلا ريب في تحريمه .

وقال القرطبي في حديث جابر رضى الله عنه « نهى أن يخصص القبر أو يبني عليه » وبظاهر هذا الحديث قال مالك ، وكره البناء والحص على القبور . وقد أجازه غيره ، وهذا الحديث حجة عليه .

وقال ابن رشد : كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة ، وهو من بدع أهل الطول ، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمة ، وهو مما لا اختلاف فيه .

وقال الزيلعي في شرح السكز : ويكره أن يبني على القبر . وذكر قاضي خان : أنه لا يخصص القبر ولا يبني عليه . لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن التخصيص والبناء فوق القبر . والمراد بالكرهية - عند الحنفية رحمهم الله - كراهة التحريم وقد ذكر ذلك ابن نجيم في شرح السكز .

وقال الشافعي رحمه الله : أكره أن يعظم مخلوق ، حتى يجعل قبره مسجداً ؛ مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس . وكلام الشافعي رحمه الله يبين أن مراده بالكرهية : كراهة التحريم .

السابعة : أن مراده تحذيره إيانا عن قبره .

الثامنة : العلة في عدم إبراز قبره .

التاسعة : في معنى اتخاذها مسجداً .

العاشرة : أنه قرّن بين من اتخذها وبين من تقوم عليه الساعة ، فذكر

الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته .

قال الشارح رحمه الله تعالى : وجزم النووي رحمه الله في شرح المذهب بتحريم البناء مطلقاً ، وذكر في شرح مسلم نحوه أيضاً .

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار ؛ كالمنفى والكافي وغيرهما رحمه الله تعالى : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله اليهود والنصارى - الحديث » وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام : تعظيم الأموات واتخاذ صورهم ، والتسبح بها والصلاة عندها . انتهى ^(١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة ، انقلبت تربتها أو لم تنقلب . ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا ؛ لعموم الاسم وعموم العلة ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس .

وبالجملة فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصود النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بنى عليه مسجد ، فلا يصلى في هذا المسجد ، سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » وخص قبور الأنبياء ، لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم ، واتخاذها مساجد أشد ، وكذلك إن لم يكن بنى عليه مسجد ، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة

(١) وقد صرح ابن حجر الهيتمي المكي في كتابه الكبائر : أن بناء القباب على القبور من الكبائر المحرمة بالنص الصريح . وأن الواجب على ملوك المسلمين وأمرأهم وولاتهم أن يهدموا هذه القباب ويبدأوا بقبة الإمام الشافعي .

الحادية عشرة : ذكره في خطبته قبل موته بخمس : الرد على الطائفتين اللتين هما أشراً أهل البدع ، بل أخرجهم بعض أهل العلم مر الثنتين والسبعين فرقة ، وهم الرافضة والجهمية . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور . وهم أول من بنى عليها المساجد .

التي كان النهى عن الصلاة عند القبور من أجلها ، فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً ، كما قال صلى الله عليه وسلم « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » وإن كان موضع قبر أو قبرين .

وقال بعض أصحابنا : لا يمنع الصلاة فيها لأنه لا يتناولها اسم المقبرة ، وليس في كلام أحد ولا بعض أصحابه هذا الفرق ، بل عموم كلامهم يقتضى منع الصلاة عند كل قبر . وقد تقدم عن علي رضي الله عنه أنه قال : « لأصلى في حمام ولا عند قبر » .

فعلى هذا : ينبى أن يكون النهى متناولاً لحريم القبر وفنائه ، ولا تجوز الصلاة في مسجد بنى في مقبرة ، سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور أو كان مكشوفاً .

قال في رواية الأثرم : إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة ، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز فرخص أن يصلى فيه على الجنائز ولا يصلى فيه على غير الجنائز . وذكر حديث أبي مرثد عن النبي صلى الله عليه وسلم « لاتصلوا إلى القبور »^(١) وقال : إسناده جيد . انتهى .

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لاحتمل عدة أوراق . فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله بينوا أن علة النهى ما يؤدى إليه ذلك : من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع والله المستعان .

وقد حدث بعد الأئمة الذين يعتد بقولهم أناس كثير في أبواب العلم بالله اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم ؛ فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أو هنت الانقياد ، وغيروا بها ما قصد الرسول صلى الله عليه وسلم بالنهى وأراد . فقال بعضهم : النهى عن البناء على القبور يختص بالمقبرة المسبلة ، والنهى عن الصلاة فيها

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

- الثانية عشرة : ما أُبلى به صلى الله عليه وسلم من شدة النزاع .
الثالثة عشرة : ما أكرم به من الخلة .
الرابعة عشرة : التصريح بأنها أعلى من المحبة .
الخامسة عشرة : التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة .
السادسة عشرة : الإشارة إلى خلافته .

باب

﴿ ماجاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله ﴾

لتنجسها بصديد الموتى ، وهذا كله باطل من وجوه :

منها : أنه من القول على الله بلا علم . وحرام بنص الكتاب .

ومنها : أن مقالوه لا يقتضى لعن فاعله والتغليظ عليه ، وما المانع له أن يقول : من صلى في بقعة نجسة فعليه لعنة الله . ويلزم على مقاله هؤلاء : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبين العلة ، وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده صلى الله عليه وسلم وبعد القرون المفضلة والأئمة ، وهذا باطل قطعاً وعقلاً وشرعاً ، لما يلزم عليه من أن الرسول صلى الله عليه وسلم عجز عن البيان أو قصر في البلاغ ، وهذا من أبطل الباطل ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ البلاغ المبين ، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد ، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم .

ويقال أيضاً : هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد ، وجاء في بعض النصوص ما يعم الأنبياء وغيرهم ، فلو كانت هذه هي العلة لسكانت منتفية في قبور الأنبياء ، لسكون أجسادهم طرية لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم ، فإذا كان النهى عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص ، علم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم ، والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة . والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

قوله : ﴿ باب ماجاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله ﴾

روى مالك في الموطأ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبَد .

قوله ﴿ روى مالك في الموطأ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبَد ؛ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ﴾ (١) .

هذا الحديث رواه مالك مرسلًا عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - الحديث » ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن مجلان عن زيد بن أسلم به ، ولم يذكر عطاء ، ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً . وله شاهد عند الإمام أحمد بسنده عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه « اللهم لا تجعل قبرى وثناً ، إني والله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

قوله ﴿ روى مالك في الموطأ ﴾ هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي ، أبو عبد الله المدني . إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة ، وأحد المتقين للحديث ، حتى قال البخاري : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ، مات سنة تسع وسبعين ومائة . وكان مولده سنة ثلاث وتسعين ، وقيل : أربع وتسعين ، وقال الواقدي : بلغ تسعين سنة .

قوله ﴿ اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبَد ﴾ قد استجاب الله دعاءه كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه في عزة وحماية وصيان

ودل الحديث على أن قبر النبي صلى الله عليه وسلم لو عبد لكان وثناً ، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه . ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتواييت التي عليها . وقد عظمت الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها ، كما قال

(١) في قرة العيون : وذلك أنه صلى الله عليه وسلم خاف أن يقع في أمته في حقه كما وقع من اليهود والنصارى في حق أنبيائهم من عبادتهم من دون الله وسبب ذلك الغلو فيهم كما قال تعالى (٥ : ٧٧ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وكذلك رغب صلى الله عليه وسلم إلى ربه أن لا يجعل قبره وثناً يُعبَد ، وقد عبدت القبور بأنواع العبادة كما لا يخفى ، وتقدم في حديث عائشة رضي الله عنها « ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً » وقد استجاب الله دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم وصان قبره وأحاطه بثلاثة جدران .

عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « كيف أتم إذا لبستم فتنة يهرم فيها الكبير ، وينشأ فيها الصغير . تجرى على الناس بتخذونها سنة ، إذا غيرت قيل : غيرت السنة ؟ » انتهى .

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن وضاح : سمعت عيسى بن يونس يقول : « أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقطع الشجرة التي بويج تحتها النبي صلى الله عليه وسلم »^(١) فقطعها ؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة .

وقال المعرور بن سويد : « صليتُ مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح . ثم رأى الناس يذهبون مذاهب ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، مسجدٌ صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم فهم يصلون فيه ؛ فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ؛ كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً . فن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها » .

وفي مغازي ابن إسحاق من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار . حدثنا أبو العالية قال « لما فتحنا تُسْتَرَّ وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف . فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ؛ فدعا له كعباً فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل قرأه من العرب . قرأته مثل ما أقرأ القرآن . فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فإذا صنعتُم بالرجل ؟ قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة . فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها النعمية على الناس لا ينبشونه . قلت : وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حُبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . فقلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال . فقلت : منذ كم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما كان تغير منه شيء ؟ قال : لا . إلا شعيراتٍ

(١) كان ذلك في صلح الحديبية . وهي الشجرة التي ذكرها الله تعالى في سورة الفتح (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) ، وذلك حين أشاع الناس أن عثمان ابن عفان قتلته قريش حين بعثه النبي صلى الله عليه وسلم سفيراً بينه وبين قريش ، فقال : لا تبرح حتى تناجز القوم ، ودعا رسول الله الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان على الموت ، وكان المبايعون ألفاً وأربعمائة ، ثم أتى رسول الله أن الذي كان من أمر عثمان باطل . والقصة رواها البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السير والمغازي .

اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد

من قفاه ، إنَّ لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض»^(١) .

قال ابن القيم رحمه الله : ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم من تسمية قبره لثلاثين به ، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ، ولعبدوه من دون الله .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهو إنكار منهم لذلك ؛ فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها - ولم يستحب الشارع قصدها - فهو من المنكرات ، وبعضه أشد من بعض ، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها ، أو ليقرا عندها ، أو ليذكر الله عندها ، أو لينسك عندها ، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيصها به ، لأنواعاً ولا عيناً ، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يزورها ويسلم عليها ، ويسأل الله العافية له وللموتى ، كما جاءت به السنة . وأما تحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره ، فهذا هو المنهى عنه ، انتهى ملخصاً .

قوله ﴿ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ﴾ فيه تحريم البناء على

(١) ذكرها الطبري (ج ٤ ص ٢٢٠) في حوادث سنة ١٧ قال : « قيل لأبي سبرة هذا جسد دانيال في هذه المدينة . قال : وما لنا بذلك ؟ فأقره بأيديهم - ثم ذكر خبر دانيال وسي يختصر له من بيت المقدس ، وموته بالسوس ؛ فكان هنالك يستسقى بجسده ، فلما فتحها للسلون أتوا به فأقروه في أيديهم . حتى إذا ولي أبو سبرة عنهم إلى جندي سابور أقام أبو موسى بالسوس وكتب إلى عمر فيه - الخ القصة » . وقد ذكرها أبو عبيد في الأموال (ص ٣٤٣ رقم ٨٧٦) عن قتادة قال « لما فتحت السوس وعليهم أبو موسى الأشعري وجدوا دانيال في إبرن ، وإذا إلى جانبه مال موضوع وكتاب فيه : من شاء أتى فاستقرض منه إلى أجل ، فإن أتى به إلى ذلك الأجل وإلا برص . قال : فالتزمه أبو موسى وقبله ، وقال : دانيال ورب الكعبة . ثم كتب في شأنه إلى عمر . فكتب إليه عمر : كفته وحنطه وصل عليه ثم ادفنه كما دفنت الأنبياء صلوات الله عليهم . وانظر ماله فاجعله في بيت مال المسلمين . قال . فكفته في قباطي يرضى عليه ودفنه » وقال البلاذري (ص ٣٧١) ورأى أبو موسى في قبلتهم بيتاً وعليه ستر فسأل عنه فقيل : إن فيه جثة دانيال النبي ، فإنهم كانوا أقحطوا ، فسألوا أهل بابل دفعه إليهم ليستسقوا به ففعلوا . وكان يختصر سبي دانيال وآتى به إلى بابل فقبض بها . فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر : أن كفته وادفنه . فسكر أبو موسى نهراً حتى إذا انقطع دفته ، ثم أجرى الماء عليه .

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد « (أفرايتم اللات

القبور، وتحريم الصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر. وفي القرى للطبري^(١) من أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول: زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وعَدَلَ ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد - الحديث ». كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر؛ لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سداً للذريعة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ومالك قد أدرك التابعين، وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألقاظ زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم - إلى أن قال - وقد ذكروا في أسباب كراهته لأن يقول « زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم » لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة إليه في قضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة. وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد، بخلاف الصلاة والسلام عليه، فإن ذلك مما أمر الله به. أما لفظ الزيارة في عموم القبور فلا يفهم منها مثل هذا المعنى. ألا ترى إلى قوله « فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة » مع زيارته لقبر أمه. فإن هذا يتناول قبور الكفار، فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع؛ بخلاف ما إذا كان المزور معظماً في الدين كالأنبياء والصالحين؛ فإنه كثيراً ما يعنى بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية؛ فلهذا كره مالك ذلك في هذا، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة اهـ.

وفيه: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستعد إلا بما يخاف وقوعه. ذكره المصنف رحمه الله تعالى.

قوله ﴿ ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد (أفرايتم اللات والعزى) قال « كان يَلْتُ لهم السويق فأت فمكفوا على قبره » وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس قال « كان يلت السويق للحاج » ﴾ .

(١) كتاب « القرى لقاصد أم القرى » تأليف المحب الطبري .

والعزى) قال: « كان يَلتّ لهم السويق^(١) فمات فكفوا على قبره ». .
وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس « كان يلت السويق للحاج »

قوله ﴿ ولابن جرير ﴾ هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، صاحب التفسير والتاريخ والأحكام وغيرها . قال ابن خزيمة : لا أعلم على وجه الأرض أعلم من محمد ابن جرير . وكان من المجتهدين لا يقلد أحداً . وله أصحاب يتفقون على مذهبه يأخذون بأقواله . ولد سنة أربع وعشرين ومائتين ، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة .
قوله ﴿ عن سفیان ﴾ الظاهر : أنه سفیان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي ثقة حافظ فقيه إمام عابد . كان مجتهداً ، وله أتباع يتفقون على مذهبه . مات سنة إحدى وستين ومائة ، وله أربع وستون سنة .

قوله ﴿ عن منصور ﴾ هو ابن المعتز بن عبد الله السلمي ، ثقة ثبت فقيه . مات سنة الثنتين وثلاثين ومائة .

قوله ﴿ عن مجاهد ﴾ هو ابن جبر - بالجيم والموحدة - أبو الحجاج الخزومي مولاهم المكي ، ثقة إمام في التفسير ، أخذ عن ابن عباس وغيره رضى الله عنهم . مات سنة أربع ومائة ، قاله يحيى القطان ، وقال ابن حبان : مات سنة اثنتين - أو ثلاث - ومائة وهو ساجد . ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر رضى الله عنه .

قوله ﴿ كان يلت لهم السويق فمات فكفوا على قبره ﴾ في رواية « فيطم من يمرّ من الناس . فلما مات عبده ، وقللوا : هو اللات » رواه سعيد بن منصور .

ومناسبتة للترجمة : أنهم غلوا فيه لصالحه حتى عبده وصار قبره وثناً من أوثان المشركين .

قوله ﴿ وكذا قال أبو الجوزاء ﴾ هو أوس بن عبد الله الربيعي ، بفتح الراء والباء . مات سنة ثلاث وثمانين .

قال البخاري : حدثنا مسلم وهو ابن إبراهيم حدثنا أبو الأشهب^(٢) حدثنا أبو الجوزاء

عن ابن عباس قال « كان اللات رجلا يلت سويق الحجاج » .

(١) السويق : دقيق الحنطة أو الشمير . ولته : بله بالماء أو السمن ، والحاج : بمعنى الحجاج

(٢) أبو الأشهب : هو جعفر بن حيان التيمي السعدي العطاردي الحذاء الأعمى . مات

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن خزيمة : وكذا العزى ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : « لنا العزى ولا عزى لكم » قوله ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن ﴾ .

قلت : وفي الباب حديث أبي هريرة وحديث حسان بن ثابت فأما حديث أبي هريرة فرواه أحمد والترمذى وصححه^(١) . وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه قال « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبور » . وحديث ابن عباس هذا فى إسناده أبو صالح مولى أم هانئ ، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم^(٢) . قال على بن المدينى ، عن يحيى القطان : لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانئ . وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً ، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبد الله بن عثمان . قال ابن معين : ليس به بأس . ولهذا أخرجه ابن السكن فى صحيحه . انتهى من الذهب الإبريز عن الحافظ المزى .

(١) أخرجه الترمذى من طريق عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوارات القبور » وقال هذا حسن صحيح ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه . قال الترمذى : وفى الباب عن عائشة وحسان بن ثابت . وحديث حسان بن ثابت رواه الإمام أحمد فى مسنده أيضاً ، وروى ابن حبان فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو حديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عزائها أهل ميت فى ميتهم ، فقال لها « لعلك بلغت معهم الكدى ؟ قالت معاذ الله ، وقد سمعتك تذكر فيها ما تذكر . قال : لو بلغت معهم الكدى مارأيت الجنة حتى يراها جد أهلك » .

(٢) وأبو صالح : اسمه باذام ، أو باذان . وقد صرح فى هذا الحديث بالتحديث عن ابن عباس فانتفت تهمة التدليس . ثم قد حسن الترمذى هذا الحديث وإن كان الحافظ المنذرى قد تعقبه عليه ، وقال الحافظ ابن القيم فى تهذيب سنن أبي داود فى باب كراهية اتخاذ القبور مساجد . وفى صحيح أبي حاتم عن أبي صالح عن ابن عباس قال « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » قال أبو حاتم : أبو صالح هذا اسمه مهران ، ثقة . وليس بصاحب الكلبي . ذاك اسمه باذام . وقال الأشيبلى : هو باذام صاحب الكلبي . وهو عندهم ضعيف جدا . وكان شيخنا أبو الحجاج المزى يرجع هذا أيضاً . اهـ

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريقين :
فمن أبي هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوارات القبور »
وذكر حديث ابن عباس . ثم قال : ورجال هذا ليس رجال هذا ، فلم يأخذه أحدهما عن
الآخر . وليس في الإسنادين من يتهم بالكذب . ومثل هذا حجة بلا ريب . وهذا من
أجود الحسن الذى شرطه الترمذى ، فإنه جعل الحسن : ما تعددت طرقه ولم يكن فيه متهم ،
ولم يكن شاذاً ، أى مخالفاً لما ثبت بنقل الثقات . وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم
ولا خالفه أحد من الثقات ، هذا لو كان عن صاحب واحد ، فكيف إذا كان هذا رواه
عن صاحب وذلك عن آخر ؟ فهذا كله يبين أن الحديث فى الأصل معروف .

والذين رخصوا فى الزيارة اعتمدوا على ما روى عن عائشة رضى الله عنها : أنها زارت
قبر أخيها عبد الرحمن وقالت : « لو شهدتك ما زرتك » وهذا يدل على أن الزيارة ليست
مستحبة للنساء كما تستحب للرجال ؛ إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته ، سواء شهدته أم لا .

قلت : فعلى هذا لاحجة فيه لمن قال بالرخصة .

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذى من رواية عبد الله بن أبي مليكة عنها ،
وهو يخالف سياق الأثر له عن عبد الله بن أبي مليكة أيضاً « أن عائشة رضى الله عنها
أقبلت ذات يوم من المقابر . فقلت لها : يا أم المؤمنين ، أليس نهى رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن زيارة القبور ؟ قالت : نعم ، نهى عن زيارة القبور ، ثم أمر بزيارتها » .

فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا وقال : ولا حجة فى حديث عائشة ؛ فإن المحتج
عليها احتج بالنهى العام ، فدفعت ذلك بأن النهى منسوخ ، ولم يذكر لها المحتج النهى الخاص
بالنساء الذى فيه لعنهن على الزيارة . يبين ذلك قولها « قد أمر بزيارتها » فهذا يبين أنه
أمر بها أمراً يقتضى الاستحباب ، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة . ولو كانت
تعقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال ولم تقل لأخيها
« لما زرتك » واللحن صريح فى التحريم ، والخطاب بالإذن فى قوله « فزورها » لم يتناول
النساء فلا يدخلن فى الحكم الناسخ ، والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند
جمهور العلماء ، وهو مذهب الشافعى وأحد فى أشهر الروايتين عنه ، وهو المعروف عند أصحابه ،
فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص ؟ إذ قد يكون قوله « لعن الله زوارات القبور »
بعد إذنه للرجال فى الزيارة . يدل على ذلك : أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرور .

ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهى عنها محكم ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر .

والصحيح : أن النساء لم يدخلن في الإذن في زيارة القبور لعدة أوجه :

أحدها : أن قوله صلى الله عليه وسلم « فزوروها » صيغة تذكير . وإنما يتناول النساء أيضاً على سبيل التغليب . لكن هذا فيه قولان . قيل : إنه يحتاج إلى دليل منفصل ، وحينئذ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل ، وقيل : إنه يحمل على ذلك عند الإطلاق . وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف ، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء ، ولو كان النساء داخلات في هذا الخطاب لاستحب لمن زيارة القبور . وما علمنا أحداً من الأئمة استحباب لمن زيارة القبور ، ولا كان النساء على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور .

ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم علل الإذن للرجال بأن ذلك « يذكر الموت ، ويرقق القلب ، وتدمع العين » هكذا في مسند أحمد . ومعلوم أن المرأة إذا فتحت لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة ؛ لما فيها من الضعف وقلة الصبر . وإذا كانت زيارة النساء مظنة وسبباً للأمر المحرمة ، فإنه لا يمكن أن يحد المقدار الذي لا يفضى إلى ذلك ، ولا التمييز بين نوع ونوع ، ومن أصول الشريعة : أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها . فيحرم هذا الباب سداً للذريعة ، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة ، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك . وليس في ذلك من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة . فإنه ليس في ذلك إلا دعاؤها للميت . وذلك ممكن في بيتها .

ومن العلماء من يقول : التشيع كذلك ، ويحتج بقوله صلى الله عليه وسلم « أرجعن مأزورات غير مأجورات ، فإنكن تفتن الحى وتؤذنين الميت » وقوله لقاطمة « أما إنك لو بلغت معهم الكدى لم تدخل الجنة » ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من « أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز » ومعلوم أن قوله صلى الله عليه وسلم « من صلى على جنازة فله قيراط ، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان » هو أدل على العموم من صيغة التذكير . فإن لفظ « من » يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس ، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهى النبي صلى الله عليه وسلم لمن عن اتباع الجنائز ، فإذا لم يدخلن في هذا العموم . فكذلك في ذلك بطريق الأولى . انتهى ملخصاً .

زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والشرح .

قلت : ويكون الإذن في زيارة القبور مخصوصاً بالرجال ، خص بقوله « لعن الله زائرات القبور - الحديث » فيكون من العام المخصوص .
وعما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضاً .
منها : أن ما ذكره عن عائشة وفاطمة رضی الله عنهما معارض بما ورد عنهما في هذا الباب فلا يثبت به نسخ .

ومنها : أن قول الصحابي وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع . وأما تعليمه عائشة كيف تقول : إذا زارت القبور ونحو ذلك ، فلا يدل على نسخ ما دلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور ، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهي الأكيد والوعيد الشديد والله أعلم .
قال محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله في كتابه تطهير الاعتقاد : فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد ، وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه : غالب - بل كل - من يعمرها هم الملوك والولاة والرؤساء والولاة ، إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ كبير ، ويؤروه الناس الذين يعرفونه بزيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه ، بل يدعون له ويستغفرون ، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم ، فيأتي من بعدهم فيجد قبراً قد شيد عليه البناء ، وسرجت عليه الشموع ، وفرش بالفراش الفاخر ، وأرخت عليه الستور ، وأقيت عليه الأوراد والزهور ، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر ، وتأتية السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل ، وأنزل بفلان الضر و بفلان النفع . حتى يفرسوا في جبلته كل باطل ، والأمر مائت في الأحاديث النبوية من لعن^(١) من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها . وأحاديث ذلك واسعة معروفة . فإن ذلك في نفسه منهي عنه . ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة . انتهى .

ومنه تعلم مطابقة الحديث للترجمة . والله أعلم :

قوله ﴿ والمتخذين عليها المساجد ﴾ تقدم شرحه في الباب قبله .

قوله ﴿ والشرح ﴾ قال أبو محمد المقدسي : لو أبيض اتخذ السرج عليها لم يلعن من فعله ،

(١) في تطهير الاعتقاد : ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج

القبور . الخ

رواه أهل السنن .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الأوثان .

الثانية : تفسير العبادة .

الثالثة : أنه صلى الله عليه وسلم لم يستعذ إلا بما يُخاف وقوعه .

الرابعة : قرّنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد^(١) .

الخامسة : ذكر شدة الغضب من الله .

السادسة ، وهي من أهمها : صفة معرفة عبادة اللات هي أكبر الأوثان .

السابعة : معرفة أنه قبر رجل صالح .

الثامنة : أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية .

التاسعة : لعنة زوّارات القبور .

العاشر : لعنة من أسرجها .

باب

ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد

وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك

لأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة ، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام .
وقال ابن القيم رحمه الله : اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر^(٢) .
قوله ﴿ رواه أهل السنن ﴾ يعني أبا داود والترمذي وابن ماجه فقط ، ولم يروه النسائي .
قوله : باب ﴿ ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسدّه كل
طريق يوصل إلى الشرك ﴾

الجناب : هو الجانب ، والمراد حمايته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه .

(١) يعني : أنه لما قرن بذلك الدعاء اتخذ القبور مساجد علم أن اتخاذها مساجد ذريمة إلى

اتخاذها أوثاناً . (٢) وقد عدّه ابن حجر الهيثمي في الكبائر أيضاً .

وقول الله تعالى: (٩: ١٢٨، ١٢٩) لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم

قوله ﴿وقول الله تعالى (٩ : ١٢٨ ، ١٢٩) لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولَّوا فقل : حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) ﴿

قال ابن كثير رحمه الله : يقول الله تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم ، كما قال إبراهيم عليه السلام (٢ : ١٢٩) ربنا وبعث فيهم رسولا منهم) وقال تعالى (٣ : ١٦٤) لقد منّا الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى منكم ، كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : « إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته » وذكر الحديث ، وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال : « لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية (١) » .

وقوله ﴿عزيزٌ عليه ما عنتم﴾ أى يعز عليه الشىء الذى بعنت أمته وبشق عليها (٢) ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وفى الصحيح « إن هذا الدين يسر » وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة ، بسيرة على من بسرها الله عليه .

(١) ثم ذكر ابن كثير حديث « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وقد وصل هذا من وجه آخر . كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى . وقد استدلل بعض الجاهلين بهذا على إيمان آباء النبي صلى الله عليه وسلم وهذا من عظيم جهلهم . فليس فيه أى دليل . لأن فى البخارى من حديث عائشة أنهم كانوا فى الجاهلية لم نكاح هو نكاح الناس اليوم .

(٢) فى قرّة العيون : ووجه الدلالة بالآية أنه صلى الله عليه وسلم يعز عليه كل ما يؤثم الأمة ويشق عليهم ، وأعظم ما يؤثم الأمة ويشق عليهم الشرك بالله قليله وكثيره ووسائله وما يقرب منه من كبار الذنوب . وقد بالغ صلى الله عليه وسلم فى النهى عن الشرك وأسبابه أعظم مبالغة كما لا يخفى ، وقد كانت هذه حال أصحابه رضى الله عنهم فى قطعهم الحيوط التى رقى للمريض فيها ونحو ذلك من تعليق التمام .

حريصٌ عليكم ، بالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قوله ﴿ حريصٌ عليكم ﴾ أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم . وعن أبي ذر رضى الله عنه ^(١) قال « تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقرب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً » أخرجه الطبرانى ، قال : ^(٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بقى شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم » ، وقوله ﴿ بالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ كما قال تعالى (٢٦ : ٢١٥ - ٢١٧) واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل : إني بريء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم) وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهى قوله (فإن تولّوا) أى عما جئتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة (فقل : حَسْبِيَ اللَّهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) قلت : فاقترضت هذه الأوصاف التى وصف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق أمته أن أندرهم وحذرهم الشرك الذى هو أعظم الذنوب ، وبين لهم ذرائعهم الموصلة إليه ، وأبلغ فى نهيهم عنها ، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها والصلاة عندها وإليها ، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها ، كما تقدم ، وكما سيأتى فى أحاديث الباب .

قوله ﴿ عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داود بإسناد حسن . ورواه ثقات ﴾ ^(٣) .

(١) ساق ابن كثير سند الطبرانى إلى أى ذر .

(٢) أى قال أبو ذر : وهو من رواية الطبرانى أيضاً . وقد ذكر الحافظ ابن كثير بعد هذا الحديث من طريق الإمام أحمد عن ابن عباس حديث للملكين اللذين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه . ثم ضربا له ولأمته المثل . وروى عدة أحاديث فى هذا المعنى فى رحمة النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) فى قرّة العيون : قال الحافظ محمد بن عبد الهادى : هو حديث حسن . جيد الإسناد ، وله شواهد يرتقى بها إلى درجة الصحة . نهام صلى الله عليه وسلم أن يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها ، كما تهجر القبور عن الصلاة إليها ، مخافة الفتنة بها ، وما يفضى إلى عبادتها من دون الله ، لأن النهى عن ذلك قد تقرر عندهم ، فنهام أن يجعلوا بيوتهم كذلك .

« لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا علىّ ، فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داود بإسناد حسن ، رواه ثقات .
وعن علىّ بن الحسين : « أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر

قوله ﴿ لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ﴾ قال شيخ الإسلام : أى لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة ، فتكون بمنزلة القبور ، فأمر بتحرى العبادة فى البيوت ، ونهى عن تحريها عند القبور ، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة .
وفى الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً » وفى صحيح مسلم عن ابن عمر مرفوعاً « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ؛ فإن الشيطان يفر من البيت الذى يسمع سورة البقرة تقرأ فيه » .

قوله ﴿ ولا تجعلوا قبرى عيداً ﴾ قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : العيد : اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائداً : إما يعود السنة ، أو يعود الأسبوع ، أو الشهر ونحو ذلك .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان ، مأخوذ من المعاودة والاعتياد . فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذى يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها ، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة ، كما جعل أيام العيد فيها عيداً . وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية . فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر ، وأيام منى ، كما عوضهم من أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر .

قوله ﴿ وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم ﴾ .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : يشير بذلك إلى أن ما ينالنى منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبرى وبعدمكم ، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيداً .

قوله ﴿ لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ﴾ تقدم كلام شيخ الإسلام فى معنى الحديث قبله . اه
قوله ﴿ وعن علىّ بن الحسين رضى الله عنه « أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا تتخذوا قبرى عيداً ،

ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علىّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم « رواه في المختارة » .
هذا الحديث والذي قبله جيدان حسنا الإسنادين .

أما الأول : فرواه أبو داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع الصائغ . قال : أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة فذكره ، ورواته ثقات مشاهير ، لكن عبد الله بن نافع قال فيه أبو حاتم : ليس بالحافظ ، تعرف وتنكر . وقال ابن معين : هو ثقة . وقال أبو زرعة : لا بأس به . قال شيخ الإسلام رحمه الله : ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ ، وهذا له شواهد متعددة . وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي : هو حديث حسن جيد الإسناد ، وله شواهد يرتقى بها إلى درجة الصحة . وأما الحديث الثاني : فرواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسي في المختارة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم قرب النسب وقرب الدار ؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم ، فكانوا له أضبط ؟ اهـ

وقال سعيد بن منصور في سننه : حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال « رأيت الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم عند القبر ، فناداني ، وهو في بيت فاطمة رضى الله عنها يتعشى ، فقال : هلم إلى العشاء . نقلت : لا أريده . فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : إذا دخلت المسجد فسلم . ثم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تتخذوا قبوري عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ؛ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . ما أنتم بالأندلس إلا سواء » ^(١) .

(١) قال في قرة العيون : وهذا أيضاً له قرب النسب وقرب الدار ، فنهى عن الحجى إلى القبر للدعاء عنده . فالجىء إلى القبر للسلام عليه وتحجى إجابة الدعاء ليس بما شرعه الله ورسوله لهذه الأمة . ولو كان مشروعاً لما تركه الخلفاء والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من سادات أهل البيت وأئمة التابعين ، ولما أنكروا على من فعله ، وقولهم هو الحجة ، وهو الذى دلت عليه الأحاديث ، كحديث عائشة وحديث الباب وغيرها ، لعلم السلف بما أراه النبي صلى الله عليه وسلم بنهيه عن الغلو ، وخوفه مما وقع بمن غلا في الدين ، واتباع غير سبيل المؤمنين ، كما قال تعالى (٤: ١١٥) ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى =

النبي صلى الله عليه وسلم ، فيدخل فيها فيدعو ، قناه ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً

وقال سعيد أيضاً : حدثنا حبان بن علي ، حدثنا محمد مجلان عن أبي سعيد مولى المهري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني » .

قال شيخ الإسلام : فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث ، لاسيما وقد احتج به من أرسله . وذلك يقتضى ثبوته عنده ، هذا لو لم يُروَ من وجوه مسندة من غير هذين ، فكيف وقد تقدم مسنداً ؟ .

قوله ﴿ علي بن الحسين ﴾ أي ابن علي بن أبي طالب ، المعروف بزین العابدين رضي الله عنه ، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم . قال الزهري : مارأيت قرشياً أفضل منه . مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح . وأبوه الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وربحاته ، حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة رضي الله عنه .

قوله ﴿ أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة ﴾ بضم الفاء وسكون الراء ، وهي الكوة في الجدار والخوذة ونحوها .

قوله ﴿ فيدخل فيها فيدعو قناه ﴾ هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : ما علمت أحداً رخص فيه ؛ لأن ذلك نوع من اتخاذ عيداً ، ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهى عنه ، لأن ذلك لم بشرع ، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك ، قال « ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي صلى الله

== ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) .

ولما حدث الشرك بأرباب القبور في هذه الأمة وتعظيمها وعبادتها صارت تشد الرجال إليها لقصد دعائها . والاستغاثة بها ، وبذل نفيس المال تقرباً إليها وتعظيم سدنتها . فيألها من مصيبة ما أعظمها . نسأل الله السلامة من هذا الشرك وما يقرب منه أو يوصل إليه .

سمعتُه من أبي عن جدِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تتخذوا

عليه وسلم فيصلون ، فإذا قضاوا الصلاة فعدوا أو خرجوا ، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ،
لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكل وأفضل ، وأما دخولهم عند قبره للصلاة
والسلام عليه هناك ، أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم ، بل نهاهم عنه في قوله « لا تتخذوا
قبري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني » فيبين أن الصلاة تصل إليه من بُعد وكذلك
السلام ، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد . وكانت الحجرة في زمانهم يُدخَل إليها من
الباب ؛ إذ كانت عائشة رضی الله عنها فيها ، وبعد ذلك إلى أن بنى الحائط الآخر ، وهم
مع ذلك التمسك من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه ، لا للسلام ولا للصلاة ، ولا للدعاء
لأنفسهم ولا لغيرهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطعم فيهم حتى
يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم ، وبيّن لهم الأحاديث ، أو أنه قد ردّ
عليهم السلام . بصوت يسمع من خارج ، كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره (١)
وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر ، وأنه
يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر ، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تسكلمهم ،
وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها ، كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج .

والمقصود : أن الصحابة رضی الله عنهم لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند
قبره كما يفعله من بعدهم من الخلف ، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم
من سفر . كما كان ابن عمر يفعله . قال عبيد الله بن عمر عن نافع « كان ابن عمر إذا قدم
من سفر أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله . السلام عليك
يا أبا بكر : السلام عليك يا أبا عبد الله ثم ينصرف » قال عبيد الله « ما نعلم أحداً من أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك إلا ابن عمر » وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر
للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة ، فكان

(١) ومن ذلك الحكاية المقتناة المنسوبة إلى الشيخ أحمد الرفاعي ، وأنه طلب من النبي
صلى الله عليه وسلم مد يده ليقبلها ففعل ، وخرجت اليد قبلها . فانظر بالله كيف استطاعت
شياطين الجن والإنس أن تلعب بمقول أولئك الخبولين ، المحرومين من كل علم وعقل ودين ؟
ولا حول ولا قوة إلا بالله

قبرى عيداً ، ولا ييوتكم قبوراً ، وصلوا علىّ ، فإن تسليمكم يبلغنى أين كنتم »
رواه في المختارة.

بدعة محضة ، وفي المبسوط : قال مالك : لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم
ولسكن يسلم ويمضى . ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره .
وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لاستقبال القبر ، وتنازعا : هل يستقبله
عند السلام عليه أم لا ؟ وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره صلى الله عليه وسلم
وإلى غيره من القبور والمشاهد ؛ لأن ذلك من اتخاذها أعياداً . بل من أعظم أسباب
الإشراك بأصحابها . وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام رحمه الله - أعنى من سافر
لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين - ونقل فيها اختلاف العلماء ، فمن مبيح لذلك ، كالغزالي
وأبي محمد المقدسى . ومن مانع لذلك ، كابن بطّة وابن عقيل ، وأبي محمد الجوينى ، والقاضى
عياض . وهو قول الجمهور . نص عليه مالك ، ولم يخالفه أحد من الأئمة . وهو الصواب .
لما فى الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تُشد الرحال إلا إلى
ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » فدخل فى النهى شدّها
لزيارة القبور والمشاهد ، فإما أن يكون نهياً ، وإما أن يكون نهيّاً . وجاء فى رواية بصيغة
النهى ، فتعين أن يكون للنهى ، ولهذا فهم منه الصحابة رضى الله عنهم المنع - كما فى الموطأ
والمسند والسنن - عن بصرة بن أبي بصرة الغفارى : أنه قال لأبي هريرة - وقد أقبل من
الطور - : « لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : « لا تُعمل التّطّئُ إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى
هذا ، والمسجد الأقصى » وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة فى أخبار المدينة بإسناد
جيد عن قرعة قال « أتيت ابن عمر ، فقلت : إني أريد الطور . فقال : إنما تشد
الرحال إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى . فدع
عنك الطور ولا تأته » فابن عمر وبصرة بن أبي بصرة جملا الطور مما نهى عن شد الرحال
إليه . لأن اللفظ الذى ذكره فيه النهى عن شدّها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القرية ،
فلم أن المستثنى منه عام فى المساجد وغيرها ، وأن النهى ليس خاصاً بالمساجد ، ولهذا نهى
عن شدّها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث . والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية براءة .

الثانية : إبعاده أُمته عن هذا الحمى غاية البعد .

الثالثة : ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته .

الرابعة : نهيهِ عن زيارة قبره على وجه مخصوص ، مع أن زيارته من أفضل الأعمال .

الخامسة : نهيهِ عن الإكثار من الزيارة .

السادسة : حثه على النافلة في البيت .

السابعة : أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة .

الثامنة : تعليقه ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بُد ، فلا حاجة إلى ما توهمه من أراد القرب .

التاسعة : كونه صلى الله عليه وسلم في البرزخ تعرض أعمال أُمته في الصلاة والسلام عليه ^(١) .

البقعة . فإن الله سماه (الوادى المقدس ، والبقعة المباركة) وكلم كليمه موسى عليه السلام هناك ، وهذا هو الذى عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء ، ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيباً لابن الاخنانى ^(٢) فيما اعترض به على مادلت عليه الأحاديث الصحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى : لأن المفسدة في ذلك ظاهرة . وأما النهى عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها : أنها لا مصلحة في ذلك توجب

(١) يريد المصنف رحمه الله : أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعرض عليه من أعمالنا إلا الصلاة والسلام عليه فقط ، لا كما يظنه اللبثدون أن كل الأعمال تعرض عليه . فإن وجد خيراً حمد الله وإن وجد غير ذلك استغفر ، مستدلين على ذلك بحديث أوهى من بيت العنكبوت ، ومعرضين عن صحاح النصوص من الكتاب والسنة التي رواها البخارى ومسلم .
(٢) قاضى المالكية في عصره ، والرد عليه مطبوع بهامش الرد على البكرى ، على نفقة جلالة الملك الصالح المصلح ، الملك عبد العزيز آل سعود . رحمه الله وغفر له .

باب

﴿ ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ﴾

وقوله تعالى: (٤: ٥١) ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ

شد الرحال ؛ ولا مزية تدعو إليه . وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب « الصارم المنسكى في رده على السبكي » وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر هو وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى أنه لا يصح منها حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه ، مع أنها لا تدل على محل النزاع ؛ إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة ، وذلك لا ينسكه أحد بدون شد الرحال ؛ فيحمل على الزيارة الشرعية التي ايس فيها شرك ولا بدعة .

قوله ﴿ رواه في المختارة ﴾ المختارة : كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة .

على الصحيحين .

ومؤلفه : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي أحد الأعلام . قال الذهبي : أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين ، والورع والفضيلة التامة والإتقان . والله يرحمه ويرضى عنه .

وقال شيخ الإسلام : تصحيحه في مختاراته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب . مات سنة ثلاث وأربعين وستائة .

قوله ﴿ باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ﴾

﴿ وقول الله تعالى (٤ : ٥١) ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت

والطاغوت) ﴾ .

« الوثن » يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من القبور والمشاهد وغيرها لقول الخليل عليه السلام (٢٩ : ١٧) إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً) ومع قوله (٢٦ : ٧١) قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) وقوله (٣٧ : ٩٥) قال : أتعبدون ما تنحتون ؟) فبذلك يعلم أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله ، كما تقدم في الحديث .

قوله ﴿ يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : « جاء حيوُّ

والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً .

ابن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمد . فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء ، ونسقى الماء على اللبن ، ونفك العناة ، ونسقى الحجيج ، ومحمد صنبور ، قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحجيج من غفار . فنعن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلاً ، فأنزل الله تعالى (ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً)^(١) . وفي مسند أحمد عن ابن عباس نحوه .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان » وكذلك قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم . وعن ابن عباس وعكرمة وأبي مالك « الجبت الشيطان - زاد ابن عباس : بالحبشية » وعن ابن عباس أيضاً : « الجبت الشرك » وعنه « الجبت الأصنام » وعنه « الجبت : حبي بن أخطب » وعن الشعبي « الجبت الكاهن » وعن مجاهد « الجبت كعب بن الأشرف » قال الجوهري « الجبت : كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر » ونحو ذلك^(٢) .

قال المصنف رحمه الله تعالى : « وفيه : معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضوع هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقة أصحابها ، مع بغضها ومعرفة بطلانها ؟ » .

(١) قال الحافظ ابن كثير : وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وجماعة من السلف . وقال الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال « لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنبور المنبر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية ؟ قال أنتم خير . قال : فنزلت فيهم (إن شئتكم هو الأبر) ونزل (ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب - الآية) » . و « الكوماء » : الناقة العظيمة السنم لسنمها . و « العناة » جمع « غان » وهو الأسير . و « الصنبور » : الأبر الذي لاقب له . وأصله سفة تنبت في جذع النخلة لاقى الأرض ، وقيل : هي النخلة المنفردة التي دق أسفلها . أرادوا : أنه إذا قلع اتطمع ذكره كما يذهب الصنبور ، لأنه لاقب له .

(٢) زاد ابن كثير عن الجوهري : وفي الحديث « الطيرة والعيافة والطرق من الجبت » قال ابن كثير : رواه الإمام أحمد عن قبيصة بن مخارق .

وقوله تعالى: (٥ : ٦٠ قل : هل أنبئكم بشرًا من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) .

قوله ﴿ وقوله تعالى (٥ : ٦٠ قل : هل أنبئكم بشرًا من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) ﴾ .

يقول تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا ؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله (من لعنه الله) أى أبعده من رحمته (وغضب عليه) أى غضباً لا يرضى بعده أبداً (وجعل منهم القردة والخنازير) وقد قال الثوري عن علقمة بن مرثد عن المغيرة عن عبد الله اليشكري عن المعرور بن سويد : أن ابن مسعود رضى الله عنه قال « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير : أهي مما مسخ الله ؟ فقال : إن الله لم يهلك قوماً - أو قال لم يمسح قوماً - فجعل لهم نسلاً ولا عقباً ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » رواه مسلم ^(١) .

قال البغوي في تفسيره (قل) يا محمد (هل أنبئكم) أخبركم (بشرًا من ذلك) الذى ذكرتم ، يعنى قولهم : لم ير أهل دين أقل حظاً فى الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شراً من دينكم . فذكر الجواب بلفظ الابتداء وإن لم يكن الابتداء شراً ، لقوله تعالى (٢٢ : ٧٢ قل : أفأنبئكم بشرًا من ذلكم ؟ النار) .

وقوله ﴿ مثوبة ﴾ ثواباً وجزاء ، نصب على التفسير ﴿ عند الله ﴾ ، من لعنه الله ﴿ أى هو من لعنه الله ﴾ وغضب عليه ﴿ يعنى اليهود ﴾ (وجعل منهم القردة والخنازير) فالقردة أصحاب السبت ، والخنازير كفار مائدة عيسى . وعن على بن أبى طلحة عن ابن عباس « أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت ، فشبابهم مسخوا قردة ، وشيوخهم مسخوا خنازير » .

﴿ وعبد الطاغوت ﴾ أى وجعل منهم من عبد الطاغوت ، أى أطاع الشيطان فيما سؤل له ، وقرأ ابن مسعود ^(٢) (عبدوا الطاغوت) وقرأ حمزة : « عبد » بضم الباء ، و « الطاغوت »

(١) رواه مسلم فى كتاب القدر فى باب بيان أن الآجال والأرزاق لا تزيد ولا تنقص من وجهين ، أولهما : عن أبى بكر بن أبى شيبة ، وأبى كريب عن مسعر . وهذا هو الذى فيه « ولا عقبا » والثانى : عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلى وحجاج بن الشاعر ، واللفظ لحجاج : وليس فيه « ولا عقبا » .

(٢) فى البغوى : وصدقها قراءة ابن مسعود .

بجر التاء^(١) أراد العبد . وهما لغتان : عبْد بسكون الباء ، وعبُد بضمها ، مثل سَمِعَ وَسَمِعَ^(٢) وقرأ الحسن « وعبد الطاغوت » على الواحد^(٣) .

وفي تفسير الطبرسي : قرأ حمزة وحده « وعبُد الطاغوتِ » بضم الباء وجر التاء ، والباقون « وعبُد الطاغوتِ » بنصب الباء وفتح التاء . وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعي والأعمش وأبان بن تغلب « وعبُد الطاغوتِ » بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء ، قال : وحجة حمزة في قراءته « وعبُد الطاغوتِ » أنه يحمله على ما عمل فيه « جعل » كأنه : وجعل منهم عبد الطاغوت ومعنى « (جعل) » « خلق » كقوله (وجعل الظلمات والنور) وليس « عبد » لفظ جمع ؛ لأنه ليس من أبنية الجموع شيء على هذا البناء ، ولكنه واحد يراد به الكثرة ، ألا ترى أن في الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه لفظ لأفراد ومعناه الجمع ، كما في قوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ولأن بناء فَعُل يراد به المبالغة والكثرة نحو يَقُظَ ودَنُسُ ؛ وكأن تقديره : أنه ذهب في عبادة الطاغوت كل مذهب .

وأما من فتح فقال (وعبُد الطاغوتِ) فإنه عطفه على بناء المضى الذي في الصلاة ، وهو قوله (لعنة الله) وأفرد الضمير في « عبد » وإن كان المعنى فيه الكثرة ؛ لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه ، وفاعله ضمير « من » كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير « من » فأفرد لجل ذلك جميعاً على اللفظ وأما قوله (عبد الطاغوتِ) فهو جمع عبِد^(٤) .

وقال أحمد بن يحيى : عبُد جمع عابد ؛ كبازل وبُزل ، وشارف وشُرف ، وكذلك عبد جمع عابد . ومثله عباد وعبَاد . اهـ

وقال شيخ الإسلام في قوله (وعبد الطاغوتِ) الضواب : أنه معطوف على ما قبله من الأفعال ، أي من لعنه وغضب عليه ، ومن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت . قال : والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم الله ، مظهراً أو مضمراً . وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت . وهو الضمير في « عبد » ولم يعد سبحانه « من » لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود .

(١) فيكون على الإضافة ، على أن المعنى : وجعل منهم خدم الطاغوت ، أي خدامه وعبيده

(٢) في تفسير البغوي . وقيل : هو جمع العباد . وقرأ الحسن الخ .

(٣) آخر النقل عن البغوي .

(٤) قال ابن كثير : على أنه جمع الجمع . عبد وعبيد وعبد ، مثل ثمار وثمر .

وقوله تعالى ﴿ ١٨ : ٢١ ﴾ قال الذين غلبوا على أمرهم : لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿١﴾
عن أبي سعيد رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لتتبعنَّ
سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جُحْرَ صَبَّ لدخلتموه .

قوله ﴿ أولئك شر مكاناً ﴾ مما تظنون بنا ﴿ وأضل عن سواء السبيل ﴾ وهذا من باب
استعمال أفل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر له مشارك كقوله تعالى (٢٥ : ٢٤) أصحاب
الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) قاله العماد ابن كثير فى تفسيره ، وهو ظاهر .

قوله ﴿ وقول الله تعالى (١٨ : ٢١) قال الذين غلبوا على أمرهم : لنتخذن عليهم مسجداً ﴾
والمراد أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يذم فاعله ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لمن
الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » أراد تحذير أمته أن
يفعلوا كفعالهم .

قوله ﴿ عن أبي سعيد رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لتتبعن سنن
من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحْر صب لدخلتموه . قالوا يا رسول الله :
اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ أخرجاه » وهذا سياق مسلم .

قوله ﴿ سنن ﴾ بفتح المهملة أى طريق من كان قبلكم . قال المهلب : الفتح أولى .
قوله ﴿ حذو القذة بالقذة ﴾ بنصب « حذو » على المصدر . والقذة - بضم القاف - واحدة
القذذ وهو ريش السهم . أى لتتبعن طريقهم فى كل مافعلوه ، وتشبهوهم فى ذلك كما تشبه
قذة السهم القذة الأخرى . وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة . وقد وقع كما أخبر ، وهو
علم من أعلام النبوة .

قوله ﴿ حتى لو دخلوا جحْر صب لدخلتموه ﴾ وفى حديث آخر « حتى لو كان فيهم من
يأتى أمته علانية لكان فى أمتى من يفعل ذلك » أراد صلى الله عليه وسلم أن أمته لا تدع
شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئاً . ولهذا قال سفيان بن عيينة :
من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى اه .
قلت : فأكثر الفريقين ، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة
لا تجتمع على ضلالة كما فى حديث ثوبان الآتى قريباً .

قالوا : يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ « أخرجاه .
ولسلم عن ثوبان رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله
زَوَى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها . وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها

قوله ﴿ قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ ﴾ هو برفع « اليهود » خبر مبتدأ
محدوف ، أى أم اليهود والنصارى الذين تتبع سننهم ؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره : تعنى
قوله ﴿ قال : فمن ؟ ﴾ استفهام إنكارى . أى فمن هم غير أولئك ؟ .

قوله ﴿ ولسلم عن ثوبان رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله
زَوَى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها .
وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض . وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة
بعامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وإن ربى قال :
يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة .
وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها
تى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً ﴾ ورواه البرقانى فى صحيحه وزاد
« وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين . وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة .
ولا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد فقام من أمتى الأوثان .
وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين لانبى بعدى
ولا تزال طائفة من أمتى على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى
أمر الله تبارك وتعالى » ﴿ .

هذا الحديث رواه أبو داود فى سننه وابن ماجه بالزيادة التى ذكرها المصنف .
قوله ﴿ عن ثوبان ﴾ هو مولى النبى صلى الله عليه وسلم صحبه . ولازمه ونزل بعده
الشام . ومات بجمص سنة أربع وخمسين .

قوله ﴿ زوى لى الأرض ﴾ قال التوربشتى : زويت الشيء جمته وقبضته ، يريد
تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب . وحاصله : أنه طوى له الأرض
وجعلها مجموعة كهيئة كف فى مرآة ينظره . قال الطيبي : أى جمعها لى حتى أبصرت ما تملكه
أمتى من أقصى المشارق والمغارب منها .

قوله ﴿ وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ﴾ قال القرطبي : هذا الخبر وجد مخبره

وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض . وإنى سألتُ ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنةِ بعامة ، وأن لا يسَلِّطَ عليهم عدوًّا من سِوَى أنفسهم ، فيستبيحَ يَبْتَضِعُهُمْ . وإن ربى قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاءً فإنه لا يردُّ . وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةِ عامة . وأن لا أسلِّطَ عليهم عدوًّا من سِوَى أنفسهم

كما قال ، وكان ذلك من دلائل نبوته ؛ وذلك أن مُلك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طَنْجَةَ - بالنون والجيم - الذى هو منتهى عمارة المغرب ، إلى أقصى المشرق مما هو وراء خراسان والنهر ، وكثير من بلاد السند والهند والصفد ، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال . ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أُرِيه ولا أخبر أن مُلك أمته يبلغه .

قوله ﴿ زوى لى منها ﴾ يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل ، وأن يكون مبنياً للمفعول .

قوله ﴿ وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض ﴾ قال القرطبي : يعنى به كنز كسرى ، وهو مُلك الفرس ، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورها وبلادها . وقد قال صلى الله عليه وسلم « الذى نفسى بيده لتنفقن كنوزها فى سبيل الله » وعبر بالأحمر عن كنز قيصر ؛ لأن الغالب عندهم كان الذهب ، وبالأبيض عن كنز كسرى ؛ لأن الغالب عندهم كان الجواهر والفضة . ووجد ذلك فى خلافة عمر . فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان فى بيوت أمواله ، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها ، وكذلك فعل الله بقيصر . « والأبيض والأحمر » منصوبان على البدل .

قوله ﴿ وإنى سألتُ ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة بعامة ﴾ هكذا ثبت فى أصل المصنف رحمه الله « بعامة » بالباء ، وهى رواية صحيحة فى صحيح مسلم وفى بعضها بحذفها . قال القرطبي : وكأنها زائدة لأن « عامة » صفة السنة ، والسنة : الجذب الذى يكون به الهلاك العام ، ويسمى الجذب والقحط : سنة . ويجمع على سنين ، كما قال تعالى (٧ : ١٣٠) ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) أى الجذب المتوالى .

قوله ﴿ من سِوَى أنفسهم ﴾ أى من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً ، وسبى بعضهم بعضاً ، كما هو مبسوط فى التاريخ فيما قبل ، وفى زماننا هذا . نسأل الله العفو والعافية .

فَيَسْتَبِيحُ بِيضَتِهِمْ . وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَاقِطَارِهَا ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ
بَعْضًا ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا » وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ .

قوله ﴿ فَيَسْتَبِيحُ بِيضَتِهِمْ ﴾ قال الجوهري : بِيضَةٌ كُلُّ شَيْءٍ حَوْزَتِهِ . وَبِيضَةُ الْقَوْمِ
سَاحَتُهُمْ ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ مَعْنَى الْحَدِيثِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَسْلُطُ الْعَدُوَّ عَلَى كَافَّةِ الْمُسْلِمِينَ
حَتَّى يَسْتَبِيحَ جَمِيعَ مَا حَازُوهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَرْضِ ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَاقِطَارِ الْأَرْضِ وَهِيَ
جَوَانِبُهَا . وَقِيلَ : بِيضَتُهُمْ مَعْظَمُهُمْ وَجَمَاعَتُهُمْ ، وَإِنْ قَالُوا .

قوله ﴿ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴾ وَالظَّاهِرُ أَنَّ « حَتَّى »
عَاطِفَةٌ ، أَوْ تَكُونُ لَاتِهَاءِ الْغَايَةِ ، أَيْ إِنْ أَمَرَ الْأُمَّةُ إِلَى أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا .
وَقَدْ سَلَطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ ، وَذَلِكَ لِكثْرَةِ اخْتِلَافِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ .

قوله ﴿ وَإِنْ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ : إِذَا قَضَيْتَ قَضَاءَ فَإِنَّهُ لَا يَبْرُدُ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : أَيْ إِذَا
حَكَمْتَ حَكْمًا مَبْرَمًا نَافِذًا فَإِنَّهُ لَا يَبْرُدُ شَيْءٌ ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَدِّهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « وَلَا رَادَ لِمَا قَضَيْتَ » .

قوله ﴿ وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ ﴾ هُوَ الْحَافِظُ الْكَبِيرُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ
ابن غالب الخوارزمي الشافعي . ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، ومات سنة خمس وعشرين
وأربعمائة . قال الخطيب : كان نبتاً ورعاً ، ولم تر في شيوخنا أثبت منه ، عارفاً بالفقه . كثير
التصانيف . صنف مسنداً ضمنه ما اشتمل عليه الصحيحان ، وجمع حديث الثوري
وحديث شعبة وطائفة .

وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه بسنده إلى أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان
رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنْ اللَّهُ - أَوْ قَالَ : إِنْ رَبِّي - زَوَى
لِي الْأَرْضَ فَأَرَيْتَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنْ مَلَكَ أُمَّتِي سَبِيلُغَ مَا زَوَى لِي مِنْهَا ،
وَأَعْطَيْتَ الْكَنْزِينَ : الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ
عَامَةٌ ^(١) وَلَا يَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدَاؤُ مَنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحُ بِيضَتِهِمْ ، وَإِنْ رَبِّي قَالَ لِي :

(١) الذي في سنن أبي داود (ج ٤ ص ١٥) مع شرح عون المعبود - وهي طبعة هندية
مصححة بدقة « بسنة بعامه » وقال في عون المعبود : وفي رواية مسلم « بسنة عامة »
في باب الفتن .

وزاد « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين .

يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، ولا أهلكهم بسنة عامة ، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها - أو قال : بأقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وحتى يكون بعضهم يسبي بعضاً ، وإيما أخاف على أمتي الأئمة المضلين . وإذا وُضع السيف في أمتي لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تمبد قبائل من أمتي الأوثان . وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدى ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق - قال ابن عيسى : ظاهرين ، ثم اتفقا - لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى »^(١) .

وروى أبو داود أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « تدور رَحَى الإسلام لخمس وثلاثين ، أو ست وثلاثين ، أو سبع وثلاثين ، فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يَمُتْ لهم دينهم يَمُت سبعين عاماً ، قال : قلت : أئمتنا بقي أو مما مضى ؟ قال : بما مضى »^(٢) .

وروى في سننه أيضاً عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يتقارب الزمان وينقص العلم ، وتظهر الفتن ، ويلقى الشُّعْخُ ، ويكثر الهرجُ ؛ قيل : يارسول الله أية هو ؟ قال : القتل القتل » .

قوله ﴿ وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ﴾ أى الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم^(٣) ، كما قال تعالى (٣٣ : ٦٧) وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه : من كان له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له ، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب ، ونحو هذا . وهذا

(١) قال في عون المعبود : إسناد صحيح .

(٢) في الحافظ أبو الحجاج يوسف المزى في كتاب الأطراف : وأخرجه البخارى في الصحيح في الأدب وفي الفتن ، ومسلم في القدر ، وأبو داود في التتمين .

(٣) في قرة العيون : كما قال تعالى (٦ : ١١٩) وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين) وقال (٣٧ : ٧١) ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وأمثال هذه الآيات كثير ، وعن زياد بن حدير قال : قال لى عمر : « هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين » رواه الدارمى .

هو الضلال البعيد ، يدعو أحبابه إلى أن يعبدوه من دون الله ، ويسألوه مالا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم ، وتفريج كرباتهم ، وقد قال تعالى (٢٢ : ١٢ ، ١٣ يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير) وقال تعالى (٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) وقال تعالى (٢٩ : ١٧ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) وأمثال هذا في القرآن كثير ، يبين الله تعالى به الهدى من الضلال .

ومن هذا الضرب : مَنْ يدعى أنه يصل مع الله إلى حال تسقط فيها عنه التكليف ، ويدعى أن الأولياء يدعون ويستغاث بهم في حياتهم ومماتهم ، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة ، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ ، ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم ، ويجوز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين ، وإيقادها بالسرّج ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله ، فما أكثر هذا الهذيان والكفر والحادة لله ولكتابه ورسوله .

وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْمُضِلِّينَ ﴾ أتى بإنما التي قد تأتي للحصر بياناً لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال ، وما وقع في خلد النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقع نظير ما في الحديث قبله من قوله « لتتبعن سنن من كان قبلكم - الحديث » .

وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين » رواه أبو داود الطيالسي . وعن ثوبان رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْمُضِلِّينَ » رواه الدارمي . وقد بين الله تعالى في كتابه صراطه المستقيم الذي هو سبيل المؤمنين ، فكل من أحدث حدثاً ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو ملعون وحدته مردود ، كما قال صلى الله عليه وسلم « من أحدث حدثاً ، أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً » وقال « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » وقال « كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » وهذه

وإذا وقع عليهم السيف لم يُرَفَع إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يَأْحَقَ
حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ .

أحاديث صحيحة . ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها . وقد بين الله
تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز ، كما قال تعالى (٧ : ٣) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ
مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَذَكَّرُونَ) وقال تعالى (٤٥ : ١٨) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ
عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ونظائرها في القرآن كثير .
وعن زياد بن حدير قال : قال لي عمر رضى الله عنه « هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟
قلت : لا ، قال : يهدمه زلة العالم ، وجدال المناق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين »
رواه الدارمي .

وقال يزيد بن عمير : كان « معاذ بن جبل رضى الله عنه لا يجلس مجلساً للذكر إلا
ويقول : الله حكم قسط ، هلك المرتابون - وفيه : فاحذروا زيفة الحكيم ، فإن الشيطان
قد يقول الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المناق كلمة الحق . قلت لمعاذ : وما يدري
رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، والمناق قد يقول كلمة الحق ؟ فقال :
اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال : ماهذه ؟ ولا يثنيك ذلك عنه . فإنه لعله
أن يراجع الحق وتلق الحق إذا سمعته ؛ فإن على الحق نوراً » رواه أبو داود وغيره .
قوله ﴿ وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ﴾ وكذلك وقع . فإن السيف
لما وقع بقتل عثمان رضى الله عنه لم يرفع ، وكذلك يكون إلى يوم القيامة ، ولكن قد
يكثر تارة ويقل أخرى ، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى ^(١) .

قوله ﴿ ولا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتي بالمشركين ﴾ « الحى » واحد
الأحياء وهى القبائل : وفى رواية أبى داود « حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين » والمعنى :
يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام ، ويلحقون بأهل الشرك .

قوله ﴿ وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان ﴾ « الفئام » بكسر الفاء مهموز : الجماعات

(١) قال فى قرّة العيون : وفيه ماهو حق ، كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله ،
وجهادهم على تركهم الشرك . وقد من الله بذلك على من أقامهم فى آخر هذا الزمان بالدعوة
إلى توحيده ، بسكن أهل الشرك بدأوم بالقتال ، وأظهرهم الله عليهم ، كما لا يخفى على من تدبر
آيات هذا الدين فى هذه الأزمنة . اهـ

الكثيرة ، قاله أبو السعادات .

وفي رواية أبي داود « وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان » .

وهذا هو شاهد الترجمة ، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان . وذلك لجعلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد^(١) . فالتوحيد هو أعظم مطلوب ، والشرك هو أعظم الذنوب .

وفي معنى هذا الحديث : مافي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً « لاتقوم الساعة حتى تضطرب أليآت نساء دؤس على ذى الخلصة . قال : وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية » وروى ابن حبان عن معمر قال : إن عليه الآن بيتاً مبنياً معلقاً .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في قصة هدم اللات ، لما أسلمت ثقيف : فيه أنه لايجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطلها يوماً واحداً ، وكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور ، والتي اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله ، والأحجار التي تقصد للتبرك والنذر لايجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة ، أو أعظم شركاً عندها وبها . فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ، وسلكوا سبيلهم حدوا القذة بالقذة ، وغلب الشرك على أكثر النفوس ، لظهور الجهل

(١) في قررة العمون : وقد استحكت الفتنة بعبادة الأوثان حتى إنه لايعرف أحد في هذه القرون المتأخرة أنكر ما وقع من ذلك حتى أقام الله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى الذي أنكره ونهى عنه . ودعا الناس إلى تركه وإلى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له في ألوهيته وأسمائه وصفاته . فرماه الملوك وأتباعهم عن قوس العداوة . فأظهره الله بالحجة ، وأعز أنصاره على من ناوأم . وبلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها ، ولكن من الناس من عرف ومنهم من أنكر . وانتفع بدعوته الكثير من أهل نجد والحجاز وعمان وغيرها . فله الحمد على هذه النعمة العظيمة جعلنا الله لها شاكرين .

قال أبو طاهر - غفر الله لهما - وإنما أظهره الله بتوفيق آل سعود للانضواء تحت راية التوحيد الذي دعا إليه الشيخ ابن عبد الوهاب ، فكان لحديدهم مع بينات الشيخ هذا الأثر في ظهور كلمة التوحيد وقيام دولة مرهوبة الجانب لأهل التوحيد تصديقاً لقول الله تعالى : (٥٧ : ٢٥) وأزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) والله نسأل أن يديم توفيقهم ويوفق ملوك المسلمين لمثل ماوقفهم له .

وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي .

وخفاء العلم ، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، وطمست الأعلام ، واشتدت غربة الإسلام ، وقلّ العلماء ، وغلب السفهاء ، وتفاقم الأمر ، واشتد البأس ، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ولكن لا تزال طائفة من العصابة الحمذية بالحق قائمين ، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . اهـ ملخصاً .

قلت : فإذا كان هذا في القرن السابع وقبله ، فما بعده أعظم فساداً كما هو الواقع .
قوله ﴿ وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي ﴾ قال القرطبي : وقد جاء عددهم معيناً في حديث حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون ، منهم أربع نسوة » أخرجه أبو نعيم . وقال : هذا حديث غريب . انتهى .

وحديث ثوبان أصح من هذا .

قال القاضي عياض : عدّ من تنبأ من زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالة . فوجد هذا العدد فيهم ، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ^(١) عرف صحة هذا .

وقال الحافظ : وقد ظهر مصداق ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج مسيلة الكذاب باليمامة ، والأسود العنسي باليمن ، وفي خلافة أبي بكر : طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة وسجاج في بني تميم ، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقتل مسيلة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، قتله وحشى قاتل حمزة يوم أحد ، وشاركه في قتل مسيلة يوم اليمامة رجل من الأنصار ، وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه . ونقل أن سجاج تاب أيضاً . ثم خرج المختار ابن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير . وأظهر محبة أهل البيت

(١) للسيد صديق حسن خان كتاب الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة . عد فيه أولئك الدجالين إلى زمنه ، وعد منهم الدجال الإفرنجي الحبيث غلام أحمد القادياني الهندي قبحه الله وأخزاه ، ومن اتبعه على كفره ، فإنه ما قام بفتنته وادعى المهديوية ثم النبوة إلا بإيعاز ومساعدة دولة نصرانية ، سياستها التفريق للجماعات المسلمين .

وأنا خاتم النبيين . لا نبيَّ بعدى . ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورّة ،
لا يضرُّهم من خذلهم

ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين ، فتبعمهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك ، وأعان عليه .
فأحبه الناس ، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه . ومنهم الحرث الكذاب ،
خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل . وخرج في خلافة بني العباس جماعة .

وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً . فإنهم لا يحصون كثرة لسكون غالبهم
تنشأ دعوته عن جنون أو سوداء . وإنما المراد من قامت له شوكة وبدا له شبهة كمن وصفنا .
وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقى منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر
قوله ﴿ وأنا خاتم النبيين ﴾ قال الحسن : اننا تم : الذى ختم به يعنى أنه آخر النبيين ،
كما قال تعالى (٣٣ : ٤٠ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)
وإنما ينزل عيسى ابن مريم فى آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصلياً إلى
قبلته . فهو كأحد أمته ، بل هو أفضل هذه الأمة . قال النبي صلى الله عليه وسلم « والذى
نفسى بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً . فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ،
وليضعن الجزية » .

قوله ﴿ ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورّة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ﴾
قال يزيد بن هرون ، وأحمد بن حنبل « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم ؟ »
قال ابن المبارك وعلى بن المديني ، وأحمد بن سنان ، والبخارى وغيرهم « إنهم أهل
الحديث » وعن ابن المديني ، رواية « هم العرب » واستدل برواية من روى ، هم أهل
العرب . وفسر العرب بالدلو العظيمة ؛ لأن العرب هم الذين يستقون بها .

قال النووي : يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع
وبصير بالحرب ، وفقية ومحدث ومفسر ، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
وزاهد وعابد ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد ، بل يجوز اجتماعهم فى قطر واحد ،
واقترانهم فى أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا فى البلد الواحد وأن يكونوا فى بعض دون
بعض منه ، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً فأولاً ، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة
ببلد واحد ، فإذا انقرضوا جاء أمر الله . اهـ ملخصاً مع زيادة فيه . قاله الحافظ .

حتى يأتي أمرُ الله ، تبارك وتعالى .

فيه مسائل : الأولى : تفسير آية النساء .

الثانية : تفسير آية المائدة .

الثالثة : تفسير آية الكهف .

الرابعة - وهي أهمها - : ما معنى الإيمان بالجِبْتِ والطاغوتِ : هل هو

اعتقاد قلب ، أو هو موافقةُ أصحابها مع بُغضها ومعرفة بطلانها ؟ .

الخامسة : قولهم : إن الكفار الذين يعرفون كُفْرَهم أهدى سبيلاً من المؤمنين

السادسة : - وهي المقصودة بالترجمة - أنَّ هذا لا بدَّ أن يوجد في هذه

الأمة ، كما تقرر في حديث أبي سعيد .

السابعة : التصريح بوقوعها ، أعنى عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة .

الثامنة : العجبُ العجيب : خروج مَنْ يدعى النبوة ، مثل المختار ، مع تكلمه

بالشهادتين ، وتصريحه بأنه من هذه الأمة ، وأنَّ الرسولَ حقٌّ ، وأنَّ القرآنَ

قال القرطبي : وفيه دليل على أن الإجماع حجة ، لأن الأمة إذا اجتمعت فقد دخل

فيهم الطائفة المنصورة^(١) .

قال المصنف رحمه الله ﴿ وفيه الآية العظيمة : أنهم مع قتلهم لا يضرهم من خذلهم

ولا من خالفهم . وفيه البشارة بأن الحق لا يزول بالسكينة ﴾ .

قلت : واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع مادامت هذه الطائفة

موجودة .

قوله ﴿ حتى يأتي أمر الله ﴾ الظاهر أن المراد به ما روى من قبض مَنْ بقى من المؤمنين

بالريح الطيبة ، ووقوع الآيات العظام ، ثم لا يبقى إلا شرار الناس ، كما روى الحاكم : أن

عبد الله بن عمرو قال « لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شر أهل الجاهلية » فقال

(١) المراد من الإجماع : إجماع كل من يمتد به من هذه الأمة في جميع أقطار الأرض

ومعرفة ذلك غير متيسرة إلا فيما هو معلوم بالضرورة كالصلوات والصيام ونحوه ، ولذلك يروى

عن الشافعي وأحمد : من ادعى الإجماع بعد الصحابة فقد أخطأ .

حقّ، وفيه : أن محمداً خاتم النبيين ، ومع هذا يُصدّق في هذا كله مع التضادّ الواضح . وقد خرج المختارُ في آخر عصر الصحابة ، وتبعه فِتْنَامٌ كثيرة .

التاسعة : البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية ، كما زال فيما مضى ، بل لا تزالُ عليه طائفة .

العاشرة : الآية العظمى : أنهم مع قلتهم لا يضرهم مَنْ خَذَلَهُمْ ولا من خالفهم .
الحادية عشرة : أنّ ذلك الشرطَ إلى قيام الساعة .
الثانية عشرة : ما فيهن من الآيات العظيمة .

عُقبه بن عامر لعبد الله : « اعلم ماتقول ، وأما أنا فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » قال عبد الله « ويبعث الله رجلاً ربحها المسك ، ومسها مس الحرير فلا تترك أحداً في قلبه متقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس ، فعليهم تقوم الساعة » وفي صحيح مسلم « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله » .

وعلى هذا : فالمراد بقوله في حديث عقبه وما أشبهه « حتى تأتيهم الساعة » ساعتهم . وهي وقت موتهم بهبوب الريح . ذكره الحافظ .

وقد اختلف في محل هذه الطائفة ، فقال ابن بطلال : إنها تكون في بيت المقدس ، كما رواه الطبراني من حديث أبي أمامة « قيل يا رسول الله ، أين هم ؟ قال : بيت المقدس » وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه « هم بالشام » وفي كلام الطبري ما يدل على أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائماً ، بل قد تكون في موضع آخر في بعض الأزمنة .

قلت : ويشهد له الواقع وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس ، فإنهم من أزمنة طويلة لا يعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه ، وأصحابه في القرن السابع وأول الثامن ، فإنهم كانوا في زمانهم على الحق يدعون إليه ، وينظرون عليه ، ويجاهدون فيه . وقد يجيء من أمثالهم بعد الشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة . والله على كل شيء قدير .

منها : إخباره بأن الله زَوَى له المشرقَ والمغرب ، وأخبر بمعنى ذلك ،
فوقع كما أخبر ، بخلاف الجنوب والشمال .
وإخباره بأنه أعطى الكافرين .
وإخباره بإجابة دعوته لأُمَّته في الاثنتين .
وإخباره بأنه مُنِعَ الثالثة .
وإخباره بوقوع السيف ، وأنه لا يُرْفَع إذا وقع .

ومما يؤيد هذا : أن أهل الحق والسنة في زمن الأئمة الأربعة ، وتوافر العلماء في ذلك
الزمان وقبلة وبعده لم يكونوا في محل واحد ، بل هم في غالب الأمصار : في الشام منهم
الأئمة ، وفي الحجاز ، وفي مصر وفي العراق واليمن ، وكلهم على الحق يناضلون ،
ويجاهدون أهل البدع ، ولهم المصنفات التي صارت أعلاماً لأهل السنة ، وحجة على
كل مبتدع .

فعلى هذا : فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تتفرق ، وقد تكون في الشام ، وقد تكون
في غيره . فإن حديث أبي أمامة ، وقول معاذ ، لا يفيد حصرها بالشام ، وإنما يفيد أنها
تكون في الشام في بعض الأزمان لا في كلها .

وكل جملة من هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، فإن كل ما أخبر به النبي صلى الله
عليه وسلم في هذا الحديث وقع كما أخبر صلى الله عليه وسلم .
وقوله ﴿ تبارك وتعالى ﴾ قال ابن القيم رحمه الله : البركة نوعان .

أحدهما : بركة هي قَعْلَةٌ ، والفعل منها بارك ، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة « على »
تارة ، وبأداة « في » تارة ، والمفعول منها مبارك . وهو ما جعل منها كذلك ، فكان مباركا
بجعله تعالى .

والنوع الثاني : بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة ؛ والفعل منها تبارك ، ولهذا
لا يقال لغيره ذلك ، ولا يصلح إلا له عز وجل ، فهو سبحانه المتبارك ، وعبدته ورسوله
المبارك ، كما قال المسيح عليه السلام (١٩ : ٣١) وجعلني مباركا أينما كنت) فمن يبارك الله
فيه وعليه فهو المبارك .

وإخباره بظهور المنتهين في هذه الأمة .

وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة .

وكل هذا وقع كما أخبر ، مع أن كل واحدة منها من أبعاد ما يكون في العقول .

الثالثة عشرة : حَصْرُ الخوف على أمتة من الأئمة المضلين .

الرابعة عشرة : التنبيه على معنى عبادة الأوثان .

باب

﴿ ما جاء في السحر ﴾

وأما صفة تبارك فمختصة به ، كما أطلقه على نفسه في قوله (٧ : ٥٤) تبارك الله رب العالمين) ، (٦٧ : ١) تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به ، لاتطلق على غيره ؟ وجاء على بناء السعة والمبالغة ، كتمالى وتعاضم ونحوه ، فجاء بناء « تبارك » على بناء « تعالى » الذى هو دال على كمال العلو ونهايته ، فكذلك « تبارك » دال على كمال بركته وعظمته وسعتها . وهذا معنى قول من قال من السلف « تبارك » تعاضم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما « جاء بكل بركة » .

قوله ﴿ باب ما جاء في السحر ﴾ أى والسكهاة .

السحر فى اللغة : عبارة عما خفى ولطف سببه ، ولهذا جاء فى الحديث « إن من البيان

لسحراً » ^(١) وسمى السحر سحراً لأنه يقع خفياً آخر الليل .

قال أبو محمد المقدسى فى السكافى : السحر عزائم ورئى وعقد يؤثر فى القلوب والأبدان ،

فيمرض ويقتل ، ويفرق بين المرء وزوجه قال الله تعالى (٢ : ١٠٣) فيتعلمون منهما ما يفرقون

به بين المرء وزوجه) وقال سبحانه (ومن شر النفاثات فى العقد) يعنى السواحر اللاتى يعقدن

فى سحرهن وينفقن فى عقدهن . ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه .

وعن عائشة رضى الله عنها « أن النبى صلى الله وسلم سحر حتى إنه ليخيل إليه

(١) رواه مالك وأحمد والبخارى وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

وقول الله تعالى : ﴿ ٢ : ١٠٢ ﴾ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ﴿ وقوله : (٤ : ٥١ يؤمنون بالجبت والطاغوت) .

أنه يفعل الشيء وما يفعله ، وأنه قال لها ذات يوم : أتاني ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ، فقال : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم في مشط ومِشاطة ، وفي جَف طلعة ذكر في بئر ذَرَوَان « رواه البخاري .

قال ﴿ وقول الله تعالى (٢ : ١٠٢ ﴾ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ﴿ قال ابن عباس « من نصيب » قال قتادة : وقد علم أهل الكتاب فيما عهد إليهم : أن الساحر لا خلاق له في الآخرة ، وقال الحسن : ليس له دين .

فدلت الآية على تحريم السحر ، وكذلك هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام ، كما قال تعالى (٢٠ : ٦٩ ولا يُفْلح الساحر حيث أتى) وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه . وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعلم شيئاً من السحر قليلاً كان أو كثيراً كان آخر عهده من الله » وهذا مرسل .

واختلفوا : هل يكفر الساحر أو لا ؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر ، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله . قال أصحابه : إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقى شيء يضر فلا يكفر .

وقال الشافعي : إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر ، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد بإباحته كفر . هـ .

وقد سماه الله كفرةً بقوله : (٢ : ١٠٢ ﴾ إنما نحن فتنة فلا تكفر) وقوله : (٢ : ١٠٢ ﴾ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) قال ابن عباس في قوله (إنما نحن فتنة فلا تكفر) وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان ؛ فعرفا أن السحر من الكفر .

قال ﴿ وقوله تعالى (٤ : ٥١ يؤمنون بالجبت والطاغوت) ﴿ تقدم الكلام عليهما في الباب قبله . وفيه أن السحر من الجبت . قاله المصنف رحمه الله .

قال عمر : الجبْتُ : السحر ، والطاغوت : الشيطان .

وقال جابر : « الطواغيت : كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حى واحد » .

قوله ﴿ قال عمر رضى الله عنه : الجبت : السحر . والطاغوت : الشيطان ﴾ هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم وغيره .

قوله ﴿ وقال جابر : الطواغيت : كهان كان ينزل عليهم الشيطان ، في كل حى واحد ﴾ هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه مطولا عن وهب بن منبه قال : سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها ؛ فقال : إن في جهنمة واحداً . وفى أسلم واحداً ، وفى هلال واحداً ، وفى كل حى واحداً ، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين ﴿ (١) .

قوله ﴿ قال جابر ﴾ هو ابن عبد الله بن حرام الأنصارى (٢) .

قوله ﴿ الطواغيت : كهان ﴾ أراد أن الكهان من الطواغيت ، فهو من أفراد المعنى . قوله ﴿ كان ينزل عليهم الشيطان ﴾ أراد الجنس لا الشيطان الذى هو إبليس خاصة ، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقون من السمع ، فيصدقون مرة ويكذبون مائة .

قوله ﴿ فى كل حى واحد ﴾ الحى واحد الأحياء ، وهم القبائل ، أى فى كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب ، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فأبطل الله ذلك بالإسلام ، وحرست السماء بكثرة الشهب .

(١) الذى يستخلص من كلام السلف رضى الله عنهم : أن الطاغوت كل ما صرف العبد وصدته عن عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله . سواء فى ذلك الشيطان من الجن والشيطان من الإنس ، والأشجار والأحجار وغيرها . ويدخل فى ذلك بلا شك : الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به فى الدماء والفروج والأموال ، وليبطل بها شرائع الله ، من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك ، مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذها . والقوانين نفسها طواغيت ، وواضعوها ومروجوها طواغيت . وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشري ليصرف عن الحق الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم إما قصداً أو عن غير قصد من واضعه . فهو طاغوت .

(٢) توفى جابر سنة ٧٤ ، وقيل : سنة ٧٧ ، وكان عمره أربعاً وتسعين سنة .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ ، قالوا : يارسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ،

قوله ﴿ وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجتنبوا
السبع الموبقات ، قالوا : يارسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي
حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف
المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾ .

كذا أورده المصنف غير معزو ، وقد رواه البخارى ومسلم .
قوله ﴿ اجتنبوا ﴾ أى أبعدوا ، وهو أبلغ من قوله : دعوا واتركوا ؛ لأن النهى عن
القربان أبلغ ، كقوله (٦ : ١٥١) ولا تقربوا القواش ماظهر منها وما بطن) .
قوله ﴿ الموبقات ﴾ بموحدة وقاف : أى المهلكات . وسميت هذه موبقات لأنها
تهلك فاعلمها فى الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات ، وفى الآخرة من العذاب .
وفى حديث ابن عمر عند البخارى فى الأدب المفرد والطبرى فى التفسير ، وعبد الرزاق
مرفوعاً وموقوفاً قال « الكبائر تسع - وذكر السبعة المذكورة - وزاد : والإلحاد فى الحرم ،
وعقوق الوالدين » ولابن أبى حاتم عن على قال « الكبائر - فذكر السبع - إلا مال اليتيم .
وزاد : العقوق ، والتعرب بعد الهجرة ، وفراق الجماعة ، ونكث الصفة » .

قال الحافظ : ويحتاج عندى هذا الجواب عن الحكمة فى الاقتصار على سبع .
ويجب : بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو ضعيف ، أو بأنه أعلم أولاً بالمدكورات .
ثم أعلم بما زاد ، فيجب الأخذ بالزائد ، أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل .
وقد أخرج الطبرانى وإسماعيل القاضى عن ابن عباس أنه قيل له : « الكبائر سبع » قال :
« هن أكثر من سبع وسبع » وفى رواية « هى إلى السبعين أقرب » وفى رواية « إلى السبعائة »^(١)
قوله ﴿ قال : الشرك بالله ﴾ هو أن يجعل لله نداً يدعوه ويرجوه ويخافه كما يخاف الله ،
بدأ به لأنه أعظم ذنب عصى الله به ، كما فى الصحيحين عن ابن مسعود « سألت النبي
صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك - الحديث »

(١) قد ألفت الحافظ عبد الرحمن بن رجب رحمه الله كتاباً فى عد الكبائر . طبع .
ولشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : كتاب مسائل الجاهلية ، هو كذلك فى
عد الكبائر .

والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق .

وأخرج الترمذى بسنده عن صفوان بن عَسَّال قال « قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي ، فقال له صاحبه : لا تقتل نبي ، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن تسع آيات بينات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تولّوا للفرار يوم الزحف ، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدّوا في السبت . فقَبِلَا يديه ورجليه . وقالوا : نشهد أنك نبي - الحديث » وقال : حسن صحيح .

قوله ﴿ السحر ﴾ تقدم معناه . وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة .

وقوله ﴿ وقتل النفس التي حرم الله ﴾ أى حرم قتلها . وهى نفس المسلم المعصوم .

قوله ﴿ إلا بالحق ﴾ أى بأن تفعل ما يوجب قتلها ، كالشرك ، والنفس بالنفس ، والزانى بعد الإحصان ، وكذا قتل المعاهد ، كما فى الحديث « من قتل معاهداً لم يرح راحة الجنة » .

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمناً متعمداً ، وهل له توبة أم لا ؟ فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له ، استدلالاً بقوله تعالى (٤ : ٩٣) ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها) وقال ابن عباس « نزلت هذه الآية وهى آخر ما نزل ، وما نسخها شيء » وفى رواية « لقد نزلت فى آخر ما نزل ، وما نسخها شيء حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وما نزل وحى » وروى فى ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء ، كما عند الإمام أحمد والنسائى وابن المنذر عن معاوية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل ذنب عسى الله أن يفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً »

وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله ، فإن تاب وأناب وعمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، كما قال تعالى (٢٥ : ٦٨-٧١) والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً)

قوله ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾ قال أبو هريرة وغيره « هذا جزاؤه إن جازاه »

وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولّى يوم الزحف ، وقذف المحصنات
الغافلات المؤمنات .

وعن جندب مرفوعاً : « حدّ الساحر : ضربُه بالسيف » رواه الترمذى ،
وقال : الصحيح أنه موقوف .

وقد روى عن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور ، فروى عبد بن حميد والنحاس عن
سعيد بن عباد : أن ابن عباس رضى الله عنهما كان يقول « لمن قتل مؤمناً توبة »
وكذلك ابن عمر رضى الله عنهما . وروى مرفوعاً « أن جزاءه جهنم إن جزاه » .

قوله ﴿ وأكل الربا ﴾ أى تناوله بأى وجه كان ، كما قال تعالى (٢ : ٢٧٥ - ٢٨٠)
الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس - الآيات)
قال ابن دقيق العيد : وهو مجرب لسوء الخاتمة . نعوذ بالله من ذلك .

قوله ﴿ وأكل مال اليتيم ﴾ يعنى التمدى فيه . وهو بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع ،
كما قال تعالى (٤ : ١٠) إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم
ناراً وسيصلون سعيراً) .

قوله ﴿ والتولّى يوم الزحف ﴾ أى الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال ، وإنما
يكون كبيرة إذا فرّ إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال . كما قيد به فى الآية (١) .

قوله ﴿ وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾ وهو بفتح الصاد : المحفوظات من
الزنا ، وبكسرهما الحافظات فروجهن منه ، والمراد الحرائر العفيفات ، والمراد رميهن بزنا
أو لواط ، والغافلات : أى عن الفواحش وما رمين به ، فهو كناية عن البريئات ؛ لأن
الغافل يرى . عما بهت به . والمؤمنات : أى بالله تعالى احترازاً من قذف الكافرات .

قوله ﴿ وعن جندب مرفوعاً « حدّ الساحر : ضربُه بالسيف » رواه الترمذى ، وقال :
الصحيح أنه موقوف ﴾ .

قوله ﴿ عن جندب ﴾ ظاهر صنيع الطبرانى فى الكبير : أنه جندب بن عبد الله البجلي .
لاجندب الخير الأزدى قاتل الساحر ، فإنه رواه فى ترجمة جندب البجلي من طريق خالد
العبد عن الحسن عن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وخالد العبد ضعيف . قال

(١) فى سورة الأنفال (٨ : ١٥ ، ١٦) يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم
الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله

وفي صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة قال : « كتب عمر بن الخطاب :
أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال : فقتلنا ثلاث سواحر » .
وصح عن حفصة رضى الله عنها « أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها ، فقتلت »

الحافظ : والصواب أنه غيره ، وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن
الحسن عن جندب الخير « أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات ، وقال : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - فذكره » وجندب الخير : هو جندب بن كعب ،
وقيل : جندب بن زهير . وقيل : هما واحد ، كما قال ابن حبان : أبو عبد الله الأزدي
الغامدي صحابي ، روى ابن السكن من حديث بريدة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
« يضرب ضربة واحدة فيكون أمة واحدة » .

قوله ﴿ حد الساحر : ضربة بالسيف ﴾ وروى بالهاء وبالتاء ، وكلاهما صحيح .
وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة . فقالوا : يقتل الساحر . وروى ذلك
عن عمر ، وعثمان ، وابن عمر ، وحفصة ، وجندب بن عبد الله ، وجندب بن كعب ،
وقيس بن سعد ، وعمر بن عبد العزيز ، ولم ير الشافعي القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل
في سحره ما يبلغ الكفر . وبه قال ابن المنذر ، وهو رواية عن أحمد . والأول أولى
للحديث ولأثر عمر ، وعمل به الناس في خلافته من غير تكبير .

قوله ﴿ وفي صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب : أن
اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر ﴾ .

هذا الأثر رواه البخارى كما قال المصنف رحمه الله ، لكن لم يذكر قتل السواحر .
قوله ﴿ عن بجالة ﴾ بفتح الموحدة بعدها جيم : ابن عبدة - بفتحين - التميمي العنبري ،
بصرى ثقة .

قوله ﴿ كتب إلينا عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ﴾ وظاهره أنه يقتل
من غير استتابة . وهو كذلك على المشهور عن أحمد ، وبه قال مالك ، لأن علم السحر لا يزول
بالتوبة . وعن أحمد يستتاب ، فإن تاب قبلت توبته ، وبه قال الشافعي ، لأن ذنبه لا يزيد
عن الشرك ، والمشرك يستتاب وتقبل توبته . ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم .
قوله ﴿ وصح عن حفصة رضى الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت ﴾
هذا الأثر رواه مالك في الموطأ .

وكذلك صح عن جندب .

قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة .

الثانية : تفسير آية النساء .

الثالثة : تفسير الجبت والطاغوت ، والفرق بينهما .

الرابعة : أن الطاغوت قد يكون من الجن ، وقد يكون من الإنس .

الخامسة : معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي .

السادسة : أن الساحر يكفر .

وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب ، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعد خنيس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين .

قوله ﴿ وكذلك صح عن جندب ﴾ أشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر ، كما رواه البخارى فى تاريخه عن أبى عثمان النهدي قال « كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه فعبجنا ، فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدي فقتله » .

ورواه البيهقي فى الدلائل مطولاً . وفيه « فأمر به الوليد فسجن » فذكر القصة بتامها . ولها طرق كثيرة .

قوله « قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » أحمد هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل^(١) .

قوله ﴿ عن ثلاثة ﴾ أى صح قتل الساحر عن ثلاثة ، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، يعنى : عمر ، وحفصة ، وجندباً . والله أعلم .

(١) الإمام الجليل ، ناصر السنة وقامع البدعة ، الصابر المحتسب فى الله ولله على مالتى فى نصر دين الله ، العلم الحافظ للحجة . ولد سنة ١٦٤ ومات سنة ٢٤١ ، قال الشافعى رحمه الله : خرجت من بغداد وماخلفت فيها أوقفه ولا أروع ولا أزهد من أحمد بن حنبل . رحمه الله عليه

السابعة : أنه يُقتل ولا يستتاب .

الثامنة : وجود هذا في المسلمين على عهد عمر ، فكيف بعده ؟

باب

﴿ بيان شيء من أنواع السحر ﴾

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء ، حدثنا

قَطَن بن قبيصة عن أبيه : أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال :

قوله ﴿ باب بيان شيء من أنواع السحر ﴾

قلت : ذكر الشارح رحمه الله تعالى ههنا شيئاً من الخوارق وكرامات الأولياء ، وذكر ما اغتر به كثير من الناس من الأحوال الشيطانية التي غرت كثيراً من العوام والجهال ، وظنوا أنها تدل على ولاية من جرت على يديه من هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ثم قال : ولشيخ الإسلام كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» فراجعه ، انتهى . قال رحمه الله تعالى ﴿ قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء ، حدثنا قَطَن بن قبيصة عن أبيه : أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن العياقة ، والطرق ، والطيرة من الجبّيت » قال عوف : العياقة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط في الأرض ، والجبّيت : قال الحسن « رنة الشيطان » إسناده جيد : ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه : المسند منه .

قوله ﴿ قال أحمد ﴾ هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل .

ومحمد بن جعفر : هو المشهور بقنْدَر الهذلي البصرى ، ثقة مشهور . مات سنة ست ومائتين . وعوف : هو ابن أبي جميلة - بفتح الجيم - العبدي البصرى ، المعروف بعوف الأعرابي ، ثقة . مات سنة ست - أو سبع - وأربعين ، وله ست وثمانون سنة .

وحيان بن العلاء : هو بالتحتيّة ، ويقال : حيان بن مخارق أبو العلاء البصرى ، مقبول وقَطَن - بفتحتيّن - : أبو سهل البصرى ، صدوق .

قوله ﴿ عن أبيه ﴾ هو قبيصة - بفتح أوله - ابن مخارق - بضم الميم - أبو عبد الله

الهلالى صحابي نزل البصرة .

« إن العيافة والطَّرْق والطَّيرَة من الجبت » .

قال عوف : العيافة : زَجْر الطير . والطرق : الخط يخط بالأرض ^(١) .
والجبت : قال الحسن « رنة الشيطان » إسناده جيد .

قوله ﴿ إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت ﴾ قال عوف : العيافة : زجر الطير ،
والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها ، وهو من عادات العرب ، وكثير في أشعارهم . يقال :
عاف يعيف : عيفاً إذا زجر وحدهس وظن .

قوله ﴿ والطرق : الخط يخط بالأرض ﴾ كذا فسره عوف ، وهو كذلك .
وقال أبو السعادات : هو الضرب بالحصى الذى يفعله النساء . وأما الطيرة : فيأتى
الكلام عليها في بابها إن شاء الله تعالى .

قوله ﴿ من الجبت ﴾ أى : السحر ، قال القاضى : والجبت فى الأصل : الفشل الذى
لا خير فيه ، ثم استعير لما يعبد من دون الله ، وللساحر والسحر .

قوله ﴿ قال الحسن : رنة الشيطان ﴾ قلت : ذكر إبراهيم بن محمد بن مفلح : أن فى
تفسير بَقِيَّ بن مَحَلَّد « أن إبليس رنّ أربع رنات : رنة حين لُمن ، ورنة حين أهبط ،
ورنة حين ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب » .

قال سعيد بن جبیر : « لما لعن الله تعالى إبليس ، تغيرت صورته عن صورة الملائكة ،
ورنّ رنة ، فكل رنة منها فى الدنيا إلى يوم القيامة » رواه ابن أبى حاتم .

وعن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال « لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ،
رنّ إبليس رنةً اجتمعت إليه جنوده » رواه الحافظ الضياء فى المختارة .

الرنين : الصوت . وقد رن برن رنيناً . وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله تعالى .

(١) هو ما يسمونه خط الرمل وعلمه ، وهو ذائع بين أهل العصر ، ولبعضهم فيه
تأليف وقد يتعيش به كثير من المتكهنين يغرون به البله والجهلة ، زاعمين أنهم يظلمون على
الغييات وهم كاذبون ؛ فإن هذا العلم بل الجهل لا يقصد به إلا خداع الناس وأكل أموالهم
بالباطل ، وقد بحث فى قواعده فوجده - كما ذكرت لك - رجماً بالغيب وهو من الجبت كما
فى الحديث . فيجب على المؤمنين بالله الكفر به . ومثله ما يعمونه علم قراءة الكف ، وقراءة
الفنجان ، ومناجاة حب البن ونحوه ، كل ذلك دجل وسحر واستمتاع كل من شياطين الجن
والإنس ببعضهم . نسأل الله العافية للمسلمين من هذه الأمراض الفتاكة .

ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه : المسند منه .
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من اقتبس شُعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » .
رواه أبو داود ، وإسناده صحيح .

قوله ﴿ ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه : المسند منه ﴾ ولم يذكر التفسير
الذي فسره به عرف . وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن .
قوله ﴿ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من
اقتبس شُعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » رواه أبو داود بإسناد
صحيح ﴾ وكذا صححه النووي والذهبي ، ورواه أحمد وابن ماجه .

قوله ﴿ من اقتبس ﴾ قال أبو السعادات : قبست العلم واقتبسته إذا علمته ^(١) . اه
قوله ﴿ شعبة ﴾ أي طائفة من علم النجوم . والشعبة الطائفة ، ومنه الحديث « الحياء
شعبة من الإيمان » أي جزء منه .

قوله ﴿ فقد اقتبس شعبة من السحر ﴾ المحرم تعلمه .
قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : فقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن علم
النجوم من السحر ، وقال تعالى (٢٠ : ٦٩ ولا يفلق الساحر حيث أتى) .

قوله ﴿ زاد ما زاد ﴾ أي كلما زاد من تعلم علم النجوم ، زاد في الإنم الحاصل بزيادة
الاقتباس ^(٢) من شعبه ، فإن ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل ، كما أن تأثير

(١) أصله مأخوذ من القبس ، وهو القليل من النار ليستدفئ به ، قال موسى (لأهله :
امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) .

(٢) الوعيد لمن يتعلم منه ما يؤدي إلى الكفر كادعاء علم الغيب كما في كتيب ينسب إلى
أبي مشر وهو شائع بين السحرة الذين يتسمون بأسماء إسلامية يعرفون به النساء وضعفة
العقول . وقد تمدن الشياطين وإخوانهم من سحرة هذا الزمان في البلاد للتمدنة . فاخترعوا
أسماء للسحر جديدة وصوراً كذلك ، مثل اسم التنويم المغناطيسى . ومناجاة الأرواح
واستحضارها بأنواع من الحيل والتعازيم للتمدنة أيضاً .

وللنسائي من حديث أبي هريرة رضى الله عنه « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر . ومن سحر فقد أشرك .

السحر باطل^(١) .

قوله ﴿ وللنسائي من حديث أبي هريرة رضى الله عنه « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر . ومن سحر فقد أشرك . ومن تعلق شيئاً وكل إليه » ﴾ هذا حديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي . وقد رواه النسائي مرفوعاً ، وحسنه ابن مفلح .

قوله ﴿ وللنسائي ﴾ هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب السنن وغيرها . روى عن محمد بن المنثري وابن بشار وقتيبة وخلق . وكان إليه المنتهى في العلم بعلل الحديث . مات سنة ثلاث وثلاثمائة ، وله ثمان وثمانون سنة رحمه الله تعالى .

قوله ﴿ من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ﴾ إعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة ، حتى ينقصد ما يريدون من السحر ، قال الله تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) يعنى السواحر اللاتي يفتلن ذلك ، والنفث هو النفخ مع الريق ، وهو دون التفل ، والنفث فعل الساحر ، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذى يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقدة نفخاً معه ريق ، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممزج للشر والأذى مقارن للريق الممزج لذلك ، وقد يتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه بإذن الله الكونى القدرى لا الشرعى ، قاله ابن القيم رحمه الله تعالى .
قوله ﴿ ومن سحر فقد أشرك ﴾ نص في أن الساحر مشرك ، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاها الحافظ عن بعضهم .

(١) علم النجوم علمان : علم يعرف به سيرها ومدارها ومنازلها وأبعادها وأحجامها . وهذا علم الفلك لا بأس بتعلمه والعمل به ، وعلم يُعرف بالعلم الروحاني ، يزعمون أنه معرفة روحانية النجوم والكواكب وتأثيرها في الأرض ومن عليها بالأمراض والحروب والضيقة والسعة والموت والحياة ، والسعادة والشقاوة بين الزوجين إذا عقد قرانهما عند اقتران كذا من النجوم والكواكب بكذا . ولهم في ذلك ما يسمونه بالطالع ، ويعملون جدولا بالحوادث التي ستحدث في العام كله من حوادث عامة وخاصة . وهذا هو الدجل والكذب . وهو نوع من السحر واستخدام الشياطين والقول على الله بلا علم

ومن تملق شيئاً وكل إليه .

وعن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا هل أنبئكم ما العَضَه ؟ هي النَمِيمَة : القالة بين الناس » رواه مسلم .

قوله ﴿ ومن تملق شيئاً وكل إليه ﴾ أى من تعلق قلبه شيئاً ، بحيث يعتمد عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشيء ^(١) فمن تعلق على ربه وإلهه وسيده ومولاه رب كل شيء ومليكه ، كفاه ووقاه وحفظه وتولاه . فنعم المولى ونعم النصير . قال تعالى (٣٩ : ٣٦) أليس الله بكاف عبده ؟) ومن تعلق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلقه فهلك . ومن تأمل ذلك فى أحوال الخلق ونظر بيمين البصيرة رأى ذلك عياناً ، وهذا من جوامع الكلم . والله أعلم .

قال ﴿ وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا هل أنبئكم ما العَضَه ؟ هي النَمِيمَة ، القالة بين الناس » رواه مسلم ﴾ .

قوله ﴿ ألا هل أنبئكم ﴾ أخبركم ، و « العَضَه » بفتح المهملة وسكون المعجمة ، قال أبو السعادات : هكذا يروى فى كتب الحديث . والذى فى كتب الغريب « ألا أنبئكم ما العَضَه » بكسر العين وفتح الضاد . قال الزمخشري : أصلها « العَضِيَّة » فعلة من العَضه وهو البهت . فحذفت لامه ، كما حذفت من السنَّة والشَّفة ، وتجمع على « عضيين » ثم فسره بقوله « هي النَمِيمَة القالة بين الناس » فأطلق عليها « العَضَه » لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً . ذكره القرطبي . وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال : « يفسد المنام والكذاب فى ساعة ما لا يفسد الساحر فى سنة » . وقال أبو الخطاب فى عيون المسائل : ومن السحر السعى بالنميمة والإفساد بين الناس . قال فى الفروع : ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكسر والحيلة ، أشبه الساحر ، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر ، وينتج ما يعمله الساحر أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين . لكن يقال : الساحر إنما يكفر لو صف الساحر وهو أمر خاص ودليله خاص ، وهذا ليس بساحر . وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة . انتهى ملخصاً .

(١) ومن قصر تعلق قلبه على الله وحده كفاه كما قال تعالى (٦٥ : ٣) ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقال (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وهذا التعلق هو روح الإيمان وخلاصة التوحيد ، فمن تعلق قلبه بغير الله يرجوه فى دفع ضرر أو جلب نفع : فقد أشرك بالله أعظم الشرك .

ولهما عن ابن عمر رضی الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« إن من البيان لسحراً » .

فيه مسائل :

الأولى : أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت .

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة . وهو يدل على تحريم النيمة ، وهو مجمع عليه قال
ابن حزم رحمه الله : اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة . وفيه دليل
على أنها من الكبائر .

قوله ﴿ القالة بين الناس ﴾ قال أبو السعادات : أى كثرة القول وإيقاع الخصومة بين
الناس . ومنه الحديث « فشت القالة بين الناس » .

قال ﴿ ولهما عن ابن عمر رضی الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن من
البيان لسحراً » ﴾ البيان : البلاغة والفصاحة . قال صعصعة بن صوحان « صدق نبى الله ، فإن
الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه فيذهب
بالحق » وقال ابن عبد البر : تأولته طائفة على الظم ؛ لأن السحر مذموم ، وذهب أكثر أهل
العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح ، لأن الله تعالى مدح البيان . قال وقد قال عمر بن
عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله . قال : « هذا والله السحر الخلال »
اتمى . والأول أصح . والمراد به البيان الذى فيه تمويه على السامع وتلبيس ، كما قال بعضهم :

فى زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير

مأخوذ من قول الشاعر :

تقول : هذا مجاج النحل ، تمدحه وإن تشأ قلت : ذا قىء الزنابير

مدحاً وذمماً ، وماجاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

قوله ﴿ إن من البيان لسحراً ﴾ هذا من التشبيه البليغ ، لسكون ذلك يعمل عمل السحر ،
فيجمل الحق فى قالب الباطل ، والباطل فى قالب الحق . فيستميل به قلوب الجهال ، حتى
يقبلوا الباطل وينكروا الحق ، ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى .

وأما البيان الذى يوضح الحق ويقرره ، ويبطل الباطل ويبينه . فهذا هو المدح .
وهكذا حال الرسل وأتباعهم ، ولهذا علت مراتبهم فى الفضائل ، وعظمت حسناتهم .

الثانية : تفسير العيافة والطرق .

الثالثة : أن علم النجوم نوع من السحر .

الرابعة : العقده مع النفث من ذلك .

الخامسة : أن النيمة من ذلك .

السادسة : أن من ذلك بعض الفصاحة .

باب

﴿ ما جاء في الكهان ونحوم ﴾

و بالجملة : فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب ، وتغطية الحق وتحسين الباطل . فإذا خرج إلى هذا فهو مذموم . وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب وحديث « إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها » رواه أحمد وأبو داود .

قوله ﴿ باب ما جاء في الكهان ونحوم ﴾

الكاهن : هو الذي يأخذ عن مسترق السمع ، وكانوا قبل المبعث كثيراً . وأما بعد المبعث فإنهم قليل ؛ لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب . وأكثر ما يقع في هذه الأمة ما يخبر به الجن أولياءهم من الإنس عن الأشياء الغائبة بما يقع في الأرض من الأخبار . فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة^(١) ، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون الخبر لهم بذلك عن الجن ولياً لله . وهو من أولياء الشيطان . كما قال تعالى (٦ : ١٢٨) ويوم يحشرهم جميعاً

(١) والواقع أن ذلك من تألف روح الشيطان القرين مع روح قرينه الإنسان الحبيث فيتناجيان . ويتكلم الشيطان مع قرينه بما يجب من الأخبار التي تلقاها الشيطان عن الشيطان الآخر قرين الإنسان الآخر . وهكذا فإن لكل إنسان قريناً من الشيطان كما جاء ذلك في القرآن والسنة . فيخبر شيطان الإنس بما أوحى إليه شيطان الجن من أخبار السائل وأحواله في منزله وخصوصية نفسه مما ألقاه إليه الشيطان القرين ، فيظن الجملة والمغفلون أن ذلك عن صلاح وتقوى وكرامات ، وأنه بصلاحه قد كشف الحجاب عنه . وهذا من أضل الضلال ومن أعظم الخذلان وإن اعتقده وخدع به كثير ممن ينتسب إلى ظاهر العلم والصلاح .

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى عَرَّافًا فسأله عن شيء فصدقه ، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَتَى

بامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس . وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض . وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال : النار مثواكم خالدن فيها ، إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم) .

قوله ﴿ روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى عَرَّافًا فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً ﴾ .

قوله ﴿ عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ﴾ هى حفصة ، ذكره أبو مسعود الثقفى ، لأنه ذكر هذا الحديث فى الأطراف فى مسندها .

قوله ﴿ من أتى عرافاً ﴾ سيأتى بيان العراف إن شاء الله تعالى . وظاهر هذا الحديث : أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله ، سواء صدقه أو شك فى خبره . فإن فى بعض روايات الصحيح « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » .

قوله ﴿ لم تقبل له صلاة ﴾ إذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالسئول؟ قال النووى وغيره : معناه أنه لا ثواب له فيها ، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه ، ولا بد من هذا التأويل فى هذا الحديث ، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة . اهـ ملخصاً .

وفى الحديث : النهى عن إتيان الكاهن ونحوه . قال القرطبي : يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق وينكر عليهم أشد النكير ، وعلى من يجيء إليهم ، ولا يفتر بصدقهم فى بعض الأمور ، ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينتسب إلى العلم ، فإنهم غير راسخين فى العلم بل من الجهال بما فى إتيانهم من المحذور . قال ﴿ وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من أتى

كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .
رواه أبو داود .

وللأربعة والخاتم . وقال : صحيح على شرطهما عن ^(١) « من أتى عرافاً
أو كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » .
ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً .

كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » رواه أبو داود ﴿ .
وفي رواية أبي داود « أو أتى امرأة - قال مسدد : امرأته حائضاً - أو أتى امرأة . قال
مسدد : امرأته في دبرها - فقد برىء مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » فنقل هذا
الحديث من السنن حذف منه هذه الجملة واقتصر على ما يناسب الترجمة .

قال ﴿ وللأربعة والخاتم - وقال : صحيح على شرطهما عن ^(١) « من أتى عرافاً
أو كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » .
هكذا بيض المصنف لاسم الراوى . وقد رواه أحمد والبيهقي والخاتم عن أبي هريرة مرفوعاً .
قوله ﴿ من أتى كاهناً ﴾ قال بعضهم : لا تعارض بين هذا وبين حديث « من أتى
عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » هذا على قول من يقول : هو كفر دون
كفر ، أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين . وظاهر
الحديث : أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأى وجه كان . وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما
كانوا يأخذون عن الشياطين .

قوله ﴿ فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ﴾ قال القرطبي : المراد بالمنزل
الكتاب والسنة . اه وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر ، فلا ينقل عن الملة ،
أم يتوقف فيه ، فلا يقال : يخرج عن الملة ولا لا يخرج ؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد
رحمه الله تعالى .

قال ﴿ ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً ﴿ .

« أبو يعلى » اسمه أحمد بن علي بن المنثري الموصلى الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره .
روى عن يحيى بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق ، وكان من الأئمة

وعن عمران بن حصين رضى الله عنه مرفوعاً : « ليس منا من تطير أو تُطير له ، أو تكهن أو تُكهن له ، أو سحر ، أو سُحر له . ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » رواه البزار بإسناد جيد .

الحفاظ : مات سنة سبع وثلاثمائة . وهذا الأثر رواه البزار أيضاً ، ولفظه « من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر ؛ لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر ، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً ^(١) .

قال ﴿ وعن عمران بن حصين رضى الله عنه مرفوعاً « ليس منا من تطير أو تُطير له ، أو تكهن أو تُكهن له ، أو سحر أو سُحر له ، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » رواه البزار بإسناد جيد ، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله « ومن أتى كاهناً - إلى آخره » . قوله ﴿ ليس منا ﴾ ^(٢) فيه : وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر وتقدم أن الكهانة والسحر كفر .

قوله ﴿ من تطير ﴾ أى فعل الطيرة ﴿ أو تطير له ﴾ أى قبل قول المتطير له وتابعه وكذا معنى ﴿ أو تكهن أو تُكهن له ﴾ كالذى يأتي الكاهن ويصدقه ويتابعه ، وكذلك من عمل الساحر له السحر .

فكل من تلقى هذه الأمور عن تعاطاها فقد برىء منه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونها إما شركاً ، كالطيرة ، أو كفراً ، كالكهانة والسحر ، فمن رضى بذلك وتابع عليه فهو كالفاعل لقبوله الباطل واتباعه .

قوله ﴿ رواه البزار ﴾ هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق ، أبو بكر البزار البصرى صاحب

(١) وذلك لأن في الكتاب للنزل (إن الله عنده علم وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) وقال في سورة الأنعام (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) وقال في سورة الجن (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) فمن صدق العراف والكاهن فقد كذب بهذه الآيات ، ومن كذبها فقد كفر .

(٢) فيه : دليل على نفي الإيمان الواجب ، وهو لا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك ، وأن الكهانة كفر .

ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله « ومن أتى - إلى آخره » .

قال البغوي : العراف : الذي يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة . ونحو ذلك .

وقيل : هو الكاهن . والكاهن : هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل .
وقيل : الذي يخبر عما في الضمير .

وقال أبو العباس بن تيمية : العراف : اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق .

المسند الكبير وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق . مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

قوله ﴿ قال البغوي - إلى آخره ﴾ البغوي - بفتحين - هو الحسين بن مسعود الفراء الشافعي ، صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان . كان ثقة فقيهاً زاهداً . مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة رحمه الله تعالى .

قوله ﴿ العراف : الذي يدعى معرفة الأمور ﴾ ظاهره : أن العراف هو الذي يخبر عن الوقائع كالسرقة وسارقها ، والضالة ومكانها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : إن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ، كالحازر الذي يدعى علم الغيب ، أو يدعى الكشف .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل في اسم العراف ، وعند بعضهم هو معناه .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء ، وحكى ذلك عن العرب . وعند آخرين : هو من جنس الكاهن ، وأسوأ حالاً منه ، فيلحق به من جهة المعنى وقال الإمام أحمد : العرافة : طرّف من السحر . والساحر أخبث .

وقال أبو السعادات : العراف : المنجم ، والحازر : الذي يدعى علم الغيب ، وقد استأثر

الله تعالى به .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عانفاً ، وعرافاً . والمقصود من هذا : معرفة أن من يدعى معرفة علم شيء من المغيبات ، فهو إما داخل في

اسم الكاهن ، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به . وذلك أن إصابة الخبير ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف . ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالأقال والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ، ونحو هذا من علوم الجاهلية ، ونعني بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام ، كالفلاسفة والكهان والمنجمين ، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن هذه علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلى الله عليهم وسلم^(١) ، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرفاً أو في معناها ، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد . وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام ، فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، وادعوا أنهم أولياء ، وأن ذلك كرامة .

ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ؛ إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقى : إما بدعاء ، أو أعمال صالحة لاصنع للولى فيها ، ولا قدرة له عليها ، بخلاف من يدعى أنه ولى ويقول للناس : اعلّموا أنى أعلم المغيبات ، فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب ، وإن كانت أسباباً محرمة كاذبة في الغالب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الكهان « فيكذبون معها مائة كذبة » فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة ، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعى الولاية والعلم بما في ضمائر الناس ، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه ؛ لأن في دعواه الولاية تركية النفس المنهى عنها بقوله تعالى (٣٢:٥٣) فلا تركوا أنفسهم) وليس هذا من شأن الأولياء ، فإن شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبيهم لها، وخوفهم من ربهم ، فكيف يأتون الناس ويقولون : اعرّفوا أننا أولياء ، وأنا نعلم الغيب ؟ وفي ضمن

(١) ومعنى الجاهلية : الإعراض عن العلم للترسل من الله على رسله هدى ورحمة ، والاعتماد على التقاليد والعادات والظنون والتخرصات ، وما يوحى به الشياطين ، ويحدها قول الله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) وقد عادت الجاهلية إلى الناس اليوم مثل الجاهلية الأولى وشرأ منها ، ولا يمنع وجود القرآن والحديث لأنهم اتخذوها مهجورين ، فوجودها حجة عليهم فقط ، ولا يفرنك منهم عمائم ولحى وصور ، فما وراءها إلا جاهلية وعقلية عامية قد تكون شرأ من عقلية من يتبعون أذنان الإبل والبقر : ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وقال ابن عباس - في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم - : « ما أرى

ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور . وحسبك بحال الصحابة والتابعين رضی الله عنهم ، وهم سادات الأولياء ، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء ؟ لا والله ، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن ، كالصديق رضی الله عنه ، وكان عمر رضی الله عنه يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته ، وكان يمر بالآية في ورده من الليل فيمرض منها ليالي يعودونه ، وكان تميم الداري يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفاً من النار ثم يقوم إلى صلاته . ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى في صفاتهم في سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور^(١) فالتصنفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء ، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب ، بل مجرد دعاواه علم الغيب كفر . فكيف يكون المدعى لذلك ولياً لله ؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العاوم عن المشركين ، ولبسوا بها على خفافيش القلوب . نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة .

قوله ﴿ وقال ابن عباس - في قوم يكتبون أبا جاد - إلى آخره ﴾ هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً . وإسناده ضعيف . ولفظه « رَبُّ مُعَلَّمٌ حُرُوفِ أَبِي جَادٍ دَارِسٍ فِي

(١) قوله تعالى (١٣ : ١٩ ، ٢٠) إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا يتقصون الميثاق - الآيات إلى ٢٤) وقوله (١٣ : ٢٨ ، ٢٩) الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) وقوله (٢٢ : ٥٧) إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون - الآيات إلى ٦١) وقوله (٢٥ : ٦٣) وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً - الآيات إلى ٧٦) وقوله (٥١ : ١٥) إن المتقين في جنات وعيون - الآيات إلى ١٩) وقوله (٥٢ : ١٧) إن المتقين في جنات ونعم - الآيات إلى ٢٨)

هذا وفي القرآن الكريم صفات للمؤمنين كثير جداً ، بل أكثر آي القرآن في وصف الإيمان وأهله ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومن أدل الدلائل على أن الجهل ضرب على القلوب نطاقاً كثيفاً أن يمتد الناس هذه الدرجة الرفيعة لبلاد الرحمن في قوم يبولون على ثيابهم وهم في غاية القدر والوسخ ، ولا يركعون لله ركعة ، وقد سلبوا كل نعمة إلا الحيوانية ، وربما تكلم الشيطان على ألسنتهم بالكلمة يفنن بها أولئك الجاهلين . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ .

فيه مسائل :

الأولى : لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن .

الثانية : التصريح بأنه كفر .

الثالثة : ذكر من تُكْفَنُ له .

الرابعة : ذكر من تُطِيرُ له .

الخامسة : ذكر من سحر له .

السادسة : ذكر من تعلم أبا جاد .

السابعة : ذكر الفرق بين الكاهن والعراف .

باب

﴿ ما جاء في النشرة ﴾

النجوم . ليس له عند الله خلاق يوم القيامة » ورواه حميد بن زَنْجُوْبِه عنه بلفظ « رَبُّ ناظِرٌ فِي النُّجُومِ وَمَتَعَلَّمَ حُرُوفَ أَبِي جَادَ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَلْقٌ » .

قوله ﴿ ما أرى ﴾ يجوز فتح الهمزة بمعنى : لا أعلم . ويجوز ضمها بمعنى : لا أظن . وكتابة « أبي جاد » وتعلمها لمن يدعى بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحرف^(١) ، وهو الذي جاء فيه الوعيد ، فأما تعلمها للتهجى وحساب الجمل فلا بأس به .

قوله ﴿ وينظرون في النجوم ﴾ أى ويمتقدون أن لها تأثيراً كما سيأتى في باب التنجيم . وفيه من الفوائد : عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى (٤٠ : ٨٣) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون .

قوله ﴿ باب ما جاء في النشرة ﴾

بضم النون ، كما في القاموس . قال أبو السعادات : النشرة : ضرب من العلاج والرقية ،

(١) وينسبه الدجالون للشركون إلى جعفر الصادق ، ولهم في ذلك كلام كثير في منتهى الكفر ، والظاهر : أنه من وضع الرافضة الذين استجابوا لسلفهم اليهود ، فأعملوا في هدم الإسلام كل معول .

عن جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة ؟ فقال :
هي من عمل الشيطان » رواه أحمد بسند جيد ، وأبو داود ، وقال : سئل أحمد
عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله .

وفي البخارى عن قتادة « قلت لابن المسيب :

يعالج به من يظن أن به مساً من الجن ، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء ،
أى : يكشف وي زال .

قال الحسن : النشرة من السحر . وقد نشرت عنه تنشيراً ، ومنه الحديث « فعلل ظباً
أصابه ، ثم نشره بقل أعوذ برب الناس » أى : رقاها .

وقال ابن الجوزى : النشرة : حل السحر عن المسحور . ولا يكاد يقدر عليه إلا من
يعرف السحر .

قوله ﴿ عن جابر رضى الله عنهما ﴾ « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة ؟
فقال : هي من الشيطان » رواه أحمد بسند جيد ، وأبو داود ، وقال : سئل أحمد عنها ،
فقال ابن مسعود : يكره هذا كله » .

هذا الحديث رواه أحمد ، ورواه عنه أبو داود فى سننه ، والفضل بن زياد فى كتاب
المسائل عن عبد الرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن جابر ، فذكره . قال ابن مفلح :
إسناد جيد وحسن الحافظ إسناده .

قوله ﴿ سئل عن النشرة ﴾ والألف واللام فى « النشرة » لامهد أى النشرة المعهودة
التي كان أهل الجاهلية يصنعونها هى من عمل الشيطان .

قوله ﴿ وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله ﴾ أراد أحمد رحمه الله
أن ابن مسعود يكره النشرة التي هى من عمل الشيطان كما يكره تعليق التأمم مطلقاً .

قوله ﴿ وللبخارى عن قتادة : قلت لابن المسيب « رجل به طبٌّ أو يؤخذُ عن امرأته
أيجلُّ عنه ، أو يُنشر؟ قال : لا بأس به : إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم يُنه عنه » ﴾ .

قوله ﴿ عن قتادة ﴾ هو ابن دعامة - بكسر الدال - الدوسى ثقة فقيه من أحفظ
التابعين . قالوا : إنه ولد أكمه . مات سنة بضع عشرة ومائة .

رجل به طِب أو يؤخذ عن امرأته ، أَيْحَلَّ عنه أو يُنْشَر؟ قال : لا بأْس به ، إنما يريدون به الإِصْلاح ، فأما ما ينفع فلم يَنْفَع عنه « اهـ .

وروى عن الحسن أنه قال « لا يَحِلُّ السَّحْرُ إِلا سَاحِرًا » .

قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهى نوعان .
أحدهما : حل بسحر مثله ، وهو الذى من عمل الشيطان . وعليه يُحْمَل قول

قوله ﴿ رجل به طب ﴾ بكسر الطاء . أى : سحر ، يقال : طَبَّ الرجل - بالضم - إذا سحر . ويقال : كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً . كما يقال للدبغ : سليم .
وقال ابن الأنبارى : الطب من الأضداد . يقال لعلاج الداء : طب ، والسحر من الداء يقال له : طب .

قوله ﴿ يؤخذ ﴾ بفتح الواو مهموزة وتشدِيد الخاء المعجمة وبمدها ذال معجمة ، أى يجبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأخذ - بضم الهمزة - الكلام الذى يقوله الساحر .
قوله ﴿ أَيْحَلَّ ﴾ بضم الياء وفتح الحاء مبنى للمفعول .
قوله ﴿ أو ينشر ﴾ بتشدِيد المعجمة .

قوله « لا بأْس به » يعنى : أن النشرة لا بأْس بها ؛ لأنهم يريدون بها الإِصْلاح ، أى إزالة السحر ، ولم يَنْفَعه عما يراد به الإِصْلاح ، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر .

قوله ﴿ وروى عن الحسن أنه قال : لا يحل السحر إلا ساحر ﴾ هذا الأثر ذكره ابن الجوزى فى جامع المسانيد .

والحسن : هو ابن أبى الحسن ، واسمه : يسار - بالتحية والمهمله - البصرى الأنصارى مولاهم . ثقة فقيه ، إمام من خيار التابعين مات سنة عشر ومائة رحمه الله ، وقد قارب التسعين .
قوله ﴿ قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهى نوعان . حل بسحر مثله ، وهو الذى من عمل الشيطان - إلى آخره ﴾ وما جاء فى صفة النشرة الجائزة : ما رواه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبى سليم قال « بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر

الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يجب ، فيبطل عمله عن المسحور .

والثانى : النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة . فهذا جائز .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن النشرة .

الثانية : الفرق بين المنهى عنه والمرخص فيه عما يزيل الإشكال .

يأذن الله ، تقرأ فى إناء فيه ماء ، ثم يصب على رأس المسحور^(١) : الآية التى فى سورة يونس (١٠ : ٨١ ، ٨٢) فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سينطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويمحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وقوله (٧ : ١١٨ - ١٢٠) فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) إلى آخر الآيات الأربع وقولهم (٢٠ : ٦٩) إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

وقال ابن بطال فى كتاب وهب بن منبه : أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضر به بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والتوافتل ، ثم يحسونه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

قلت : قول العلامة ابن القيم « والثانى : النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة . فهذا جائز » يشير رحمه الله إلى مثل هذا ، وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء والحاصل : أن ما كان منه بالسحر فيحرم ، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فيجائز . والله أعلم .

(١) مثل هذا لا يعمل فيه برأى لىث بن سليم ولا برأى ابن القيم ولا غيرها ، وإنما يعمل بالسنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يجيء عنه صلى الله عليه وسلم شىء مما يقول ابن أبى سليم ولا ابن القيم . وما ينقل عن وهب بن منبه فعلى سنة الإسرائيليين لا على هدى خير المرسلين . ومن باب هذا التساهل دخلت البدع ، ثم الشرك الأكبر . وعلى المؤمن الناصح لنفسه : أن يعرض بالنواجذ على هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، ويتجنب المحدثات ، وإن كانت عمن يكون ، فكل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم

باب

﴿ ما جاء في التطير ﴾

وقول الله تعالى . (٧: ١٣١) ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون

قوله ﴿ باب ما جاء في التطير ﴾

أى : من النهى عنه والوعيد فيه ، مصدر تطَيَّرَ يتطَيَّر ، و « الطَّيْرَة » بكسر الطاء وفتح الياء ، وقد تسكن : اسم مصدر من تطير طَيْرَة ، كما يقال : تخير خَيْرَة ، ولم يجيء في المصادر على هذه الزنة غيرهما ، وأصله : التطير بالسوايح والبوارح من الطير والظباء وغيرها ، وكان ذلك يصددهم عن مقاصدهم ، فنفاه الشارع وأبطله ، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضرر . قال المدائني « سألت رُوْبَةَ بن العجاج قلت : ما السائح ؟ قال : ما ولاك ميامنه . قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسره . والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح ، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقميد » .

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب ، لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته^(١) ذكرها المصنف رحمه الله في كتاب التوحيد ، تحذيراً مما ينافي كمال التوحيد الواجب .

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٧: ١٣١) ألا إنما طائرهم عند الله - الآية ﴾ ذكر تعالى هذه الآية في

سياق قوله (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه - الآية) المعنى : أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة - أى الخِصْب والسعة والعافية ، كما فسره مجاهد وغيره - قالوا : لنا هذه ، أى نحن الجديرون والحقيقيون به ، ونحن أهلها وإن تصبهم سيئة - أى بلاء وقحط - تطيروا بموسى ومن معه ، فيقولون : هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم . فقال الله تعالى (ألا إنما طائرهم عند الله) قال ابن عباس « طائرهم : ما قضى

(١) وذلك بتعلق القلب بها خوفاً وطمعاً ، ومنافاتها للتوكل على الله الذى لا ينفع ولا يضر غيره ، واعتقاد النفع والضرر فى طائر ونحوه لا علم عنده ولا قصد ، وإنما تذهب وتجيء فى ضرورة معاشها وشئونها . فاعتقاد أن لهذه الحركات ذات اليمين وذات الشمال أثرًا فى جلب خير أو دفع ضرر من سخر العقول وفساد الفطر ، وتمسك الحرافات والجهل وعمى القلوب : وهذا اعتقاد المنجمين فى النجوم التى سخرها الله تعالى تجرى فى بروجها ومداراتها لمستقر لها ، اعتقدوا لها تأثيراً فى الكون ، وهو اعتقاد الصابئة الذين أرسل الله إليهم إبراهيم عليه السلام .

وقوله (٣٦ : ١٩ قالوا : طائرکم معکم اثن ذکرتم بل اتم قوم مسرفون) .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا عدوى

عليهم وقدر لهم » وفي رواية « شؤمهم عند الله ومن قبله » أي إنما جاءهم الشؤم من قبله
بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسوله .

قوله « ولا يكن أكثرهم لا يعلمون » أي أن أكثرهم جهال لا يدرون . ولو فهموا وعقلوا
لعلوا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه

قوله « وقوله تعالى (٣٦ : ١٩ قالوا : طائرکم معکم - الآية) » المعنى - والله أعلم - حظكم
وما نابكم من شر معكم ؛ بسبب أفعالكم وكفرکم ومخالفتكم الناصحين ، ليس هو من أجلنا
ولا بسببنا . بل ببيئكم وعدوانكم . فطائر الباغى الظالم معه ؛ فما وقع به من الشر فهو سببه

الجالب له . وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته ومحدله ، كما قال تعالى (٦٨ : ٣٥ ، ٣٦ أفنجعل
المسلمين كالجرمين ، مالكم كيف نمكون ؟) ويحتمل أن يكون المعنى : طائرکم معکم . أي راجع

عليكم ، فالنظير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم . وهذا من باب القصاص في الكلام .
ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم^(١) » ذكره

ابن القيم رحمه الله .

قوله تعالى « اثن ذکرتم » أي من أجل أننا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلمونا
بهذا الكلام « بل اتم قوم مسرفون » قال قتادة : اثن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ؟

ومناسبة الآيتين للترجمة : أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين . وقد ذمهم الله
تعالى به ومقتهم ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التطير وأخبر أنه شرك . كما
سيأتي في أحاديث الباب .

قال « وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا عدوى
ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » أخرجاه . زاد مسلم « ولا نوء ولا غول » .

قال أبو السعادات : « العدوى » اسم من الإعداء . كالعدوى . يقال : أعداء الداء يعديه
إعداء : إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء .

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه .

وقال غيره « لا عدوى » هو اسم من الإعداء ، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره والمنقى نفس سراية العلة أو إضافتها إلى العلة . والأول هو الظاهر .

وفي رواية لسلم : أن أبا هريرة كان يحدث بحديث لا عدوى ، ويحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يُورد مُمرضٌ على مُصحٍ » ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث « لا يورد ممرضٌ على مصحح » وأمسك عن حديث « لا عدوى » فراجعوه وقالوا : سمعناك تحدث به ، فأبى أن يعترف به . قال أبو مسلمة - الراوى عن أبي هريرة : فلا أدري أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر ؟

وقد روى حديث « لا عدوى » جماعة من الصحابة : أنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، والسائب بن يزيد ، وابن عمر ، وغيرهم ، وفي بعض روايات هذا الحديث « وفرّ من المجذوم كما تفر من الأسد » .

وقد اختلف العلماء فى ذلك . وأحسن ما قيل فيه قول البيهقي ، وتبعه ابن الصلاح ، وابن القيم ، وابن رجب ، وابن مفلح وغيرهم : أن قوله « لا عدوى » على الوجه الذى يعتقدُه أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى ، وإن هذه الأمور تعدى بطبعها . وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سبباً لحدوث ذلك ، ولهذا قال « فرّ من المجذوم كما تفر من الأسد » وقال « لا يورد ممرض على مصحح » وقال فى الطاعون « من سمع به فى أرض فلا يقدم عليه » وكل ذلك بتقدير الله تعالى . ولأحمد والترمذى عن ابن مسعود مرفوعاً « لا يمدى شيء - قالها ثلاثاً - فقال أعرابى يارسول الله إن الثَّقَبَةَ ^(١) من الجرب تكون مَشْفَرُ البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فَتَجْرَبُ كلها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن أجرب الأول ؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها » فأخبر صلى الله عليه وسلم أن ذلك كله بقضاء الله وقدره ، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان فى عافية . فكما أنه يؤمر أن لا يلقى نفسه فى الماء وفى النار ، مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر . فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم ، والقدم على بلد الطاعون . فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف ،

(١) الثقبه - بضم النون وسكون القاف والباء الموحدة - أول شيء يظهر من الجرب ، وجمعها : ثقب - بسكون القاف - لأنها تثقب الجلد أى تخرقه .

ولا طيرة .

فإنه سبحانه هو خالق الأسباب ومسبباتها . لا خالق غيره ، ولا مقدر غيره . وأما إذا قوى التوكل على الله والإيمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب ، اعتماداً على الله ، ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ؛ ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك ، لاسيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة ، وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي : « أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصة ، ثم قال : كل بسم الله ، ثقة بالله وتوكلاً عليه » وقد أخذ به الإمام أحمد . وروى ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضي الله عنهم . ونظير ذلك ما روى عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه أكل السم ، ومنه مثنى سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني على متن البحر ، قاله ابن رجب رحمه الله .

قوله ﴿ ولا طيرة ﴾ قال ابن القيم رحمه الله تعالى : يحتمل أن يكون نفيًا أو نهياً : أى لا تطيروا ، ولكن قوله في الحديث « لا عدوى ولا صفر ولا هامة » يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيتها . والنفي في هذا أبلغ من النهي ؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره ، والنهي إنما يدل على المنع منه .

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم : أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ومنا أناس يتطيرون . قال : ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم » فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو في نفسه وعقيدته ، لا في المتطير به ، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصدده لما رآه وسمعه ، فأوضح صلى الله عليه وسلم لأمته الأمر ، وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ، ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه ، ولتطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم إلى حد وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسوله ، وأنزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السموات والأرض ، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد ، فقطع صلى الله عليه وسلم علق الشرك من قلوبهم ؛ لئلا يبقى فيها علقه منها ، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار ألبتة .

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى ، واعتصم بحبله المتين ، وتوكل على الله ، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها ، وبادر خواطرها من قبل استمكانها .

ولا هامة ولا صفر « أخرجاه .

قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس ، فر طائر بصيح ، فقال رجل من القوم : خير خير ، فقال له ابن عباس : لا خير ولا شر . فبادره بالإنكار عليه ، لئلا يمتقد تأميره في الخير والشر . وخرج طاوس مع صاحب له في سفر ، فصاح غراب ، فقال الرجل : خير ، فقال طاوس : وأى خير عند هذا ؟ لا تصحبنى . اه ملخصاً .

وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة ، كقوله صلى الله عليه وسلم « الشؤم في ثلاث : في المرأة ، والدابة ، والدار » ونحو هذا .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : إخباره صلى الله عليه وسلم بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه ، وإنما غاية أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها ، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر ، وهذا كما يعطى سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير على وجهه ، ويعطى غيرها ولدًا مشؤومًا يريان الشر على وجهه ، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها ؛ فكذلك الدار والمرأة والفرس . والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس ، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة ، ويقضى بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له ، ويخلق بعضها نحوساً يتنحس بها من قاربها . وكل ذلك بقضائه وقدره ، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة . كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذذ بها من قاربها من الناس . وخلق ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس ، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس ، فكذلك في الديار والنساء والخيل . فهذا لون والطيرة الشركية لون . انتهى .

قوله ﴿ ولا هامة ﴾ بتخفيف الميم على الصحيح . قال الفراء : الهامة طير من طير الليل . كأنه يعنى البومة . قال ابن الأعرابي ، كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم ، يقول : نعتت إليّ نفسي أو أحداً من أهل داري ، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله .

قوله ﴿ ولا صفر ﴾ بفتح الفاء ، روى أبو عبيدة في غريب الحديث عن رؤبة أنه قال : هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس ، وهي أعدى من الجرب عند العرب . وعلى هذا : فالمراد بنفيه ما كانوا يمتقدونه من العدوى . وعن قال بهذا سفيان بن عيينة والإمام أحمد والبخاري وابن جرير .

زاد مسلم « ولا نَوْءٌ ، ولا غُولٌ » .
ولهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا عَدْوَى ولا طَيْرَةَ
وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة » .

وقال آخرون : المراد به شهر شفر ، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء ،
وكانوا يحلون الحرم ويحرمون صفر مكانه ، وهو قول مالك .

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عن سمعته يقول : إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر ،
ويقولون : إنه شهر مشؤوم ، فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك . قال ابن رجب : ولعل
هذا القول أشبه الأقوال ، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهى عنها ، وكذلك التشاؤم
بيوم من الأيام كيوم الأربعاء ، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة .

قوله « ولا نوء » النوء واحد الأنواء ، وسيأتي الكلام عليه في باب إن شاء الله تعالى .
قوله « ولا غول » هو بالضم اسم ، وجمعه أغوال وغيلان . وهو المراد هنا .

قال أبو السعادات : الغول واحد الغيلان ، وهو جنس من الجن والشياطين ، كانت
العرب تزعم أن الغول في الغلاة تتراءى للناس ، تتلون تلوناً في صور شتى وتقولهم : أي
تضلمهم عن الطريق وتهلكهم ، فنفاه النبي صلى الله عليه وسلم وأبطله .
فإن قيل : مامعنى النفي ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا تغولت الغيلان
فبادروا بالأذان ^(١) » ؟

أجيب عنه : بأن ذلك كان في الابتداء ، ثم دفعها الله عن عباده . أو يقال : النفي ليس
وجود الغول ، بل ما يزعمه العرب من تصرفه في نفسه ، أو يكون المعنى بقوله « لا غول »
أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه . ويشهد له الحديث الآخر « لا غول
ولسكن السعالي سحرة الجن » أي ولكن في الجن سحرة لهم تليس وتخييل . ومنه الحديث
« إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان » أي ادفعوا شرها بذكر الله . وهذا يدل على أنه لم يرد
بنفيها عدماً . ومنه حديث أبي أيوب « كان لي تمر في سهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ »
قوله « ولهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا عدوى ولا طيرة ،
ويعجبني الفأل ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة » .

(١) قال السيوطي في الجامع الصغير : رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة وهو ضعيف

قوله ﴿ ويعجبنى الفأل ﴾ قال أبو السعادات : الفأل ، مهموز فيما يسر ويسوء ، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استعملت فيما يسر . يقال : تفاعلت بكذا وتفاولت ، على التحقيق والقلب ، وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفاً ، وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أملاوا فائدة الله ، ورجوا عائذته عند كل سبب ضعيف أو قوى فهم على خير ، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر . وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء ، والتفاؤل : أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول : يا سالم ، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول : يا واجد ، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته . ومنه الحديث « قيل : يا رسول الله ، ما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة » .

قوله ﴿ قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة ﴾ بين صلى الله عليه وسلم أن الفأل يعجبه . فدل على أنه ليس من الطيرة المنهى عنها .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ليس في الإعجاب بالفأل ومحبه شيء من الشرك ، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة ، وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلامها . كما أخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه حبيب إليه من الدنيا النساء والطيب ، وكان يحب الخلاء والصل ، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم .

وبالجملة يجب كل كمال وخير وما يفضى إليهما ، والله سبحانه قد جعل في غرائز النامر الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبه ، وميل نفوسهم إليه ، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك ، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس ، وانشرح لها الصدر ، وقوى بها القلب ، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال . فأحزنها ذلك ، وأثار لها خوفاً وطيرة وانكاشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه ، فأورث لها ضرراً في الدنيا ونقصاً في الإيمان ومقارفة الشرك .

وقال الحلبي : وإنما كان صلى الله عليه وسلم يعجبه الفأل ؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق ، والتفاؤل حسن ظن به ، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال .

ولأبي داود بسند صحيح عن عُقبة بن عامر قال : « ذكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات

قوله ﴿ ولأبي داود بسند صحيح عن عُقبة بن عامر قال « ذكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » ﴾ . قوله ﴿ عن عُقبة بن عامر ﴾ هكذا وقع في نسخ التوحيد . وصوابه : عن عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما . وهو مكي اختلف في نسبه ، فقال أحد : عن عروة بن عامر القرشي ، وقال غيره : الجهني . واختلف في صحبته ، فقال الماوردي : له صحبة . وذكره ابن حبان في ثقات التابعين . وقال المزني : لا صحبة له تصح .

قوله ﴿ فقال : أحسنها الفأل ﴾ قد تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل . وروى الترمذي وصححه عن أنس رضى الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع : يا نجيح ، يراشد » وروى أبو داود عن بريدة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من شيء ، وكان إذا بعث عاملاً سألته عن اسمه ، فإذا أعجبه فرح به ، وإن كره اسمه رؤى كراهية ذلك في وجهه » وإسناده حن . وهذا فيه استعمال الفأل .

قال ابن القيم : أخبر صلى الله عليه وسلم أن الفأل من الطيرة وهو خيرها ، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها . ففصل بين الفأل والطيرة ؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد ، ونفع أحدهما ، ومضرة الآخر ، ونظير هذا : منعه من الرقى بالشرك ، وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك ، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة .

قوله ﴿ ولا ترد مسلماً ﴾ قال الطيبي : تعريض بأن الكافر بخلافه .

قوله ﴿ اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ﴾ أى لا تاتى الطيرة بالحسنات . ولا تدفع المكروهات ، بل أنت وحدك لا شريك لك الذى تاتى بالحسنات ، وتدفع السيئات ، و « الحسنات » هنا النعم ، و « السيئات » المصائب ، كقوله (٤ : ٧٨ ، ٧٩ وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من

إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك . » .

وعن ابن مسعود مرفوعاً « الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ . وما منا إلا

عندك ، قل : كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً . ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ففيه نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضرر ، وهذا هو التوحيد ، وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة ، وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً ، ويعد من اعتقدها سفياً مشركاً .

قوله ﴿ ولا حول ولا قوة إلا بك ﴾ استعانة بالله تعالى على فعل التوكل ، وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها . وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات .

و « الحول » التحول والانتقال من حال إلى حال ، و « القوة » على ذلك بالله وحده لا شريك له . ففيه التبري من الحول والقوة والمشية بدون حول الله وقوته ومشيته وهذا هو التوحيد في الربوبية ، وهو الدليل على توحيد الإلهية الذي هو أفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ، وهو توحيد القصد والإرادة ، وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله .

قوله ﴿ عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً « الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، وما منا إلا ، ولكن الله يذهب بالتوكل » رواه أبو داود والترمذي وصححه وجعل آخره من قول ابن مسعود ﴿ ورواه ابن ماجه وابن حبان . ولفظ أبي داود « الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ . ثلاثاً » وهذا صريح في تحريم الطيرة ، وأنها من الشرك ؛ لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى .

قال ابن حمدان : تكره الطيرة ، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد .

قال ابن مفلح : والأولى القطع بتحريمها لأنها شرك ، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهية الاصطلاحية ؟ .

قال في شرح السنن : وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضرراً إذا عملوا بموجبها ، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى .

قوله ﴿ وما منا إلا ﴾ قال أبو القاسم الأصبهاني ، والمنذرى : في الحديث إضمار ، التقدير : وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك . هـ .

ولكن الله يذهب بالتوكل» رواه أبو داود والترمذي وصححه . وجعل آخره من قول ابن مسعود .

ولأحمد من حديث ابن عمرو : « مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ .
قالوا : فما كفارة ذلك ؟

وقال الخليلي : حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة . وهذا من أدب الكلام .
قوله ﴿ ولكن الله يذهب بالتوكل ﴾ أى لكن لما توكلنا على الله فى جلب النفع ودفع الضر أذهب الله عنا بتوكلنا عليه وحده .
قوله ﴿ وجعل آخره من قول ابن مسعود ﴾ قال ابن القيم : وهو من الصواب ؛ فإن الطيرة نوع من الشرك .

قال ﴿ ولأحمد من حديث ابن عمرو « مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ . قالوا :
فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك ﴾
هذا الحديث رواه أحمد والطبرانى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وفى إسناده ابن لهيعة^(١) وبقية رجاله ثقات .

قوله ﴿ من حديث ابن عمرو ﴾ وهو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمى أبو محمد . وقيل : أبو عبد الرحمن . أحد السابقين المكثرين من الصحابة ، وأحد العبادة الفقهاء . مات فى ذى الحجة ليلالى الحرة - على الأصح - بالطائف^(٢) .

قوله ﴿ من ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك ﴾ وذلك أن الطيرة هى التشاؤم بالشئ المرئى أو المسموع ، فإذا رده شئ من ذلك عن حاجته التى عزم عليها كإرادة السفر ونحوه ، فنعمه عما أراد وسمى فيه مارأى وماسمع تشاؤماً ، فقد دخل فى الشرك . كما تقدم ، فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ما سواه ، فيكون للشيطان منه نصيب .

قوله ﴿ فما كفارة ذلك ؟ ﴾ إلى آخره . فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع فى قلبه ولم يلتفت

(١) هو عبد الله بن لهيعة الحضرمى العافقى المصرى قاضيا وعالمها ومسندها . قال الإمام أحمد : احترقت كتبه . وهو صحيح الكتاب ومن كتب عنه قديما فسماعه صحيح ، مات سنة ١٧٤
(٢) واقعة الحرة وفتنة الحرة : الواقعة التى كانت من أهل الشام فى أهل المدينة حين بعث يزيد بن معاوية أهل الشام لقتال أهل المدينة حين امتنعوا عن بيعته ، فغلبوا على أهلها واستباحوها ثلاثاً ، وقتل خلق كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، وكان ذلك سنة خمس وستين

قال : أن تقول : اللهم لا خيرَ إلا خيرُك ، ولا طَيرَ إلا طيرُك ، ولا إلهَ غيرُك .
وله من حديث الفضل بن عباس رضى الله عنه « إنما الطَّيرة ما أمضاك أو ردَّك » .
فيه مسائل :

الأولى : التنبيه على قوله (ألا إنما طائرهم عند الله) مع قوله : (طائرکم معکم)

الثانية : نفى المدوى .

الثالثة : نفى الطيرة .

إليه ، كفرَّ الله عنه ما وقع في قلبه ابتداء ؛ لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده ، والإعراض عما سواه .

وتضمن الحديث : أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى في طريقه ، وأما من لم يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان في ذلك ، فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره ؛ لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله ، وأن الخير كله بيده . فهو الذى يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته ، وهو الذى يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه وإحسانه ، فلا خير إلا منه ، وهو الذى يدفع الشر عن عبده ، فما أصابه من ذلك فبذنبه ، كما قال تعالى (٤ : ٧٩) ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

قوله ﴿ وله من حديث الفضل بن عباس : « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردَّك » ﴾ .

هذا الحديث عند الإمام من حديث الفضل بن عباس قال « خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فبرَّح ظبي ، قال في شقه فاحتضنته ، فقلت : يا رسول الله ، تطيرت فقال : إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » وفي إسناده انقطاع ، أى بين مسلمة راويه وبين الفضل وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن معين : قتل يوم اليرموك . وقال غيره : قتل يوم مرج الصفر سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة . وقال أبو داود : قتل بدمشق ، كان عليه درع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ﴿ إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك ﴾ هذا حد الطيرة المنهى عنها : أنها ما يحمل الإنسان على المضى فيما أراد ، ويمنعه من المضى فيه كذلك . وأما الفأل الذى كان يحبه النبي صلى الله

الرابعة : نفي الهامة .
الخامسة : نفي الصفر .
السادسة : أن الفأل ليس من ذلك ، بل مستحب .
السابعة : تفسير الفأل .
الثامنة : أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر ، بل يذهب
الله بالتوكل .

التاسعة : ذكر ما يقول مَنْ وَجده .
العاشر : التصريح بأن الطيرة شرك .
الحادية عشرة : تفسير الطيرة المذمومة .

باب

﴿ ما جاء في التنجيم ﴾

قال البخارى في صحيحه : قال قتادة : « خلق الله هذه النجوم لثلاث :

عليه وسلم فيه نوع بشارة ، فيسرّ به العبد ولا يعتمد عليه ، بخلاف ما يعضيه أو يرده ؛
فإن للقلب عليه نوع اعتماد . فافهم الفرق . والله أعلم .

قوله ﴿ باب ما جاء في التنجيم ﴾

قال شيخ الإسلام رحمه الله : التنجيم : هو الاستدلال بالأحوال الفلكية ، على
الحوادث الأرضية .

وقال الخطابي : علم النجوم المنهى عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكواكب والحوادث
التي ستقع في مستقبل الزمان ، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر ، وتغير الأسعار ، وما في
معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها ، واجتماعها
وافتراقها ، يدعون أن لها تأثيراً في السقليات . وهذا منهم تحكّم على الغيب ، وتعاطى لعلم
قد استأثر الله به ، لا يعلم الغيب سواه .

قوله ﴿ قال البخارى في صحيحه : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث :

زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين .

زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به .

هذا الأثر علقه البخارى فى صحيحه . وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير

وابن المنذر وغيرهم . وأخرجه الخطيب فى كتاب النجوم عن قتادة ، ولفظه قال « إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين . فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . وإن ناساً جبلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والطويل والقصير ، والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب . ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذى خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء . » انتهى (١)

فتأمل ما أنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات فى عصر التابعين . وما زال الشر يزاد فى كل عصر بعدم حتى بلغ الغاية فى هذه الأعصار ، وعمت به البلوى فى جميع الأمصار ، فقلّ ومستكثر . وعزّ فى الناس من ينكره ، وعظمت المصيبة به فى الدين . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قوله : ﴿ خلق الله هذه النجوم لثلاث ﴾ قال تعالى (٦٧ : ٥) ولقد زينا السماء الدنيا

بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) وقال تعالى (١٦ : ١٦) وعلامات وبالنجم هم يهتدون)

وفيه : إشارة إلى أن النجوم فى السماء الدنيا ، كما روى ابن مردويه عن ابن مسعود

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما السماء الدنيا : فإن الله خلقها من

(١) فى قرّة العيون : وقول قتادة رحمة الله تعالى يدل على أن علم التنجيم هذا قد حدث فى

عصره ، فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلق به ، وهذا العلم مما ينافى التوحيد ويوقع فى

الشرك ، لأنه ينسب الحوادث إلى غير من أحدثها وهو سبحانه بمشيئته وإرادته ، كما قال تعالى

(٣٥ : ٣) هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟) وقال (٢٧ : ٦٥) قل لا يعلم

من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون)

وعلاماتٍ يُهتدى بها . فن تأول فيها غير ذلك خطأ ، وأضاع نصيبه ، وكلف
مالا علم له به « انتهى .

دخان ، وجعل فيها سراجا وقرأ منيراً ، وزينها بمصابيح ، وجعلها رجوما للشياطين . وحفظاً
من كل شيطان رجيم » .

قوله ﴿ وعلامات ﴾ أى : دلالات على الجهات ﴿ يهتدى بها ﴾ أى يهتدى بها الناس
في ذلك . كما قال تعالى (٦ : ٩٧) وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر
والبحر) أى لتعرفوا بها جهة قصدكم ، وليس المراد أنه يهتدى بها في علم الغيب ، كما يعتقد
المنجمون ، وقد تقدم وجه بطلانه ، وأنه لا حقيقة له كما قال قتادة « فن تأول فيها غير
ذلك » أى : زعم فيها غير ما ذكر الله في كتابه من هذه الثلاث فقد أخطأ . حيث زعم شيئاً
ما أنزل الله به من سلطان ، وأضاع نصيبه من كل خير ؛ لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه .
فإن قيل : المنجم قد يصدق ؟ قيل : صدقه كصدق الكاهن ، يصدق في كلمة ويكذب
في مائة . وصدقه ليس عن علم ، بل قد يوافق قدراً ، فيكون فتنه في حق من صدقه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله (١٦ : ١٥ ، ١٦) وألقى في الأرض رواسي أن تُميد
بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات) فقوله « وعلامات » معطوف على ماتقدم مما
ذكره في الأرض ، ثم استأنف فقال (وبالنجم هم يهتدون) ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه .
وقد جاءت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بإبطال علم التنجيم ، كقوله « من
اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر : زاد ما زاد ^(١) » .

وعن رجاء بن حيوة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن مما أخاف على أمتي :
التصديق بالنجوم ، والتكذيب بالقدر ، وحيف الأئمة » رواه عبد بن حميد ، وعن أبي يحيى
مرفوعاً « أخاف على أمتي ثلاثاً : حيف الأئمة ، وإيماناً بالنجوم ، وتكذيباً بالقدر » رواه
ابن عساكر ، وحسنه السيوطي .

وعن أنس رضى الله عنه مرفوعاً « أخاف على أمتي بعدى خصلتين : تكذيباً بالقدر ،
وإيماناً بالنجوم » رواه أبو يعلى وابن عدى والخطاب في كتاب النجوم ، وحسنه السيوطي
أيضاً . والأحاديث في ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة .

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس .

وكره قتاده : تعلم منازل القمر . ولم يُرخص ابن عيينة فيه . ذكره حرب عنهما .

قوله ﴿ وكره قتاده تعلم منازل القمر . ولم يرخص ابن عيينة فيه . ذكره حرب عنهما .
ورخص في تعلم المنارل أحد وإسحاق ﴾ .

قال الخطابي : أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال ، وتعلم به جهة القبلة . فإنه غير داخل فيما نهى عنه . وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً أكثر من أن الظل مادام متناقضاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرق ، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي ، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التي يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته . وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة . فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها ، وصدقهم فيما أخبروا به عنها ، مثل أن يشاهدها بمحضرة الكعبة ، وبشاهدها على حال الغيبة عنها ، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعينة ، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم ، ولا مقصرين في معرفتهم . انتهى^(١) .

وروى ابن المنذر عن مجاهد « أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر »
وروى عن إبراهيم « أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدى به » قال ابن رجب . والمأذون في تعلمه التسيير لاعلم التأثير ؛ فإنه باطل محرم ، قليله وكثيره . وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج إليه منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور .

قوله ﴿ ذكره حرب عنهما ﴾ هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرماني الفقيه من جلة أصحاب الإمام أحمد . روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وغيرهم . وله كتاب المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره . مات سنة ثمانين ومائتين .

(١) وحقيقة علم الفلك : معرفة حركات النجوم والكواكب وتقلانها ومنازلها . وقد اخترع لمعرفة ذلك آلات حاسبة ومنظارات مقربة ، ومراصد كاملة الأسباب والآلات عرفوا بها شيئاً كثيراً جداً من العوالم العلوية ، حتى أصبحت كأنها على هذه الأرض . وكل ذلك لا يصح أن يختلف فيه مطلقاً ؛ لأنه كعلم الحساب . أما أن ينسب إلى هذه النجوم والكواكب شيء من الحوادث على الأرض : من موت أو حياة أو حرب أو سلم يكون في المستقبل فهذا هو الذي لاشك في كذبه ، وأنه ضلال .

ورخص في تعلم المنازل أجد وإسحاق .
وعن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مُدْمِن الخمر ، ومصدق بالسحر ، وقاطع الرحم » رواه أحمد وابن حبان في صحيحه .

وأما إسحاق : فهو ابن إبراهيم بن مخلد أبو أيوب الخنظلي النيسابوري ، الإمام المعروف بابن راهويه . روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم . قال أحمد : إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين . روى عنه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم . وروى هو أيضاً عن أحمد . مات سنة تسع وثلاثين ومائتين .
قال ﴿ وعن أبي موسى رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر » رواه أحمد وابن حبان في صحيحه ﴾ .

هذا الحديث رواه أيضاً الطبراني والحاكم وقال : صحيح . وأقره الذهبي . وتماهه : « ومن مات وهو يدمن الخمر سقاه الله من نهر الفوطة : نهر يجرى من فروج المومسات ، يؤذى أهل النار ريح فروجهن » .

قوله ﴿ وعن أبي موسى ﴾ هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار - بفتح المهملة وتشديد الضاد - أبي موسى الأشعري ، صحابي جليل . مات سنة خمسين .

قوله ﴿ ثلاثة لا يدخلون الجنة ﴾ هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها . وقالوا : أمرؤها كما جاءت ، ومن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم . وأحسن ما يقال : إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الإسلام فإنه يرجع إلى مشيئة الله ، فإن عذبه فقد استوجب العذاب ، وإن غفر له فبفضله وشفوه ورحمته .
قوله ﴿ مدمن الخمر ﴾ أى المداوم على شربها .

قوله ﴿ وقاطع الرحم ﴾ يعنى القرابة كما قال تعالى (٤٧ : ٢٢) فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم - الآية)
قوله ﴿ ومصدق بالسحر ﴾ أى مطلقاً . ومنه التنجيم ؛ لما تقدم من الحديث . وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة .

فيه مسائل :

الأولى : الحكمة في خلق النجوم .

الثانية : الرد على من زعم غير ذلك .

الثالثة : ذكر الخلاف في تعلم المنازل .

الرابعة : الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ، ولو عرف أنه باطل .

باب

﴿ ما جاء في الاستسقاء بالأنواء ﴾

وقول الله تعالى : (٥٦ : ٨٢) وتجملون رزقكم أنكم تكذبون .

قال الذهبي في الكبار : ويدخل فيه تعلم السيميا وعملها ، وعقد المرء عن زوجته ، ومحبة الزوج لامرأته ، وبغضها وبغضه ، وأشبه ذلك بكلمات مجهولة ، قال : وكثير من الكبار - بل عامتها إلا الأقل - يجهل خلق من الأمة تحريمه ، وما بلغه الزجر فيه ، ولا الوعيد عليه . اهـ .

قوله ﴿ باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء ﴾

أى من الوعيد ، والمراد نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء ، و « الأنواء » جمع « نوء » وهى منازل القمر ، قال أبو السعادات : وهى ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها . ومنه قوله تعالى (٣٦ : ٣٩) والقمر قدرناه منازل) يسقط فى القرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق ، فتتقضى جميعها مع انقضاء السنة . وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر ، وينسبونه إليها ، ويقولون « مطرنا بنوء كذا وكذا » وإنما سمي نوءاً ؛ لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالشرق ، أى نهض وطلع .

قال ﴿ وقوله تعالى (٥٦ : ٨٢) وتجملون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ روى الإمام أحمد والترمذى - وحسنه - وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء فى المختارة عن على رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ (وتجملون رزقكم) يقول : شكركم (أنكم

وعن أبي مالك الأشعري رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن » :

تكذبون (تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، بنجم كذا وكذا » وهذا أولى ما فسرت به الآية . وروى ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء والحراساني وغيرهم . وهو قول جمهور المفسرين . وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله بالآية .

قال ابن القيم رحمه الله : أى تجملون حظكم من هذا الرزق الذى به حياتكم : التكذيب به ، يعنى القرآن . قال الحسن : تجملون حظكم ونصيبكم من القرآن أنسكم تكذبون . قال : وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب .

قوله ﴿ وعن أبي مالك الأشعري رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والظعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » وقال « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » رواه مسلم .

« أبو مالك » اسمه الحرث بن الحرث الشامي . صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام . وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا .

قوله ﴿ أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن ﴾ ستفعلها هذه الأمة إمام مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك ، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة . والمراد بالجاهلية هنا : ما قبل المبعث ، سموا بذلك لقرط جهلهم ، وكل ما يخالف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو جاهلية ، فقد خالفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من أمورهم أو أكثرها ، وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة . ولشيخنا رحمه الله مصنف لطيف ذكر فيه ماخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أهل الجاهلية ، بلغ مائة وعشرين مسألة^(١) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًا لمن لم يتركه ، وهذا يقتضى أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين (١) كتاب مسائل الجاهلية طبع في الطبعة السلفية وهو نفيس جداً ككل كتب شيخ الإسلام التي تفيض علماً ونوراً ، رحمه الله .

الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ،

الإسلام ، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها ، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم ، وهذا كقوله تعالى (٣٣ : ٣٣) وَلَا تَبْرَجْ وَلَا تَبَرَّجْ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى فَإِنَّ فِي ذَلِكَ ذِمًّا لِلتَّبَرُّجِ وَذِمًّا لِحَالِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، وذلك يقتضى المنع من مشابهتهم في الجملة .

قوله ﴿ الفخر بالأحساب ﴾ أى التعاضم على الناس بالآباء وما أثرهم ، وذلك جهل عظيم ، إذ لا كرم إلا بالتقوى ، كما قال تعالى (٤٩ : ١٣) إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ (وقال تعالى (٣٤ : ٣٧) وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الصَّافِيَاتِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) .

ولأبى داود عن أبى هريرة مرفوعاً « إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليسكوتن أهون على الله من الجعلان » .

قوله ﴿ والطعن في الأنساب ﴾ أى الوقوع فيها بالعيب والتنقص . ولما عيّر أبو ذر رضى الله عنه رجلاً بأمه^(١) قال له النبي صلى الله عليه وسلم « أعيبرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » متفق عليه . فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية ، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية ، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه . قاله شيخ الإسلام رحمه الله .

قوله ﴿ والاستسقاء بالنجوم ﴾ أى نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم . كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أخاف على أمتى ثلاثاً : استسقاء بالنجوم ، وحيث السلطان ، وتكذيباً بالقدر » .

فإذا قال قائلهم : مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا فلا يخلو : إما أن يعتقد أن له تأثيراً في إنزال المطر ، فهذا شرك وكفر . وهو الذى يعتقداه أهل الجاهلية كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعاً ، أو يدفع عنهم ضرراً ، أو أنه يشفع بدعائهم إياه ، فهذا هو الشرك الذى بمث

(١) وإنما عيره بسوادها فقط . فقال له : يا ابن السوداء ، فكيف بالناس اليوم وقد أطلقوا لأقلامهم وألسنتهم العنان ؟

والنياحة » .

وقال « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب » رواه مسلم .

الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالنهاى عنه وقتال من فعله ، كما قال تعالى (٨ : ٣٩) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الذين كله الله) والفتنة الشرك ، وإما أن يقول : مطرنا بنوء كذا مثلاً ، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده . ولكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم ، والصحيح : أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز ، فقد صرح ابن مفلح في الفروع : بأنه يحرم قول « مطرنا بنوء كذا » وجزم في الإنصاف بتحريمه ولو على طريق المجاز ، ولم يذكر خلافاً . وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذى لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر ، لا ينفع ولا يضر ، ولا قدرة له على شيء ، فيكون ذلك شركاً أصغر . والله أعلم .

قوله ﴿ والنياحة ﴾ أى رفع الصوت بالندب على الميت ^(١) لأنها تسخط بقضاء الله ، وذلك ينافى الصبر الواجب ، وهى من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة .

قوله ﴿ النائحة إذا لم تتب قبل موتها ﴾ فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم ؛ هذا مجمع عليه فى الجملة ، ويكفر أيضاً بالحسنات الماحية والمصائب ، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض ، وبالشفاعة بإذن الله ، وعفو الله عن من لا يشرك به شيئاً . وفى الحديث عن ابن عمر مرفوعاً « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُفرغِز » رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان .

قوله ﴿ تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب ﴾ قال القرطبي : السربال واحد السراويل ، وهى الثياب والقمص ، يعنى أنهم يُلطَّخَن بالقطران ، فيكون لمن كاقمص ، حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم ، ورائحتهن أنتن ، وألمن بسبب الجرب أشد . وروى عن ابن عباس : إن القطران هو النحاس المذاب ^(٢) .

(١) وضرب الحدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية .

(٢) ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وغيره عند تفسير قوله تعالى (١٤ : ٤٩ ، ٥٠) وترى

المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد : سرايلهم من قطران)

ولهما عن زيد بن خالد رضى الله عنه قال : « صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس ، فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . »

قال ﴿ ولهما ^(١) عن زيد بن خالد قال « صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس ، فقال : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مُطَرْنَا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى ، كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطَرْنَا بِنُوءِ كَذَا وكَذَا ، فذلك كافر بى ، مؤمن بالكوكب » ﴾ .

زيد بن خالد الجهني صحابي مشهور ، مات سنة ثمان وستين ، وقيل : غير ذلك ، وله خمس وثمانون سنة .

قوله ﴿ صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾ أى بنا ، فاللام بمعنى الباء . قال الحافظ : وفيه إطلاق ذلك مجازاً . وإنما الصلاة لله .

قوله ﴿ بالحديبية ﴾ بالمهملة المضمومة وتخفيف يائها وتثقل ^(٢) .

قوله ﴿ على إثر سماء كانت من الليل ﴾ بكسر الهمزة وسكون التثنية على المشهور ، وهو ما يعقب الشيء .

قوله ﴿ سماء ﴾ أى مطر ؛ لأنه ينزل من السحاب ، والسماء يطلق على كل ما ارتفع . قوله ﴿ فلما انصرف ﴾ أى من صلاته ، أى التفت إلى المأمومين ، كما يدل عليه قوله « أقبل على الناس » ويحتمل أنه أراد السلام .

قوله ﴿ هل تدرون ﴾ لفظ استفهام ومعناه التنبية . وفي النسائي « ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة ؟ » وهذا من الأحاديث القدسية . وفيه : إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم . قوله ﴿ قالوا الله ورسوله أعلم ﴾ فيه : حسن الأدب للمستئول عما لا يعلم أن يكلم العلم إلى

(١) رواه البخارى فى الصلاة فى باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم ، وفى الاستسقاء فى باب قول الله تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) ورواه مسلم فى كتاب الأيمان .

(٢) قرية على حدود الحرم ، وتسمى الآن الشميسى . وكان فيها صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والشركيين سنة ست من الهجرة . وكان هذا الصلح الفتح البين .

قال : قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر . فأما من قال : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بى كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ .

عالمه . وذلك يجب ^(١) .

قوله ﴿ أصبح من عبادى ﴾ الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر ، كقوله تعالى : (٦٤ : ٢ هو الذى خلقكم : فمنكم كافر ، ومنكم مؤمن) .

قوله ﴿ مؤمن بى وكافر ﴾ إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً فى إنزال المطر فهذا كفر ؛ لأنه أشرك فى الربوبية . والمشرك كافر . وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر ؛ لأنه نسب نعمة الله إلى غيره ، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه ، وإنما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء ، وينزله إذا شاء .

ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز . وأيضاً الباء تحتل معانى ، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ ، فليست للسببية ولا للاستعانة ، لما عرفت من أن هذا باطل . ولا تصدق أيضاً على أنها للمصاحبة ؛ لأن المطر قد يجيء فى هذا الوقت وقد لا يجيء فيه ، وإنما يجيء المطر فى الوقت الذى أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله . فكل معنى تحمل عليه الباء فى هذا اللفظ المنهى عنه فاسد . فيظهر على هذا : تحريم هذه اللفظة مطلقاً لفساد المعنى ^(٢) . وقد تقدم القطع بتحريمه فى كلام صاحب الفروع والإنصاف .

قال المصنف رحمه الله (وفيه التنظير للإيمان فى هذا الموضع) بشير إلى أنه الإخلاص . قوله ﴿ فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ﴾ فالفضل والرحمة صفتان لله ، ومذهب أهل السنة والجماعة : أن ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات : كالحياة

(١) وردم هذا إنما كان يصح حينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته الدنيا حاضر المجلس . فإن الواجب رد العلم إلى الله ثم إليه . وأما بعد أن مات وفارق هذه الدنيا ، فلا ينبغى رد العلم إلا إلى الله وحده . فمن الخطأ استعمال الناس هذه الجملة الآن وقولهم « الله ورسوله أعلم » .

(٢) وكذلك مثلها مما يستعمله الجاهلون ، كقولهم : ياربنا بجمد وبينته ، ونحو ذلك من ألفاظ فى توسلاتهم ودعواتهم الجاهلية .

وأما من قال : مُطَرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب .
ولهما من حديث ابن عباس بمعناه ، وفيه : « قال بعضهم : لقد صدق نوء
كذا وكذا . فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ (٥٦ : ٧٥ - ٨٢) فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ .
وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ .

والعلم ، وصفات الأفعال ، كالرحمة التي يرحم بها عباده : كلها صفات لله قائمة بذاته ليست
قائمة بغيره ، فتفتن لهذا فقد غلط فيه طوائف .
وفي هذا الحديث : أن نِعَمَ اللَّهِ لَا يَجُوزُ أَنْ تَضَافَ إِلَّا إِلَيْهِ وَحْدَهُ ، وهو الذي يحمد
عليها ، وهذه حال أهل التوحيد .

قوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطَرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ﴾ إلى آخره ، تقدم ما يتعلق بذلك .
قال المصنف رحمه الله (وفيه : التفتن للكفر في هذا الموضع) .
يشير إلى أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر ، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه ، وإن لم
يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر ، فيكون من كفر النعم ؛ لعدم نسبتها إلى الذي أنعم بها ،
ونسبتها إلى غيره ، كما سيأتي في قوله تعالى (١٦ : ٨٣) يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) .
قال القرطبي في شرح حديث زيد بن خالد : وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق
وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أوريح ، فمنهم من ينسبه إلى الطالع ، ومنهم
من ينسبه إلى الغارب ؛ نسبة إلى إيجاد واختراع ، ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث .
فهى الشارع عن إطلاق ذلك ، لثلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم في نطقهم . انتهى .
قوله : فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد - يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك ، كما قال
تعالى (٢٩ : ٦٣) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولنَّ اللَّهُ . قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) فدل على أن منهم من يعرف ويقر
بأن الله هو الذى أوجد ، المطر ، وقد يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئاً من التأثير ، والقرطبي
في شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذى ذكره . فلا اعتراض عليه
بالآية للاحتمال المذكور .

قوله ﴿ وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَاهُ ، وَفِيهِ : قَالَ بَعْضُهُمْ : « لَقَدْ صَدَّقَ نَوْءٌ كَذَا وَكَذَا
فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ (٥٦ : ٧٥ - ٨٢) فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ

إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون .

وقوله ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ هذا هو القسم عليه ، وهو القرآن ، أى إنه وحى الله وتنزيله وكلامه ، لا كما يقول الكفار : إنه سحر أو كهانة ، أو شعر . بل هو قرآن كريم : أى عظيم كثير الخير ؛ لأنه كلام الله .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : فوصفه بما يقتضى حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته ؛ فإن الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم ، وهو من كل شىء أحسنه وأفضله . والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم ، ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره ، ولذلك فسر السلف « الكريم » بالحسن . قال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله تعالى كريم جميل الفعال . وإنه لقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وقوله ﴿ في كتاب مكنون ﴾ أى فى كتاب معظم محفوظ موقر . قاله ابن كثير .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : اختلف المفسرون فى هذا ، فقيل : هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة ، وهو المذكور فى قوله (٨٠ : ١٣ - ١٦ فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سفرة . كرام بررة) وبدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة قوله (لا يمسه إلا المطهرون) فهذا يدل على أنه بأيديهم يسونه .

قوله ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما « لا يمسه إلا المطهرون . قال : الكتاب الذى فى السماء » وفى رواية « لا يمسه إلا المطهرون يعنى الملائكة . » وقال قتادة « لا يمسه عند الله إلا المطهرون . فأما فى الدنيا فإنه يمسه الجوسى النجس والمنافق الرجس » واختار هذا القول كثيرون . منهم ابن القيم رحمه الله ورجحه . وقال ابن زيد : زعمت قریش أن هذا القرآن نزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون ، كما قال تعالى (٢٦ : ٢١٠ - ٢١٢) وما نزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون) قال ابن كثير : هذا قول جيد . وهو لا يخرج عن القول قبله . وقال البخارى رحمه الله تعالى فى صحيحه فى هذه الآية : « لا يجذ طعمه إلا من آمن به » .

إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين .
أفبهذا الحديث أتم مدهنون . وتعملون رزقكم أنكم تكذبون ؟) .

وبلفظه عن ابن عباس قال « مُطَرَّ النَّاسِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرًا ، وَمِنْهُمْ كَافِرٌ . قَالُوا : هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا . قَالَ : فَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ (فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) »
هذا قسم من الله عز وجل ، يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء . وجواب القسم (إنه لقرآن كريم) فتكون « لا » صلة لتأكيد النفي ؛ فتقدير الكلام : ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر ، أو كهانة ، بل هو قرآن كريم قال ابن جرير قال بعض أهل العربية : معنى قوله (فلا أقسم) فليس الأمر كما تقولون ، ثم استؤنف القسم بعد ، فقيل : أقسم بمواقع النجوم . قال ابن عباس : يعنى نجوم القرآن ، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً في السنين بعد^(١) ، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية . ومواقعها : نزولها شيئاً بعد شيء . وقال مجاهد : مواقع النجوم مطالعها ومشارقها . واختاره ابن جرير .
وعلى هذا فتكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه - وهو القرآن - من وجوه :

أحدها : أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات النى والجهل . فتلك هداية في الظلمات الحسية ، والقرآن هداية في الظلمات المعنوية . فجمع بين الهدایتين مع مافى النجوم من الزينة الظاهرة ، وفي القرآن من الزينة الباطنة ومع مافى النجوم من الرجوم للشياطين ، وفي القرآن من رجوم شياطين الجن والإنس . والنجوم وآياته المشهودة العيانية ، والقرآن آياته المتلوة السمعية ، مع مافى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول . ذكره ابن القيم رحمه الله .
وقوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) قال ابن كثير : أى وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمتة لعظمت المقسم به عليه .

(١) الآية تدل على أنه مازال في الكتاب المكنون حتى كان ينزل به جبريل منجماً ، فكان ينزل مباشرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ولا مفهوم لما قاله بعض المفسرين أنه نزل إلى السماء الدنيا مرة ، ثم كان ينزل بعد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منها .

تنزيل من رب العالمين .

قال ابن القيم رحمه الله : هذا من إشارة الآية وتنبئها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً . لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه .

وقال آخرون (لا يمسه إلا المطهرون) أى من الجنابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناه الطلب . قالوا : والمراد بالقرآن ههنا المصحف . واحتجوا على ذلك بما رواه مالك فى الموطأ عن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : « إن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن حزم : أن لا يمسه القرآن إلا طاهر » (١) .
وقوله ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ قال ابن كثير : هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس كما يقولون : إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذى لا مرية فيه ، وليس وراءه حق نافع . وفى هذه الآية : أنه كلام الله تكلم به

قال ابن القيم رحمه الله : ونظيره (٣٢ : ١٣ ولكن حق القول منى) وقوله (١٦ : ١٠٢ قل نزله روح القدس من ربك بالحق) هو إثبات علو الله تعالى على خلقه . فإن النزول والتنزيل الذى تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشئ من أعلى إلى أسفل ، ولا يرد عليه قوله (٣٩ : ٦ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) لأننا نقول : إن الذى أنزلها فوق سمواته . فأنزلها لنا بأمره .

قال ابن القيم رحمه الله : وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة للملكة لهم وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع

(١) قال الحافظ ابن كثير : ورواه أبو داود فى المراسيل حديث الزهرى . قال : قرأت فى صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الخ . قال : ومثل هذا لا ينبغى الأخذ به . وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبى العاص . وفى إسناد كل منهما نظر . وقال الحافظ فى التلخيص الحبير . وقد ضعف النووى وابن كثير فى الإرشاد وابن حزم حديث حكيم بن حزام وحديث عمرو بن حزم جميعاً .

والضمير فى الآية يعود على الكتاب المكنون ، فهى صريحة فى أنهم الملائكة . والمقصود بالآية - ما قال ابن زيد - الرد على قريش زعمها أنه نزلت به الشياطين ، فليس فى الآية دليل ولا شبه دليل لمن لا يقول : إن المصحف لا يمسه إلا طاهر .

أفبهذا الحديث أتم مُذهنون . وتحملون رزقكم أنكم تكذبون ؟) .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الواقعة .

الثانية : ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية .

الثالثة : ذكر الكفر في بعضها .

الرابعة : أن من الكفر ما لا يُخرج من الملة .

انخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سُدى ، ويدعهم هملاً ، ويخلقهم عبثاً . لا يأمرهم ولا ينههم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ؟ فمن أقرب أنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله . واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به ، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والحوارِق ، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس . وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

قوله : ﴿ أفبهذا الحديث أتم مُذهنون ؟ ﴾ قال مجاهد . أتريدون أن تماثلوهم فيه ، وتركوا إليهم ؟

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ثم وبخهم على وضعهم الإذهان في غير موضعه ، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به ويعرف به ، ويعض عليه بالنواجذ ، وتثني عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اعتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به ، فهو روح الوجود ، وحياة العالم ، ومدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر . فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداهنة ، وإنما نزل بالحق وللحق ، والمداهنة إنما تكون في باطل قوى لا يمكن إزالته ، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته ، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل ، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به ؟

قوله ﴿ وتحملون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ تقدم الكلام عليها أول الباب ، والله تعالى أعلم

الخامسة : قوله : « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر » بسبب نزول النعمة .

السادسة : التفطن للإيمان فى هذا الموضع .

السابعة : التفطن للكفر فى هذا الموضع .

الثامنة : التفطن لقوله : « لقد صدق نوء كذا وكذا » .

التاسعة : إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها ، لقوله : « أتدرون

ماذا قال ربكم ؟ » .

العاشر : وعيد النائحة .

باب

قول الله تعالى : (٢ : ١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم

كحب الله) .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٢ : ١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم

كحب الله) ﴾ .

لما كانت محبته سبحانه هى أصل دين الإسلام الذى يدور عليه قطب رحاه ، فبكمالها يكمل ، وبنقصها ينقص توحيد الإنسان ، نيه المصنف على ذلك بهذه الترجمة .

قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً - الآية) قال فى شرح المنازل (١) :

أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ،

فهذا نداء فى المحبة لافى الخلق والربوبية ، فإن أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند ،

بخلاف نداء المحبة . فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً فى الحب والتعظيم .

ثم قال تعالى (والذين آمنوا أشد حبا لله) وفى تقدير الآية قولان : أحدهما : والذين آمنوا

أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأنادهم وآهتهم التى يحبونها ويعظمونها من دون الله .

وروى ابن جرير عن مجاهد فى قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) مباحة ومضاهة للحق

بالأنداد (والذين آمنوا أشد حبا لله) من الكفار لأوثانهم . ثم روى عن ابن زيد قال :

(١) مدارج السالكين أول الجزء الثالث من طبعة النار .

هؤلاء المشركون أندادم آلهتهم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله ،
والذين آمنوا أشد حباً لله من حبهم آلهتهم . انتهى .

والثاني : والذين آمنوا أشد حباً لله من المشركين بالأنداد لله ؛ فإن محبة المؤمنين
خالصة ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من
المشركة . والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) فإن فيها قولين
أيضاً ، أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله . فيكون قد أثبت لهم محبة الله ، ولكنها محبة
أشركوا فيها مع الله تعالى أندادم . والثاني : أن المعنى : يحبون أندادم كما يحب المؤمنون
الله ، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادم .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول ويقول : إنما ذموا بأن
شركوا بين الله وبين أندادم في المحبة ولم يخلصوها لله كحبة المؤمنين له ، وهذه التسوية
المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار ، أنهم يقولون لآلهتهم وأندادم وهي
محضرة معهم في العذاب (٢٦ : ٩٧ ، ٩٨) تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب
العالمين) ومعلوم أنهم مأسووم برب العالمين في الخلق والربوبية^(١) وإنما سووهم به في المحبة
والتعظيم ، وهذا أيضاً : هو العدل المذكور في قوله تعالى (٦ : ١) الحمد لله الذي خلق
السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) به غيره
في العبادة التي هي المحبة والتعظيم .

وقال تعالى (٣ : ٣١) قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وهذه تسمى آية
المحبة . قال بعض السلف : ادعى قوم محبة الله ، فأنزله تعالى آية المحبة (قل إن كنتم
تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها ، فدليلها وعلامتها :
اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفائدتها وثمرتها : محبة المرسل لكم ، فالتم حصل منكم
المتابعة فمحببتكم له غير حاصلة ، ومحبته لكم منتفية .

وقال تعالى (٤ : ٥٤) يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم

(١) في قرّة العيون : وقد وقع الشرك في الربوبية أيضاً في كثير من الخاصة والعامة في
آخر هذه الأمة فاعتقدوا أن لهؤلاء للأموات تصرفاً في الكون ونحو ذلك .

يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم) ذكر لهم أربع علامات :

إحداها : أنهم أذلة على المؤمنين ، قيل : معناه أرقاء رحماء مشفقين عاطفين عليهم ، فلما ضمن « أذلة » هذا المعنى عداه بأداة « على » قال عطاء رحمه الله : للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيده ، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته (أشداء على الكفار رحماء بينهم) العلامة الثالثة :^(١) الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان . وذلك لتحقيق دعوى المحبة .

العلامة الرابعة : أنهم لاتأخذهم في الله لومة لائم . وهذه علامة صحة المحبة . فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة . وقال تعالى (١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) فذكر المقامات الثلاثة : الحب . وهو ابتغاء القرب إليه ، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة . والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب ، ومن المعلوم قطعاً أنه لايتنافس إلا في قرب . من يحب قربه ، وحب قربه تبع لمحبة ذاته ، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه . وعند الجهمية والمطلة : ما من ذلك كله شيء ؛ فإنه عندهم لاتقرب ذاته من شيء ، ولا يقرب من ذاته شيء ، ولا يجب . فأنكروا حياة القلوب ، ونعيم الأرواح وبهجة النفوس ، وقررة العيون ، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة . ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته ، فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته ، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم ، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ، ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها . وحسب ذى البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده . والله المستعان .

وقال رحمه الله تعالى أيضاً : لاتحد المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لاتزيد بها إلا خفاء . فحدها وجودها ولا تنوصف المحبة بوصف أظهر من المحبة ، وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدا وثمراتها وأحكامها . وأجمع ما قيل في ذلك : ما ذكره أبو بكر الكتاني عن الجنيد .

(١) لم يذكر الثانية : ولعله اكتفى بما في كلام عطاء من الإشارة إليها بقوله : وطى الكافرين الخ

وقوله: (٩: ٢٤) قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموالٌ اقترفتوها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحب إليكم

قال أبو بكر «جرت مسألة في الحجة بمكة - أعزها الله - في أيام الموسم - فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سنًا ، فقالوا : هات ما عندك يا عراق . فأطرق رأسه ، ودمعت عيناه ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هيئته ، وصفا شرابه من كأس مودته ، وانكشف له الحياء من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو لله وبالله ، ومع الله . فسكى الشيوخ . وقالوا : ما على هذا مزيد ، جبرك الله ياتاج العارفين .»

وذكر رحمه الله تعالى : أن الأسباب الجالبة للهجة عشرة :

أحدها : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به .

الثاني : التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض .

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال ، فنصيبه من الحجة

على قدر هذا .

الرابع : إثارة محابه على محابك عند غلبات الهوى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها .

السادس : مشاهدة براه وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة .

السابع : وهو أعجبها انكسار القلب بين يديه .

الثامن : الخلوة وقت النزول الإلهي^(١) وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ، ولا تتكلم إلا إذا

ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ، ومنفعة لغيرك .

العاشر : مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل .

فن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل الحجة ، ودخلوا على الحبيب .

قوله ﴿وقول الله تعالى (٩ : ٢٤) قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم

وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتوها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحب إليكم من الله

(١) وذلك إذا مضى ثلث الليل كما في حديث النزول .

من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) .
عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى
أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجه .

ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين) ﴿ .
أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته وتجارته
ومسكنه فأثرها ، أو بعضها على فعمل ما أوجه الله عليه من الأعمال التي يحبها الله تعالى
ويرضاها ، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : أى إن كانت هذه الأشياء (أحب إليكم من الله
ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا) أى انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه . روى الإمام أحمد
وأبو داود - واللفظ له - من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن عطاء الخراساني عن نافع
عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا تبايعتم
بالعينة ، وأخذتم أذنان البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً
لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم » .

فلا بد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده ، فيحب
ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه ، ويؤلى فيه ويعادى فيه ، ويتابع رسوله صلى الله عليه وسلم
كما تقدم في آية الحنطة ونظائرها .

قوله ﴿ وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يؤمن أحدكم
حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجه ﴾ أى البخارى ومسلم .
قوله ﴿ لا يؤمن أحدكم ﴾ أى الإيمان الواجب ، والمراد كماله ، حتى يكون الرسول
أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين ، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون
الرسول أحب إليه من نفسه ، كما في الحديث : « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :
يارسول الله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى . فقال : والذي نفسى بيده ،
حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال له عمر : فإنك الآن أحب إلى من نفسى ،
فقال : الآن يا عمر » رواه البخارى .

فن قال : إن المنفى هو الكمال ، فإن أراد الكمال الواجب الذى يذم تركه ويعرض

ولهما عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ من كن فيه وجد

للعقوبة فقد صدق ، وإن أراد أن النفي السكالم المستحب ، فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . قاله شيخ الإسلام رحمه الله .

فمن ادعى محبة النبي صلى الله عليه وسلم بدون متابعتة وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب ، كما قال تعالى (٢٤ : ٤٧) ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا . ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك . وما أولئك بالمؤمنين) فنفي الإيمان عن تولى عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكن كل مسلم يكون محباً بقدر مامعه من الإسلام ، وكل مسلم لا بد أن يكون مؤمناً ، وإن لم يكن مؤمناً الإيمان المطلق ؛ لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر ، أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه ، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله ، فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل . لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً ؛ إن أعطاهم الله ذلك وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد ، ولو شككوا لشكوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا ؛ إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال ، فهؤلاء إن عرفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة ؛ وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبيهم ، فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب ، وإلا صاروا مرتابين ، وانتقلوا إلى نوع من النفاق . انتهى .

وفي هذا الحديث : أن الأعمال من الإيمان ، لأن المحبة عمل القلب .

وفيه : أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها ، فإنها محبة لله ولأجله ، تزيد زيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها ، وكل من كان محباً لله فإنما يحب في الله ولأجله كما يحب الإيمان والعمل الصالح . وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب منه . وما كان فيها ذلك فمحبة مع الله ، لما فيها من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله ، فهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله ، التي هي من كمال التوحيد ، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله ، لما يتعلق في قلوب المشركين من الإلهية التي لا تجوز إلا لله وحده .

قوله ﴿ ولهما عنه - أي البخاري ومسلم . عن أنس رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله

بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما .

أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار .

وفي رواية « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا الله الخ » ﴿ .
قوله ﴿ ثلاث ﴾ أى ثلاث خصال .

قوله ﴿ من كنَّ فيه ﴾ أى وجدت فيه تامة .

قوله ﴿ وجد بهن حلاوة الإيمان ﴾ الحلاوة هنا : هى التى يعبر عنها بالدوق ؛ لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وغذائه ، وهى شىء محسوس يجده أهل الإيمان فى قلوبهم .
قال السيوطى رحمه الله فى التوشيح « وجد حلاوة الإيمان » فيه : استعارة تخيلية .
شبه رغبة المؤمن فى الإيمان بشىء حلو ، وأثبت له لازم ذلك الشىء ، وأضافه إليه .

وقال النورى : معنى حلاوة الإيمان : استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق : وإيثار ذلك على أغراض الدنيا ، ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته ، وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم .
قال يحيى بن معاذ : حقيقة الحب فى الله : أن لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالجفاء .

قوله ﴿ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ﴾ يعنى بالسوى : ما يحبه الإنسان بطبعه ، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوهما ، فتكون « أحب » هنا على بابها .

وقال الخطابى : المراد بالحببة هنا : حب الاختيار لا حب الطبع . كذا قال .

وأما المحبة الشركية التى قد تقدم بيانها فقليلها وكثيرها ينافى محبة الله ورسوله . وفى بعض الأحاديث « أحبوا الله بكل قلوبكم » فمن علامات محبة الله ورسوله : أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله ، ويؤثر مرضاته على ماسواه ، ويسعى فى مرضاته ما استطاع ، ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكراهة ، ويتابع رسوله ويمثل أمره ويترك نهيه كما قال تعالى (٤ : ٨٠ من يطع الرسول فقد أطاع الله) فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف مانهى عنه فذلك عَمَ على عدم محبته لله ورسوله ؛ فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله ، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه . ومن لا فلا ؛ كما فى آية المحنة ونظائرها . والله المستعان .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان ؛ لأن وجود الحلاوة للشىء يتبع المحبة له . فمن أحب شيئاً

وأن يُحِبَّ المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أتقنه الله منه

واشتهاه إذا حصل له مراده، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى. قال: فخلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة المبدئ لله. وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريفها، ودفع ضدها. فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

قلت: ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته، فإنه يحب من عبده أن يطيعه. والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد.

ومن لوازم محبة الله أيضاً: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسوله والصالحين من عباده فحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال لإيمان، كما في حديث ابن عباس الآتي.

قال: وتفريفها: أن يحب المرء لا يحبه إلا الله، قال: ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف في النار.

قوله ﴿ أحب إليه مما سواهما ﴾ فيه جمع ضمير الله تعالى وضمير رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه قولان:

أحدهما: أنه نفي الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة، فإنها وحدها لاغية. وأمر بالإنفراد في حديث الخطيب^(١) إشماراً بأن كل واحد من

(١) وذلك ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث عدي بن حاتم «أن خطيباً خطب عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من يطع الله تعالى ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال له صلى الله عليه وسلم: بش الخطيب أنت. قل: من يعص الله تعالى ورسوله فقد غوى.»

قال النووي: سبب الإنكار عليه: أن الخطبة شأنها البسط والإيضاح، واجتناب الإشارات والرموز. قال: ولهذا ثبت أن رسول الله كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً لنظم عنه، قال: وإنما نفي الضمير في قوله «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» لأنه ليس خطبة وعظ وإنما هو تعليم حكم، فكلمة قل لفظه كان أقرب إلى حفظه بخلاف الخطبة اه.

أقول: ولعلها حادثة حال لها ظروفها التي اقتضت أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك. والله أعلم.

كما يكره أن يُقذف في النار .

وفي رواية : « لا يجدر أحد حلاوة الإيمان حتى » إلى آخره .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « من أحب في الله ، وأبغض في الله ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تُنال ولاية الله بذلك .

العصيانين مستقل بإلزام الغواية ؛ إذ العطف في تقدير التكرير ، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم .

الثانى : حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى ، وهذا على الجواز .

وجواب ثالث : وهو أن هذا ورد على الأصل ، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح .

قوله ﴿ كما يكره أن يقذف في النار ﴾ أى يستوى عنده الأمران . وفيه : رد على الغلاة

الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقاً ، وإن تاب منه .

والصواب : أنه إن لم يكن يتب كان نقصاً ، وإن تاب فلا ، ولهذا كان المهاجرون

والأنصار رضى الله عنهم أفضل هذه الأمة مع كونهم فى الأصل كفاراً فهداهم الله إلى

الإسلام ، والإسلام يمحو ما قبله وكذلك الهجرة ، كما صح الحديث بذلك .

قوله ﴿ وفى رواية : لا يجدر أحد ﴾ هذه الرواية أخرجه البخارى فى الأدب من صحيحه .

ولفظها « لا يجدر أحد حلاوة الإيمان حتى يجب المرء لا يجبه إلا لله ، وحتى أن يقذف فى النار

أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، وحتى يكون الله ورسوله أحب

إليه مما سواها » .

وقد تقدم أن المحبة هنا عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور والإجلال

والهيبه ولوازم ذلك ، قال الشاعر :

أهابك إجلالا . وما بك قدرة على ، ولكن ملء عين حبيبها

قوله ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « من أحب فى الله ، وأبغض فى الله ،

ووالى فى الله ، وعادى فى الله ، فإنما تُنال ولاية الله بذلك ، ولن يجدر عبد طعم الإيمان ،

وإن كثرت صلواته وصومه ، حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على

أمر الدنيا وذلك لا يجدرى على أهله شيئاً » رواه ابن جرير .

ولن يجد عبداً طعم الإيمان وإن كثرت صلواته وصومه حتى يكون كذلك . وقد
صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يُجدي على أهله شيئاً »
رواه ابن جرير .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم الجملة الأولى منه فقط .
قوله ﴿ من أحب في الله ﴾ أى أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك .
قوله ﴿ وأبغض في الله ﴾ أى أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته لأجل
ما فعلوه مما يسخط الله وإن كانوا أقرب الناس إليه ، كما قال تعالى (٥٨ : ٢٢) لا تجد قوماً
يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله - الآية) .

قوله ﴿ ووالى في الله ﴾ هذا والذي قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى ، فمن أحب الله تعالى
أحب فيه ، ووالى أوليائه ، وعادى أهل معصيته وأبغضهم ، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره .
وكما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها ، وبكاملها يكمل توحيد
العبد ، ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه ؛ فقلّ ومستكثر ومحروم .

قوله ﴿ فإيما تنال ولاية الله بذلك ﴾ أى توليه لعبده . و « ولاية » بفتح الواو لا غير :
أى الأخوة^(١) والمحبة والنصرة ، وبالسكسر الإمارة ، والمراد هنا الأول . ولأحد والطبراني
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله .
فإذا أحب لله وأبغض لله ، فقد استحق الولاية لله » وفي حديث آخر « أوثق عرى الإيمان
الحب في الله والبغض في الله عز وجل » رواه الطبراني .

قوله ﴿ ولن يجد عبداً طعم الإيمان ﴾ إلى آخره . أى لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته
وسروره وإن كثرت صلواته وصومه ، حتى يكون كذلك ، أى حتى يحب في الله ، ويبغض
في الله ، ويعادى في الله ، ويوالى فيه .
وفي حديث أبي أمامة مرفوعاً « من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله ، فقد
استكمل الإيمان » رواه أبو داود .

قوله ﴿ وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا . وذلك لا يجدي على أهله شيئاً ﴾
أى لا ينفعهم بل يضرهم ، كما قال تعالى (٤٣ : ٦٧) الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو

(١) لعل كلمة « الأخوة » زائدة أو مبدلة عن كلمة أخرى تناسب المقام .

وقال ابن عباس في قوله تعالى (١٦٦:٢) وتقطعت بهم الأسباب) قال « المودة »

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة .

إلا المتقين) فإذا كانت البلوى قد عمت بهذا في زمن ابن عباس خير القرون فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة ، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان ، وقد وقع ما أخبر به صلى الله عليه وسلم بقوله « بدأ الإسلام غربياً وسيعود غربياً كما بدأ »^(١) . وقد كان الصحابة رضى الله عنهم من المهاجرين والأنصار في عهد نبيهم صلى الله عليه وسلم وعهد أبي بكر وعمر رضى الله عنهما يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه محبة في الله وتقرّباً إليه ، كما قال تعالى (٥٩ : ٩) ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال « لقد رأيتنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما منا أحد يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم » رواه ابن ماجه .

قوله ﴿ وقال ابن عباس في قوله تعالى (٢ : ١٦٦) وتقطعت بهم الأسباب) قال « المودة ﴾ هذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه قوله ﴿ قال : المودة ﴾ أى التى كانت بينهم فى الدنيا خاتمتهم أحوج ما كانوا إليها ، وتبرأ بعضهم من بعض ، كما قال تعالى (٢٩ : ٢٥) وقال إنما اتخذتم من دون الله أولئنا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ، وماؤاكم النار وما لكم من ناصرين) .

قال العلامة ابن القيم فى قوله تعالى (٢ : ١٦٦ ، ١٦٧) إذ تبرأ الذى اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب - الآيتين) فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهدى ، وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومنهجهم ، وهم مخالفون لهم سالكين غير طريقهم ، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم من مخالفتهم ، فيتبرأون منهم يوم القيامة . فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله . وهذا حال كل من اتخذ من دون الله وليجة وأولياء ، يوالى لهم ، ويعادى لهم ، ويرضى لهم ، ويفض لهم ،

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة . والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود . وقد شرحه الحافظ ابن رجب شرحاً نفيساً سماه « كشف الكربة فى وصف حال أهل القرية » طبع مراراً

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : وجوب محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهل والمال .

الرابعة : نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام .

الخامسة : أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها .

السادسة : أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أحد

طعم الإيمان إلا بها .

السابعة : فهم الصحابي للواقع : أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا .

الثامنة : تفسير (وتقطعت بهم الأسباب) .

التاسعة : أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً .

العاشر : الوعيد على من كان الثمانية ^(١) أحب إليه من دينه .

الحادية عشرة : أن من اتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر .

فإن أعماله كلها باطلة ، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه ، إذ لم يجرد مولاته ومعاداته وحبه وبغضه وانتصاره وإيثاره لله ورسوله ، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله . وقطع تلك الأسباب فيقطع يوم القيامة كل سبب ووصلة ووسيلة ومودة كانت لغير الله ، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربّه . وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله ، وتجريده عبادته لله وحده ولوازمها : من الحب والبغض ، والعطاء والمنع ، والموالاته والمعادات ، والتقريب والإبعاد ، وتجريد متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره ، فضلاً عن الشرك بينه وبين غيره ؛ فضلاً عن تقديم قول غيره عليه . فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه ، وهذه هي النسبة بين العبد وربّه ، وهي نسبة العبودية المحضة ، وهي آخيته التي يجول ما يجول وإليها مرجعه ، ولا تتحقق إلا بتجريده متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم ، وما عرفت إلا بهم ، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم . وقد قال تعالى (٢٥ : ٢٣)

(١) هي الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن .

باب

قول الله تعالى: (٣ : ١٧٥) إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه ، فلا تخافوهم
وخافون إن كنتم مؤمنين).

وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً (فهذه هي الأعمال التي كانت في الدنيا على
غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه ، يحملها الله هباء منثوراً ، لا ينتفع منها صاحبها بشيء
أصلاً ، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة : أن يرى سعيه ضائعاً . وقد سعد
أهل السعي النافع بسعيهم ، انتهى ملخصاً .

قوله ﴿باب قول الله تعالى (٣ : ١٧٥) إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه ، فلا تخافوهم
وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ .

الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها ، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله
تعالى . قال الله تعالى (٢١ : ٢٨) وهم من خشيته مشفقون) وقال تعالى (١٦ : ٥٠) يخافون
ربهم من فوقهم) وقال تعالى (٥٥ : ٤٦) ولن خاف مقام ربه جنتان) وقال تعالى (١٦ : ٥١)
فإبى فارهبون) وقال تعالى (٥ : ٤٤) فلا تخشوا الناس واخشون) وأمثال هذه الآيات
في القرآن كثير .

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام .

أحدها : خوف السر ، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما
يكره ، كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام إنهم قالوا له (١١ : ٥٤ ، ٥٥) إن نقول إلا
اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال : إني أشهد الله ، واشهدوا أني برىء مما تشركون من دونه
فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون) وقال تعالى (٣٩ : ٣٦) ويخوفونك بالذين من دونه) وهذا
هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان ، يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد إذا
أنسكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله ، وهذا ينافي التوحيد .

الثاني : أن يترك الإنسان ما يجب عليه ، خوفاً من بعض الناس ، فهذا محرم ، وهو نوع
من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد ، وهذا هو سبب نزول هذه الآية ، كما قال تعالى
(٣ : ١٧٣ - ١٧٥) الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا

وقوله : (٩ : ١٨) إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فمسي أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

حسبنا الله ونعم الوكيل . فاقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوه وخافون إن كنتم مؤمنين) وفي الحديث « إن الله يقول للعبد يوم القيامة : مامنك : إذا رأيت المنكر أن لا تغيره ؟ فيقول : رب خشية الناس ، فيقول : إياي كنت أحق أن تخشى » (١) .

الثالث : الخوف الطبيعي ، وهو الخوف من عدو أو سعي أو غير ذلك . فهذا لا يذم . كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام (٢٨ : ٢١) فخرج منها خائفاً يترقب - الآية) .

ومعنى قوله (إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه) أى يخوفكم أوليائه (فلا تخافوهم وخافون) وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره ، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله ، فلا يخافون إلا إياه ، وهذا هو الإخلاص الذى أمر الله به عباده ورضيه منهم . فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة أعطاهم ما يرجون وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (٣٩ : ٣٦) أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه - الآية) .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن كيد عدو الله : أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، لئلا يجاهدوهم ، ولا يأمرهم بمعروف ، ولا ينههم عن منكر . وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه . ونهاها أن يخافهم . قال : والمعنى عند جميع المفسرين : يخوفهم بأوليائه . قال قتادة : يعظمهم فى صدوركم ، فكلمة قوى إيمان العبد زال خوف أوليائه الشيطان من قلبه ، وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم . فدللت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان .

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٩ : ١٨) إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله - الآية ﴾ .

(١) رواه ابن ماجه عن أبى سعيد بلفظ « لا يحقر أحدكم نفسه ، قالوا يارسول الله ، كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقول فيه ، فيقول الله يوم القيامة : مامنك أن تقول فى كذا : كذا وكذا ؟ فيقول : خشيت الناس . فيقول : إياي كنت أحق أن تخشى » ذكره ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى فى سورة المائدة (لمن الذين كفروا من بنى إسرائيل طى لسان داود وعيسى ابن مريم - الآيات) .

وقوله (٢٩ : ١٠) ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أودى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله - الآية) .

أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر ، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بحوارحهم ، وأخلصوا له الخشية دون من سواه ، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين ؛ لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح ، والمشرك وإن عمل فعمله (٢٤ : ٣٩) كسراب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) أو (١٤ : ١٨) كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) وما كان كذلك فالعدم خير منه ، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع ، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة .

قوله ﴿ ولم يخش إلا الله ﴾ قال ابن عطية : يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية . ويذنبى أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه . وقال ابن القيم رحمه الله : الخوف عبودية القلب . فلا يصلح إلا لله ، كالذل والإناية والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب .

قوله ﴿ فسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : « يقول : إن أولئك هم المهتدون ، وكل « عسى » في القرآن فهى واجبة (١) » وفى الحديث « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) » رواه أحمد والترمذى والحاكم عن أبي سعيد الخدرى قوله ﴿ (٢٩ : ١٠) ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أودى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت في قلوبهم : إنهم إذا جاءتهم محبة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نعمة الله بهم ، فارتدوا عن الإسلام ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : « يعنى فتنته أن يرتد عن دينه إذا أودى في الله » .

(١) قال ابن كثير : قال ابن عباس « كقوله لنبىه صلى الله عليه وسلم (عسى أن يعثك ربك مقاماً محموداً) وهى الشفاعة . وقال محمد بن إسحاق بن يسار « وعسى فى القرآن من الله حق »

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم : آمنا ، وإما أن لا يقول ذلك . بل يستمر على السيئات والكفر ، فمن قال : آمنا امتحنه ربه . وابتلاه وفتنه . والفتنة : الابتلاء والاختبار ، ليتبين الصادق من الكاذب ، ومن لم يقل : آمنا ، فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه . فمن آمن بالرسول وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه وابتلى بما يؤله ، ومن لم يؤمن بهم ولم يطعمهم عوقب في الدنيا والآخرة وحصل له ما يؤله ، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم . فلا بد من حصول الألم لكل نفس ، آمنت أو رغبت عن الإيمان ، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، والمعرض عن الإيمان تحصل له الالذة ابتداء ، ثم يصير في الألم الدائم ، والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، وإن لم يوافقهم آذوه وعذوبه ، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم ، كمن عنده دين وتقى حلّ بين قوم فجّار ظلمة لا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوتهم عنهم ، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء ، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم ، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم .

فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمعاوية رضي الله عنه « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئا^(١) » .

فمن هداه الله وألمه رشده ، ووقاه الله شر نفسه ، امتنع من الموافقة على فعل المحرم ، وصبر على عداوتهم ، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما كانت للرسول وأتباعهم .

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة وأنه إذا أودى في الله جعل فتنة الناس له ، وهي أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه ، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم ، جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به : ككذاب الله الذي فرّ منه المؤمنون بالإيمان .

فالمؤمنون لسكال بصيرتهم فرّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان ، وتحملوا ما فيه من

(١) رواه الترمذى عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وسيأتي في (ص ٣٥٠) .

عن أبي سعيد رضى الله عنه مرفوعاً : « إن من ضَعَف اليقين :

الأم الزائل المفارق عن قرب . وهذا لضعف بصيرته فرّ من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله . فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله . وغُبن كل الغبن إذ استجار من الرّمضاء بالنار . وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد . وإذا نصر الله جنده وأوليائه قال : إني كنت معكم ، والله أعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق . انتهى .

وفي الآية : رد على المرجئة والسكرامية ، ووجهه : أنه لم ينفع هؤلاء قولهم : آمنا بالله . مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم في الله ، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل . فلا يصدق الإيمان الشرعى على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة : التصديق بالقلب وعمله ، والقول باللسان ، والعمل بالأركان . وهذا قول أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وفيه الخوف من مداهنة الخلق في الحق . والمعصوم من عصمه الله .

قوله ﴿ عن أبي سعيد رضى الله عنه مرفوعاً ﴾ « إن من ضَعَف اليقين : أن ترضى الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتكَ الله : إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يردّه كراهية كارهه » .

هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي ، وأعله بمحمد بن مروان السدى وقال : ضعيف ، وفيه أيضاً عطية العوفى : ذكره الذهبي في الضعفاء والمتروكين ، ومعنى الحديث صحيح ، وتماهه : « وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » .

قوله ﴿ إن من ضَعَف اليقين ﴾ الضعف يضم ويحرك ، ضد القوة ، ضَعَف ككرم ونصر ، ضعفاً ، وضعفاً ، وضعفاً ، وهو ضعيف وضعوف وضعفان ، والجمع : ضعاف وضعفاء وضعفة وضعفَى وضعافى . أو الضَعَف - بالفتح - فى الرأى ، وبالضم فى البدن ، فهى ضعيفة وضعوف . و « اليقين » كمال الإيمان . قال ابن مسعود « اليقين الإيمان كله ، والصبر نصف الإيمان » رواه أبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الزهد من حديثه مرفوعاً . قال : ويدخل فى ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق ، كما فى حديث ابن عباس مرفوعاً « فإن

أَنْ تَرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُوْتِكَ اللَّهُ ، إِنْ رِزْقٌ لَا يُجْرُهُ حَرَصٌ حَرِيصٌ ، وَلَا يَرُدُّهُ كِرَاهِيَةٌ كَارِهِةٌ .

استطعت أن تعمل بالرضى فى اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ماتكره خيراً كثيراً » وفى رواية « قلت : يا رسول الله كيف أصنع باليقين ؟ قال : أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك » .

قوله ﴿ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ ﴾ أى : تؤثر رضاهم على رضى الله ، وذلك إذا لم يتم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنحه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربّه ومليكه ، الذى يتصرف فى القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب . وبهذا الاعتبار يدخل فى نوع من الشرك ؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله . وتقرب إليه بما بسخط الله . ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله ، ووقف لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله ، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافى كماله ، ومعرفة توحيده فى ربوبيته وإلهيته . وبالله التوفيق .

قوله ﴿ وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ ﴾ أى على ما وصل إليك من أيديهم ، بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه ، فإن المنفضل فى الحقيقة هو الله وحده الذى قدره لك وأوصله إليك ، وإذا أراد أمراً قيّض له أسباباً . ولا ينافى هذا حديث « من لا يشكر الناس لا يشكر الله »^(١) لأن شكرهم إما هو بالدعاء لهم ، لكون الله ساقه على أيديهم ، فتدعو لهم أو تكافئهم ، لحديث « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه »^(٢) فإضافة الصنيعة إليهم لكونهم صاروا سبباً فى إيصال المعروف إليك ، والذى قدره وساقه هو الله وحده » .

قوله ﴿ وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُوْتِكَ اللَّهُ ﴾ لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم . فلو قدره لك لساقته المقادير إليك . فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده ، وأنه هو الذى يرزق العبد بسبب وبلا سبب ، ومن حيث لا يحتسب ، لم يمدح مخلوقاً على رزق ، ولم يذمه على منع ، ويفوض أمره إلى الله ، ويعتمد عليه فى أمر دينه ودنياه . وقد قرر النبي هذا

(١) رواه أبو داود والترمذى - وقال : حسن صحيح - وابن حبان عن أبي هريرة .

(٢) رواه أبو داود والنسائى بإسناد صحيح . كذا فى كشف الحفاء .

وعن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس » رواه ابن حبان فى صحيحه .

المعنى بقوله فى الحديث « إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره » كما قال تعالى (٣٥ : ٢ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : اليقين يتضمن اليقين فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدييره ، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنا لا بوعده ولا برزقه ، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك : إما ميل إلى ما فى أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم ، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة . فإنك إذا أرضيت الله نصرته ورزقك وكفالك ومؤوتهم . وإرضائهم بما بسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم ، وذلك من ضعف اليقين . وإذا لم يقدر لك ما تنظر أنهم يفعلونه معك . فالأمر فى ذلك إلى الله لا لهم ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر كان ذلك من ضعف يقينك ، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تدمهم من جهة نفسك وهواك ، ولكن من حمد الله ورسوله منهم فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم . ولما قال بعض وفد بنى تميم « أى محمد أعطنى . فإن حمدى زين وذمى شين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : ذاك الله » . ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأعمال من مسمى الإيمان .

قوله ﴿ وعن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس » رواه ابن حبان فى صحيحه ﴾ .

هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ ، ورواه الترمذى عن رجل من أهل المدينة قال « كتب معاوية رضى الله عنه إلى عائشة رضى الله عنها : أن اكتبى لى كتاباً توصينى فيه ، ولا تكترى على » ، فكتبت عائشة رضى الله عنها إلى معاوية : سلام الله عليك ، أما بعد :

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : تفسير آية المنكبوت .

الرابعة : أن اليقين يضعف ويقوى .

فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله . وكله الله إلى الناس . والسلام عليك » رواه أبو نعيم في الحلية .

قوله ﴿ من التمس ﴾ : أى طلب .

قال شيخ الإسلام : وكتبت عائشة إلى معاوية ، وروى أنها رفعت « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » هذا لفظ المرفوع . ولفظ الموقوف « من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً » وهذا من أعظم الفقه فى الدين ؛ فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح ، والله يتولى الصالحين ، والله كاف عبده (٦٥ : ٢ ، ٣) ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب) والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب . وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك . لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض ، وإذا تبين لهم العاقبة « ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » كالظالم الذى يعرض على يديه . وأما كون حامده ينقلب ذاماً ، فهذا يقع كثيراً ويحصل فى العاقبة . فإن العاقبة للتعوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم اه .

وقد أحسن من قال :

إذا صح منك الود يا غاية المنى فكل الذى فوق التراب تراب
قال ابن رجب رحمه الله : فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم

- الخامسة : علامة ضعفه . ومن ذلك هذه الثلاث .
السادسة : أن إخلاص الخوف لله من الفرائض .
السابعة : ذكر ثواب من فعله .
الثامنة : ذكر عقاب من تركه .

باب

قول الله تعالى : (٥ : ٢٣ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) .

طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب ؟
إن هذا الشيء عجاب .

وفي الحديث : عقوبة من خاف الناس وآثر رضام على الله ، وأن العقوبة قد تكون
في الدين . عياداً بالله من ذلك . كما قال تعالى (٩ : ٧٧ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم
يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٥ : ٢٣ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) ﴾ .
قال أبو السعادات : يقال : توكل بالأمر ، إذا ضمن القيام به ، ووكلت أمرى إلى
فلان . إذا اعتمدت عليه ، ووكل فلان فلاناً . إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته ، أو محجراً
عن القيام بأمر نفسه . ٥١ .

وأراد المصنف رحمه الله : بهذه الترجمة بالآية : بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه
لله تعالى ، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر : أى وعلى الله فتوكلوا لا على غيره ، فهو من أجمع
أنواع العبادة وأعظمها ، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة ، فإنه إذا اعتمد على الله فى جميع
أموره الدينية والدنيوية ، دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى ، فهو
من أعظم منازل (إياك نعبد ، وإياك نستعين) فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة
إلا بكامل التوكل على الله ، كما فى الآية ، وكما قال تعالى (١٠ : ٨٤ وقال موسى يا قوم إن
كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقوله (٧٣ : ٩ رب المشرق والمغرب ،
لا إله إلا هو فاتخذهُ وكيلاً) . والآيات فى الأمر به كثيرة جداً . قال الإمام أحمد رحمه الله
« التوكل عمل القلب » .

وقال ابن القيم فى معنى الآية المترجم بها : فجعل التوكل على الله شرطاً فى الإيمان ، فدل على

وقوله (٨ : ٢) إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون .

انتفاء الإيمان عند انتفائه ، وفي الآية الأخرى (١٠ : ٨٤) وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين (فجعل دليل صحة الإسلام التوكل ؛ وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى ؛ وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد . والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، وبين التوكل والإيمان ، وبين التوكل والتقوى ، وبين التوكل والإسلام ، وبين التوكل والهداية .

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، ولجميع أعمال الإسلام ، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس ، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن ، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : وما رجا أحد مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك (٢٢ : ٣١) وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) .

قال الشارح رحمه الله تعالى : قلت : لكن التوكل على الله قسمان : أحدهما : التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجا مطلوبهم : من نصر أو حفظ أو رزق أو شفاعة ، فهذا شرك أكبر . الثاني : التوكل في الأسباب الظاهرة ، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق ، أو دفع أذى ونحو ذلك ، فهو نوع شرك أصغر . والوكالة الجائزة : هي توكيل الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه ، لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وكل فيه ، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه ، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها ، ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب .

قال ﴿ وقول الله تعالى (٨ : ٢ - ٤) إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم - الآيات) ﴾ .

قال ابن عباس في الآية « المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ،

وقوله (٨ : ٦٤) يا أيها النبي حَسْبِكَ اللهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

ولا يُؤدُّونَ زكاةَ أموالهم ، فأخبر اللهُ أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر اللهُ وجلت قلوبهم) فأدوا فرائضه^(١) » رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . وَوَجَلُّ الْقَلْبُ مِنَ اللَّهِ يَسْتَلْزِمُ الْقِيَامَ بِفِعْلٍ مَا أَمَرَ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ . قال السدي : (الذين إذا ذكر اللهُ وجلت قلوبهم) . هو الرجل يريد أن يظلم ، أو قال : يَهْمُ بِمَعْصِيَةٍ ، فيقال له : اتق اللهُ ، اتق اللهُ ، فيجمل قلبه^(٢) » رواه ابن أبي شيبة وابن جرير .

قوله ﴿ وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ استدلل الصحابة رضي اللهُ عنهم والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرهما على زيادة الإيمان ونقصانه . قال عمير بن حبيب الصحابي « إن الإيمان يزيد وينقص ، فقيل له : وما زيادته ونقصانه ؟ قال : إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته ، وإذا غفلنا ونسينا وضعنا ، فذلك نقصانه » رواه ابن سعد .

وقال مجاهد « الإيمان يزيد وينقص ، وهو قول وعمل » رواه ابن أبي حاتم . وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم رحمهم اللهُ تعالى . قوله ﴿ وَعَلَى رِبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي يعتمدون عليه بقلوبهم ، مفوضين إليه أمورهم فلا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يرغبون إلا إليه ، يعلمون أن ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده ، والمعبود وحده لا شريك له . وفي الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان ، وهي : الخوف ، وزيادة الإيمان ، والتوكل على الله وحده . وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان ، وحصول أعماله الباطنة والظاهرة . مثال ذلك : الصلاة ، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها ، وأدى الزكاة كما أمره اللهُ استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات ، وترك جميع المحرمات ، كما قال تعالى (٢٩ : ٤٥) إِنْ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ) .

قال ﴿ وَقَوْلُهُ (٨ : ٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » قال ابن القيم

- (١) تمامه عند ابن جرير « (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) يقول : تصديقاً (وعلى ربهم يتوكلون) يقول : لا يرجون غيره » .
(٢) عن ابن جرير : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهيم بمعصية ، أحسبه قال : فينزع عنه .

وقوله (٦٥ : ٣) ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

رحمه الله : أى الله وحده كافيك وكافى أتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

وقيل : المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون .

قال ابن القيم رحمه الله ، وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه ؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده كالنوكل والتقوى والعبادة ، قال الله تعالى (٨ : ٦٢) وإن يريدوا أن يخذعوك فإنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هو الذى أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وبالْمُؤْمِنِينَ) ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده ، وأئني على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب ، فقال تعالى (٣ : ١٧٣) الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله ، ونظير هذا قوله سبحانه (٩ : ٥٩) وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون) فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول ، وجعل الحسب له وحده ، فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال (إنا إلى الله راغبون) فجعل الرغبة إليه وحده ، كما قال تعالى (وإلى ربك فارغب) فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده ، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له ، سبحانه وتعالى . انتهى .

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة . فإذا كان هو الكافي لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه ، ومتى التفت بقلبه إلى سواء وَكَلَّهُ اللَّهُ إلى من التفت إليه ، كما فى الحديث . « مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكَلَّ إِلَيْهِ » .

قال ﴿ وقول الله تعالى (٦٥ : ٣) ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ﴾ .

قال ابن القيم رحمه الله وغيره : أى كافيه . ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لا بد منه ، كالحر والبرد والجوع والعطش : وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه فلا يكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء ، وفى الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذى يتشفي به منه ، قال بعض السلف : جعل الله

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين أُلتي في النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له : (إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) » . رواه البخارى والنسائى .

لكل عمل جزاء من نفسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته ، فقال (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فلم يقل : فله كذا وكذا من الأجر . كما قال فى الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه . فلو توكل العبد على الله حق توكله ، وكادته السموات والأرض ومن فيهن ، لجعل الله له مخرجاً ، وكفاه رزقه ونصره . انتهى . وفى أثر رواه أحمد فى الزهد عن وهب بن منبه قال « قال الله عز وجل فى بعض كتبه : بعزتى ، إنه من اعتصم بى فكادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن ، فإنى أجعل له من ذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بى ، فإنى أقطع يديه من أسباب السماء ، وأخسف من تحت قدميه الأرض ، فأجعله فى الهواء ثم أكله إلى نفسه ، كفى بى لعبدى مآلاً ، إذا كان عبدي فى طاعتي أعطيه قبل أن يسألنى ، وأستجيب له قبل أن يدعونى ، فأنا أعلم بحاجته التى ترفق به منه » .

وفى الآية : دليل على فضل التوكل ، وأنه أعظم الأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار ؛ لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط . فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه ؛ لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له ، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسباً له .

وفىها : تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل ، لأنه تعالى ذكر التقوى ، ثم ذكر التوكل ، كما قال تعالى (٥ : ١١) واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فجعل التوكل مع التقوى الذى هو قيام بالأسباب المأمور بها ، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض ، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل ، فلا ينبغى للعبد أن يجعل توكله عجزاً ، ولا يعجزه توكلاً ، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التى لا يتم المقصود إلا بها كلها . ذكره ابن القيم بمعناه . قال ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها : إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين أُلتي فى النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له (إنَّ الناس قد

فيه مسائل :

الأولى : أن التوكل من الفرائض .

الثانية : أنه من شروط الإيمان .

الثالثة : تفسير آية الأنفال .

الرابعة : تفسير الآية في آخرها .

الخامسة : تفسير آية الطلاق .

السادسة : عظيم شأن هذه الكلمة : أنها قول إبراهيم ومحمد صلى الله عليه

وسلم في الشدائد .

جمعوا لكم فآخشوم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) ﴿ رواه البخارى والنسائى .
قوله ﴿ حسبنا الله ﴾ أى كافينا ، فلا تتوكل إلا عليه . قال تعالى (٣٩ : ٣٦ أليس الله
بكاف عبده ؟) .

قوله ﴿ ونعم الوكيل ﴾ أى نعم الموكول إليه ، كما قال تعالى (٢٢ : ٧٨ واعتصموا بالله هو
مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير) ومخصوص « نعم » محذوف تقديره « هو » .
قال ابن القيم رحمه الله : هو حسب من توكل عليه وكافى من لجأ إليه ، وهو الذى يؤمّن
خوف الخائف ، ويُبجّر المستجير ، فن تولاه واستنصر به وتوكل عليه ، وانقطع بكليته إليه ،
تولاه وحفظه وحرصه وصانه ، ومن خافه واتقاه ، أمنه ، يخاف ويحذر ، ويجلب إليه
ما يحتاج إليه من المنافع .

قوله ﴿ قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقى في النار ﴾ قال تعالى (٢١ : ٦٨-٧٠
قالوا حرّوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم .
وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) .

قوله ﴿ وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوم
فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ﴾ وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من
أحد « بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكفرة عليهم ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم

باب

قول الله تعالى: (٧: ٩٩) أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)

في سبعين راكباً حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان . فرجع إلى مكة بن معه ، ومرّ به ركب من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة . قال : فهل أنتم مبلغون محمداً عنى رسالة ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . فر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان . فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل « ففى هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة ، وأنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام فى الشدائد . وجاء فى الحديث « إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . قوله « باب قول الله تعالى : ﴿ (٧ : ٩٩) أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ .

قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب وأنه ينافى كمال التوحيد ، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك . وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة .

ومعنى الآية : أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسول بين أن الذى حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه . كما قال تعالى (٧: ٩٦-٩٨) أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلبعون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (أى الهالكون . وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالشراء والنعم ، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرأ .

قال الحسن رحمه الله : « من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له » . وقال قتادة « بفت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سلوتهم ونعمتهم وغررتهم . فلا تغفروا بالله » .

وفى الحديث « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يجب فإنما هو استدراج » رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم .

وقوله (١٥ : ٥٦) ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) .

وقال إسماعيل بن رافع « من الأمن من مكر الله : إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة » رواه ابن أبي حاتم .

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف « يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه ، ويعمل لهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر » . وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك . ذكره ابن جرير بمعناه .

قال ﴿ وقول الله تعالى (١٥ : ٥٦) ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) ﴾ .

القنوط : استبعاد الفرج واليأس منه . وهو يقابل الأمن من مكر الله . وكلاهما ذنب عظيم . وتقدم مافيه لمنافاته لكمال التوحيد .

وذكر المصنف رحمه الله تعالى هذه الآية مع التي قبلها تنبيهاً على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته ، بل يكون خائفاً راجياً ، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعته ، ويرجو رحمته كما قال تعالى (٣٩:٩) آمن هو فانت آناه الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) وقال (٢:٢١٨) إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان : ليقوع العبد في المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك ، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفاً من الله تعالى وهرباً من عقابه ، وطمعاً في المغفرة ، ورجاء لثوابه .

والمعنى : أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم عليه السلام ، لما بشرته الملائكة بابنه إسحاق (١٥ : ٥٤) قال أبشروني على أن مسني الكبير ، فهم تبشرون ؟) لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها . والله على كل شيء قدير ، فقالت الملائكة (بشرناك بالحق) الذي لا ريب فيه . فإن الله إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون (فلا تكن من القانطين) أي من الآيسين ، فقال عليه السلام (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم ؛ لكنه - والله أعلم - قال ذلك على وجه التمجيد .

قوله ﴿ إلا الضالون ﴾ قال بعضهم : إلا المخطئون طريق الصواب ، أو إلا الكافرون .

كقوله (١٢ : ٨٧) إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم » سئل
عن الكبائر؟ فقال : الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله »
وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « أكبر الكبائر : الإشراف بالله ، والأمن

قوله ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم » سئل عن
الكبائر؟ فقال : الشرك بالله ، واليأس من رَوْحِ الله ، والأمن من مكر الله ﴾ .
هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن
ابن عباس : ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر . فقال ابن معين : ثقة . وليّنه أبو حاتم .
وقال ابن كثير : في إسناده نظر . والأشبه أن يكون موقوفاً .

قوله ﴿ الشرك بالله ﴾ هو أكبر الكبائر . قال ابن القيم رحمه الله : الشرك بالله هضمٌ
للربوبية ، وتنقُّصٌ للإلهية ، وسوء ظن برب العالمين . انتهى .
ولقد صدق ونصح . قال تعالى (٦ : ١ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وقال تعالى :
(٣١ : ١٣ إن الشرك لظلم عظيم) ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه .

قوله ﴿ واليأس من روح الله ﴾ أى قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه ،
وذلك إساءة ظن بالله ، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته .

قوله ﴿ والأمن من مكر الله ﴾ أى من استدراجه للعبد ، وسلبه ما أعطاه من الإيمان ،
نعوذ بالله من ذلك . وذلك جهل بالله وبقدرته ، وثقة بالنفس وعجب بها .

واعلم أن هذا الحديث لم يُرد به حصَرُ الكبائر في الثلاث ، بل الكبائر كثيرة وهذه
الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة . وضابطها : ما قاله المحققون من
العلماء : كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب . زاد شيخ الإسلام ابن تيمية
رحمه الله : أو نقي الإيمان .

قلت : ومن برىء منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو قال « ليس منا من فعل كذا وكذا »
وعن ابن عباس رضى الله عنهما « هى إلى سبعائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه
لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار » .

قوله ﴿ وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال « أكبر الكبائر : الإشراف بالله ، والأمن

من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من رَوْحِ الله « رواه عبد الرزاق .
فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الأعراف .

الثانية : تفسير آية الحجر .

الثالثة : شدة الوعيد فيمن آمن مكر الله .

الرابعة : شدة الوعيد في القنوط .

باب

﴿ من الإيمان بالله : الصبر على أقدار الله ﴾

من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله « رواه عبد الرزاق » .

ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضى الله عنه .

قوله ﴿ أكبر الكبائر : الإشراف بالله ﴾ أى فى ربوبيته أو عبادته . وهذا بالإجماع .

قوله ﴿ والقنوط من رحمة الله ﴾ قال أبو السعادات : هو أشد اليأس .

وفيه : التنبيه على الرجاء والخوف ، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس ، بل يرجو رحمة الله .

وكان السلف يستحبون أن يقوى فى الصحة الخوف ، وفى المرض الرجاء . وهذه طريقة

أبي سليمان الداراني وغيره . قال : وينبغى للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ؛ فإذا غلب

الرجاء الخوف فسد القلب . قال تعالى (٦٧ : ١٢) إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة

وأجر كبير) وقال (٢٤ : ٣٧) يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) وقال تعالى (٢٣ : ٦٠ ، ٦١)

والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجيلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى

الخيرات وهم لها سابقون) وقال تعالى (٣٩ : ٩) آمنن هو قانت آناه الليل ساجداً وقائماً

يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه - الآية) . قدم الحذر على الرجاء فى هذه الآية .

قوله ﴿ باب من الإيمان بالله : الصبر على أقدار الله ﴾

قال الإمام أحمد : ذكر الله تعالى الصبر فى تسعين موضعاً من كتابه . وفى الحديث

الصحيح « الصبر ضياء » رواه أحمد ومسلم ، وللبخارى ومسلم مرفوعاً « ما أعطى أحد عطاء خيراً

وأوسع من الصبر » قال عمر رضى الله عنه : « وجدنا خير عيشنا بالصبر » رواه البخارى .

وقوله تعالى (٦٤ : ١١) ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم .
قال علقمة « هو الرجلُ تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم »

قال علي رضي الله عنه « إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد - ثم رفع صوته -
فقال : ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له » .

واشتقاقه : من صبر إذا حبس ومنع . والصبر حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان
عن التشكي والتسخط ، والجوارح عن لطم الحدود وشق الجيوب ونحوها . ذكره ابن القيم
رحمه الله .

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام : صبر على ما أمر الله به ، وصبر عما نهى عنه ، وصبر على
ما قدره من المصائب .

قوله ﴿ وقول الله تعالى (١١ : ٦٤) ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ .
وأول الآية (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) أي بمشيئته وإرادته وحكمته ، كما قال
في الآية الأخرى (٥٧ : ٢٢) ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب
من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير) وقال (٢ : ١٥٥ - ١٥٧) وبشر الصابرين الذين
إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة
وأولئك هم المهتدون) .

قوله ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ قال ابن عباس في قوله (إلا بإذن الله) « إلا بأمر الله »
يعنى عن قدره ومشيئته (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) أي من أصابته مصيبة فعمل أنها بقدر
الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاتته من الدنيا هدى في
قلبه . وبقينا صادقا . وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه .

قوله ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته .
وذلك يوجب الصبر والرضا .

قوله ﴿ قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم ﴾ .
هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

وعلقمة : هو ابن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي . ولد في حياة النبي صلى الله
عليه وسلم ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رضي الله

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ : الطعنُ في النسب ، والنياحة على الميت » ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً : « ليس منّا من ضرب الحدود ، وشقَّ

عنهم . وهو من كبار التابعين وأجلّهم وعلماهم وثقاتهم . مات بعد الستين .

قوله ﴿ هو الرجل تصيبه المصيبة - الخ ﴾ هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان . قال « كنا عند علقمة فقرأ عليه هذه الآية (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم » هذا سياق ابن جرير .

وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان . قال سعيد بن جبير (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) يعنى يسترجع يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . وفي الآية : بيان أن الصبر سبب لهداية القلوب ، وأنها من ثواب الصابرين .

قوله ﴿ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت » .

أى : هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية ، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى ، وورثه علماً وإيماناً يستضىء به . لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً كالكفر المطلق . كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً بالإيمان المطلق . وفرق بين الكفر المعرف باللام كما في قوله « ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة^(١) » وبين كفر منكّر في الإثبات .

قوله ﴿ الطعن في النسب ﴾ أى عيبه ، يدخل فيه أن يقال : هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه .

قوله « والنياحة على الميت » أى رفع الصوت بالندب ، وتعداد فضائل الميت ؛ لما فيه من التسخن على القدر المنافي للصبر ، كقول النائمة : واعضداه ، واناصراه ، ونحو ذلك . وفيه : دليل على أن الصبر واجب ، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة .

قوله « ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً » ليس منّا من ضرب الحدود ، وشق

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن جابر بن عبد الله بألفاظ متقاربة .

الجيوب ، ودعا بدَعْوَى الجاهلية .

الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية ﴿ .

هذا من نصوص الوعيد . وقد جاء عن سفیان الثوري وأحمد كراهية تأويلها ؛ ليسكون أوقع في النفوس وأبلغ ، في الزجر ، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب .
قوله ﴿ من ضرب الحدود ﴾ وقال الحافظ : خُص الخلد لكونه الغالب ، وإلا فضرِب بقية الوجه مثله .

قوله ﴿ وشق الجيوب ﴾ هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب ، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزناً على الميت .

قوله ﴿ ودعا بدعوى الجاهلية ﴾ قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : هو ندب الميت . وقال غيره : هو الدعاء بالويل والثبور . وقال ابن القيم رحمه الله : الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصية ، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايع ، وتفضيل بعضهم على بعض ، يدعو إلى ذلك ، ويوالى عليه ويعادى . فكل هذا من دعوى الجاهلية .

وعند ابن ماجة وصححه ابن حبان عن أبي أمامة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الخمامة وجهها ، والشاقة جيها ، والداعية بالويل والثبور » .

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر ، وقد يعنى عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقاً ، وليس على وجه النوح والتسخط . نص عليه أحمد رحمه الله ؛ لما وقع لأبي بكر وفاطمة رضى الله عنهما لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء ؛ لما في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مات ابنه إبراهيم قال « تدمع العين ويجزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا بك يا إبراهيم لحزونون^(١) » وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق إلى إحدى بناته^(٢) ولها صبي في الموت ، فرُفِع إليه ونفسه تَفَعَّق كأنها شَنّ ، ففاضت عيناه ، فقال سعد : ما هذا يارسول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

(١) رواه البخارى وغيره .

(٢) هي زينب كما في صحيح البخارى .

وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يُوفى به يوم القيامة » .

قوله ﴿ وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يوفى به يوم القيامة » ﴾ .

هذا الحديث رواه الترمذى والحاكم . وحسنه الترمذى . وأخرجه الطبرانى والحاكم عن عبد الله بن مغفل . وأخرجه ابن عدى عن أبي هريرة ، والطبرانى عن عمار بن ياسر . قوله ﴿ إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا ﴾ أى يصب عليه البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه ، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوفى به يوم القيامة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : المصائب نعمة ؛ لأنها مكفرات للذنوب ، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها . وتقتضى الإجابة إلى الله والذل له ، والإعراض عن الخلق ، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة . فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا . وهذا من أعظم النعم . فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق ، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك فيسكون شرأ عليه من جهة ما أصابه في دينه ، فإن من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه ، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة ، لامن جهة نفس المصيبة ، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة ، كانت في حقه نعمة دينية ، فهي بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق . والله تعالى محمود عليها . فمن ابتلى بفرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه ، وحصل له بعد ما كفر من خطايا رحمة ، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه ، قال تعالى (٢ : ١٥٧) أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات . فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك . انتهى ملخصاً .

قوله ﴿ وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه ﴾ أى أخر عنه العقوبة بذنبه « حتى يوفى به يوم القيامة » وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بحتى مبنياً للفاعل . قال العزيزى :

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن عِظَمَ الجزاء مع عِظَمَ البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم .

أى لا يجازيه بذنبه فى الدنيا حتى يجيء فى الآخرة مستوفى الذنوب وافيهما ، فيستوفى ما يستحقه من العقاب . وهذه الجملة هى آخر الحديث . فأما قوله : وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن عِظَمَ الجزاء مع عِظَمَ البلاء » إلى آخره ، فهو أول حديث آخر ، لكن لما رواهما الترمذى بإسناد واحد وصحابه واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد .

وفيه : التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك ، كما قال تعالى : (٢ : ٢١٦) وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

قوله ﴿ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن عِظَمَ الجزاء مع عِظَمَ البلاء . وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم ؛ فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » . حسنه الترمذى ﴾ . قال الترمذى : حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن يزيد بن أبى حبيب عن سعد بن سنان عن أنس ، فذكر الحديث السابق ثم قال : وبهذا الإسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن عِظَمَ الجزاء - الحديث » ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . ورواه ابن ماجه . وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه « إذا أحب الله قومًا ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » قال المنذرى : رواه ثقات .

قوله ﴿ إن عِظَمَ الجزاء ﴾ بكسر العين وفتح الظاء فيها . ويجوز ضمها مع سكون الظاء . أى : من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية .

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول : إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا ، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط ، إلا إذا كانت سبباً لعمل صالح ، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار ، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها ، وعلى هذا يقال فى معنى الحديث : إن عِظَمَ الجزاء مع عِظَمَ البلاء إذا صبر واحتسب .

قوله ﴿ وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم ﴾ ولهذا ورد فى حديث سعد « سئل النبى صلى الله عليه وسلم : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأئمة ، ثم الأئمة ؛ بيتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة اشتد بلاءه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر

فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط « حسنه الترمذى .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية التغابن .

الثانية : أن هذا من الإيمان بالله .

دينه ، فما يبرح البلاء بالبعد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة « رواه الدارمى وابن ماجه والترمذى وصححه .

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد ، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء فى أنفسهم الذى هو فى الحقيقة رحمة ، ولا يدفعه عنهم إلا الله ، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً ، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى ، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم فى قضاء حاجة أو تفرج كربة ، وفى وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة مالا يحصى .

قوله ﴿ فمن رضى فله الرضا ﴾ أى من الله تعالى . والرضا قد وصف الله تعالى به نفسه فى مواضع من كتابه ، كقوله تعالى (٨:٩٨ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه) ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة : إثبات الصفات التى وصف الله بها نفسه ، ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل . فإذا رضى الله تعالى عنه حصل له كل خير ، وسلم من كل شر ، والرضا : هو أن يسلم العبد أمره إلى الله ، ويحسن الظن به ، ويرغب فى ثوابه . وقد يجد لذلك راحة وانبساطاً ؛ بحبة لله وثقة به ، كما قال ابن مسعود رضى الله عنه « إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط .

قوله ﴿ ومن سخط ﴾ وهو بكسر الخاء . قال أبو السعادات : السخط الكراهية للشيء وعدم الرضا به . أى من سخط على الله فيما دبره فله السخط ، أى من الله ، وكفى بذلك عقوبة . وقد يستدل به على وجوب الرضا . وهو اختيار ابن عقيل . واختار القاضى عدم الوجوب ، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم .

الثالثة : الطعن في النسب .

الرابعة : شدة الرعيد فيمن ضرب الحدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية .

الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير .

السادسة : إرادة الله به الشر .

السابعة : علامة حب الله للعبد .

الثامنة : تحريم السخط .

التاسعة : ثواب الرضا بالبلاء .

باب

﴿ ما جاء في الرياء ﴾

وقول الله تعالى : (١٨ : ١١٠ قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

قال شيخ الإسلام : ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر . وإنما جاء الثناء على أصحابه . قال : وأما ما يروى « من لم يصبر على بلائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى » فهذا إسرائيلى ، لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قال شيخ الإسلام : وأعلى من ذلك - أى من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها . اهـ والله أعلم .

قوله ﴿ باب ما جاء في الرياء ﴾

أى : من النهى والتحذير . قال الحافظ : هو مشتق من الرؤية والمراد به : إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها . والفرق بينه وبين السمعة : أن الرياء لما يُرى من العمل كالصلاة والسمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر ، ويدخل في ذلك التحدث بما عمله .

قوله ﴿ وقول الله تعالى (١٨ : ١١٠ قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد) ﴾ أى : ليس لى من الربوبية ولا من الإلهية شىء ، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له ، أو حاه إلى (فمن كان يرجو لقاء ربه) أى : يخافه (فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)

وعن أبي هريرة مرفوعاً : « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه » رواه مسلم .

قوله ﴿ أحداً ﴾ نكرة في سياق النهي تم ، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : أما اللقاء : فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاني ، وقالوا : لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وذكر الأدلة على ذلك . قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الآية : أي كما أن الله واحد لا إله سواه ، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له - فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح : هو الخالص من الرياء المقيدُ بالسنة .

وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم والمرسلين قبله ، هو إفراده تعالى بأبواع العبادة ، كما قال تعالى (٢١ : ٢٥) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه : لا إله إلا أنا فاعبدون) والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام : إما طاغوت يتنازع الله في روبيته وإلهيته ، ويدعو الناس إلى عبادته ، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان ، أو مشرك يدعو غير الله ويتقرب إليه بأبواع العبادة أو بعضها ، أو شاك في التوحيد : أم هو حق ، أم يجوز أن يجعل لله شريك في عبادته ؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله ، وهذا هو الغالب على أكثر العوام الجهلهم وتقليدكم من قبلهم ؛ لما اشتدت غربة الدين ونسى العلم بدين المرسلين .

قوله ﴿ وعن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه » رواه مسلم ﴾ .

قوله ﴿ من عمل عملاً أشرك فيه غيري ﴾ أي من قصد بعمله غيري من المخلوقين تركته وشركه . ولا بن ماجه « فأنا منه بريء وهو للذي أشرك » قال الطيبي : الضمير المنصوب في قوله « تركته » يجوز أن يرجع إلى العمل .

قال ابن رجب رحمه الله^(١) : واعلم أن العمل لغير الله أقسام : فتارة يكون رياء محضاً

(١) في شرح حديث « إنما الأعمال بالنيات » من جامع العلوم والحكم

كحال المناقنين . كما قال تعالى (٤ : ١٤٢) وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام . وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرها من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها ؛ فإن الإخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة .

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء ، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه - وذكر أحاديث تدل على ذلك . منها : هذا الحديث ، وحديث شدّاد بن أوس مرفوعاً « من صلى يُرأى فقد أشرك ، ومن صام يرأى فقد أشرك ، ومن تصدق يرأى فقد أشرك ، وإن الله عز وجل يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بي ، فمن أشرك بي شيئاً فإن جسده وعمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به . وأنا عنه غنى » رواه أحمد ، وذكر أحاديث في المعنى ، ثم قال : فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء ، مثل أخذ أجره للخدمة أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة ، نقص بذلك أجر جهاده ، ولم يبطل بالسكوية .

قال ابن رجب : وقال الإمام أحمد رحمه الله : التاجر والمستاجر والمسكرى أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم ، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره .

وقال أيضاً فيمن يأخذ جُعل الجهاد : إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس ، كأنه خرج لدينه إن أعطى شيئاً أخذه . وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال « إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقا فلا بأس بذلك ، وأما إن كان أحدكم إن أعطى دراهم غزا ، وإن لم يعط لم يغز ، فلا خير في ذلك » وروى عن مجاهد رحمه الله : أنه قال في حج الجمال وحج الأجير ، وحج التاجر « هو تام لا ينقص من أجرهم شيء » أى لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج ، دون التكسب . قال : وأما إن كان أصل العمل لله ، ثم طرأ عليه نية الرياء : فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا ، فيجازى على أصل نيته ؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف ، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير ، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يُجَازَى بنيته الأولى ، وهو مروى عن الحسن وغيره . وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من

وعن أبي سعيد مرفوعاً : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : الشِّرْكَ الْخَلْفِيُّ ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزِينُ صَلَاتَهُ ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ » رواه أحمد .
فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الكهف .

الثانية : الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله .

الثالثة : ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى .

الرابعة : أن من الأسباب : أنه تعالى خير الشركاء .

الخبر يحمده الناس عليه ، فقال : تلك عاجل بشرى المؤمن » رواه مسلم . انتهى ملخصاً .

قلت : وتام هذا المقام يتبين في شرح حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى .

قوله ﴿ وعن أبي سعيد رضى الله عنه مرفوعاً « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : الشِّرْكَ الْخَلْفِيُّ ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزِينُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ » رواه أحمد ﴾ .

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن محمود بن لبيد قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس ، إياكم وشرك السرائر ، قالوا : يا رسول الله وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلى فيزين صلواته لما يرى من نظر الرجل إليه . فذلك شرك السرائر » .

قوله ﴿ عن أبي سعيد الخدرى ﴾ . تقدم .

قوله ﴿ الشرك الخفى ﴾ سماه خفياً لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره ، وأشركه فيه بتزيين صلواته لأجله . وعن شداد بن أوس قال : « كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر » رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص ، وابن جرير في التهذيب ، والطبرانى والحاكم وصححه .

قال ابن القيم : وأما الشرك الأصغر ، فكيسير الرياء ، والتصنع للخلق ، والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل : ماشاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك . وأنا بالله وبك ، ومالى

الخامسة : خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه من الرياء .
السادسة : أنه فسر ذلك بأن يصلى المرء لله ، لكن يُزيتها لما يرى من
نظر رجل إليه .

باب

﴿ من الشرك : إرادة الإنسان بعمله الدنيا ﴾

إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا . وقد
يكون هذا شركاً كبيراً بحسب حال قائله ومقصده . انتهى .

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله ، وكذلك التسابعة ، كما قال
الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى (٦٧ : ٢ ليلوكم أيكم أحسن عملاً) قال
« أخلصه وأصوبه ، قيل يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً
ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً
صواباً ، فالخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة » .

وفي الحديث من الفوائد : شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ونصحه لهم ، وأن
الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال . فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يخافه على
سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم ، فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من
الشرك ، أصغره وأكبره .

قوله ﴿ باب من الشرك : إرادة الإنسان بعمله الدنيا ﴾

فإن قيل : فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله ؟

قلت : بينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان في مادة ، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله
الذين عند الناس والتصنع لهم والثناء ، فهذا رياء كما تقدم بيانه ، كحال المناقنين . وهو أيضاً
إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس ، وطاب المدحة منهم والإكرام . ويفارقه الرياء بكونه عمل
عملاً صالحاً ، أراد به عرضاً من الدنيا ، كمن يجاهد ليأخذ مالا ، كما في الحديث « تيس
عبدُ الدينار » أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضي الله
عنهما وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى (١١ : ١٥ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) .
وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها : أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال

وقوله تعالى (١١ : ١٥ ، ١٦ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النارُ وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون) .

التوحيد الواجب ، ويحبط الأعمال ، وهو أعظم من الرياء ؛ لأن مرید الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله ، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل ، ولا يسترسل معه ، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا .

قال ﴿ وقوله تعالى (١١ : ١٥ ، ١٦ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون) ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « من كان يريد الحياة الدنيا ، أى ثوابها . وزينتها « أى مالها . نُوفَّ ، أى نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور فى المال والأهل والولد » وهم فيها لا يبخسون « لا ينقصون ، ثم نسختها (١٧ : ١٨ ، ١٩ من كان يريد العاجلة مجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) الآيتين » رواه النحاس فى ناسخه .

قوله « ثم نسختها » أى قيدتها . فلم تبق الآية على إطلاقها^(١) .

وقال قتادة : « من كانت الدنيا هم وطلبته ونيته جزاءه الله بحسناته فى الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء . وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة » ذكره ابن جرير بسنده ، ثم ساق حديث أبى هريرة عن ابن المبارك عن حيوة بن شريح قال : حدثنى الوليد بن أبى الوليد أبو عثمان أن عُمَيرة بن مسلم حدثه أن شُفَّ بن مَتاع الأصبغى حدثه « أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة . قال : فدنوت منه حتى قعدت بين يديه ، وهو يحدث الناس . فلما سكت وخلا . قلت : أنشدك بحقِّ وبحقِّ لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم عَقَلْتَهُ وعلنته . قال : فقال أبو هريرة : أفعل ، لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله

(١) من العجيب جداً دعوى النسخ ، فإن الآيتين فى معنى واحد . وتفسير النسخ بتقييد مطلقها - يعنى بالمشيئة - كذلك غير واضح ، والظاهر أنها لا تثبت رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما .

صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما فيه أحد غيبي وغيره ، ثم نَشَخَ أبو هريرة نَشَخَةً (١) ، ثم أفاق فقال : لأحدثنك حديثاً حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما فيه أحد غيبي وغيره ، ثم نَشَخَ أبو هريرة نَشَخَةً أخرى ، ثم مال خازراً على وجهه ، واشتد به طويلاً . ثم أفاق فقال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضى بينهم ، وكلُّ أُمَّةٍ جاثية . فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال . فيقول الله تبارك وتعالى للقارىء : ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولي ؟ قال : بلى يارب . قال : فإذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار . فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان قارىء ، فقد قيل ذلك . ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك محتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يارب ، قال : فما عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان جواد ، فقد قيل ذلك . ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقال له : فماذا قتلت ؟ فيقول : أمرتُ بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذلك . ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي ، فقال : يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسَمَّرُ بهم النار يوم القيامة » (٢)

(١) نَشَخَ - بفتح النون والشين المعجمة وبعد غين معجمة - أى : شقق حتى كاد يغشى عليه أسفاً وخوفاً .

(٢) تمام الحديث عند ابن جرير وغيره « قال أبو عثمان الوليد : فأخبرني عقبه أن شفيها هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا . قال أبو عثمان وحدثني العلاء بن أبي حكيم : أنه كان سيافاً لمعاوية - قال : فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاوية : وقد فعل بهؤلاء هذا ؟ فكيف بمن بقي من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هلك ، وقلنا : قد جاء هذا الرجل بشر . ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه فقال : صدق الله ورسوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) قال السندي : ورواه ابن خزيمة في صحيحه .

وقد سئل شيخنا المصنف رحمه الله عن هذه الآية فأجاب بما حاصله : ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ، ولا يعرفون معناه .

فمن ذلك : العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله : من صدقة وصلاة ، وصلة وإحسان إلى الناس ، وترك ظلم ، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصاً لله ، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة ، وإنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته ، أو حفظ أهله وعياله ، أو إدامة النعمة عليهم ، ولاهمة له في طلب الجنة والمهرب من النار ، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب . وهذا النوع ذكره ابن عباس .

النوع الثاني : وهو أكبر من الأول وأخوف ؛ وهو الذي ذكره مجاهد في الآية : أنها نزلت فيه : وهو أن يعمل أعمالاً صالحة وينتبه رياء الناس ، لا طلب ثواب الآخرة .

النوع الثالث : أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالا ، مثل أن يحج لمال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، أو يجاهد لأجل المنعم ، فقد ذكر أيضاً هذا النوع في تفسير هذه الآية ، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم ، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد ، كما هو واقع كثيراً .

النوع الرابع : أن يعمل بطاعة الله مخلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له ، ولكنه على عمل يكفره ككفره عن الإسلام ، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله ، أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية ، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة ، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم ، فهذا النوع أيضاً قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره ، وكان السلف يخافون منها ، قال بعضهم : لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله تعالى يقول (٥ : ٢٧) إنما يتقبل الله من المتقين) .

ثم قال : بقي أن يقال : إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله ، طالباً ثواب الآخرة ، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا ، مثل أن يحج فرضه لله ، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع ، فهو لما غلب عليه منهما . وقد قال بعضهم : القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة المخلص وأهل النار المخلص ، ويسكت عن

في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الخَمِيصَةِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الخَمِيلَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ . »

صاحب الشائبتين ، وهو هذا وأمثاله اه .

قوله ﴿ في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الخَمِيصَةِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الخَمِيلَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِئِكَ فَلَا انْتَقَشَ . طُوبَى لِمَنْ أَخَذَ بَعْنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . أَشْعَثَ رَأْسَهُ ، مُعْتَبِرَةٌ قَدَمَاهُ ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي اسَاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يَشْفَعْ ﴾ .

قوله ﴿ في الصحيح ﴾ أى صحيح البخارى .

قوله ﴿ تَعَسَّ ﴾ هو بكسر العين ويجوز الفتح ، أى سقط ، والمراد هنا : هلك ، قاله الحافظ . وقال فى موضع آخر : وهو ضد سَعَدَ : أى شقى . وقال أبو السعادات : يقال تَعَسَّ يَتَعَسَّ : إِذَا عَثَرَ وَانكَبَ لوجِهه . وهو دعاء عليه بالهلاك .

قوله ﴿ عبد الدينار ﴾ هو المعروف من الذهب كالمثقال فى الوزن .

قوله ﴿ تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ ﴾ وهو من الفضة ، قدره الفقهاء بالشعير وزناً ، وعندنا منه درهم من ضرب بنى أمية وهو زنة خمسين حبة شعير وخمسا حبة ، سماه عبداً له ؛ لكونه هو المقصود بعمله ، فكل من توجه بقصده لغير الله فقد جعله شريكاً له فى عبوديته كما هو حال الأَكْثَرِ .

قوله ﴿ تَعَسَّ عَبْدُ الخَمِيصَةِ ﴾ قال أبو السعادات : هى ثوب خَزَّ أو صوف معلَّم ، وقيل : لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعَلَّمَةٌ ، وتُجمع على خَمَائِصَ . والخميلة - بفتح الخاء المعجمة - وقال أبو السعادات : ذات الخمل - ثياب لها خَلٌّ من أى شىء كان .

قوله ﴿ تَعَسَّ وَانْتَكَسَ ﴾ قال الحافظ : هو بالمهملة ، أى عاوده المرض . وقال أبو السعادات : أى انقلب على رأسه . وهو دعاء عليه بالخيبة . قال الطيبي : فيه الترقى بالدعاء عليه ؛ لأنه إذا تَعَسَّ انكَبَ على وجهه . وإذا انْتَكَسَ انقلب على رأسه بعد أن سقط .

وإذا شئك فلا انتقش .

قوله ﴿ وإذا شئك ﴾ أى أصابته شوكة ﴿ فلا انتقش ﴾ أى فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش . قاله أبو السعادات .

والمراد : أن من كانت هذه حاله فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوءه في العواقب ، ومن كانت هذه حاله فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات في الوقوع فيما يضره في عاجل دنياه وآجل آخره .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الدينار والدرهم وعبد القليفة وعبد الخميصة . وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر ، وهو قوله « تمس وانتكس وإذا شئك فلا انتقش » وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح ؛ لكونه تمس وانتكس . فلا نال المطلوب ، ولا خلع من المكروه ، وهذه حال من عبد المال . وقد وصف ذلك بأنه « إن أعطى رضى ، وإن منع سخط » كما قال تعالى (٩ : ٥٨) ومنهم من يَلْمِزُكَ في الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) فراضوهم لغير الله وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه ، إن حصل له رضى ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له ؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هورِقُّ القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده - إلى أن قال :

وهكذا أيضاً طالب المال ، فإن ذلك يستعبده ويسترقه ، وهذه الأمور نوعان .

فمنها : ما يحتاج إليه العبد ، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك ؛ فهذا يطلب من الله ويرغب إليه فيه . فيكون المسال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذى يركبه ، وبساطه الذى يجلس عليه ، من غير أن يستعبده فيكون هلوياً .

ومنها : مالا يحتاج إليه العبد ، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها ؛ فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها ، وربما صار مستعبداً ومعتمداً على غير الله فيها ، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله صلى الله عليه وسلم « تمس عبد الدينار ، تمس عبد الدرهم ، تمس عبد الخميصة ، تمس عبد الخميصة » وهذا هو عبد لهذه الأمور ، ولو طلبها

طوبى لعبد

من الله ، فإن الله إذا أعطاه إياها رضى ، وإن منعه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ، ويستخطه ما يسخط الله ، ويحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغض الله ورسوله ، ويوالى أولياء الله ، ويعادى أعداء الله ، فهذا الذى استكمل الإيمان ، انتهى ملخصاً .

قوله ﴿ طوبى لعبد ﴾ قال أبو السعادات « طوبى » اسم الجنة ، وقيل : هى شجرة فيها ويؤيد هذا ماروى ابن وهب بسنده عن أبى سعيد قال « قال رجل : يارسول الله ، وما طوبى ؟ قال : شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » ورواه الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا درّاج أبو السمح : أن أبا الهيثم ^(١) حدثه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن رجلاً قال : يارسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك . قال : طوبى لمن رآنى وآمن بى ، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » وله شواهد فى الصحيحين وغيرهما ، وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثراً غريباً عجيباً ، قال وهب رحمه الله : « إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها : زهرها رباط ، وورقها بُرود ^(٢) ، وقضبانها عنبر ، وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، ووخلها مسك ، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل ، وهى مجلس لأهل الجنة ، فبينما هم فى مجلسهم إذ أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نُجُباً مزمومة بسلاسل من ذهب ، وجوهها كالمصاييح من حسننها ، ووبرها كخز المرعى من لينه ، عليها رجال ألواحها من ياقوت ، ودقوقها من ذهب ، وثيابها من سندس وإستبرق ، فينخونها ويقولون : إن ربنا أرسلنا إليك لتزوروه وتسلموا عليه ، قال : فيركبونها ، قال : فهى أسرع من الطائر ، وأوطأ

(١) ابن لهيعة وأبو الهيثم ضعيفان . كما صرح بذلك الإمامان أحمد وأبو داود . وقد روى البخارى ومسلم من حديث سهل بن سعد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » .

(٢) الرباط : جمع ربطة - بفتح الراء المهملة - ثوب كالملاء . وقيل : كل ثوب رقيق لين . والبرد : كالعباء .

من الفراش . خَبَأَ من غير مِهْنَةٍ ، يسير الراكب إلى جنب أخيه ، وهو يكلمه ويناجيه ، لانصيب أذن راحلة منها أذن صاحبها ، ولا برك راحلة برك صاحبها ، حتى إن الشجرة لتنتحى عن طريقهم لثلاث تفرق بين الرجل وأخيه . قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه . فإذا رأوه قالوا : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، وحق لك الجلال والإكرام ، قال : فيقول تبارك وتعالى عند ذلك ، أنا السلام ومنى السلام ، وعليكم حقت رحمتي ومحبتي ، مرحباً بعبادى الذين خشوني بالغيب وأطاعوا أمرى . قال فيقولون : ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك ، فائذن لنا بالسجود قدما لك . قال : فيقول الله : إنها ليست بدار نصّب ولا عبادة ، ولكنها دار ملك ونعيم ، وإني قد رفعت عنكم نصّب العبادة ، فسلوني ما شئتم ، بأن لكل رجل منكم أمنيته . فيسألونه ، حتى إني أقصرهم أمنية ليقول : ربى ، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها ، رب فأنتى من كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا ، فيقول الله تعالى : لقد قصّرت بك اليوم أمنيتك . ولقد سألت دون منزلتك ، هذا لك منى وسأتحفك بمنزلتى ؛ لأنه ليس فى عطائى نكد ولا قصر يدٍ قال : ثم يقول : اعرضوا على عبادى ما لم تبلغ أمانيتهم ولم يحظر لهم على بال . قال : فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيتهم^(١) التى فى أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقرّنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة . على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة . فى كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة . فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين . على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة ، وليس فى الجنة لون إلا وهو فىهما . ولا ريح طيب إلا قد عبّق بهما . ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة ، حتى يظن من يراها أنها من دون القبة . يرى محهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء ، يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل . ويرى لهما مثل ذلك . ثم يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويمانتقانه ويقولان له : والله ماظننا أن الله يخلق مثلك . ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفّاً فى الجنة ، حتى ينتهى كل رجل منهم إلى منزلته التى أعدت له .

وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد : « فانظروا إلى مواهب ربكم الذى وهب لكم ؛ فإذا بقباب فى الرفيق الأعلى ، وغرف مبنية بالدر والمرجان ، أبوابها

(١) فى ابن جرير « حتى يقضوهم أمانيتهم » وفى ابن كثير « حتى تقصر بهم أمانيتهم » .

من ذهب ، وسررها من ياقوت ، وفرشها من سندس واستبرق ، ومنابرها من نور ، يفور من أبوابها وعراسها نور مثل شعاع الشمس ، عنده مثل الكوكب الدرى فى النهار المضى ، وإذا بصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهر نورها . فلولا أنه مُسَخَّرَ إذاً لالتمع الأبصار ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحير الأبيض . وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر ، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر ، مُبَوَّبَةٌ بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء ، قوائمها وأركانها من الجواهر ، وشرفها قباب من لؤلؤ ، وبروجها غرف من المرجان . فلما انصرفوا إلى مأعظام ربهم ، قربت لهم برازين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح ، تحتها الولدان المخلدون ، بيد كل وليد منهم حكمة برزون من تلك البرازين ، ولجها وأعتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت ، سرر موضونة مفروشة بالسندس والاستبرق ، فانطلقت بهم تلك البرازين تزف بهم ، فينظرون رياض الجنة . فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور ينتظروهم ليزورهم ويصافحهم ويهنئوهم كرامة ربهم ؛ فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ماتطاول به عليهم وما سألوا وما تمنوا ، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان : جنتان ذواتا أفنان ، وجنتان مدهامتان ، وفيهما عينان نضاختان ، وفيهما من كل فاكهة زوجان ، وحوار مقصورات فى الخيام ، فلما تبوءوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم (هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم) وربنا قال : هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا : ربنا رضينا فارض عنا ، قال : فبرضائى عنكم أحللتكم دارى ونظرتم إلى وجهى ، فعند ذلك قالوا (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، الذى أحلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد فى الصحيحين (١) .

وقال خالد بن معدان « إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى ، ضروع كلها ، ترضع صبيان

(١) روى هذا الحافظ ابن كثير فى تفسير قوله تعالى فى سورة الرعد (١٣ : ٢٩) الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) وقال فيه ابن كثير : إنه سياق غريب وأثر عجيب اه . وظاهر عليه صبغة الإسرائيليات الملققة . وكم لوهب بن منبه وكعب الأحبار من هذه الحرافات والآثار السخيفة التى تمجها الفطر السليمة . وقد فتن الناس بهذه الإسرائيليات وفسدت بها عقائد كثير منهم . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أَخَذَ بَعْنَانَ فَرَسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَشْمَتْ رَأْسَهُ ، مُغْبَرَةً قَدَمَاهُ . إِنْ كَانَ فِي
الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ . وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ . إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ
يُؤْذَنَ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ .

أهل الجنة ، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة ،
فبيعت ابن أربعين سنة « رواه ابن أبي حاتم .

قوله ﴿ أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ﴾ أى في جهاد المشركين .

قوله ﴿ أشمت ﴾ مجرور بالفتحة لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل ، و ﴿ رأسه ﴾
مرفوع على الفاعلية ، وهو طائر الشعر ، شغله الجهاد في سبيل الله عن التعم بالأدهان
وتسريح الشعر .

قوله ﴿ مغبرة قدماء ﴾ هو بالجر صفة ثانية لعبد .

قوله ﴿ إن كان في الحراسة كان في الحراسة ﴾ هو بكسر الحاء أى حماية الجيش عن
أن يهجم العدو عليهم .

قوله ﴿ كان في الحراسة ﴾ أى غير مقصر فيها ولا غافل ، وهذا اللفظ يستعمل في حق
من قام بالأمر على وجه الكمال .

قوله ﴿ وإن كان في الساقة كان في الساقة ﴾ أى في مؤخرة الجيش ، يقلب نفسه في
مصالح الجهاد ، فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلاً أو نهاراً ، رغبة في ثواب الله وطلباً
لمرضاته ومحبة لطاعته .

قال ابن الجوزى رحمه الله : وهو خامل الذكر لا يقصد السمو .

وقال الخليلي : المعنى : ائتماره بما أمر ، وإقامته حيث أقيم . لا يفقد من مقامه ، وإنما
ذكر الحراسة والساقة لأنها أشد مشقة . انتهى . وفيه . فضل الحراسة في سبيل الله .
قوله ﴿ إن استأذن لم يؤذن له ﴾ أى إن استأذن على الأمر ونحوهم لم يؤذن له ؛ لأنه
لا جاه له عندهم ولا منزلة ؛ لأنه ليس من طلابها . وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواء .

قوله ﴿ وإن شفع ﴾ بفتح أوله وثانيه ﴿ لم يشفع ﴾ بفتح الفاء مشددة . يعنى لو أجازته
الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته عند الأمر ونحوهم .

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً « رب أشمت مدفوع بالأبواب
لو أقسم على الله لأبره » .

فيه مسائل :

الأولى : إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة .

الثانية : تفسير آية هود .

الثالثة : تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والحمية .

الرابعة : تفسير ذلك بأنه إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط .

الخامسة : قوله « تعس وانتكس » .

السادسة : قوله « وإذا شيك فلا انتقش » .

السابعة : الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات .

قال الحافظ : فيه ترك حب الرياسة والشهرة . وفضل الخمول والتواضع . انتهى .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال : قال عثمان رضى الله عنه - وهو يخطب على منبره « إني محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن بكم . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حرسُ ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها » .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك : قال عبد الله بن محمد قاضي نصيبين : حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سُكينة أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الآيات بطرسوس وواعده الخروج . وأشهداها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة . قال :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل فخيولهم يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا رَهج السناكب والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله في أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت . لا يكذب

باب

(من أطاع العلماء والأمرء في تحريم ما أحل ، الله أو تحليل ما حرم الله ، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله) .

وقال ابن عباس : « يُوشكُ أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ » .

قال : فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام فلما قرأه ذرفت عيناه فقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصحني ، ثم قال : أنت ممن يكتب الحديث ؟ قلت : نعم ، قال لي : اكتب هذا الحديث ، وأملِ عليّ الفضيلُ بن عياض : حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة « أن رجلاً قال : يا رسول الله ، علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله فقال : هل تستطيع أن تصلي فلا تقتر ، وتصوم فلا تفطر ؟ فقال : يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : فوالذي نفسي بيده لو طوّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله . أما علمت أن فرس المجاهد ليستنّ في طوّله فيكتب له بذلك حسنات ؟^(١) » .

قوله ﴿ باب من أطاع العلماء والأمرء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله ﴾ .

لقول الله تعالى (٩ : ٣١) اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) وتقدم تفسير هذا في أصل المصنف رحمه الله عند ذكر حديث عدى بن حاتم رضی الله عنه .

قوله ﴿ وقال ابن عباس رضی الله عنهما « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء . أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ ﴾ .

قوله ﴿ يوشك ﴾ بضم أوله وكسر الشين المعجمة : أى يقرب ويسرع .

وهذا القول من ابن عباس رضی الله عنهما جواب لمن قال له « إن أبا بكر وعمر رضی الله

(١) روى البخارى حديث سؤال الرجل هذا عن أبي هريرة ، وفيه : فقال أبو هريرة « فإن فارس المجاهد ليستن يمرح في طوله فيكتب له حسنات » والطول : الجبل . والاستنان : العدو . وروى مسلم مثله قريباً منه في فضل الجهاد في سبيل الله .

عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج ، ويريان أن أفراد الحج أفضل « أو ماهو معنى هذا ، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب ، ويقول « إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حلّ من عمرته شاء أم أبى » لحديث سُرّاقة ابن مالك حين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعلوها عمرة ، ويحلّوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة ، فقال سُرّاقة « يا رسول الله ، ألعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال : بل للأبد » والحديث في الصحيحين ، وحينئذ فلا عذر لمن استفتى أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدلل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك . كما قال تعالى (٤ : ٩٠) فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً .

وللبخارى ومسلم وغيرهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معى الهدى لأحلت ^(١) » هذا لفظ البخارى فى حديث عائشة رضى الله عنها . ولفظه فى حديث جابر « افعلوا ما أمرتكم به ، فلو لا أنى سقتُ الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم » فى عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس .

وبالجملة : فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء - الحديث » .

وقال الإمام الشافعى رحمه الله « أجمع العلماء على أن من استبان له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد » .

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى « مامنا إلا راؤ ومرود عليه ، إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم » وكلام الأئمة فى هذا المعنى كثير .

ومازال العلماء رحمهم الله يجتهدون فى الوقائع : فمن أصاب منهم فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر ، كما فى الحديث ^(٢) ، لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم . وأما إذا لم

(١) قال ذلك حين أمرهم فى حجة الوداع أن يفسخوا حجهم إلى العمرة ، ليكونوا متمتعين . ووجدوا فى أنفسهم من ذلك لقرب ذهابهم إلى منى . وقصر اللدة التى يقيمونها فى مكة متمتعين بنسأهم حتى قالوا : « نذهب إلى منى ومذا كبرنا تقطر فينا » انظر زاد العاد فى حجة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا أخطأ فله أجر » .

وقال الإمام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ، ويذهبون إلى رأى

يبلغهم الحديث ، أو لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم عندهم فيه حديث ، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك . فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد . وفي عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث بمن هي عنده باللقى والسماع ، وبسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين . ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيدها ، وبينوا صحيحها من حسناتها من ضعيفها . والفقهاء صنفوا في كل مذهب . وذكروا حجج المجتهدين . فسهل الأمر على طالب العلم . وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده ، وفي كلام ابن عباس رضى الله عنهما ما يدل على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به - تقليداً لإمامه - فإنه يجب الإنكار عليه بالتقليظ ؛ لخالفته الدليل .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عمر البراز ، حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا أبو عبيدة الحداد عن مالك بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : « ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي صلى الله عليه وسلم » .

وعلى هذا : فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء ، كأننا من كان ونصوص الأئمة على هذا ، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة ، فهذا هو الذى عناه بعض العلماء بقوله : لا إنكار في مسائل الاجتهاد . وأما من خالف الكتاب والسنة : فيجب الرد عليه ، كما قال ابن عباس والشافعى ومالك وأحمد ، وذلك مجمع عليه ، كما تقدم في كلام الإمام الشافعى رحمه الله تعالى . قوله ﴿ وقال الإمام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأى سفيان والله تعالى يقول (٢٤ : ٦٣) فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك ﴾ .

هذا الكلام من الإمام أحمد رحمه الله رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب . قال الفضل عن أحمد « نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاث وثلاثين موضعاً ، ثم جعل يتلو (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة - الآية) فذكر من قوله : الفتنة الشرك - إلى قوله - فيهلك » ثم جعل يتلو هذه الآية (٤ : ٦٥) فلا

سفيان . والله تعالى يقول : (٢٤ : ٦٣) فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ

وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ بِحَكْمِكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا)

وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له « إن قوما يدعون الحديث ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره . فقال : أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ، ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره . قال الله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدى ما للفتنة ؟ الفتنة : الكفر . قال الله تعالى (٢ : ٢١٧) والفتنة أكبر من القتل) فيدعون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأى » ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

قوله ﴿ عرفوا الإسناد ﴾ أى إسناد الحديث وصحته ، فإذا صح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء .

وسفيان : هو الثورى الإمام الزاهد ، العابد الثقة الفقيه ، وكان له أصحاب يأخذون عنه ، ومذهبه مشهور بذكره العلماء رحمهم الله فى الكتب التى يذكر فيها مذاهب الأئمة ، كالتمهيدى لابن عبد البر ، والاستذكار له ، وكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف لابن المنذر والحلى لابن حزم ، والمغنى لأبى محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلى . وغيره هؤلاء .

فقول الإمام أحمد رحمه الله : « عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته النخ » إنكار منه لذلك وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذى يكون به المرء كافراً . وقد سمت البلوى بهذا المنكر ، خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم ، نصبوا الجبائل فى الصدعن الأخذ بالكتاب والسنة ، وصدوا عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيم أمره ونهيه ، فمن ذلك قولهم : لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد والاجتهاد قد انقطع ^(١) ويقول : هذا الذى قلده أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه ، ونحو ذلك من الأقوال التى غايتها ترك متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن

(١) فى قرة العيون : وقد أخطأوا فى ذلك . وقد استدل الإمام أحمد رحمه الله بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصوره ، لا يضرهم من خذلمهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » أن الاجتهاد لا ينقطع .

فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدرى ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك.

المهوى، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة بخالفه ويمنع قوله بدليل، فإمامنا الإمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله. فالواجب على كل مكلف، إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك: أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى (٧: ٣) اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون) وقال تعالى (٥١: ٢٩) أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟ إن في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون) وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك؛ وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضاً أبو عمر بن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك.

قلت: ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة، لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنهما، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم اتبعوا الأئمة فإنهم في الحقيقة قد خالفوا، واتبعوا غير سبيلهم. كما قدمنا من قول مالك والشافعي وأحمد، ولسكن في كلام أحد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفهم لقول إمام من الأئمة، وذلك إنما نشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله والإقبال على كتب من تأخر والاستغناء بها عن الوحيين، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم (٩: ٣١) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) كما سيأتي بيان ذلك في حديث عدى بن حاتم، فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على مافي الكتاب والسنة، فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لا بد أن يذكر دليله والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهنياً وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه، والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر من أن تحصر، وفي السنة كذلك، كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله تعالى، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال:

لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزينغ فيهلك .

الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله « وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن - بمعناه » .

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا في البيان ، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة ، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه ، وقد يبلغ غيرهم ، وذلك كثير ، كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء .

قال أبو حنيفة رحمه الله : إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة رضى الله عنهم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال .

وقال : إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه فأتركوا قولى لكتاب الله . قيل : إذا كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالفه ؟ قال : أتركوا قولى لخبر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقيل : إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال أتركوا قولى لقول الصحابة .

وقال الربيع : سمعت الشافعى رحمه الله يقول : إذا وجدتم في كتابى خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت . وقال : إذا صح الحديث بما يخالف قولى فاضربوا بقولى الخاطئ .

وقال مالك : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتقدم له مثل ذلك ، فلا عذر لمقلد بعد هذا . ولو استقصينا كلام العلماء في هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار ، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى ^(١) .

قوله ﴿ لعله إذا رد بعض قوله ﴾ أى قول الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ أن يقع في قلبه شيء من الزينغ فيهلك ﴾ نبه رحمه الله أن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزينغ القلب ، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (٦١ : ٥ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

(١) في قرّة العيون : فعلى من اشتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر في أقوال الخالفين وما استدلوا به ، فيكون متبعاً للدليل مع من كان معه . وبالله التوفيق .

عن عَدِيٍّ بن حاتم: «أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية (٣١:٩) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) فقلت له : إنا لسنا نعبدكم . قال : أليس يحرمون ما أحلَّ الله ، فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله ، فتحلونه ؟ فقلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم » رواه أحمد والترمذى وحسنه .

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معنى قول الله تعالى (٤٤ : ٦٣) فليحذر الذين يخالفون عن أمره) فإذا كان المخالف لأمره قد حُدِرَ من الكفر والشرك ؛ أو من العذاب الأليم ، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم . ومعلوم أن إفضاء إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المصيبة ، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقتضيه به من الاستخفاف في حق الأمر ؛ كما فعل إبليس لعنه الله تعالى اه .

وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة) قال « يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه » قال أبو جعفر بن جرير : أدخلت « عن » لأن معنى الكلام : فليحذر الذين يلوذون عن أمره ، ويدبرون عنه معرضين .

قوله ﴿ أو بصيبهم ﴾ في عاجل الدنيا عذاب من الله موجه على خلافهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله ﴿ عن عدى بن حاتم رضى الله عنه : أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية (٩ : ٢١) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم - الآية) فقلت له : « إنا لسنا نعبدكم . قال : أليس يحرمون ما أحلَّ الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ فقلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم » رواه أحمد والترمذى وحسنه ﴿ .

هذا الحديث قد روى من طرق ، فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني ، وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي .

قوله ﴿ عن عدى بن حاتم ﴾ أى الطائى للشهور . وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد ابن الحشرج - بفتح الحاء - المشهور بالسخاء والكرم . قدم عدى على النبي صلى الله عليه وسلم

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النور .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدى .

الرابعة : تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر ، وتمثيل أحمد بسفيان .

الخامسة : تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان

هى أفضل الأعمال ، وتسمى الولاية . وعبادة الأخبار : هى العلم والفقہ ، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبدَ من دون الله من ليس من الصالحين . وعُبدَ بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين .

فى شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم . وعاش مائة وعشرين سنة .
وفى الحديث دليل على أن طاعة الأخبار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله ،
ومن الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله ؛ لقوله تعالى فى آخر الآية : (وما أمروا إلا ليعبدوا
إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) ونظير ذلك قوله تعالى (٦ : ١٢١)
ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم .
ليجادلوكم . وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون) وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من
قلدوهم ، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد ، وهو من هذا الشرك . ومنهم من يغالوا
فى ذلك ويمتقد أن الأخذ بالدليل - والحالة هذه - يكره ، أو يجرم ؛ فعظمت الفتنة .
ويقول : هم أعلم منا بالأدلة ، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد . وربما تفوهوا بدم من يعمل
بالدليل ، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام . كما قال شيخنا رحمه الله فى المسائل .

فتغيرت الأحوال ، وآلت إلى هذه الغاية . فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هى
أفضل الأعمال ، ويسمونها ولاية ، وعبادة الأخبار هى العلم والفقہ . ثم تغيرت الحال إلى
أن عبد من ليس من الصالحين ، وعبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين .

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله : فقد عمت بها البلوى

باب

قول الله تعالى: (٤: ٦٠-٦٢) ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به

قديماً وحديثاً في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهم جراً . وقد قال تعالى (٢٨ : ٥٠)
فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَوَاهُ بغير هُدًى من
الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين) .

وعن زياد بن حدير قال : قال لي عمر رضی الله عنه : « هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟
قلت : لا . قال : يهدمه زلَّة العالم ، وجدال المنافق بالقرآن ، وحكم الأئمة المضلین » .
رواه الدارمی .

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون .
باب ﴿ قول الله تعالى : (٤ : ٦٠ - ٦٢) ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل
إليك وما أنزل من قبلك - الآيات) ﴾ .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة ،
وتحاكم إلى ماسواها من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت ههنا .

وتقدم ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في حده للطاغوت ، وأنه كل ما تجاوز
به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة
رسوله صلى الله عليه وسلم . فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن
يكفروا به ، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن
كان يحكم بهما . فمن تحاكم إلى غيرها فقد تجاوز به حده ، وخرج عما شرعه الله ورسوله
صلى الله عليه وسلم ، وأنزله منزلة لا يستحقها ، وكذلك من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت ،
فإن كان المعبود صالحاً صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها ، كما قال
تعالى (١٠ : ٢٨ - ٣٠) ويوم نحشهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أتم
وشركاؤكم ، فزبلنا بينهم ، وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيداً بيننا
وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغالين . هنالك تبلأ كل نفس ما أسلفت ورُدوا إلى الله

مولايم الحق ، وضل عنهم ما كانوا يفترون) وكقوله (٣٤ : ٤٠) ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه ، أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً أو غير ذلك مما يتخذة المشركون أصناماً على صور الصالحين والملائكة وغير ذلك ، فهي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته ، ويتبرأوا منه ، ومن عبادة كل معبود سوى الله . كائناً من كان ، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله ، فهو الذي دعا إلى كل باطل وزينه لمن فعله ، وهذا يناق التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله . فالتوحيد : هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله ، كما قال تعالى (٦٠ : ٤) قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه .

قال الإمام مالك رحمه الله « الطاغوت : ما عبد من دون الله » .

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ورغب عنه ، وجعل لله شريكاً في الطاعة ، وخالف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمره الله تعالى به في قوله (٥٩ : ٥) وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) وقوله تعالى (٤ : ٦٥) فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) فمن خالف ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله ، أو طلب ذلك اتباعاً لما يهواه ويريده ، فقد خلع ربة الإسلام والإيمان من عنقه ، وإن زعم أنه مؤمن ، فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك ، وأكذبهم في زعمهم الإيمان لما في ضمن قوله : « يزعمون » من نفي إيمانهم ، فإن « يزعمون » إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لخالفته لموجبها ، وعمله بما يناهها ، يحقق هذا قوله (وقد أمروا أن يكفروا به) لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد ، كما في آية البقرة . فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً .

ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً)

والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعده . كما أن ذلك بين في قوله تعالى (٢٥٦:٢) فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى - الآية) وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به .

وقوله ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ يبين تعالى في هذه الآية : أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه ، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله . وأكده بالمصدر ، ووصفه بالبعد ، فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى .

ففي هذه الآية أربعة أمور . الأول : أنه من إرادة الشيطان . الثاني : أنه ضلال . الثالث : تأكيده بالمصدر . الرابع : وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى . فسبحان الله ! ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه ، وما أدله على أنه كلام رب العالمين ، أوحاه إلى رسوله الكريم ، وبلغه عبده الصادق الأمين . صلوات الله وسلامه عليهما .

قوله ﴿ وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ بين تعالى أن هذه صفة المنافقين ، وأن من فعل ذلك أو طلبه ، وإن زعم أنه مؤمن فإنه في غاية البعد من الإيمان .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : هذا دليل على أن من دُعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين .

قوله ﴿ ويصدون ﴾ لازم وهو بمعنى يعرضون ؛ لأن مصدره « صدوداً » فما أكثر من اتصف بهذا الوصف ، خصوصاً ممن يدعى العلم . فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أقوال من يخطئ . كثيراً ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة في تقليد من لا يجوز تقليده ، واعتماد على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله ، ويعملون

وقوله (١١: ٢) وإذا قيل لهم : لا تفسدوا في الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون)

وقوله : (٥٦: ٧) ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً .

إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلا به . فصار المتبع للرسول صلى الله عليه وسلم بين أولئك غريباً ، كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا .

فتدبر هذه الآيات وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع . والله المستعان .

وقوله ﴿ ١١ : ٢ ﴾ وإذا قيل لهم : لا تفسدوا في الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون) قال أبو العالية في الآية : يعني لا تعصوا في الأرض ؛ لأن من عصى الله في الأرض ، أو أمر بمعصية الله : فقد أفسد في الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله . وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام في قوله تعالى : (١٢ : ٧٠ - ٧٢ ثم أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون - إلى قوله - قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين) فدلّت الآية على أن كل معصية فساد في الأرض . ومناسبة الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين ، وهو من الفساد في الأرض .

وفي الآية : التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء ، وإن زخرفوها بالدعوى . وفيها : التحذير من الاغترار بالرأى ، ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذا جاءه ، وهذا من الفساد في الأرض ، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة تخرج صاحبها عن الحق وتدخله في الباطل . نسأل الله العفو والعافية والمغفرة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة .

فتدبر تجد ذلك في حال الأ أكثر إلا من عصمه الله ، ومنّ عليه بقوة داعي الإيمان ، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات ، وبصراً نافذاً عند ورود الشبهات ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقوله (٥٦ : ٧) ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) قال أبو بكر بن عياش في

وقوله: (٥٠ : ٥) أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً
لقوم يوقنون ؟).

الآية : إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأرض وهم في فساد ، فأصلحهم الله
بمحمد صلى الله عليه وسلم . فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فهو من
المفسدين في الأرض .

وقال ابن القيم رحمه الله : قال أكثر المفسرين : لانفسدوا فيها بالمعاصي ، والدعاء إلى
غير طاعة الله ، بعد إصلاح الله لها بعث الرسل ، وبيان الشريعة ، والدعاء إلى طاعة الله ؛ فإن
عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به : هو أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض في
الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره ، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ،
ومطاع متبع غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو أعظم فساد في الأرض ، ولا صلاح لها
ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع
لرسوله ليس إلا ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . فإذا
أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة . ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح
في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شرف في العالم وفتنة وبلاء وقحط
وتسليط عدو وغير ذلك فسببه : مخالفة رسوله ، والدعوة إلى غير الله ورسوله . اهـ .

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد
الأرض من المعاصي ، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،
وهو سبيل المؤمنين ، كما قال تعالى (٤ : ١٥) ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له
الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونضله جهنم وساءت مصيراً) .

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٥٠ : ٥) أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً
لقوم يوقنون ؟ ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل
خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي
وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال النووى : حديث صحيح ، رويناه فى كتاب الحجّة بإسناد صحيح .

والضلالات ، كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكزخان الذى وضع لهم « الياسق » وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه . فصارت فى بنيه شرعاً يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة ، فمن فعل ذلك : فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم بسواه فى قليل ولا كثير^(١) .

قوله ﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ ﴾ استفهام إنكار ، أى لا حكم أحسن من حكمه تعالى وهذا من باب استعمال أفضل التفضيل فيما ليس له فى الطرف الآخر مشارك ، أى : ومن أعدل من الله حكماً لمن عقل عن الله شرعه ، وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين ، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها ، العليم بمصالح عباده ، القادر على كل شيء ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ؟

وفى الآية : التحذير من حكم الجاهلية ، واختياره على حكم الله ورسوله ؛ فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن ، وهو الحق ، إلى ضده من الباطل .

قوله ﴿ عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال النووى : حديث صحيح ، رويناه فى كتاب الحجّة بإسناد صحيح ﴾ .

هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسى الشافعى فى كتاب « الحجّة على تارك الحجّة » بإسناد صحيح ، كما قاله المصنف رحمه الله عن النووى . ورواه الطبرانى وأبو بكر بن عاصم ، والحافظ أبو نعيم فى الأربعين التى شرط لها أن تكون من صحيح

(١) ومثل هذا وشر منه : من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها فى الدماء والقروج والأموال ، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله . ولا ينفعه أى اسم تسمى به ، ولا أى عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحج ونحوها .

الأخبار ، وشاهده في القرآن . قوله تعالى (٤ : ٦٥) فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم - الآية) وقوله (٣٣ : ٣٦) وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقوله : (٢٨ : ٥٠) فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) ونحو هذه الآيات .

قوله ﴿ لا يؤمن أحدكم ﴾ أى لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذى وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار . وقد يكون فى درجة أهل الإساءة والمعاصى من أهل الإسلام قوله ﴿ حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ﴾ . « الهوى » بالقصر ، أى : ما بهواه وتحمبه نفسه وتميل إليه ، فإن كان الذى تحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخرج عنه إلى ما يخالفه فهذه صفة أهل الإيمان المطلق ، وإن كان بخلاف ذلك أوفى بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كاله الواجب ، كما فى حديث أبي هريرة « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ^(١) » يعنى أنه بالمعصية ينتفى عنه كمال الإيمان الواجب ، وينزل عنه فى درجة الإسلام ، وينقص إيمانه ، فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية ، أو الفسوق ، فيقال : مؤمن عاص ، أو يقال : مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته ، فيكون معه مطلق الإيمان الذى لا يصح إسلامه إلا به ^(٢) . كما قال تعالى (٤ : ٩٢) فتحرير رقبة مؤمنة) والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها - : أن الإيمان قول وعمل ونية ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية : من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم -

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) فى قررة العيون : وهذا التوحيد الذى لا يشوبه شرك ولا كفر . وهذا هو الذى يذهب إليه أهل السنة والجماعة خلافاً للخوارج والمعتزلة ، فإن الخوارج يكفرون بالنسب ، والمعتزلون لا يطلقون عليه الإيمان ، ويقولون بتخليده فى النار ، وكلا الطائفتين ابتدع فى الدين وترك ما دل عليه الكتاب والسنة . وقد قال تعالى (٤ : ٤٨) إن الله لا يفتقر أن يشرك به ويفقر مادون ذلك لمن يشاء) فقيد مغفرة مادون الشرك بالمشيئة ، وتواترت الأحاديث بما يحقق ما ذهب إليه أهل السنة . فقد أخرج البخارى وغيره عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن شيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير » .

أكثر من أن تحصر . فمن ذلك قوله تعالى (٢ : ١٤٣ وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس « أمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ شهادة أن لا إله إلا الله » الحديث ، وهو فى الصحيحين والسنن . والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى (٧٤ : ٣١ ويزداد الذين آمنوا إيماناً - الآية) . وقوله (٩ : ١٢٤ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً - الآية) خلافاً لمن قال : إن الإيمان هو القول ، وهم المرجئة ، ومن قال : إن الإيمان هو التصديق كالأشاعرة . ومن المعلوم عقلاً وشرعاً : أن نية الحق تصديق ، والعمل به تصديق ، وقول الحق تصديق . وليس مع أهل البدع ما ينافى قول أهل السنة والجماعة ، والله الحمد والمنة . قال الله تعالى (٢ : ١٧٧ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا) أى فيما عملوا به فى هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة . وشاهده فى كلام العرب قولهم : حمة صادقة . وقد سمي الله تعالى « الهوى » المخالف لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إلهاً ، قال تعالى (٢٥ : ٤٣ أرايت من اتخذ إلهه هواه) قال بعض المفسرين : لايهوى شيئاً إلا ركه .

قال ابن رجب رحمه الله : أما معنى الحديث : فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهي وغيرها . فيجب ما أمر به ، ويكره ما نهى عنه ، وقد رد القرآن بمثل هذا المعنى فى غير موضع ، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله ، أو أحب ما كرهه الله ، كما قال تعالى (٤٧ : ٢٨ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه ؛ فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً ، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له السكف عما حرم عليه منه ، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت السكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلاً . فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحب الله ورسوله ، ويكره ما يكرهه الله ورسوله . فيرضى ما يرضى به الله ورسوله ، ويسخط ما يسخط الله ورسوله ، ويعمل بمجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض ، فإن عمل بمجوارحه شيئاً يخالف ذلك ، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله ، وترك ما يحبه الله ورسوله ، مع وجوبه والقدرة عليه - دل ذلك على نقص محبته الواجبة ،

وقال الشعبي : « كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودى : تتحاكم إلى محمد - لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة ، وقال المنافق تتحاكم إلى اليهود ؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة . فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جُهينة فيتحاكما إليه ، فزلت (ألم تر إلى الذين يزعمون - الآية) .

فعلية أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التي هي ركن العبادة إذا كملت . فجميع المعاصي تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله . وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه ، فقال تعالى (٢٨ : ٥٠) فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟) وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع . ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء ، وكذلك المعاصي إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه ، وكذلك حب الأشخاص : الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً ؛ ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان : أن يحب المرء لا يحبه إلا الله ^(١) فتحرم موالاته أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً ، وبهذا يكون الدين كله لله ومن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى الله ومنع الله : فقد استكمل الإيمان ، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه : كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب . فتجب التوبة من ذلك . انتهى ملخصاً .

ومناسبة الحديث للترجمة : يسان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم .

قوله ﴿ وقال الشعبي ﴾ هو عامر بن شراحيل الكوفي ، عالم أهل زمانه ، وكان حافظاً علامة ، ذا فنون . كان يقول : « ما كتبت سوداء في بيضاء ^(٢) » ، وأدرك خلقاً كثيراً من الصحابة . وعاش بضعاً وثمانين سنة . قاله الذهبي .

(١) لما روى البخارى وغيره « ثلاث من كن فيه ، وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله . وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أقره الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » .

(٢) لشدة حفظه واستغناؤه به عن الكتابة .

وقيل : نزلت في رجلين اختصما فقال أحدهما : تترافع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف . ثم ترافعا إلى عمر ، فذكر له

وفيا قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى . ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان ، كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانة العدو على المسلمين ، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان . ومن تدبر ما في التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً ، وقد حذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم من طاعتهم والقرب منهم ، وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه ، قال تعالى (٦٦ : ٩ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغظ عليهم - الآية) وفي قصة عمر رضی الله عنه وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودى : دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق . وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم والأذى له ، والإظهار لعداوته ، فانتقض به عهده . وحل به قتله . وروى مسلم في صحيحه عن عمر : سمعت جابراً يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ، قال محمد بن مسلمة : يارسول الله ، أحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : ائذن لى فلائق ، قال : قل ، فأتاه فقال له ، وذكر بينهما وقال : إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عتانا . فلما سمعه قال : وأيضاً والله لتملئته ، قال : إنا قد اتبعناه الآن ، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير أمره ، قال : وقد أردت أن تسلفنى سلفاً . قال : فاترهنتى ؟ قال : ما تريد . قال : ترهنتى نساءكم ؟ قال : أنت أجمل العرب ، أترهنتك نساءنا ؟ قال : ترهنتونى أولادكم ؟ قال : يسبُّ ابن أحدنا فيقال : رهن فى وسقين من تمر . ولكن ترهنتك اللأمة - يعنى السلاح - قال : فنعم . وواعده أن يأتيه بالحارث وأبى عبيس ابن جبر وعبيد بن بشر . قال : فجاءوا فدعوه ليلاً فنزل إليهم - قال سفيان قال غير عمرو : قالت له امرأته : إنى أسمع صوتاً كأنه صوت دم . قال : إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة^(١) إن السكريم لو دعى إلى طمعة ليلاً لأجاب ، قال محمد : إنى إذا جاء فسوف

(١) قال النووى : هكذا هو فى جميع النسخ . قال القاضى رحمه الله : قال لنا شيخنا القاضى الشهيد : صوابه أن يقال : إنما هو محمد ، ورضيعه أبو نائلة . وكذا ذكر أهل السير أن أبا نائلة كان رضيعاً لمحمد بن مسلمة . ووقع فى صحيح البخارى « ورضيعى أبو نائلة » .

أحدهما القصة . فقال للذي لم يرض برسول الله صلى الله عليه وسلم : أ كذلك ؟
قال نعم : فضربه بالسيف فقتله .

باب

من جحد شيئاً من الأسماء والصفات : وقول الله تعالى (١٣ : ٣٠) وهم
يكفرون بالرحمن ، قل : هو ربي ، لا إله إلا هو عليه توكلت . وإليه متاب .

أمد يدي إلى رأسه ؛ فإذا استمكنت منه فدونكم ، قال : فلما نزل - وهو متوشح . فقالوا :
نجد منك ريح الطيب ، قال : نعم ، تحتي فلانة أعطر نساء العرب ، قال : فتأذن لي أن
أشم منه ؟ قال : نعم فَشُمُّ ، فتناول فشم ، ثم قال : أتأذن لي أن أعود ؟ قال : فاستمكن
من رأسه . ثم قال : دونكم . قال : فقتلوه .

وفي قصة عمر : بيان أن المنافق الغموص بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل ، كما في الصحيحين
وغيرها : أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس ، فإنه
قال « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » فصلوات الله وسلامه عليه .

قوله ﴿ باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات - وقول الله تعالى (١٣ : ٣٠) وهم
يكفرون بالرحمن ، قل : هو ربي ، لا إله إلا هو عليه توكلت . وإليه متاب ﴾ .

سبب نزول هذه الآية معلوم مذكور في كتب التفسير وغيرها . وهو أن مشركي قريش
جحدوا اسم « الرحمن » عناداً ، وقال تعالى (١٧ : ١١٠) قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما
تدعوا فله الأسماء الحسنى) و « الرحمن » اسمه وصفته ، دل هذا الاسم على أن الرحمة وصفه
سبحانه ؛ وهي من صفات الكمال . فإذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه تعالى ،
وهو من الأسماء التي دلت على كماله سبحانه وبجمده ، فبحود معنى هذا الاسم ونحوه من
الأسماء يكون كذلك . فإن جَهْم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة
بالله تعالى . وتبهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم . فلهذا كفرهم كثيرون
من أهل السنة . قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان
واللالكافي الإمام حكاه عندهم بل حكاه قبله الطبراني

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله

وفي صحيح البخارى قال عليّ : « حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أُرِيدُونَ

من صفات كماله ونعوت جلاله ، و بنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصْلوه من عند أنفسهم ، فقالوا : هذه الصفات هي صفات الأجسام . فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً . هذا منشأ ضلال عقولهم ، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين ، فشبّهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه ، ثم عطّوه من صفات كماله ، وشبّهوه بالناقصات والجمادات والمدومات ؛ فشبّهوا أولاً ، وعطّوا ثانياً ، وشبّهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم : فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها . فإنهم أثبتوا لله ما أثبتته لنفسه وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل . فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه ، فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتاً لا تشبه الذوات ، فأهل السنة يقولون ذلك ، ويثبتون ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله ، لا تشبه صفاته صفات خلقه ؛ فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يتناقضوا ، وأولئك المعطلة كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك ، وتناقضوا فبطل قول المعطلين بالمقل والنقل ، والله الحمد والمنة ، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين . وقد وصف العلماء رحمهم الله تعالى في الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم في إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت : كالإمام أحمد رحمه الله تعالى في رده المشهور ، وكتاب السنة لابن عبد الله ، وصاحب الحيدة عبد العزيز السكتاني في رده على بشر المريسي ، وكتاب السنة لأبي عبد الله المروزي ، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد . وهو بشر المريسي ، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعي ، وكتاب السنة لأبي بكر الخلال ، وأبي عثمان الصابوني الشافعي ، وشيخ الإسلام الأنصاري ، وأبي عمر بن عبد البر النجاشي ، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم ، وأهل الحديث ومن متأخريهم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى . فله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء . والله أعلم .

قوله ﴿ وفي صحيح البخارى عن علي رضي الله عنه : حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ . أُرِيدُونَ

أن يُكذَّب الله ورسوله ؟ » .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس « أنه

أن يكذب الله ورسوله ؟ » .

« على » هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب ، وأحد الخلفاء الراشدين .
وسبب هذا القول - والله أعلم - ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث ،
وكثرة القصص وأهل الوعظ . فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل ^(١) .
فربما استنكرها بعض الناس وردها . وقد يكون بعضها أصل أو معنى صحيح ، فيقع
بعض المفاسد لذلك ، فأرشدهم أمير المؤمنين رضى الله عنه إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس
إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه ، من بيان الحلال والحرام الذى
كلفوا به علماً وعملاً ، دون ما يشغل عن ذلك ، مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله ،
فيفضى بهم إلى التكذيب ، ولا سيما مع اختلاف الناس في وقته ، وكثرة خوضهم وجدلهم .
وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله . لا يجب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل
دينهم زجاداتهم ومعاملاتهم الذى لاغنى لهم عن معرفته ، وبينهاهم عن القراءة في مثل
كتب ابن الجوزى : كالمعش ، والمرعش ، والتبصرة ، لما في ذلك من الإعراض عما هو
أوجب وأنفع وفيها ما لله به أعلم مما لا ينبغى اعتقاده . والمعصوم من عصمه الله .
وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ينهى القصص عن القصص ،
لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك ، ويقول « لا يقص إلا أميراً وأموراً »
وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملاً ونية وقصداً ، وترك كل ما كان
وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها ، والله الموفق للصواب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .
قوله ﴿ وروى عبد الرزاق عن معمر . عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس « أنه

(١) وقد كان هؤلاء القصص - لعدم تحريمهم الصدق ، سبباً في وضع كثير من الأحاديث
على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكرها أئمة الجرح والتعديل ، وحذروا الناس منها . ودونوا
دواوين الصحاح والسنن والمسانيد . فلا ينبغى لأحد اليوم أن ينسب إلى النبي صلى الله عليه
وسلم حديثاً إلا بذكر من خرجه ، وخير وأولى : أن يشفعه ببيان درجته من الصحة أو
الضعف ؛ إذا كان في غير الصحيحين .

رأى رجلا انتفض - لما سمع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات -
استنكاراً لذلك - فقال: ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند
متشابهه « انتهى .

رأى رجلا انتفض - لما سمع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات - استنكاراً
لذلك - فقال: ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه .
قوله ﴿ وروى عبد الرزاق ﴾ هو ابن همام الصنعاني المحدث ، محدث اليمين صاحب
التصانيف ، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري . وهو شيخ عبد الرزاق
يروى عنه كثيراً .

ومعمر - بفتح الميم وسكون العين - أبو عروة بن أبي عمرو ، راشد الأزدي الحراني
ثم اليماني ، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهري ، يروى عنه كثيراً .
قوله ﴿ عن ابن طاوس ﴾ هو عبد الله بن طاوس اليماني . قال معمر : كان من أعلم
الناس بالعربية . وقال ابن عيينة : مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .
قوله ﴿ عن أبيه ﴾ هو طاوس بن كيسان الجندی - بفتح الجيم والنون - الإمام العلم ،
قيل : اسمه ذكوان . قاله ابن الجوزي .

قلت : وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم . قال في تهذيب الكمال . عن الوليد الموقري
عن الزهري قال « قدمت على عبد الملك بن مروان ، فقال : من أين قدمت يا زهري ؟ قال
قلت : من مكة ، قال : ومن خلقت يسودها وأهلها ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ، قال : فمن
العرب أم من الموالي ! قلت : من الموالي ، قال : فبم سادهم ؟ قال قلت : بالديانة والرواية قال :
إن أهل الديانة والرواية لينبغى أن يسودوا . قال : فمن يسود أهل اليمين ؟ قلت : طاوس بن كيسان ،
قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال قلت : من الموالي ؟ قال : فبم سادهم ؟ قلت بما ساد به
عطاء . قال : إنه لينبغى ذلك ، قال : فمن يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن حبيب ، قال :
فمن العرب أم من الموالي ؟ قال قلت : من الموالي ، قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت :
مكحول . قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال قلت : من الموالي ، عبد نوبى أعتقته امرأة من
هذيل . قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران ، قال : فمن العرب أم من

الموالى ؟ قال قلت : من الموالى . قال : فمن يسود أهل خراسان ؟ قال قلت : الضحاك بن مزاحم ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من الموالى . قال : فمن يسود أهل البصرة ؟ قال قلت : الحسن البصرى ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من الموالى . قال : ويلك ، ومن يسود أهل الكوفة ؟ قال قلت : إبراهيم النخعي ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من العرب ، قال : ويلك يازهرى ، فرجت عنى ، والله لتسودن الموالى على العرب فى هذا البلد ، حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها ؟ قال قلت : يا أمير المؤمنين ، إنما هو دين من حفظه ساد ومن ضيعه سقط .

قوله ﴿ عن ابن عباس ﴾ قد تقدم ، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن ، ودعاه النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » وروى عنه أصحابه أئمة التفسير : كجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاوس وغيرهم .

قوله ﴿ ما فرق هؤلاء ؟ ﴾ يستفهم من أصحابه ، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس ، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فرق أى خوف ، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له ، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذى أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين ^(١) قال الذهبي : حدث وكيع عن إسرائيل بحديث « إذا جلس الرب على الكرسي » فاقشعر رجل عند وكيع . فغضب وكيع . وقال « أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها » أخرجه عبد الله بن أحمد فى كتاب الرد على الجهمية . وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ماوجب من الإيمان به ، فنشبهه حالهم حال من قال الله فيهم (٢ : ٨٥) أفترؤمون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه فى ذلك ، من الإيمان بكتاب الله كله واليقين ، كما قال تعالى (٣ : ٧) هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم

(١) قال الشيخ رحمه الله فى قرّة عيون الوحيدين : وقد ظهر من البدع فى زمن ابن عباس بدعة القدرية ، كما فى صحيح مسلم وغيره . فقتل من دعاهم غيلان : قتله هشام بن عبد الملك لما أصر على قوله بنى القدر . ثم بعد ذلك أظهر الجعد بن درهم بدعة الجهمية ، قتله خالد بن عبد الله القسرى يوم الأضحى بعد صلاة العيد بمكة اه .

يقولون : آمنا به : كلٌّ من عند ربنا ، وما يذكركم إلا أولوا الألباب) فهؤلاء الذين ذكروهم ابن عباس رضى الله عنهما تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن ، وهو حق لا يرتاب فيه . مؤمن ، وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذى أراد الله ، فيحمله على غير معناه ؛ كما جرى لأهل البدع ، كالمخارج والرافضة والقدرية ، ونحوهم مما يتأول بعض آيات القرآن على بدعته . وقد وقع منهم الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم ؛ فإن الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس .

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم فى الفهم ، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها ، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد ، والتوفيق بين النصوص ، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً ، ورد المتشابه إلى الحكم ، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة فى كل زمان ومكان . فله الحمد لا نحصى ثناء عليه .

﴿ ذكر ماورد عن علماء السلف فى المتشابه ﴾

قال فى الدر المنثور : أخرج الحاكم - وصححه - عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، واتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا : آمنا به كل من عند ربنا » .

قال : وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله تعالى (٣ : ٧) فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه - الآية) قال : طلب القوم التأويل ، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة ، وطلبوا ما تشابه منه ، فهلكوا بين ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (آيات محكمات) قال « منهن قوله تعالى (٦ : ١٥١ - ١٥٣) قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم) إلى ثلاث آيات ، ومنهن (١٧ : ٢٣ - ٣٩) وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) إلى آخر الآيات » .

وأخرج ابن جرير من طريق أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة رضى الله عنهم « المحكمات : النسخات التى يعمل بهن ، والمتشابهات : المنسوخات » .

ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر « الرحمن » أنكروا ذلك . فأنزل الله فيهم (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا هذه الآية (هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ) فقال أبو فاختة « هن فوائح السور . منها يستخرج القرآن » الم ذلك الكتاب » منها استخرجت البقرة و « الم . الله لا إله إلا هو » منها استخرجت آل عمران . وقال يحيى : هن اللاتي فيهن الفرائض ، والأمر والنهي والحلال والحرام ، والحدود وعماد الدين ^(١) .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : « (المحكمات) فيهن حجة الرب وعصمة العباد ، ودفع الخصوم والباطل ، ليس فيها تحريف ولا تحريف عما وضعت عليه (وأخر متشابهات) في الصدق ، لمن تحريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله بهن العباد ، كما ابتلاهم بالحلال والحرام ، لا يصرفن إلى الباطل ، ولا يحرفن عن الحق » .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان « إنما قال (هن أم الكتاب) لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن (وأخر متشابهات) يعنى فيما بلغنا « الم » و « المص » و « المر » . قلت : وليس في هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه ، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان .

قوله ﴿ ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن أنكروا ذلك . فأنزل الله فيهم (١٣ : ٣٠ وهم يكفرون بالرحمن) ﴾ روى ابن جرير عن قتادة (وهم يكفرون بالرحمن) ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال مشركوا قريش ^(٢) : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله دعنا نقاتلهم . فقال : لا . اكتبوا كما يريدون : إني محمد بن عبد الله فلما كتب الكاتب (بسم الله

(١) تمام الأثر عند ابن جرير « وضرب لذلك مثلاً ، فقال : أم القرى : مكة . وأم خراسان : مرو . وأم المسافرين : الذي يجعلون إليه أمرهم . ويعنى بهم في سفرهم . قال : فذاك أهمهم » .
(٢) الذي كان يقول ذلك : هو سهيل بن عمرو ، الذي ندبته قريش ليتولى عنها عقد هذا الصلح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فيه مسائل :

الأولى : عدم الإيمان بمجد شيء من الأسماء والصفات .

الثانية : تفسير آية الرعد .

الثالثة : ترك التحديث بما لا يفهم السامع .

الرابعة : ذكر العلة أنه يُفضى إلى تكذيب الله ورسوله ، ولو لم

يتعمد المنكر .

الخامسة : كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك ، وأنه أهلكه .

باب

قول الله تعالى (١٦ : ٨٣ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون)

الرحمن الرحيم) قالت قریش : أما الرحمن فلا نعرفه . وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم .

فقال أصحابه : دعنا نقاتلهم قال : لا . ولكن اكتبوا كما يريدون .

وروى أيضاً عن مجاهد قال قوله (١٣ : ٣٠) كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها

أم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك . وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي لا إله إلا هو عليه

توكلت وإليه متاب) قال « هذا ما كاتب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً في

الحديبية ، كتب (بسم الله الرحمن الرحيم) قالوا : لانكتب الرحمن ، ولا ندرى ما الرحمن ؟

ولا نكتب إلا باسمك اللهم . قال الله تعالى (وهم يكفرون بالرحمن) الآية » .

وروى أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يدعو ساجداً : يارحمن يارحيم . فقال المشركون : هذا يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو

مثنى مثنى . فأنزل الله (١٧ : ١١٠) قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ماتدعوا فله الأسماء

الحسنى (الآية) .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (١٦ : ٨٣ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) ﴾

ذكر المصنف رحمه الله ما ذكره بعض العلماء في معناها . وقال ابن جرير : فإن أهل

التأويل اختلفوا في المعنى بالنعمة . فذكر عن سفيان عن السدي (يعرفون نعمة الله ثم

قال مجاهد ما معناه (هو قول الرجل : هذا مالى ، ورثته عن أبائى) .
وقال عَوْن بن عبد الله « يقولون : لولا فلان لم يكن كذا » .
وقال قتيبة « يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا » .

ينكرونها) قال « محمد صلى الله عليه وسلم » وقال آخرون : بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عده الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله ، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك ؛ ولأنهم ينكرون ذلك ، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم .

وأخرج عن مجاهد « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، قال : هى المساكن والأنعام وما يرزقون منها ، والسرايل من الحديد والثياب ، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره بأن تقول : هذا كان لآبائنا فورتونا إياه » وقال آخرون : معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم : من رزقكم ؟ أقروا بأن الله هو الذى يرزقهم ، ثم ينكرونه بقولهم : رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا . وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة . وهو أبو محمد عبد الله بن مسلم قتيبة بن الدينورى قاضى مصر^(١) النحوى اللغوى ، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمّة ، اشتغل ببغداد : وسمع الحديث على إسحاق بن راهويه وطبقته . توفى سنة ست وسبعين ومائتين . وقال آخرون ما ذكره المصنف : « عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى « أبو عبد الله السكوفى الزاهد ، عن أبيه وعائشة وابن عباس . وعنه قتادة وأبو الزبير والزهرى ، وثقه أحمد وابن معين . قال البخارى : مات بعد العشرين ومائة (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) قال « إنكارهم إياها : أن يقول الرجل : لولا فلان ما كان كذا وكذا ، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا » . واختار ابن جرير القول الأول ، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء فى معناها . وهو الصواب . والله أعلم .

قوله ﴿ قال مجاهد ﴾ هو شيخ التفسير : الإمام الربانى ، مجاهد بن جبر المسكى مولى بنى مخزوم . قال الفضل بن ميمون : سمعت مجاهداً يقول : عرضت المصحف على ابن عباس مرات ؛ أفقه عند كل آية ، وأسأله : فىم نزلت ؟ وكيف نزلت ؟ وكيف معناها ؟ توفى سنة اثنتين ومائة . وله ثلاث وثمانون سنة رحمه الله .

(١) لعله قاضى الدينور ، فإنه لم يتول القضاء إلا فيها .

وقال أبو العباس - بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه : أن الله تعالى قال :
« أصبح من عباده مؤمنٌ بى وكافر - الحديث » وقد تقدم - وهذا كثير في
الكتاب والسنة ، يذمُّ سبحانه مَنْ يُضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به .
قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً ،
ونحو ذلك مما هو جارٍ على السنة كثير .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها .

الثانية : معرفة أن هذا جارٍ على السنة كثير .

الثالثة : تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

الرابعة : اجتماع الضدين في القلب .

باب

قول الله تعالى : (٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأتم تعلمون) .

قوله ﴿ وقال أبو العباس ﴾ هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن
تيمية ، الإمام الجليل رحمه الله - بعد حديث زيد بن خالد - وقد تقدم في باب ماجاء
في الاستسقاء بالأنوار . قال : وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف
إنعامه إلى غيره ويشرك به . قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح
حاذقاً . ونحو ذلك مما هو جارٍ على السنة كثير . هـ .

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذي
أنعم بها وأسند أسبابها إلى غيره ، كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا .

قال شيخنا رحمه الله : وفيه اجتماع الضدين في القلب ، وتسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .
قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأتم تعلمون) ﴾ .

الند : المثل والنظير . وجعل الند لله : هو صرف أنواع العبادة - أو شيء منها لغير الله ؛

كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم ، ويشفع لهم . وهذه الآية في سياق قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . والذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره : قال أبو العالية : لا تجعلوا لله أنداداً أى عدلاء شركاء . وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك وإسماعيل بن أبى خالد .

وقال ابن عباس (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) أى لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه ربكم لارب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم الرسول إليه من توحيدِهِ هو الحق الذى لا شك فيه . وكذلك قال قتادة . وعن قتادة ومجاهد (لا تجعلوا لله أنداداً) قال : أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله . وقال ابن زيد « الأنداد » هى الآلهة التى جعلوها معه ، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له . وعن ابن عباس (فلا تجعلوا لله أنداداً) أشباهاً . وقال مجاهد (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) قال تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل وذكر حديثاً فى معنى هذه الآية الكريمة ، وهو ما فى مسند أحمد عن الحارث الأشعري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات : أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وأنه كاد أن يبطل بهن . فقال له عيسى عليه السلام : إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن ، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، فيما أن تبلغن ، وإما أن أبلغن ، فقال : يا أخى ؛ إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي . قال : لجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس ، حتى امتلأ المسجد وقعد على الشرف . فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وأمركم أن تعملوا بهن : أولاهن . أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأبكم بسره أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله خلقكم ورزقكم ، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . وأمركم بالصلاة ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت . فإذا صليتم فلا تلتفتوا . وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يحد ربح المسك . وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله

قال ابن عباس في الآية « الأنداد : هو الشرك ، أخفى من ديب

من ربح المسك . وأمركم بالصدقة : فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال لهم : هل لكم أن أفتدى نفسي منكم ؟ فجعل يفتدى بالقليل والكثير حتى فَكَّ نفسه . وأمركم بذكر الله كثيراً : فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره ، فأنى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأنا أمركم بخمس الله أمرني بهن : الجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله . فإنه من خرج من الجماعة قيّدَ شبر فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُنِّي^(١) جهنم . قالوا : يا رسول الله وإن صلى وصام ؟ فقال : وإن صلى وصام ، وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم التي سماهم الله عز وجل : المسلمين المؤمنين ، عباد الله .

وهذا حديث حسن ، والشاهد منه في هذه الآية قوله « إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له . وقد استدلل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع . وهي دالة على ذلك بطريق الأولى . والآيات الدالة على هذا المقام في القرآن كثيرة جداً . وسئل أبو نواس عن ذلك . فأشدد :

تأمل في نبات الأرض ، وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من الجئين ناظرات بأحداق هي الذهب السبيك
على قُضْب الزبرجد شهادات بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز :

فيا عجباً ، كيف يعصى إلا ، ه ، أم كيف يجحده الجاحد ؟
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قوله ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما في الآية : الأنداد هو الشرك ، أخفى من ديب

(١) الجنأ - بضم الجيم وفتح التاء الثلاثة مقصوراً ، جمع جثو بضم الجيم - وهو الشيء المجموع . قال ابن الأثير : وتروى هذه الكلمة « جثي » بضم الجيم وكسر التاء وتشديد الياء - جمع جاث . وهو الذي يجلس على ركبته .

النمل على صفة سوداء في ظلمة الليل . وهو أن تقول : والله ، وحياتك يا فلان .
وحياتي ، وتقول : لولا كلبية هذا لأتانا اللصوص . ولولا البط في الدار لأتانا
للصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا
الله وفلان . لا تجمل فيها فلاناً . هذا كله به شرك^١ » رواه ابن أبي حاتم .
وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
« من حلف بغير الله فقد كفر ، أو أشرك » رواه الترمذى ، وحسنه
وصححه الحاكم .

النمل على صفة سوداء في ظلمة الليل وهو أن تقول : والله ، وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول :
لولا كلبية هذا لأتانا اللصوص ؛ ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه :
ما شاء الله وشئت . وقول الرجل : لولا الله وفلان . لا تجمل فيها فلاناً هذا كله به شرك^١ »
رواه ابن أبي حاتم . بين ابن عباس رضى الله عنهما أن هذا كله من الشرك ، وهو الواقع
اليوم على السن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك : فتنبه لهذه الأمور . فإنها من المنكر
العظيم الذى يجب النهى عنه والتغليظ فيه لكونه من أكبر الكبائر . وهذا من ابن عباس
رضى الله عنهما تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى .

قوله ﴿ وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من
حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك »^(١) رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم .

قوله ﴿ فقد كفر أو أشرك ﴾ يحتمل أن يكون شكاً من الراوى . ويحتمل أن تكون «أو»
بمعنى الواو ، فيكون قد كفر وأشرك . ويكون من الكفر الذى هو دون الكفر الأكبر .
كما هو من الشرك الأصغر . وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ .

(١) وذلك لأن حقيقة اليمين والقصد منه . إنما هو تأكيد الحالف قوله بالقسم بالخوف
به ، الذى يقدر أن ينتقم منه ويعاقبه إن كان كاذباً . ولذلك ترى أكثر العامة يخلفون بالله
كذباً غير مبالغين . فإذا استخلفوا بمن يعظمونه من الموتى والأولياء - ويعتقدون له السر
والتصرف - تكلموا وصدقوا ، وإن كان في ذلك ذهاب بعض ما يحرمون عليه من منفعة ،
يضحون بها ، خوفاً من عقاب وانتقام وتصرف ذلك الولي فيهم . ويؤكدون اعتقادهم هذا =

وقال ابن مسعود « لَأَنْ أَحْلَفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بغيره

صَادِقًا » .

قوله ﴿ وقال ابن مسعود « لَأَنْ أَحْلَفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بغيره صَادِقًا » ﴾ ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر، لكن الشرك أكبر من الكبائر. وإن كان أصغر، كما تقدم بيان ذلك، فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر. فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزال حوائجه به، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها: من تعظيم القبور، واتخاذها أوثاناً، والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بُنيت باسمه وتعظيمه، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال. وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهي عن هذا الشرك وما يوصل إليه. قال الله تعالى (٣٧:٧) فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا: أيما كنتم تدعون من دون الله؟ قالوا: ضلوا عنا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونه من دونه في دار الدنيا. وقد قال تعالى (٧٢ : ١٨) وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) وقال تعالى (٧٢ : ٢٠ ، ٢١) قل إنما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قل إني لأملى لكم ضراً ولا رشداً) وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر، فخالفوا ما بلغ به الأمة وأخبر به عن نفسه صلى الله عليه وسلم، فعاملوه بما نهام عنه من الشرك بالله والتعلق على غير الله، حتى قال قائلهم :

يأ أكرم الخلق مالى من أود به سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن فى معادى آخذاً بيدي فضلا ؛ وإلا فقل : يازلة القدم

== بحكايات مكذوبة يذيعها سدة هذه العابد الوثنية لجر النفع المادى باعتقاد العامة فى أوليائهم فيحكون أن رجلا سرق سمكة مملحة وأكلها، فاستحلفه السروق منه بالله، فأقسم بالله ثلاث مرات بأنه لم يأخذها ولم يرها، فلم يحصل له شيء. فاستحلفه بأحمد البدوى. فما كاد يلفظ الاسم حتى سبقت السمكة من بطنه ولفظها، وذلك منهم اعتقاد أن البدوى أغبر وأعز وأقدر من الله الحى القيوم العزيز الحكيم، فحبهم الله وأخزاهم.

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقولوا :
ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » رواه أبو داود
بسند صحيح .

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم
فانظر إلى هذا الجهل العظيم ، حيث اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعباده وليأذه بغير الله ،
وانظر إلى هذا الإطراء العظيم الذي تجاوز الحد في الإطراء الذي نهى عنه صلى الله عليه
وسلم بقوله « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد . فقولوا عبد الله
ورسوله » رواه مالك وغيره^(١) ، وقد قال تعالى (٦ : ٥٠ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله
ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك) .

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة ، والمحادة لله ورسوله . وهذا الذي يقوله
هذا الشاعر^(٢) هو الذي في نفوس كثير ، خصوصاً من يدعون العلم والمعرفة . ورأوا قراءة
هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القربات . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قوله ﴿ وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تقولوا ما شاء الله
وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ، ثم شاء فلان » رواه أبو داود بسند صحيح ﴾ .

وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه ، لكونها إنما وضعت لمطلق
الجمع . فلا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً . وتسوية المخلوق بالمخالق شرك إن كان في الأصغر - مثل
هذا - فهو أصغر ، وإن كان في الأكبر فهو أكبر . كما قال الله تعالى عنهم في الدار الآخرة
(٢٦ : ٩٧ ، ٩٨ تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين) بخلاف المعطوف
بـثم فإن المعطوف بها يكون مترخياً عن المعطوف عليه بمهلة . فلا محذور لكونه صار تابعاً .

(١) رواه البخارى عن ابن عباس عن عمر في باب قول الله تعالى (واذا ذكر في الكتاب
مريم) من كتاب أحاديث الأنبياء ، وفي كتاب الحدود في باب رجم الجلبى في الزنا إذا
أحصنت . قال الحافظ في الفتح (ج ٦ ص ٣١٤) تقول : أطريت فلاناً . مدحته فأفرطت
في مدحه .

(٢) هو الأبوصيرى في قصيدته المشهورة بالبردة ، التي هي عند الناس بمنزلة القرآن ، وربما
عظمها بعضهم أكثر . فإنه يواظب على قراءتها أكثر مما يواظب على قراءة القرآن .

وجاء عن إبراهيم النخعي « أنه يكره أن يقول : أعوذ بالله وبك ويجوز أن يقول : بالله ثم بك . قال ويقول : لولا الله ثم فلان . ولا تقولوا : لولا الله وفلان » .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة في الأنداد .

الثانية : أن الصحابة رضی الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر .

الثالثة : أن الحلف بغير الله شرك .

الرابعة : أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس .

الخامسة : الفرق بين الواو وُثم في اللفظ .

قوله ﴿ وجاء عن إبراهيم النخعي « أنه يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك . ويجوز أن يقول : بالله ثم بك . قال : ويقول : لولا الله ثم فلان . ولا تقولوا : لولا الله وفلان » ﴾ وقد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك . وهذا إنما هو في الحى الحاضر الذى له قدرة وسبب في الشيء . وهو الذى يجرى في حقه مثل ذلك . وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوم ، ولا قدرة لهم على نفع ولا ضرر . فلا يقال في حقهم شيء من ذلك . فلا يجوز التعلق عليه بشيء ما بوجه من الوجوه ، والقرآن يبين ذلك وينادى بأنه يجعلهم آلهة إذا سئلوا شيئاً من ذلك ، أو رغب إليهم أحد بقوله ، أو عمله الباطن أو الظاهر . فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه . وبالله التوفيق .

والعلم لا يؤخذ قسراً وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم في قوله :

أخى ، لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها بيان

ذكاء ، وحرص ، واجتهاد ، وبلغة وإرشاد أستاذ ، وطول زمان

وأعظم من هذه الستة : من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ ، وأتعب نفسه في تحصيله

فهو الموفق لمن شاء من عباده . كما قال تعالى (٤ : ١١٣) وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان

فضل الله عليك عظيماً) .

باب

﴿ ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله ﴾

عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تحلفوا بأبائكم . من حُلف له بالله فليصدق . ومن حُلف له بالله فليرض . ومن لم يرض فليس من الله » رواه ابن ماجه بسند حسن .

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث قال :

والجهل داء قاتل وشفاؤه أمران في التركيب متفقان
نص من القرآن ، أو من سنة وطيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث ، مالهيا من رابع ، والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسنة التي جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحذلق بسواهما إلا من الهديان

قوله : ﴿ باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله ﴾

﴿ عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تحلفوا بأبائكم ، من حلف له بالله فليصدق ، ومن حُلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله » رواه ابن ماجه بسند حسن .

قوله ﴿ لا تحلفوا بأبائكم ﴾ تقدم النهى عن الحلف بغير الله عموماً .

قوله ﴿ من حلف له بالله فليصدق ﴾ هذا مما أوجبه الله على عباده ، وحضهم عليه في كتابه . قال تعالى (٩ : ١١٩) يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال (٣٣ : ٣٥) والصادقين والصادقات) وقال (٤٧ : ٣١) فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) وهو حال أهل البر ، كما قال تعالى (٢ : ١٧٧) ولا تكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين - إلى قوله : أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .

وقوله ﴿ ومن حُلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله ﴾ أما إذا لم يكن له بحكم

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن الحلف بالآباء .

الثانية : الأمر للمحلف له بالله أن يرضى .

الثالثة : وعيد من لم يرض .

باب

﴿ قول ما شاء الله وشئت ﴾

عن قُتَيْبَةَ « أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنكم تشركون .

الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه ، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا . وأما إذا كان فيما يجرى بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك ، فهذا من حق المسلم على المسلم : أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرئاً من تهمة . ومن حقه عليه : أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه ، كما في الأثر عن عمر رضى الله عنه « ولا تظن بكلمة خرجت من مسلم شرأ وأنت تجد لها في الخير محملاً » .

وفيه : من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التي يحبها الله مالا يخفى على من له فهم . وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله ، ثم إنه يدخل في حسن الخلق الذي هو أتمل ما يوضع في ميزان العبد ، كما في الحديث ^(١) وهو من مكارم الأخلاق . فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى : من القيام بحقوقه ، وحقوق عباده ، وإدخال السرور على المسلمين ، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم . فإن فيه من الضرر مالا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال . وبسط هذه الأمور وذكر ماورد فيها مذكور في كتب الأدب وغيرها . فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغى العمل به منه ، وترك مايجب تركه من ذلك : دل على وفور دينه ، وكال عقله . والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين . والله أعلم .

قوله ﴿ باب قول : ما شاء الله وشئت ﴾

﴿ عن قُتَيْبَةَ : « أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنكم تشركون .

(١) روى الترمذى - وقال : حسن صحيح - وابن حبان ، عن أبي السرداء رضى الله عنه =

تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة . وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت « رواه النسائي وصححه .

تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة . وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت « رواه النسائي وصححه » .

قوله ﴿ عن قتيلة ﴾ بمثناة مصفرة بنت صيفي الأنصاريه صحابية مهاجرة ، لها حديث في سنن النسائي ، وهو المذكور في الباب . ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفي .

وفيه : قبول الحق ممن جاء به كائناً من كان . وفيه : بيان النهي عن الحلف بالكعبة ، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة . وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء ، لا لملك مقرب ولا نبي مرسل . ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه . وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله . ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع . وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها وجعلها للأمة قبلة ، فالطواف بها مشروع والحلف بها ودعاؤها ممنوع . فيترأى أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع ، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً .

قوله ﴿ إنكم تشركون تقولون : ما شاء الله وشئت ﴾ والعبد وإن كانت له مشيئة فشيئته تابعة لمشيئة الله ، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه ، كما قال تعالى (٨١ : ٢٨ ، ٢٩) لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وقوله (٧٦ : ٢٩ ، ٣٠) إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً . وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليماً حكيماً) وفي هذه الآيات والحديث : الرد على القدرية والمعتزلة نفاة القدر ، الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى من العبد وشاءه ، وسيأتى ما يبطل قولهم في « باب ما جاء في منكرى القدر » إن شاء الله تعالى ، وأنهم محجوس هذه الأمة .

== أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليغض الفاحش البذيء » ورواه أبو داود مختصراً .

وله أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت ، فقال : أجملتني لله ندأ ؟ ما شاء الله وحده . »

ولابن ماجه : عن الطفيل - أخى عائشة لأمها - قال : « رأيت كأني أتيت على نفرٍ من اليهود ، قلت : إنكم لآتم القوم ، لولا أنكم تقولون : عزير ابن الله . قالوا : وإنكم

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره . واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى في كل شيء مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه ، من أفعال العباد وأقوالهم . فالكل بمشيئة الله وإرادته . فما وافق ما شرعه رضىه وأحبه . وما خالفه كرهه من العبد ، كما قال تعالى (٧ : ٣٩) إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر - الآية) وفيه : بيان أن الحلف بالكعبة شرك ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أقر اليهودى على قوله « إنكم تشركون » .

قوله ﴿ وله أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما ^(١) » أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت ، قال : أجملتني لله ندأ ؟ بل ما شاء الله وحده » ﴿ . هذا يقرر ماتقدم من أن هذا شرك ؛ لوجود التسوية في العطف بالواو .

وقوله ﴿ أجملتني لله ندأ ؟ ﴾ فيه : بيان أن من سوى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله ندأ لله ، شاء أم أبى ، خلافاً لما يقوله الجاهلون ، مما يختص بالله تعالى من عبادة ، وما يجب النهى عنه من الشرك بنوعيه . و « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » .

قوله ^(٢) ﴿ ولابن ماجه عن الطفيل أخى عائشة لأمها قال « رأيت فيما يرى النائم كأني أتيت على نفر من اليهود ؛ فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود . قلت : إنكم لآتم القوم ، لولا أنكم

(١) قال ابن كثير : ج ١ ص ١٠٤ وقال سفيان بن سعيد الثورى عن الأجلح عن يزيد ابن الأصم عن ابن عباس - وساقه . رواه ابن مردويه وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح عنه . وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد . والله أعلم .

(٢) قال ابن كثير في التفسير (ج ١ ص ١٠٣) وقال حماد بن سلمة : حدثنا عبد الملك ابن عمير عن ربيع بن خراش عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة لأمها - وساقه - ثم قال : - هكذا رواه ابن مردويه في تفسير الآية . وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك ابن عمير به بنحوه .

لأتم القوم، لولا أنكم تقولون: ماشاء الله وشاء محمد: ثم مررت بنفرٍ من النصارى فقلت: إنكم لأتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإينكم لأتم القوم، لولا أنكم تقولون: ماشاء وشاء محمد. فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرت. ثم أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، قال: هل أخبرت بها أحداً؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعدُ، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلمم كلمة كان ينعنى كذا وكذا أن أنها كم عنها. فلا تقولوا: ماشاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ماشاء الله وحده.

تقولون: عزيز ابن الله. قالوا: وإينكم لأتم القوم لولا أنكم تقولون: ماشاء الله وشاء محمد، ثم مررت بنفرٍ من النصارى. فقلت: من أتم؟ قالوا: نحن النصارى. قلت: إنكم لأتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وإينكم لأتم القوم لولا أنكم تقولون: ماشاء الله وشاء محمد، فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرت، ثم أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: هل أخبرت بها أحداً؟ قلت: نعم. قال فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أما بعد فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلمم كلمة كان ينعنى كذا وكذا أن أنها كم عنها. فلا تقولوا: ماشاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ماشاء الله وحده» ﴿ قوله ﴿ عن الطفيل أخى عائشة لأمها ﴾ هو الطفيل بن عبد الله بن سَخْبَرَة أخو عائشة لأمها، صحابي له حديث عند ابن ماجه، وهو ما ذكره المصنف في الباب.

وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بمقتضاها. فنهاهم أن يقولوا: ماشاء الله وشاء محمد، وأمرهم أن يقولوا « ماشاء الله وحده » .

وهذا الحديث والذي قبله أمرهم فيه أن يقولوا « ماشاء الله وحده ». ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا « ثم شاء فلان » لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتعدد من كل وجه. فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

قوله ﴿ كان ينعنى كذا وكذا أن أنها كم عنها ﴾ ورد في بعض الطرق « أنه كان ينعنه

فيه مسائل :

الأولى : معرفة اليهود بالشرك الأصغر .

الثانية : فهم الإنسان إذا كان له هوى .

الثالثة : قوله صلى الله عليه وسلم . « أجعلتنى لله ندا ؟ » فكيف بمن قال :
« مالى من ألوذ به سواك » والبيتين بعده .

الرابعة : أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله : « يعنى كذا وكذا »
الخامسة : أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي .

السادسة : أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام .

باب

﴿ من سبَّ الدهر فقد آذى الله ﴾

الحياء منهم^(١) وبعد هذا الحديث الذى حدثه به الطفيل عن رؤياه خطبهم صلى الله عليه وسلم
فنهى عن ذلك نهياً بليغاً ، فما زال صلى الله عليه وسلم يبلغهم حتى أكل الله له الدين
وأنتم له به النعمة ، وبلغ البلاغ المبين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .
وفيه معنى قوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من
النبوة »^(٢) .

قلت : وإن كانت رؤيا منام فهى وحى ، يثبت بها ما يثبت بالوحى أمراً ونهياً والله أعلم .
قوله ﴿ باب من سبَّ الدهر فقد آذى الله ﴾

(١) لعل الذى كان يمنعه صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن الله أوحى إليه فيها شيئاً . فلما
أوحى إليه بلغه . أما الحياء فى تبليغ الأوامر والنواهي ، فهذا مما يليق برسول الله صلى الله
عليه وسلم والله أعلم .

(٢) هذا الحديث إنما يخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عما كان يرى قبل النبوة وهو يتحنت
فى غار حراء من الرؤيا التى كانت تجيء مثل فلق الصبح ، وذلك فى الدور الذى كان يهيشه الله
فيه لتلقى الوحي . وكان ذلك الدور ستة أشهر . وهى بالنسبة إلى مدة النبوة الثلاثة والعشرين
سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً منها . والله أعلم .

وقول الله تعالى (٤٥ : ٢٤) وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون) .
في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار » .

وقول الله تعالى ﴿ ٤٥ : ٢٤ ﴾ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴿ ٤٥ : ٢٤ ﴾ .

قال العماد ابن كثير في تفسيره : يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد (وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر) ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم وبعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البداية والرجعة . وتقول الفلاسفة الدهرية الدورية ، المنكرون للصانع ، المعتقدون أن في كل سنة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه . وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تنهاى ؛ فكابروا المقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا (وما يهلكنا إلا الدهر) قال الله تعالى (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) أى يتوهمون ويتخيلون . فأما الحديث الذى أخرجه صاحبنا الصحيح وأبو داود والنسائي من رواية سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر ، يبدى الأمر ، أقلب الليل والنهار ^(١) » وفي رواية « لا تسبوا الدهر فإنى أنا الدهر » وفي رواية « لا يقل ابن آدم : يا خيبة الدهر ، فإنى أنا الدهر ، أرسل الليل والنهار ، فإذا شئت قبضتهما ^(٢) » اهـ .

قال في شرح السنة : حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة قال : ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أى سبه عند النوازل ؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره . فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر ؛ فإذا أضافوا إلى الدهر ما نلهم من الشدائد سبوا فاعلموا فكان مرجع سبها إلى الله عز وجل

(١) في ابن كثير « أقلب ليله ونهاره »

(٢) هذه الرواية ليست في نسخ ابن كثير المطبوعة بأيدينا . وهي في تفسير البغوى

إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمر التي يصنعونها فهموا عن سب الدهر . اه باختصار .
وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً بهذا الطريق^(١) . قال « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويمحينا ، فقال الله في كتابه (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) . ويسبون الدهر . فقال الله عز وجل « يؤذيني ابن آدم ، سب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » . وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور عن سريج بن النعمان عن ابن عيينة مثله . ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى : يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر ، بيدي الليل والنهار » وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به .
وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله عز وجل : استقرضت عبدي فلم يعطني ، ويسبني عبدي ، يقول : وادهره ، وأنا الدهر » .

قال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى . فكأنما إنما سبوا الله سبحانه ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال ، هذا أحسن ما قيل في تفسيره - وهو المراد - والله أعلم .

وقد غلط ابن حزم ومن نحوه من الظاهرية في عدّهم « الدهر » من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث . اه .

وقد بين معناه في الحديث بقوله « أقلب الليل والنهار » وتقابيه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه .

وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى ، وهي قوله « بيدي الأمر »

(١) أي من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كان أهل الجاهلية الخ »

وفي رواية : لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر .
فيه مسائل :

الأولى : النهي عن سب الدهر .

الثانية : تسميته آذى الله .

الثالثة : التأمل في قوله « فإن الله هو الدهر » .

الرابعة : أنه قد يكون سابقاً ، ولو لم يقصده بقلبه .

باب

﴿ التسمى بقاضى القضاة ونحوه ﴾

قوله ﴿ وفي رواية « لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر » ﴾ .

معنى هذه الرواية : هو ما صرح به في الحديث من قوله « وأنا الدهر ؛ أقلب الليل والنهار » يعنى أن ما يجرى فيه من خير وشر بإرادة الله وتدييره بعلمه تعالى وحكمته ، لا يشاركه في ذلك غيره ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبجمده ، والرجوع إليه بالتوبة والإقامة . كما قال تعالى (٧ : ١٦٨) وبلونام بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون) وقال تعالى (٢١ : ٣٥) ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة ، كما في أشعار المولدين ، كابن المعتز والمتمنبي وغيرهما . وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك . كقوله تعالى (١٢ : ٤٨) ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد - الآية) وقال بعض الشعراء :

إن الليالى من الزمان مهولة تُطوى وتشر بينها الأعمار
فقصارهن مع المهموم طويلة وطواهن مع السرور قصار
وقال أبو تمام :

أعوام وصل كاد يُنسى طيبها ذِكر النوى ، فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقت نحوى أمسى ، فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكانهم أحلام

قوله ﴿ باب التسمى بقاضى القضاة ونحوه ﴾

ذكر المصنف رحمه الله هذه الترجمة إشارة إلى النهي عن التسمى بقاضى القضاة قياساً

في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« إن أخنع اسم عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله » .

على ما في حديث الباب . لسكونه شبهه في المعنى فينهي عنه .

قوله ﴿ في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« إن أخنع اسم عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله » (١) .

لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى . فهو ملك الأملاك . لا ملك أعظم ولا أكبر منه ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام . وكل ملك يؤتبه الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها إلى المعير . وهو الله تعالى ، ينزع الملك من ملكه تارة ، وينزع الملك منه تارة (٢) فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه ، وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لا انتهاء له بيده القسط يخفضه ويرفعه ، ويحفظ على عباده أعمالهم بعمله سبحانه وتعالى ، وما تكتبه الحفظة عليهم ، فيجازى كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما ورد في الحديث « اللهم لك الحمد كله . ولك الملك كله . وبيدك الخير كله . وإليك يرجع الأمر كله . أسألك من الخير كله . وأعوذ بك من الشر كله » .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى . قال العزيرى في الشرح الكبير : وفي الباب غيره أيضاً . وفي قرّة العيون : لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله فهو ملك الأملاك لأنه هو الملك في الحقيقة . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، يتصرف في الملوك وغيرهم بمشيئته وإرادته كما قال تعالى (٣ : ٢٦ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير) الآية . فلا ينبغي أن يعظم الخلق بما يشبه ما يعظم به الخالق جل وعلا ، وما كان مثل ذلك فينهي عنه كالذى ترجم به المصنف ؛ لأنه لا يصدق هذا المعنى إلا على الله ، فلا يصلح أن يسمى به الخلق ، لأن كل لفظ يقتضى التعظيم والكمال لا يكون إلا له تعالى وتقدس دون غيره .

(٢) قال تعالى (٣ : ٢٦ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء)

قال سفيان : « مثل شاهان شاه » .

قوله ﴿ قال سفيان ﴾ يعني ابن عيينة « مثل شاهنشاه ^(١) » عند المعجم عبارة عن

(١) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (ج ١٢ ص ٤٣) في حوادث سنة ٤٢٩ : وفي رمضان منها لقب جلال الدولة - السلجوقي - شاهنشاه الأعظم ، ملك الملوك بأمر الخليفة القائم لله . وخطب له بذلك على المنابر ، فنشرت العامة من ذلك ، ورموا الخطباء بالآجر ، ووقعت فتنة شديدة بسبب ذلك . واستفتوا القضاة والفقهاء في ذلك . فأفتى أبو عبد الله الصيمري - الشافعي - أن هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية . وقد قال الله تعالى (٢٤٧:٢) إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا (وقال (٧٩:١٨) وكان وراءهم ملك) وإذا كان في الأرض ملوك جاز أن يكون بعضهم فوق بعض وأعظم من بعض . وليس في ذلك ما يوجب التكبير ، والمائلة بين الخالق والمخلوقين .

وكتب القاضي أبو الطيب الطبري « إن إطلاق « ملك الملوك » جائز . ويكون معناه : ملك ملوك الأرض . وإذا جاز أن يقال : كافي الكفاة ، وقاضي القضاة ، جاز أن يقال : ملك الملوك ، وإذا كان في اللفظ ما يدل على أن المراد به ملك ملوك الأرض زالت الشبهة ، ومنه قولهم : اللهم أصلح الملك ، فيصرف الكلام إلى المخلوقين »
وكتب التميمي الحنبلي نحو ذلك .

وأما الماوردي صاحب الحادى الكبير فقد نقل عنه أنه أجاز ذلك أيضاً . والشهور عنه ما نقله ابن الجوزي والشيخ أبو منصور بن الصلاح في أدب المفتي أنه منع من ذلك وأصر على المنع منه ، مع صحبته للملك جلال الدولة ، وكثرة ترداده عليه ووجهته عنده ، وأنه امتنع من الحضور في مجلسه حتى استدعاه جلال الدولة في يوم عيد . فلما دخل عليه وهو وجل خائف أن يوقع به مكروهاً ، فلما واجهه قال له جلال الدولة : قد علمت أنه إنما منعك من موافقة الذين جوزوا ذلك مع صحبتك إياي ووجهتك عندي : دينك واتباعك الحق ، وأن الحق آثر عندك من كل أحد ، ولو حايت أحداً من الناس لحايتي ، وقد زادك ذلك عندي حجة ومحبة وعلو مكانة .

قال ابن كثير : والذي حمل القاضي الماوردي على ذلك المنع هو اتباع السنة التي وردت بها الأحاديث الصحيحة من غير وجه . قال الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أخرج اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك » قال الزهري : سألت أبا عمرو الشيباني عن « أخرج اسم » قال « أوضع » وقد رواه البخاري عن علي بن المديني عن ابن عيينة . وأخرجه مسلم من طريق هام عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أغبط رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك . لا ملوك إلا الله عز وجل » وقال الإمام أحمد حدثني محمد بن جعفر =

ملك الأملاك ، ولهذا مثل به سفيان ؛ لأنه عبارة عنه بلغة الجعم .

== حدثنا عوف عن جلاس عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اشتد غضب الله على من قتله نبي ، واشتد غضب الله على رجل تسمى بملك الأملاك . لا ملك إلا الله عز وجل » اه وقال العريزي في الشرح الكبير : أى سمى نفسه أو سماه غيره ، فرضى به وأقره ونحوه وما فى معناه شاه شاهان . والعجم تقدم المضاف إليه على المضاف ، وألحق به ملك شاه .

قيل : وإذا امتنع التسمى بما ذكر فاسم من له الوصف كالله والجبار والرحمن أولى . قال القرطبي : وحاصل الحديث : أن من تسمى بهذا الاسم انتهى من الكبر إلى الغاية التى لا تنبغى لمخلوق ، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق لما ثبت فى الفطرة أنه لا مالك لجميع الخلائق إلا الله ، فلا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه سبحانه وتعالى فوجب على ذلك من الإذلال والاستبدال بما لم يعاقب به مخلوق ، والمالك من له الملك ، والمالك أمدح ، والمالك أخص . وكلاهما واجب لله تعالى .

وقال الطيبي : قوله « لا مالك إلا الله » استئناف لبيان تعليل تحريم التسمية ، فنفى جنس الملوك بالكلية ، لأن المالك الحقيقي ليس إلا هو ، ومالكية الغير مستردة إلى مالك الملوك ، فمن تسمى بذلك نازع الله سبحانه وتعالى فى رداء كبريائه ، واستنكف أن يكون عبده ، لأن وصف المالكية مختص بالله عز وجل لا يتجاوزة ، والمملوكية بالبعد لا تتجاوزة . فمن تعدى طوره فله الحزى فى الدنيا والعار ، وفى الآخرة الإلقاء فى النار . اه .

ومن العجائب التى لا تخطر بالبال ما نقله ابن بزرة عن بعض شيوخه : أن أبا العتاهية - الشاعر المشهور - كان له ابنتان : سمى إحداهما الله ، وسمى الأخرى الرحمن . وهذا من أعظم القبائح ، وأشد الجرائم والفضائح . وقيل : إنه تاب .

وألحق بعض المتأخرين بملك الأملاك : حاكم الحكام . وقد شدد الزمخشري التنكير عليه فقال فى تفسير قوله تعالى (وأنت أحكم الحاكمين) رب غريق فى الجهل والجور من متقلدى الحكومة فى زمننا قد لقب أقضى القضاة ، ومعناه أحكم الحاكمين . فاعتبر واستعبر اه . واعترضه ابن المنير بأن خبر « أقضاكم على » يؤخذ منه جواز أن يقال لأعدل القضاة وأعلمهم فى زمنه « قاضى القضاة » ورد عليه وشنع العلم العراقي منتصراً للزمخشري . ومن النوادر : أن العز بن جماعة رأى أباه فى النوم ، فسأله عن حاله . فقال : ما كان على أضر من هذا الاسم . فهى الموثقين أن يكتبوا له فى الأسيجال : قاضى القضاة . بل قاضى المسلمين .

وقال ابن القيم : وتحرم التسمية بسيد الناس ، وسيدة السكل ، كما تحرم بسيد ولد آدم ، فإن ذا ليس لأحد إلا للرسول صلى الله عليه وسلم اه .

قال أبوظاهر - غفر الله لهما - ولعله يلحق بذلك ما تعارف عليه الناس فى بعض البلدان ==

وفي رواية : « أغيظُ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه » .
قوله : « أخنع » يعني : أوضع .

قوله ﴿ وفي رواية : أغيظُ رجل على الله وأخبثه ﴾ .
قوله ﴿ أغيظ ﴾ من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض . فيكون بغيضاً إلى الله ، مفضوباً عليه^(١) والله أعلم .

قوله ﴿ وأخبثه ﴾ وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاضمه في نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم ، فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل ، وضمه عند الله يوم القيامة . فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم ؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم ، لتعاضمه في نفسه على خلق الله بنعم الله .

قوله ﴿ « أخنع » يعني : أوضع^(٢) ﴾ هذا هو معنى « أخنع » فيفيد ما ذكرنا في معنى « أغيظ »
= الإسلامية : كصاحب العزة ، وصاحب الجلالة ، ونحو ذلك ، وكل هذه الألقاب إنما شاعت في الناس من وقت دخول الأعاجم وتمكن دولتهم في البلاد الإسلامية ، وأنهم لم يكن لهم من العدل والدين والاستقامة والعلم والفضل ما يزينون به عند الله والناس ، بل لعله كان لهم ضد ذلك : نجسوا أن يسقطوا من أعين العامة فاخترعوا لهم من تلك الأسماء والألقاب ما يلقي في نفوسهم الوهم والتعظيم المتكلف والتبجيل المصطنع : ولقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم يدعون بعضهم بعضاً بأسمائهم أو بوظائفهم ، وقلوبهم مملوءة من المحبة والتوقير والإجلال لعلمائهم وأمرائهم ، لما لهم من العلم والفضل والعدل والبر والإحسان التي جعلهم الله بها . نسأل الله أن يعيد للناس هذا فهو أنفع وأصلح مما هم عليه اليوم من هذه المدهانات والتملقات المتكلفة بالباطل .

- (١) ويؤيده « اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك » أخرجه الطبراني .
- (٢) « أخنع » بفتح الهمزة والنون بينهما معجمة ساكنة : أى أدخلها في الخنوع ، وهو الذل والضعف والهوان . ذكره الزمخشري . وفي رواية « أخنى » من الخنا بمعنى الفحش في القول ويحتمل أن يكون من قولهم : أخنى عليه الدهر أى أهلكه . وذكر أبو عبيد أنه ورد بلفظ « أخنع » بتقديم النون على الحاء المعجمة وهو بمعنى أهلك . قال ابن بطال : وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلاً يوم القيامة أى أشد ذلاً وصغاراً . وفي قرّة العيون : وهذا من الصفات التي تمر كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل ، ولا تشبيه ولا تمثيل ، والله أعلم .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن التسمي بملك الأملاك .

الثانية : إن ما في معناه مثله ، كما قال سفيان .

الثالثة : التفطن للتغليظ في هذا ونحوه ، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه .

الرابعة : التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه .

باب

﴿ احترام أسماء الله تعالى ، وتغيير الاسم لأجل ذلك ﴾

عن أبي شريح « أنه كان يُكْنَى أبا الحكم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

أنه يكون حقيراً بغيضاً عند الله .

وفيه التحذير من كل ما فيه تعاضم . كما أخرج أبو داود عن أبي مجلز قال « خرج معاوية

رضي الله عنه على ابن الزبير وابن عامر . فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير . فقال معاوية

لابن عامر : اجلس ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أحب أن يتمثل

له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » وأخرجه الترمذي أيضاً ، وقال : حسن .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً على

عصا ، فقمنا إليه . فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضاً » رواه أبو داود .

قوله ﴿ أعيظ رجل ﴾ هذا من الصفات التي تمر كما جاءت ، وليس شيء مما ورد في الكتاب

والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى ،

إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل كما تقدم . والباب كله واحد ، وهذا هو قول أهل السنة

والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة .

وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده كما لا يخفى على من له معرفة

بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم ، والله المستعان .

قوله ﴿ باب احترام أسماء الله تعالى ، وتغيير الاسم لأجل ذلك ﴾

﴿ عن أبي شريح « أنه كان يكنى أبا الحكم . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم .

إن الله هو الحكم وإليه الحكم ، فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين . فقال : ما أحسن هذا فالك من الولد ؟ قلت : شريح ومسلم وعبد الله . قال : فن أكرمهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح « رواه أبو داود وغيره » . قوله ﴿ عن أبي شريح ﴾ قال في خلاصة التذهيب : هو أبو شريح الخزاعي ، اسمه خويلد بن عمرو ^(١) أسلم يوم الفتح ، له عشرون حديثاً ، انفقا على حديثين وانفرد البخاري بحديث ، وروى عنه أبو سعيد المقبري ونافع بن جبير وطائفة . قال ابن سعد : مات بالمدينة سنة ثمان وستين . وقال الشارح : اسمه هانيء بن يزيد الكندي . قاله الحافظ وقيل : الحارث الضبابي قاله المزني . قوله ﴿ يكنى ﴾ السكنية ماصدر بأب أو أم ونحو ذلك ، واللقب ما ليس كذلك ^(٢) كزين العابدين ونحوه .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الله هو الحكم وإليه الحكم ﴾ فهو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة ؛ يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزل على أنبيائه ورسله ؛ وما من قضية إلا والله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة ، وقد يسر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة ؛ فإنها لا تجتمع على ضلالة ، فإن العلماء وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحداً ، فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم ، وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء ، يسر له ذلك بفضله ومنه عليه ، وإحسانه إليه ، فما أجابها من عطية ، فسدأل الله من فضله .

قوله ﴿ وإليه الحكم في الدنيا والآخرة ﴾ كما قال تعالى (٤٣ : ١٠) وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) وقال (٤ : ٥٩) فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته ^(٣) .

- (١) وبهامش الخلاصة : وقيل : عمرو بن خويلد . وقيل : هانيء بن عمرو ، وقيل : خويلد بن شريح بن عمرو ، كذا في الكنى من كتاب ابن الملقن وجامع الأصول .
(٢) في كتب العربية . اللقب : ما أشعر بمدح أو ذم ، كزين العابدين ونحوه .
(٣) يعني رد الحكم إلى الله : رد الحكم إلى كتابه ، ورد الحكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم رد الحكم إليه في حياته ، ثم رده إلى سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم ، فرضى كلا الفريقين . فقال : ما أحسن هذا . فمالك من الولد ؟ قال : شريح ، ومسلم ، وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح « رواه أبو داود وغيره .

وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه إلى اليمن « بيم تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي . فقال : الحمد لله الذي وفق رسول الله إلى ما يرضى رسول الله « فعاذ من أجل علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال من الحرام ، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة . ولهذا ساع له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حكماً في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط في الأحكام ممن يجهل حكم الله في كتابه وسنة رسوله ، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة وهيهات (١) .

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله عز وجل إذا نزل لفصل القضاء بين العباد ، فيحكم بين خلقه بعلمه . وهو الذي لا يخفى عليه خافية من أعمال خلقه (٤ : ٤٠ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات ، فيؤخذ للمظلوم من الظالم ، من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم ، فطرح على سيئات الظالم لا يزيد على هذا مثقال ذرة ، ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة .

قوله « فإن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين . فقال : ما أحسن هذا » فالمعنى - والله أعلم - أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتجرٍ للعدل بينهم ، ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين ، صار عندهم مرضياً ، وهذا هو الصلح ؛ لأن مداره على الرضى لاعلى الإلزام ، ولا على الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولا على الاستناد إلى أوضاع أهل الجاهلية من أحكام كبرائهم وأسلافهم التي

(١) وبخلاف الصنف الآخر : الذين يمتنون بأقوال الناس وآرائهم فيحفظونها متوناً وشروحاً مهما كانت معقدة وطويلة ، ثم يقدمونها في العبادات والأحكام بين يدي الله ورسوله ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . ماذا حرم الناس من خير وهدى وعز وسلطان بهذا العزل لكتاب الله وسنة رسوله عن وظيفتهما .

فيه مسائل :

الأولى : احترام أسماء الله وصفاته ، ولو لم يقصد معناه .

الثانية : تغيير الاسم لأجل ذلك .

الثالثة : اختيار أكبر الأبناء للكنية .

باب

﴿ من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﴾

تخالف حكم الكتاب والسنة . كما قد يقع اليوم كثيراً ؛ كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله . وإنما المتمد عنهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم^(١) . وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده فيعتمد على قول من قلده ويترك ما هو الصواب ، الموفق لأصول الكتاب والسنة . والله المستعان .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « فإلك من الولد ؟ قال : شريح ، ومسلم ، وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح » فيه : تقديم الأكبر في الكنية وغيرها غالباً . وجاء هذا المعنى في غير ما حديث . والله أعلم .

قوله ﴿ باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﴾ أي : فقد كفر

(١) في قرة العيون : وأما ما يحكم به الجملة من الأعراب ونحوهم من سوائف آبائهم وأهوائهم فليس من هذا الباب لما فيه من النهي الشديد ، والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه ، كما قال تعالى (٥ : ٤٤) : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وهذا كثير ، فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهوواه ، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه ويعمك بما كانوا يحكمون به ، وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه إذا اختلفوا . اهـ .

والنص الصريح في إبطال حكم السوائف من حكام البدو غير المتدينين هو قوله تعالى : (٥ : ٥٠) « الحكم الجاهلية يبيغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » وأبو شريح كان من قضاة الجاهلية قبل الإسلام ، ولذلك كنوه « بأبي الحكم » فأنكرها عليه النبي صلى الله عليه وسلم وغيرها ، ولفظ « الحكم » بفتحين لا ينهى عنه في الإسلام لقوله تعالى (٤ : ٣٥) . فابشوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) وذلك لأنه يحكم بما شرعه الله من صلاح وإصلاح ، وقد أذن الله للمؤمنين بأن يحكموا بين الناس بالعدل .

وقول الله تعالى: (٩: ٦٥) ولئن سألتهم ليقولنَّ: إنما كنا نخوض وتلعب .
قل: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟).

عن ابن عمر ، ومحمد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، وقتادة - دخل حديثُ بعضهم في بعض - أنه قال رجل في غزوة تبوك : « مارأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرغَبُ بطوناً ، ولا أكذب أسنناً ، ولا أجبنُ عند اللقاء ؛ يعني رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القراء . فقال له عوفُ بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٩ : ٦٥) ولئن سألتهم ليقولن : إنما كنا نخوض وتلعب . قل :
أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟) » .

قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره : قال أبو معشر المدني عن محمد بن كعب القرظي وغيره : « قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى مثل قُرَّائنا هؤلاء ؟ أرغبنا بطوناً^(١) ، وأكذبنا أسنناً ، وأجبننا عند اللقاء فرُفِعَ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كُنَّا نخوض وتلعب ؛ وتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق ، فقال (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تقتدروا قد كفرتم بعد إيمانكم ، إن نعفُ عن طائفة منكم نعدبُ طائفةً بأنهم كانوا مجرمين) وإن رجليه ليسفعمان^(٢) الحجارة ، وما يلتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متعلق بنسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) » وقال عبد الله بن وهب : أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال : « قال رجل في غزوة تبوك في مجلس : مارأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرغب بطوناً ، ولا أكذب أسنناً ، ولا أجبن عند اللقاء . فقال رجل في المجلس : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبأغ ذلك رسول الله

(١) في تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير « ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً » .

(٢) سفح الطائر ضربيته - كنع - لطمها بجناحيه ، وسفع فلان فلاناً لطمه وضربه ،

واللغى : أن الحجارة تضرب رجليه من سرعة السير وأنه مشغول عن ذلك .

(٣) النسعة - بكسر النون وسكون المهملة - سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره .

عليه وسلم ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه . فجاء ذلك الرجلُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحلَ وركبَ ناقته . فقال يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونتحدرُ حديثَ الركب تقطع به عنا الطريق . قال ابن عمر : كأنى أنظر إليه

صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن . قال عبد الله بن عمر : وأنا رأيته متعلقاً بحِمْبِ ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبُ الحجارة ، وهو يقول : يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أباالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) « وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا .

وقال ابن إسحاق « وقد كان جماعة من المناقذين منهم : وديعة بن ثابت أخو بني أمية ابن زيد بن عمرو بن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له نُحْشَى بن حَمِير ، يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض : أتحمسون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لسكانا بكم غداً مُقرنين في الجبال ؛ إرجافاً وترهيباً للمؤمنين . فقال نحشى بن حمير : والله لوددت أنى أفاضى على أن يُضْرَبَ كلُّ رجل منا مائة جلدة ، وأنا نتفلت أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فسلمهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قاتم كذا وكذا وكذا ، فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه . فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله واقف على راحلته - فجعل يقول وهو آخذ بحقيها : يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال نحشى بن حمير : يارسول الله قعد بي اسمي واسم وأبي ، فكان الذى عناه أى بقوله تعالى (إن نفع عن طائفة منكم نغذب طائفة) في هذه الآية : نحشى بن حمير ، فسُمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يُقتل شهيداً لا يُعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر . وقال عكرمة في تفسير هذه الآية : « كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول : اللهم إنى أسمع آية وأنا أعنى بها تقشعرّ منها الجلود وتجلُّ منها القلوب . اللهم فاجعل وفانى قتلا في سبيلك ، لا يقول أحد أنا غَسَلتَ ، أنا كَفنتَ . أنا دَفنتَ ، قال : فأصيب يوم اليمامة ، فما أحد من المسلمين إلا وقد وُجِدَ غيرُهُ » .

متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الحجارة تنكبُ رجله ، وهو يقول : إنما كنا نحوض ونلعب . فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم (أبأله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) ما يلتفت إليه ، وما يزيد عليه .

وقوله ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ أى بهذه المقالة التى استهزأتم بها (إن نطف عن طائفة منكم) أى مخشى بن حخير (نعدب طائفة) أى لا يعنى عن جميعكم ؛ ولا بد من عذاب بعضهم (إنهم كانوا مجرمين) أى بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة . انتهى . قال شيخ الإسلام : وقد أمره الله تعالى أن يقول لهم (قد كفرتم بعد إيمانكم) وقول من يقول : إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم : لا يصح ؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال : قد كفرتم بعد إيمانكم ؛ فإنهم لم يزالوا كافرين فى نفس الأمر ، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان ، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم ؛ وهم مع خواصهم مازالوا كذلك . ولا يدل اللفظ على أنهم مازالوا منافقين .

وقال رحمه الله فى موضع آخر : فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم : إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ؛ بل إنما كنا نحوض ونلعب ، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر ولا يكون هذا إلا من شرح صدرأ بهذا الكلام ، ولو كان الإيمان فى قلبه لمنعه أن يتكلم بهذا الكلام ، والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه . كقوله تعالى (٢٤ : ٤٧ - ٥٢) ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك - إلى قوله - : إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) فنفى الإيمان عن تولى عن طاعة الرسول ، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطعوا ، فبين أن هذا من لوازم الإيمان . انتهى . وفيه : بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به^(١) وأشدّها خطراً

(١) ومن هذا الباب : الاستهزاء بالعلم وأهله ، وعدم احترامهم لأجله .

فيه مسائل :

الأولى : وهي العظيمة - أن مَنْ هَزَلَ بهذا : إنه كافر .

الثانية : أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنا من كان .

الثالثة : الفرقُ بين التهمة ، وبين النصيحة لله ولرسوله .

الرابعة : الفرقُ بين العفو الذي يُجْبَهُ الله ، وبين الغِلظة على أعداء الله .

الخامسة : أن من الاعتذارِ ما لا ينبغي أن يُقبلَ .

باب

قول الله تعالى : (٤١ : ٥٠) ولئن أذقناه رحمةً مِنَّا من بعدِ ضراءِ مسته ليقولنَّ :

هَذَا لِي ، وما أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، ولئن رُجِعتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى ،

فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمَلُوا ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

قال مجاهد : « هذا بعملى وأنا محقوق به » .

إرادات القلوب . فهي كالبحر الذى لا ساحل له ، ويفيد الخوف من النفاق الأكبر .

فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه ، كما قال ابن أبى مليكة « أدركت

ثلاثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه » . نسأل الله

السلامة والعفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٤١ : ٥٠) ولئن أذقناه رحمةً منا من بعدِ ضراءِ مسته ﴾ الآية .

ذكر المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين فى معنى هذه الآية

وما بعدها ما يمكن فى المعنى ويشفى .

قوله ﴿ قال مجاهد : هذا بعملى وأنا محقوق به . وقال ابن عباس : « يريد من عندى »

وقوله (قال إنما أوتيته على علم عندى) قال قتادة « على علم منى بوجوده المكاسب » وقال

آخرون « على علم من الله أنى له أهل » وهذا معنى قول مجاهد : أوتيته على شرف ﴿ .

وليس فيما ذكره اختلاف ، وإنما هى أفراد المعنى .

قال العماد ابن كثير رحمه الله فى معنى قوله تعالى (٣٩ : ٤٩) ثم إذا خولناه نعمة منا قال : إنما

أوتيته على علم بل هى فتنة) يخبر أن الإنسان فى حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه

وقال ابن عباس « يريد من عندي » .

وقوله (قال : إنما أوتيته على علم عندي) قال قتادة : « على علم مني بوجوه

المكاسب » .

وقال آخرون : « على علم من الله أني له أهل » وهذا معنى قول مجاهد :

« أوتيته على شرف » .

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن ثلاثة

من بني إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى . فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم

ويدعوه ، ثم إذا خوله نعمة منه طغى وبغى و (قال إنما أوتيته على علم) أى لما يعلم الله من

استحقاقى له ، ولولا أنى عند الله حظيظ لما خولنى هذا^(١) قال تعالى (بل هى فتنة) أى ليس

الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى ؟ مع

علمنا للتقدم بذلك (بل هى فتنة^(٢)) أى اختبار (ولكن أكرم ليعلمون) فلهذا

يقولون ما يقولون ، ويدعون ما يدعون (قد قالها الذين من قبلهم) أى قد قال هذه المقالة وزعم هذا

الزعم وادعى هذه الدعوى كثير من سلف من الأمم (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى فما صح

قولهم ، ولا نفعهم جمعهم ، وما كانوا يكسبون ، كما قال تعالى مخبراً عن قارون (٢٨ : ٧٦ - ٧٨) إذ

قال له قومه لا تفرح ، إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس

نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب

المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندي ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون

من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم الجرمون) وقال تعالى (٣٤ : ٣٥)

وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) اهـ .

قوله ﴿ وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : إن ثلاثة - الحديث^(٣) .

(١) فى تفسير ابن كثير زيادة : قال قتادة « على علم عندي : على خير عندي »

(٢) فى ابن كثير « مع علمنا بذلك فهى فتنة »

(٣) وقد حذفناه من الشرح منمناً للتكرار

مَلَكًا . فَأَتَى الْأَبْرَصَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْ نُحْسِنَ ، وَجِلْدَ حَسَنٍ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَدَّرَنِي النَّاسُ بِهِ . قَالَ : فَسَحِهَ فَذَهَبَ عَنْهُ قَدْرَهُ ، فَأَعْطَى لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا . قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْإِبِلُ أَوْ الْبَقْرُ - شَكَ إِسْحَاقُ - فَأَعْطَى نَاقَةً عَشْرَاءَ ، وَقَالَ : بَارِكْ اللَّهُ لَكَ فِيهَا . قَالَ : فَأَتَى الْأَقْرَعَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرُ حَسَنٍ . وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَدَّرَنِي النَّاسُ بِهِ . فَسَحِهَ ، فَذَهَبَ عَنْهُ ، وَأَعْطَى شَعْرًا حَسَنًا . فَقَالَ : أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْبَقْرُ أَوْ الْإِبِلُ . فَأَعْطَى بَقْرَةَ حَامِلًا . قَالَ : بَارِكْ اللَّهُ لَكَ فِيهَا . فَأَتَى الْأَعْمَى ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : أَنْ يَرِدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بِصَرِيٍّ فَأَبْصُرَ بِهِ النَّاسُ . فَسَحِهَ ، فَفَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصْرَهُ . قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْغَنَمُ . فَأَعْطَى شَاةً وَالِدًا . فَأُتِيَ هَذَانِ ، وَوَلَدَ هَذَا . فَكَانَ لِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَلِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْبَقْرِ ، وَلِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْغَنَمِ . قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ . فَقَالَ : رَجُلٌ مُسْكِينٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحِبَالُ فِي سَفَرِي ، فَلَا بُلُوغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ - بِمِيرَاً أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي ، فَقَالَ : الْحَقُوقُ كَثِيرَةٌ . فَقَالَ :

﴿ أخرجاه ﴾ أي البخاري ومسلم ، والناقة العشراء - بضم العين وفتح الشين وبالمد - هي الحامل قوله ﴿ أُنْتِج ﴾ وفي رواية (فنتج) معناه : تولى نتاجها ، والناجج للناقة كالتقابلة للمرأة . قوله ﴿ ولد هذا ﴾ هو بتشديد اللام ، أي تولى ولادتها ، وهو بمعنى (أنتج) في الناقة ؛ فالموالد والناجج والتقابلة بمعنى واحد ؛ لكن هذا للحيوان ، وذلك للخير . وقوله ﴿ انقطعت بي الحبال ﴾ هو بالخاء المهملة والباء الموحدة : هي الأسباب . قوله ﴿ لأجهدك ﴾ معناه : لأشق عليك في رد شيء تأخذ ، أو تطلبه من مالي ، ذكره النووي وهذا حديث عظيم ، وفيه يعتبر : فإن الأولين جحدا نعمة الله ، فما أقر الله بنعمة ، ولا نسا النعمة إلى المنعم بها ، ولا أديا حق الله فيها ، فحلَّ عليهما السخط . وأما الأعمى

كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يَقْدِرُكَ الناس فقيراً ، فأعطاك الله عز وجل المال ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كبراً عن كابر . فقال : إن كنت كاذباً فصَيَّرَكَ اللهُ إلى ما كنتَ وأتى الأقرعَ في صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، وردَّ عليه مثل ما ردَّ عليه هذا . فقال إن كنتَ كاذباً فصَيَّرَكَ اللهُ إلى ما كنتَ ، قال : وأتى الأعمى في صورته ، فقال : رجلٌ مسكين وابنُ سبيل . قد انقطعت بي الجبال في سفرى فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلِّغُ بها في سفرى . فقال : قد كنت أعمى فردَّ اللهُ إليَّ بصرى ، نخذُ ماشئتَ ، ودعْ ماشئتَ ، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله . فقال : أَمْسِكْ مالك ، فإنما ابتليتُم ، فقد رضى اللهُ عنك ، وسَخِطَ على صاحبك « أخرجاه فيه مسائل :

فاعترف بنعمة الله ، ونسبها إلى من أنعم عليه بها ، وأدى حق الله فيها ، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لمساأتى بأركان الشكر الثلاثة التى لا يقوم الشكر إلا بها : وهى الإقرار بالنعمة ، ونسبتها إلى المنعم ، وبذلها فيما يجب .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله^(١) : أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له ، والذل ولحبة ، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها ، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً ، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدتها كما يجحد التكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم بها ، وأقرَّ بها ولم يجحدتها ، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به ، وعنه لم يشكره أيضاً ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقرَّ بها ، وخضع للمنعم بها ، وأحبه ورضى به وعنه ، واستعملها فى محابه وطاعته ، فهذا هو الشاكر لها ، فلا بد فى الشكر من علم القلب ، وعمل يتبع العلم ، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له . قوله ﴿ قدرنى الناس ﴾ بكرامة رؤيته وقر به منهم .

الأولى : تفسير الآية .

الثانية : ما معنى : (ليقولنَّ هذا لي) .

الثالثة : ما معنى قوله : (إنما أوتيته على علم عندي) .

الرابعة : ما في هذه القصة العجيبة من العبرِ العظيمة .

باب

قول الله تعالى : (٧ : ١٩٠) فلما آتاها صالحاً جملاله شركاء فيما آتاها ،

فتمالى الله عما يشركون) .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى : (٧ : ١٩٠) فلما آتاها صالحاً جملاله شركاء فيما آتاها ،

فتمالى الله عما يشركون) 》 .

قال الإمام أحمد رحمه الله في معنى هذه الآية : حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سُمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سَمِّيه عبد الحارث ؛ فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فمأش . وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بُنْدَار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . ورواه الترمذى في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثني عن عبد الصمد به ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . ورواه الحاكم في مستدرکه من حديث عبد الصمد مرفوعاً ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً^(١) .

(١) قال الحافظ ابن كثير : والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى . وقد وثقه ابن معين . ولكن قال أبو حاتم الرازى : لا يحتج به . ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتز عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً . فإله أعلم .

الثانى . أنه قد روى من قول سمرة نفسه ، وليس مرفوعاً ، كما قال ابن جرير .

الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بخير هذا . فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل ==

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا سهيل بن يوسف عن عمرو عن الحسن (جمالاه شركاء فيما آتاها) قال « كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم » . وحدثنا بشر بن معاذ قال : حدثني يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة قال « كان الحسن يقول «هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا » وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله .

قال العماد ابن كثير في تفسيره : وأما الآثار : فقال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال « كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فتعبدهم الله وتسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك ، فيصيهم الموت ؛ فأتاها إبليس فقال : أما إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش ، فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث ، فقيه أنزل الله (هو الذي خلقكم من نفس واحدة - الآية) وقال العوفي عن ابن عباس : « فأتاها الشيطان فقال : هل تدرين ما يولد لكما ؟ أم هل تدرين ما يكون ، أهبيمة أم لا ؟ وزين لها الباطل ، إنه لغويٌّ مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا ؛ فقال لها الشيطان : إنكما إن لم تسمياهن بي لم يخرج سوياً ، ومات كما مات الأول . فسميا ولدهما عبد الحارث ، فذلك قوله تعالى (فلما آتاها صالحاً جمالاً له شركاء فيما آتاها ، فتعالى الله عما يشركون) » .

وذكر مثله عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس . ورواه ابن أبي حاتم . وقد تعلق هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كجهاد وعكرمة وسعيد بن جبيرة ، ومن الطبقة الثانية : قتادة والسدي وجماعة من الخلف ؛ ومن المفسرين والمتأخرين جماعات لا يحصون كثرة .

== عنه - ثم ساق ابن كثير الروايات عن الحسن ، بمثل ما روى ابن جرير عنه ، ثم قال : هذه أسانيد صحيحة عن الحسن : أنه فسر الآية بذلك ، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية . ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره ، ولا سيما مع تقواه وورعه . فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ، ويحتمل أنه تلقاه عن بعض أهل الكتاب من آمن منهم ، مثل كعب أو وهب بن منبه أو غيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله ، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع ، والله أعلم . اهـ .

وقال الإمام أبو محمد بن حزم في كتاب الملل والنحل : وهذا الذي نسبوه إلى آدم من أنه سمى ابنه عبد الحارث خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لادين له ولاحياء ، ولم يصح سندها قط ، وإنما نزلت الآية في الشركين على ظاهرها . اهـ .

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم مُعبَد لغير الله . كعبد عمرو ،
وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك .

قال العماد ابن كثير : وكان أصله - والله أعلم - مأخوذ من أهل الكتاب^(١) .
قلت : وهذا بعيد جداً .

قوله ﴿ قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله ، كعبد عمرو ، وعبد الكعبة ،
وما أشبه ذلك ، حاشى عبد المطلب ﴾ .

ابن حزم : هو عالم الأندلس ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري
صاحب التصانيف . توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة . وله اثنتان وسبعون سنة .

وعبد المطلب هذا : هو جد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو ابن هاشم بن عبدمناف
ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة
ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وما فوق عدنان مختلف
فيه . ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام .

حكى رحمه الله اتفاق العلماء على تحريم كل ماعُبد لغير الله ؛ لأنه شرك في الربوبية
والإلهية ؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له ، استعبدتم لعبادته وحده ، وتوحيده في ربو بيته
وإلهيته ، فمنهم من عبد الله ووحدته في ربو بيته وإلهيته ، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقرله
بربو بيته وأسماؤه وصفاته ، وأحكامه القدريّة جارية عليهم ولا بد ، كما قال تعالى (١٩ : ٩٣)
إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) فهذه هي العبودية العامة . وأما

(١) قال ابن كثير : وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب ،
أما نحن فمضى مذهب الحسن البصري في هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ،
وإنما المشركون من ذريته ؛ ولهذا قال (فتعالى الله عما يشركون) .

(*) فائدة : قال شيخنا العلامة الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ - أطال الله حياته
لنفع المسلمين - أما قوله تعالى في آخر الآية (فتعالى الله عما يشركون) فليس المراد به آدم
وحواء ؛ لأن الكلام قد تم قبله ، وهذا ابتداء كلام مستأنف ، وإنما المراد به المشركون ،
وما ساقه الشاويح رحمه الله في قوله (فلما آتاها صالحاً جلاله شركاء فيما آتاها) هو القول
للتعمد الذي يدل عليه ظاهر القرآن اه .

حاشي عبد المطلب .

العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة ، كما قال تعالى (أليس الله بكاف عبده ؟) ونحوها .

قوله ﴿ حاشي عبد المطلب ﴾ هذا استثناء من العموم المستفاد من « كل » وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيها ؛ لأن أصله من عبودية الرق ، وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة ، وكان ابن أخيه « شيبه » هذا قد نشأ في أخواله بني النجار من الخزرج ؛ لأن هاشمًا تزوج فيهم امرأة ، فجاءت منه بهذا الابن ، فلما شب في أخواله ، وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته^(١) فقدم به مكة وهو رديفه ، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر ، فحسبوه عبداً للمطلب ، فقالوا : هذا عبد المطلب ، فعلق به هذا الاسم وركبه ؛ فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به^(٢) ، فلم يبق للأصل معنى مقصود . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « أنا ابن عبد المطلب^(٣) » وقد صار معظماً في قريش والعرب ، فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته ، وهو الذي حفر زمزم وصارت له السقاية وفي ذريته من بعده و « عبد الله » والد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد بني عبد المطلب ، وتوفي في حياة أبيه . قال الحافظ صلاح الدين العلائي في كتاب الدررة السنية في مولد خير البرية : كان سن أبيه عبد الله حين حملت منه آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ثمانية عشر عاماً ، ثم ذهب إلى المدينة ليمتار منها تمراً لأهله فمات بها عند أخواله بني عدى بن النجار ، والنبي صلى الله عليه وسلم حمل على الصحيح . انتهى . قلت : وصار النبي صلى الله عليه وسلم لما وضعت أمه في كفالة جده عبد المطلب .

(١) وكانت أمه سلمى قد شرط أبوها عمرو بن زيد الخزرجي النجاري على هاشم أن تلده عنده بالمدينة . فولدت له شيبه . ومات هاشم في الشام فبقي شيبه بالمدينة عند أخواله بني عدى ابن النجار سبع سنين حتى ذهب عمه للمطلب إليه وأحضره إلى مكة .

(٢) واسمه العلم : شيبه الحمد .

(٣) روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب - وسأله رجل من قيس : أفرتم عن رسول الله يوم حنين ؟ فقال « لكن رسول الله لم يفر . كانت هوازن رماة وإنما لما حملنا عليهم انكشفوا ؛ فأكبنا على الغنائم فاستقبلتنا بالسهم . ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بقلته البيضاء وإن أبا سفيان آخذ بزمامها يقول : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب اللهم زل نصرك . وكنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله . وإن الشجاع الذي يحاذي به »

وعن ابن عباس في الآية « قال : لما تَمَشَّاهَا آدم حملت ، فَأَتَاهَا إبليس . فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لَتَطِيعُنِي أو لأَجْعَلَنَّ له قَرْنِي أَيْلٍ فيخرج من بطنك فَيَسْقَهُ . ولأَفْعَلَنَّ ولأَفْعَلَنَّ ، يَحْوِفُهُمَا . سَمِيَاه عبد الحارث . فَأَيَا أَنْ يَطِيعَاه ، نَفْرَج مَيْتًا . ثم حملت ، فَأَتَاهَا . فقال مثل قوله : فَأَيَا أَنْ يَطِيعَاه ، نَفْرَج مَيْتًا . ثم حملت فَأَتَاهَا . فذكر لهما . فَأَدْرَكَهَا حُبُّ الْوَلَدِ ، فَسَمِيَاه عبد الحارث ، فذلك قوله (جعلناه شركاء فيما آتاهما) » رواه ابن أبي حاتم .
وله بسند صحيح عن قتادة قال : « شركاء في طاعته ، ولم يكن في عبادته » .
وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله : (لئن آتيتنا صالحاً) قال : « أَشْفَقَا أن لا يكون إنساناً » وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرها .

قال الحافظ الذهبي : وتوفي أبوه عبد الله ولله صلى الله عليه وسلم ثمانية وعشرون شهراً ، وقيل : أقل من ذلك ، وقيل : وهو حمل . توفي بالمدينة ، وكان قد قدمها ليمتار تمراً . وقيل : بل مرتبها راجعاً من الشام ، وعاش خمسة وعشرين سنة . قال الواقدي : وذلك أثبت الأثوابيل في سنه ووفاته . وتوفيت أمه آمنة بالأبواء ، وهي راجعة به صلى الله عليه وسلم إلى مكة من زيارة أحوال أبيه بنى عدى بن النجار ، وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة يوم . وقيل : ابن أربع سنين . ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده ، فكان في كفالته إلى أن توفي جده ، ولله صلى الله عليه وسلم ثمان سنين ، فأوصى به إلى عمه أبي طالب . اهـ

قوله ﴿ وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية ﴾ قد قدمنا نظيره عن ابن عباس في المعنى قوله ﴿ وله بسند صحيح عن قتادة قال : « شركاء في طاعته ، ولم يكن في عبادته » ﴾ . قال شيخنا رحمه الله : إن هذا الشرك في مجرد تسمية ، لم يقصد حقيقة التي يريد بها إبليس ، وهو يحمل حسن بين أن ما وقع من الأبوين من تسميتهما ابنيهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصد تعبيده لغير الله . وهذا معنى قول قتادة : « شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته » .

فيه مسائل :

الأولى : تحريم كل اسم معبد لغير الله ^(١) .

الثانية : تفسير الآية .

الثالثة : أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقةها .

الرابعة : أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم .

الخامسة : ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة .

باب

قول الله تعالى (٧ : ١٨٠) والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين

يُلحِدُونَ في أسمائه - الآية) .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى : (٧ : ١٨٠) والله الأسماء الحسنى فادعوه بها . وذروا الذين

يلحدون في أسمائه - الآية ^(٢)) .

عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » أخرجه في الصحيحين من حديث سفیان بن عيينة . ورواه البخارى عن أبي اليمان عن أبي الزناد عن الأعرج عنه . وأخرجه الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله . وزاد بعد قوله « يحب الوتر : هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ،

(١) كتسمية عبد على ، وعبد الحسين ، و غلام الحسين وعبد النبي ، وعبد الرسول .

(٢) في قرّة عيون الموحدين : أراد رحمه الله بهذه الترجمة الرد على من يتوسل بالأموات

وأن الشروع هو التوسل بالأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، والأعمال الصالحة .

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس : « (يلحدون في أسمائه) : يشركون »
وعنه : « سُموا اللات من الإله ، والعزى من العزيز » .
وعن الأعمش : « يدخلون فيها ما ليس منها » .

الجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ،
المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدي ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواحد ،
الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ،
الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ،
ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المعطى ، المانع ، الضار ، النافع ،
النور ، الهادى ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » ثم قال الترمذى : هذا حديث
غريب : وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ، ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء
إلا فى هذا الحديث ، والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث
مدرج فيه . وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعائى عن زهير بن محمد
أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أى أنهم جمعوها من القرآن . كما روى
عن جعفر بن محمد وسفيان وأبى زيد اللغوى . والله أعلم .

هذا ما ذكره العماد ابن كثير فى تفسيره . ثم قال : ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست
منحصرة فى تسعة وتسعين ، بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق
عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال « ما أصاب أحدا قط همٌّ ولا حزنٌ فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ،
ابن أمّتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمك . عدلٌ فيّ قضاؤك . أسألك اللهم بكل اسم
هو لك سميت به نفسك . أو أنزلته فى كتابك . أو علمته أحداً من خلقك . أو استأثرت
به فى علم الغيب عندك . أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي . ونور صدري . وجلاء حزني .
وذهب همّي ونغمي . إلا أذهب الله همه وحزنه . وأبدله مكانه فرحاً . فقيل : يا رسول الله :
ألا تتعلمها ؟ فقال : بلى : ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان
فى صحيحه .

فيه مسائل :

الأولى : إثبات الأسماء .

الثانية : كونها حسنى .

الثالثة : الأمر بدعائه بها .

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) قال « إلحاد الملحدىن : أن دعوا اللات فى أسماء الله » وقال ابن جريج عن مجاهد (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) قال : « اشتقوا اللات من الله . واشتقوا العزى من العزيز » .
وقال قتادة « يلحدون : يشركون » وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس « الإلحاد : التكذيب » .

وأصل الإلحاد فى كلام العرب : العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف . ومنه اللحد فى القبر . لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر . قال ابن القيم رحمه الله تعالى :
وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإثـ مراك والتعطيل والنكران
وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف تعرف بها تعالى إلى عباده ، ودات على كماله
جل وعلا .

وقال رحمه الله : فالإلحاد : إما بـمجدها وإنكارها ، وإما بـمجدها معانيها وتعطيلها ، وإما بتـحريفها عن الصواب ، وإخراجها عن الحق بالتأويلات ، وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كالإلحاد أهل الاتحاد . فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون ، محمودها ومذمومها . حتى قال زعيمهم : هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلاً وشرعياً وعرفاً . وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . انتهى .

قلت : والذى عليه أهل السنة والجماعة قاطبة . متقدمهم ومتأخرهم : إثبات الصفات التى وصف الله بها نفسه ، ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يليق بجلال الله وعظمته . إثباتاً بلا تمثيل . وتنزيهاً بلا تعطيل . كما قال تعالى (٤٣ : ١١) ليس كمثل شىء وهو السميع البصير) وأن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات . يحتذى حذوه

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين .

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها .

السادسة: وعيد من ألد .

ومثاله . فكما أنه يجب العلم بأن الله ذاتاً حقيقة لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين ، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين ، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه . فهو جهمي ، قد اتبع غير سبيل المؤمنين . كما قال تعالى (٤ : ١١٥) ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين : نولّه ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً) .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى أيضاً :

﴿ فائدة جليلة ﴾

ما يجري صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالى أقسام :

أحدها : ما يرجع إلى نفس الذات ، كقولك : ذات ، وموجود .

الثاني : ما يرجع إلى صفاته ونعوته ؛ كالعليم ، والقدير ، والسميع ، والبصير .

الثالث : ما يرجع إلى أفعاله . كخالق ، والرازق .

الرابع : التنزيه المحض . ولا بد من تضمينه ثبوتاً ؛ إذ لا كمال في العدم المحض ،

كالقدوس ، والسلام .

الخامس : ولم يذكره أكثر الناس - وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة

لا تختص بصفة معينة ، بل دال على معان ، نحو المجيد ، العظيم ، الصمد ؛ فإن المجيد : من

اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا . فإنه موضوع للسعة

والزيادة والكثرة ، فنه « استجد المرخ والمغار ^(١) » وأجد الناقة : علفها ، ومنه

(ذو العرش المجيد) صفة للعرش ، لسعته وعظمته وشرفه . وتأمل كيف جاء هذا الاسم

مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه في مقام طلب

(١) المرخ - شجر سريع الورى والاشتعال . والمغار - كسحاب - شجر يتخذ منه الزناد ،

والمراد : كثرت النار ، ويضرب المثل للكثرة .

باب

﴿ لا يقال : السلام على الله ﴾

في الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان

المزيد والتعرض لسعة العطاء ، وكثرته ودوامه ، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه ، كما تقول : اغفرلى وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم ، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته . وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه . ومنه الحديث الذى فى الترمذى « أَلْطُوا بِيَاذَا الْجَلالَ وَالْإِكْرَامَ » ومنه « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام » فهذا سؤال له ، وتوسل إليه بحمده ، وأنه : لا إله إلا هو المنان ، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته . وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقفاً عند المستؤل . وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد .

السادس : صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر . وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغنى الحميد ، الغفور القدير ، الحميد المجيد ، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة فى القرآن . فإن « الغنى » صفة كمال ، و « الحمد » كذلك ، واجتماع « الغنى » مع « الحمد » كمال آخر ، فله ثناء من غناه ، وثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما ، وكذلك الغفور القدير ، والحميد المجيد ، والعزيز الحكيم ، فتأمله ؛ فإنه من أشرف المعارف .
قوله ﴿ باب لا يقال : السلام على الله ﴾

قوله ﴿ فى الصحيح عن ابن مسعود - الخ ﴾ هذا الحديث رواه البخارى ومسلم ، وأبو داود والنسائى وابن ماجه ، من حديث شقيق بن سلمة عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال « كنا إذا جلسنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . قلنا : السلام على الله قبل عباده ، السلام على فلان وفلان - الحديث » وفى آخره ذكر التشهد الأخير . رواه الترمذى من حديث الأسود بن يزيد عن ابن مسعود . وذكر فى الحديث سبب النهى عن ذلك بقوله « فإن الله هو السلام ومنه السلام » وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثاً ، ويقول « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت

وفلان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا : السلام على الله ، فإن الله هو السلام .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير السلام .

الثانية : أنه تحية .

الثالثة : أنها لا تصلح لله .

الرابعة : العلة في ذلك .

الخامسة : تعليمهم التحية التي تصلح لله .

ياذا الجلال والإكرام « وفي الحديث « إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى » وفي التنزيل ما يدل على أن الرب تبارك وتعالى يسلم عليهم في الجنة . كما قال تعالى (٣٦ : ٤٨ سلامٌ قولاً من ربِّ رحيم) .

ومعنى قوله « إن الله هو السلام » إن الله سالم من كل نقص ، ومن كل تمثيل . فهو الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص .

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد : السلام اسم مصدر ، وهو من ألقاظ الدعاء . يتضمن الإنشاء والإخبار ، فجهة الخبرية فيه لانتفاض الجهة الإنشائية . وهو معنى السلام المطلوب عند التحية . وفيه قولان مشهوران .

الأول : أن السلام هنا هو الله عز وجل ، ومعنى الكلام : نزلت بركته عليكم . ونحو ذلك فاختر في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم « السلام » دون غيره من الأسماء . الثاني : أن السلام مصدر بمعنى السلامة . وهو المطلوب المدعو به عند التحية . ومن حجة أصحاب هذا القول : أنه يأتي مُنْكَرًا ، فيقول المسلم « سلام عليكم » ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك . ومن حججهم : أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى ؛ وإنما المقصود منه : الإيذان بالسلامة خيراً ودعاء .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وفصل الخطاب أن يقال : الحق في مجموع القولين . فكل

باب

﴿ قول : اللهم اغفر لي إن شئت ﴾

منهما بعض الحق ، والصواب في مجموعهما . وإنما يتبين ذلك بقاعدة . وهي : أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ، ويتوسل بالاسم المقتضى لذلك المطلوب ، المناسب لحصوله ، حتى إن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه ، فإذا قال : رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور فقد سأله أمرين ، وتوسل إليه باسمين من أسمائه ، مقتضيين لحصول مطلوبه . وقال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضى الله عنه وقد سأله ما يدعوه به « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » فالمراد لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل ، أتى في طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو « السلام » الذي تطلب منه السلامة . فتضمن لفظ السلام معنيين : أحدهما : ذكر الله والثاني : طلب السلامة وهو مقصود المسلم . فقد تضمن « سلام عليكم » اسماً من أسماء الله ، وطلب السلامة منه . فتأمل هذه الفائدة . وحقيقته : البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب . وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه ، فمن ذلك قولهم : سلمك الله ومنه دعاء المؤمنين على الصراط « رب سلم سلم » ومنه سلم الشيء لفلان ، أى خلص له وحده . قال تعالى (٣٩ : ٢٩) ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل) أى خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره . ومنه السلم ضد الحرب ؛ لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ، ولهذا بنى فيه على المفاعلة ، فقيل : المسالمة مثل المشاركة . ومنه : القلب السليم ، وهو النقي من الدغل والعيب . وحقيقته : الذى قد سلم لله وحده فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخالفات ، فهو مستقيم على صدق حبه ، وحسن معاملته . وهذا هو الذى ضمن له النجاة من عذاب الله والفوز بكرامته . ومنه أخذ الإسلام ، فإنه من هذه المادة ؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله ، والتخلص من شوائب الشرك ؛ فسلم لربه وخلص له ، كالعبد الذى سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون . ولهذا ضرب سبحانه هذين المثالين للمسلم الخالص لربه ، وللمشرك به .

قوله : ﴿ باب قول : اللهم اغفر لي إن شئت ﴾

يعنى : أن ذلك لا يجوز ، لورود النهى عنه في حديث الباب .

في الصحيح عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليَعزِمَ المسألة ؛ فإن الله لا مُكْرِهَ له . »

قوله ﴿ في الصحيح عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليَعزِمَ المسألة ؛ فإن الله لا مُكْرِهَ له » ﴾ بخلاف العبد ، فإنه قد يعطى السائل مسألته لحاجته إليه ، أو لخوفه أو رجائه ، فيعطيه مسألته وهو كاره . فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلّق حصول حاجته على مشيئة المستول ، مخافة أن يعطيه وهو كاره ، بخلاف رب العالمين ، فإنه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه ، وكمال جوده وكرمه ، وكلهم فقير إليه ، محتاج لا يستغنى عن ربه طرفة عين ، وعطاؤه كلام . وفي الحديث « يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى ، لا يفيضها نفقة سَحَاءَ الليل والنهار . أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَفِضْ مَا فِي يَمِينِهِ ، وَفِي يَدِهِ الْآخِرَى الْقِسْطُ بِمَنْفَعَتِهِ وَيَرْفَعُهُ ^(١) » يعطى تعالى الحكمة ، ويمنع الحكمة ، وهو الحكيم الخبير . فاللائق بمن سأل الله أن يعزِمَ المسألة ، فإنه لا يعطى عبده شيئاً عن كراهة ، ولا عن عظم مسألة . وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه :

ويعظم في عين الصغير صغارها ويصغر في عين العظيم العظام

وهذا بالنسبة إلى مافي نفوس أرباب الدنيا ، وإلا فإن العبد يعطى تارة ، ويمنع أكثر ويعطى كرهاً ؛ والبخل عليه أغلب . وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم ، وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر بوجود النوال قبل السؤال ، من حين وضعت النطفة

(١) روه البخارى في عدة مواضع من الجامع ، ومسلم عن أبي هريرة وفيه زيادة « وكان عرشه على الماء » بعد « خلق السموات والأرض » وفي تفسير سورة هود من البخارى أول الحديث « أنفق أنفق عليك ، وقال « يد الله مملأى - الحديث » قال الحافظ في الفتح : وترد رواية « يمين الله » على من فسر اليد هنا بالنعمة ، وأبعد منه من فسرها بالجزأئ اه . ومعنى « يفيضها » ينقصها ، يقال : غاض الماء إذا نقص ، ومعنى « سحاء » أى دأمة الصب والعطاء الكبير .

ولمسلم : « وليُعْظِم الرغبة ، فإن الله لا يتعاطمه شيء أعطاه » .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن الاستثناء في الدعاء .

الثانية : بيان العلة في ذلك .

الثالثة : قوله « ليعزم المسألة » .

الرابعة : إعظام الرغبة .

الخامسة : التعليل لهذا الأمر .

في الرحم . فنعمه على الجنين في بطن أمه دارة ، يريه أحسن تربية ، فإذا وضعته أمه عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشده ، يتقلب في نعم الله مدة حياته ، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه في الدنيا من النعم التي لا يقدر قدرها إلا الله ، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين . وكل ما يناله العبد في الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده ، فالله تعالى هو الحمود على النعم كلها ، فهو الذي شاءها وقدرها ، وأجراها عن كرمه وجوده وفضله . فله النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن . قال تعالى (١٦ : ٥٣) وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله الحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع ، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر ، أو ليعطيه أكثر . فتبارك الله رب العالمين .

وقوله ﴿ ولمسلم : وليعظم الرغبة ﴾ أي في سؤاله ربه حاجته ؛ فإنه يعطي العظام كرمًا وجوداً وإحساناً . فالله تعالى لا يتعاطمه شيء أعطاه ، أي ليس شيء عنده بعظيم ، وإن عظم في نفس المخلوق ؛ لأن سائل المخلوق لا يسأله إلا ما يهون عليه بذله ، بخلاف رب العالمين ، فإن عطائه كلام (٢٦ : ١٢) إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن ، فيكون) فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

باب

﴿ لا يقول : عبدى وأمتى ﴾

في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضئ ربك . وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاى وغلامي » .

قوله ﴿ باب لا يقول : عبدى وأمتى ﴾

ذكر الحديث الذى فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يقولون أحدكم : أطعم ربك ، وضئ ربك . وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاى وغلامي » .

هذه الألفاظ المنهى عنها . وإن كانت تطلق لنة . فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى عنها تحقيقاً للتوحيد ، وسداً لذرائع الشرك ، لما فيها من التشريك فى اللفظ ؛ لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم . فإذا أطلق على غيره شاركة فى الاسم . فنهى عنه لذلك . وإن لم يقصد بذلك التشريك فى الربوبية التى هى وصف الله تعالى . وإنما المعنى أن هذا مالك له . فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار . فالنهى عنه حسماً لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق . وتحقيقاً للتوحيد . وبعداً عن الشرك حتى فى اللفظ . وهذا من أحسن مقاصد الشريعة ، لما فيه من تعظيم الرب تعالى ، وبعده عن مشابهة المخلوقين ، فأرشدهم صلى الله عليه وسلم إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ . وهو قوله « سيدي ومولاي » وكذا قوله « لا يقل أحدكم : عبدى وأمتى » لأن العبيد عبيد الله . والإماء إماء الله . قال الله تعالى (١٩ : ٩٣) إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) ففى إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك فى اللفظ ، فهام عن ذلك تعظيماً لله تعالى ، وأدباً وبعداً عن الشرك ، وتحقيقاً للتوحيد وأرشدهم إلى أن يقولوا « فتاى وفتاى وغلامي » وهذا من باب حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد ، فقد بلغ صلى الله عليه وسلم أمته كل ما فيه لهم نفع ؛ ونهام عن كل ما فيه نقص فى الدين . فلا خير إلا دلهم عليه ، خصوصاً فى تحقيق التوحيد ، ولا شر إلا حذرهم منه ، خصوصاً ما يقرب من الشرك لفظاً ، وإن لم يقصد به . وبالله التوفيق .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن قول : عبدى وأمتى .

الثانية : لا يقول العبد : رَبِّي ، ولا يقال له : أَطْعِمَ رَبَّكَ .

الثالثة : تعليم الأول قول : فتاى ، وفتاى ، وغلامى .

الرابعة : تعليم الثانى قول : سيدى ومولاي .

الخامسة : التنبيه للمراد ، وهو تحقيق التوحيد حتى فى الألفاظ .

باب

﴿ لا يَرُدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ ﴾

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من

قوله ﴿ باب لا يرد من سأل بالله ﴾

ظاهر الحديث النهى عن رد السائل إذا سأل بالله . لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ماورد فى الكتاب والسنة ، فيجب إذا سأل السائل ماله فيه حق كبيت المال أن يجاب فيعطى منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوباً ، وكذلك إذا سأل المحتاج من ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته ، خصوصاً إذا سأل من لافضل عنده ، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المستؤل ما لا يضر به ولا يضر عائلته ، وإن كان مضطراً أو يجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته . ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين ، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جابوا عليه من الكرم والجود ، وضدهما من البخل والشح . فالأول : محمود فى الكتاب والسنة . والثانى : مذموم فيهما . وقد حث الله تعالى عباده على الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه . قال الله تعالى : (٢ : ٢٦٧ ، ٢٦٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تَنْفِقُونَ ، وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تَغْمُضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم) وقال تعالى (٥٧ : ٧) وَأَنْفَقُوا بِمَا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة فى قوله (٢ : ٧٧) ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب

سألَ الله فأعطوه ، ومن استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه .

ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین ، وآتى المال على حبه ذوى القربى والیتامى والمساکین وابن السبیل والسائلین - الآية) فذكره بعد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة . وذلك - والله أعلم - لتعدى نفعه . وذكره تعالى فى الأعمال التى أمر بها عباده . وتعبدم بها ووعدم عليها الأجر العظيم . قال تعالى : (٣٣ : ٣٥) إن للمسلمین والمسلمات ، والمؤمنین والمؤمنات ، والقانتین والقانتات ، والصادقین والصادقات ، والصابرین والصابرات ، والخاشعین والخاشعات ، والمتصدقین والمتصدقات ، والصائمین والصائمات ، والحافظین فروجهم والحافظات ، والذاکرین الله كثيراً والذاکرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً) .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء ، نصحاً للأمة وحناً لهم على ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً . وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضى الله عنهم بالإيثار ؛ فقال تعالى (٥٩ : ٩) ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه : فأوائكهم المفلحون) والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما تفيد هذه الآية الكريمة . وقد قال تعالى (٧٦ : ٨ ، ٩) ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) .

والآيات والأحاديث فى فضل الصدقة كثيرة جداً ، ومن كان سعيه للآخرة رغب فى هذا ورغب ، وبالله التوفيق .

قوله ﴿ ومن دعاكم فأجيبوه ﴾ هذا من حقوق المسلمین بعضهم على بعض : إجابة دعوة المسلم ، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمین .

قوله ﴿ ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه ﴾ ندبهم صلى الله عليه وسلم إلى المكافأة على المعروف ، فان المكافأة على المعروف من المروءة التى يحبها الله ورسوله ، كما دل عليه هذا الحديث ، ولا يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس ، وبعض اللئام يكافى على الإحسان بالإساءة ، كما يقع كثيراً من بعضهم . نسأل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، بخلاف حال أهل التقوى والإيمان ، فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة ؛ طاعة لله

فإن لم تجدوا ما تكفثونه فادعوا له ، حتى تُروا أنكم قد كافأتموه » رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح .

فيه مسائل : الأولى : إعاذة من استعاذ بالله .

الثانية : إعطاء من سأل بالله . الثالثة : إجابة الدعوة .

الرابعة : المكافأة على الصنعة . الخامسة : أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه .

السادسة : قوله : حتى ترون أنكم قد كافأتموه .

باب

﴿ لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة ﴾

ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه ، كما قال تعالى (٢٣ : ٩٦ - ٩٨ ادفع بالتي هي أحسن السيئة . نحن أعلم بما يصفون ، وقل : رب أعوذ بك من هزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (٤١ : ٣٤ ، ٣٥ ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا . وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم) وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة .

قوله ﴿ فإن لم تجدوا ما تكفثونه فادعوا له ﴾ أرشدكم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة مكافأة للمعروف ، فيدعوه على حسب معروفه .

قوله ﴿ تروا - بضم التاء - تظنوا أنكم قد كافأتموه ﴾ ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى : تعلموا . ويؤيده ما في سنن أبي داود من حديث ابن عمر « حتى تعلموا » فتعين الشائي للتصريح به . وفيه « من سألكم بالله فأجيبوه » أى إلى ما سأل . فيكون بمعنى : أعطوه ، وعند أبي داود في رواية أبي نهيك عن ابن عباس « من سألكم بوجه الله فأعطوه » وفي رواية عميد الله القواريري لهذا الحديث « ومن سألكم بالله » كما في حديث ابن عمر .

قوله ﴿ باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة ﴾ .

ذكر فيه حديث جابر - رواه أبو داود عن جابر - قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة » .

عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة » رواه أبو داود .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب .
الثانية : إثباتُ صفةِ الوجه .

وهنا سؤال : وهو أنه قد ورد في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عند منصرفه من الطائف حين كذبه أهل الطائف ومن في الطائف من أهل مكة ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء للمأثور « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهوانى على الناس . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، غير أن عافيتك هي أوسع لى » وفي آخره « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . أن يحلّ على غضبك ، أو ينزل بى سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١) » .
والحديث المروى فى الأذكار « اللهم أنت أحق من ذُكر ، وأحق من عُبد - وفى آخره - أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له السموات والأرض » وفى حديث آخر « أعوذ بوجه الله الكريم ، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة ، من شر السامة واللامه ، ومن شر ما خلقت أى رب ، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده ، ومن شر الدنيا والآخرة » وأمثال ذلك فى الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان .

فالجواب : أن ماورد من ذلك فهو فى سؤال مايقرب إلى الجنة ، أو ماينمعه من الأعمال التى تمنعه من الجنة ، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه مايقرب إلى الجنة كما فى الحديث الصحيح « اللهم إنى أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل » بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال والرزق والسعة فى المعيشة رغبة فى الدنيا ؛ مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك مايعينه على عمل

(١) رواه ابن إسحاق والطبرانى عن عبد الله بن جعفر .

باب

﴿ ما جاء في اللّو ﴾

وقول الله تعالى (٣: ١٥٤) يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلنا ههنا).

الآخرة . فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله . وعلى هذا : فلا تعارض بين الأحاديث . كما لا يخفى . والله أعلم .

وحديث الباب من جملة الأدلة المتواترة في الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى . فإنه صفة كمال ، وسلبه غاية للنقص والتشبيه بالناقصات . كسلبهم جميع الصفات أو بعضها . فوقعوا في أعظم مما فروا منه . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وطريقة أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً : الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه ، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته على ما يليق بجلال الله وعظمته ، فيثبتون له ما أثبتته لنفسه في كتابه وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم ، وينفون عنه مشابهة المخلوق ؛ فكما أن ذات الرب لا تشبه الذوات ، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات ، فمن نفاها فقد سلبه الكمال .

قوله ﴿ باب ما جاء في اللّو ﴾ .

أى : من الوعيد والنهي عنه عند الأمور المكروهة ، كالمصائب إذا جرى بها القدر ، لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على ما فات ، مما لا يمكن استدراكه ، فالواجب التسليم للقدر ، والقيام بالعبودية الواجبة ، وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره . والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة . وأدخل المصنف رحمه الله تعالى أداة التعريف على « لو » وهذه في هذا المقام لاتفييد تعريفاً كمنظأرها ؛ لأن المراد هذا اللفظ كما قال الشاعر :

رأيت الوليد بن يزيد مباركا شديداً بأعباء الخلافة كاهله

وقوله ﴿ وقول الله عز وجل (٣: ١٥٤) يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلنا ههنا ﴾

قاله بعض المنافقين يوم أحد ؛ لخوفهم وجزعهم وخورهم .

قال ابن إسحاق : فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن

الزبير قال : قال الزبير « لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف

وقوله (٣ : ١٦٩ الذين قالوا لإخوانهم - وقعدوا - : لو أطاعونا ما قُتِلوا).

علنيا أرسل الله علينا النوم . فما منا رجل إلا ذقنه في صدره ، قال : فوالله إني لأسمع قول مُعْتَب بن قُشير ما أسمع إلا كالحُلم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلنا ههنا . لحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله عز وجل (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلنا ههنا) لقول معتب « رواه ابن أبي حاتم . قال الله تعالى (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أي هذا قدر مقدّر من الله عز وجل ، وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه . وقوله ﴿ ٣ : ١٦٩ الذين قالوا لإخوانهم - وقعدوا - لو أطاعونا ما قُتِلوا - الآية ﴾ .

قال العماد ابن كثير (الذين قالوا لإخوانهم - وقعدوا - لو أطاعونا ما قُتِلوا) أي لو سمعوا مشورتنا عليهم بالعودة وعدم الخروج ما قُتِلوا مع من قتل . قال الله تعالى . (قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أي إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت ؛ فينبغي لكم أن لا تموتوا ، والموت لا بدآت إليكم ، ولو كنتم في بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين قال مجاهد عن جابر بن عبد الله « نزلت هذه الآية في عبد الله ابن أبي وأصحابه » يعني أنه هو الذي قال ذلك . وأخرج البيهقي عن أنس : أن أبا طلحة قال « غشينا الناس ونحن في مصافنا يوم أحد ، فحمل يسقط سيفي وآخذه . ويسقط وآخذه . قال : والطائفة الأخرى - المنافقون - ليس لها مَهْمٌ إلا أنفسهم ، أجبن قوم ، وأرعبه ، وأخذله للحق (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل » .

قوله (قد أهمتهم أنفسهم) يعني لا يشعرون الناس من القلق والجزع والخوف (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أبي في غزوة أحد قال : فلما انخذل يوم أحد وقال « يدع رأبي ورأيه ، ويأخذ برأى الصبيان ؟ » أو كما قال - انخذل معه خلق كثير ، كان كثير منهم لم يوافق قبل ذلك . فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان ، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل . فلو ماتوا قبل الحنة والنفاق لماتوا على الإسلام ، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً ، الذين امتحنوا فثبتوا على الحنة ، ولا من المنافقين حقاً ، الذين ارتدوا عن الإيمان بالحنة . وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم ، إذا ابتلوا بالحنة التي

في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجزن .

يتضمنع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيراً ، وينافق كثير منهم . ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً ، وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة . وإذا كانت العافية ، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين ، وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهراً ، ولكنه إيمان لا يثبت على المحنة ؛ ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك الحرام ، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا ، فقليل لهم (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أى الإيمان المطلق الذى أهله هم المؤمنون حقاً ؛ فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التى تقلقل الإيمان فى القلوب . انتهى .

قوله : وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة .

قلت : ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو ، من إعانتهم العدو على المسلمين ، والطمع فى الدين ، وإظهار العداوة والشماتة ، وبذل الجهد فى إطفاء نور الإسلام ، وذهاب أهله ، وغير ذلك مما يطول ذكره . والله المستعان
قوله ﴿ فى الصحيح - أى صحيح مسلم - عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : احرص الحديث ﴾ .

اختصر المصنف رحمه الله هذا الحديث ، وتماه : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك » أى : فى معاشك ومعادك . والمراد : احرص على فعل الأسباب التى تنفع العبد فى دنياه وأخراه مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة ؛ ويكون العبد فى حال فعله السبب مستعيناً بالله وحده دون كل ماسواه لئتم له سببه وينفعه ، ويكون اعتماده على الله تعالى فى ذلك ؛ لأن الله تعالى هو الذى خلق السبب والمسبب ، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به ، فيكون اعتماده فى فعل السبب على الله تعالى . ففعل السبب سنة ، والتوكل على الله توحيد . فإذا جمع بينهما : تم له مراده بإذن الله .

قوله ﴿ ولا تعجزن ﴾ النون نون التأكيد الخفيفة ، نهى صلى الله عليه وسلم عن المعجز

وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلتُ لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل . فإن لو تفتح عمل الشيطان .

وذمه ، والمعجز مذموم شرعاً وعقلاً ، وفي الحديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى ^(١) » فأرشدنا صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره أن لا يقول : لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن يقول : قدر الله وما شاء فعل ، أى : هذا قدر الله . والواجب التسليم للقدر ، والرضى به ، واحتساب الثواب عليه .

قوله ﴿ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان ﴾ أى : لما فيها من التأسف على مافات والتحسر ولوم القدر ، وذلك ينافى الصبر والرضى ، والصبر واجب ، والإيمان بالقدر فرض ، قال تعالى (٥٧ : ٢٢ ، ٢٣ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور) .

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » وقال الإمام أحمد « ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً من القرآن » .

قال شيخ الإسلام رحمه الله - وذكر حديث الباب بتمامه - ثم قال فى معناه : لا تعجز عن مأمور ، ولا تجزع من مقدور ، ومن الناس من يجمع كلا الشرين ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالحرص على النافع والاستعانة بالله ، والأمر يقتضى الوجوب ، وإلا فلا استحباب ، ونهى عن العجز وقال : « إن الله يلوم على العجز » والعاجز ضد : (الذين هم ينتصرون) فالأمر بالصبر والنهى عن العجز مأمور به فى مواضع كثيرة ؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين : أمر أمرٌ بفعله ، فعليه أن يفعله ويحرص عليه ، ويستعين بالله ولا يعجز . وأمرٌ أصيب به من غير فعله . فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه . ولهذا قال بعض العقلاء - ابن المقفع وغيره - الأمور أمران : أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه .

(١) روه أحمد والترمذى - وحسنه - والحاكم ، وقال : صحيح على شرط البخارى وتعقبه الذهبي بأن فيه ابن أبى مريم وهو واه . وهذا من حديث شداد بن أوس . وهو عندهم بدون كلمة « الأمانى » :

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيتين في آل عمران .

الثانية : النهي الصريح عن قول : « لو » إذا أصابك شيء .

وهذا في جميع الأمور لكن عند المؤمن : الذى فيه حيلة هو ما أمره الله به ، وأحبه له . فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة . ومالا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله . واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين . فالأفعال مثل قوله تعالى (٦ : ١٦٠ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) ومثل قوله تعالى (١٧ : ٧ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها) ومثل قوله تعالى (٤٢ : ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها) ومثل قوله تعالى (٢ : ٨١ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) إلى آيات كثيرة من هذا الجنس . والله أعلم .

والقسم الثانى : مايجرى على العبد بغير فعله من النعم والمصائب . كما قال تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) والآية قبلها ، فالحسنة فى هاتين الآيتين : النعم ، والسيئة : المصائب ، هذا هو الثانى من القسمين .

وأظن شيخ الإسلام رحمه الله ذكره فى هذا الموضع ، ولعل الناسخ أسقطه . والله أعلم . ثم قال رحمه الله : فإن الإنسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عند ما يؤمر به من الأفعال ، ولكن عند مايجرى عليه من المصائب التى لا حيلة له فى دفعها ، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه ، وارض وسلم ، قال تعالى (٦٤ : ١١ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه) ولهذا قال آدم لموسى : « أتولمنى على أمر قدّرهُ الله علىّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟ فنجح آدم موسى » لأن موسى قال له : « لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة^(١) » فلامه على المصيبة التى حصلت بسبب فعله ؛ لا لأجل كونها ذنباً . وأما كونه لأجل الذنب - كما يظنه طوائف من الناس - فليس مراداً بالحديث ، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس . انتهى .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن عمر بن الخطاب .

الثالثة : تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان .

الرابعة : الإرشاد إلى الكلام الحسن .

الخامسة : الأمر بالحرص على ما ينفع ، مع الاستعانة بالله .

السادسة : النهي عن ضد ذلك ، وهو العجز .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : فتضمن هذا الحديث أصولاً عظيمة من أصول الإيمان .

أحدها : أن الله سبحانه موصوف بالحجة وأنه يحب حقيقة .

الثاني : أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته ، وما يوافقها ، فهو القوى ، ويجب المؤمن

القوى ، وهو وتر يحب الوتر ، وجميل يحب الجمال ، وعليم يحب العلماء ، ونظيف يحب النظافة ، ومؤمن يحب المؤمنين ، ومحسن يحب المحسنين ، وصابر يحب الصابرين ، وشاكر يحب الشاكرين .

ومنها : أن محبته للمؤمنين تتفاضل ، فيحب بعضهم أكثر من بعض .

ومنها : أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده ، والحرص : هو

بذل الجهد واستفراغ الوسع . فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً . وكاله كلة في مجموع هذين الأمرين : أن يكون حريصاً ، وأن يكون حرصه على ما ينفع به ، فإن حرصه على ما لا ينفعه ، أو فعل ما ينفعه من غير حرص : فانه من الكمال بقدر ما فاته من ذلك ، فالخير كله في الحرص على ما ينفع .

ولما كان حرص الإنسان وقوله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه : أمره أن يستعين

بالله ليجمع له مقام (إياك نعبد وإياك نستعين) فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى .

ولا يتم إلا بمعونته ، فأمره أن يعبد الله وأن يستعين به . فالحريص على ما ينفعه ، المستعين بالله

ضد العاجز ، فهذا إرشاد له قبل وقوع القصور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله ؛ وهو

الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمه الأمور بيده ، ومصدرها منه ، ومردّها إليه .

فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان : محجز . وهو مفتاح عمل الشيطان ؛ فيلقيه العجز إلى

« لو » ولا فائدة من « لو » ههنا ، بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن ،

وذلك كله من عمل الشيطان . فنهاه صلى الله عليه وسلم عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح ، وأمره

بالحالة الثانية . وهي النظر إلى القدر وملاحظته ، وأنه لو قدر له : لم يفته ولم يغلبه عليه ،

باب

﴿ النهى عن سب الريح ﴾

عن أبي بن كعب رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لا تَسُبُّوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير
هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح
وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به » صححه الترمذى .
فيه مسائل :

الأولى : النهى عن سب الريح .

الثانية : الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره .

الثالثة : الإرشاد إلى أنها مأمورة .

الرابعة : أنها قد تؤمر بخير ، وقد تؤمر بشر .

أحد ، فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ، ومشية الرب النافذة التي توجب وجوب
المقدور ، وإن انتفت امتنع وجوده ؛ ولهذا قال : « فإن غلبك أمر فلا تقل : لو أنى فعلت
كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل » فأرشدته إلى ما ينفعه في الحالتين :
حالة حصول المطلوب ، وحالة فواته ، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغنى عنه الصبد أبداً ،
بل هو أشد إليه ضرورة ، وهو يتضمن إثبات القدر ، والكسب والاختيار ، والقيام
بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالتى حصول المطلوب وعدمه ، وبالله التوفيق .

قوله ﴿ باب النهى عن سب الريح ﴾

﴿ عن أبي بن كعب رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا
الريح . فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها
وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به » صححه الترمذى ﴾
لأنها - أى الريح - إنما تهب عن إجماد الله تعالى وخلقه لها وأمره ؛ لأنه هو الذى
أوجدها وأمرها ، فسببها مسببة للفاعل ، وهو الله سبحانه . كما تقدم فى النهى عن سب

باب

قول الله تعالى: (٣ : ١٥٤) يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ، قل : إن الأمر كله لله ؛ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، قل : لو كنتم في يوتوبكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور .

الدهر ، وهذا يشبهه ، ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه ، وبما شرعه لعباده ؛ فنبى صلى الله عليه وسلم أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والخفاء ، وأرشدهم إلى ما يجب أن يقال عند هبوب الرياح فقال « إذا رأيتم ماتكروهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الرياح وخير ما فيها وخير ما أمرت به » يعنى إذا رأيتم ماتكروهون من الريح إذا هبت ، فارجموا إلى ربكم بالتوحيد وقولوا « اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به . ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به » ففى هذا عبودية لله وطاعة له ولرسوله ، واستدفاع للشرور به ، وتعرض لفضله ونعمته ، وهذه حال أهل التوحيد والإيمان ، خلافاً لحال أهل الفسوق والمعصيان الذين حرموا ذوق طعم التوحيد الذى هو حقيقة الإيمان .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٣ : ١٥٤) يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله - الآية) ﴾ .

وهذه الآية ذكرها الله تعالى فى سياق قوله تعالى فى ذكر وقعة أحد (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمتة ناعسا يفتشى طائفة منكم) يعنى أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق ؛ وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله صلى الله عليه وسلم ، وينجز له مأموله ، ولهذا قال (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) يعنى لا يفشام النعاس من الجزع والقلق والخوف (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) كما قال تعالى (٤٨ : ١٢) بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً) وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة ؛ وأن الإسلام

وقوله : (٤٨ : ٦ : الظانين بالله ظنَّ السوء عليهم دائرة السوء) .
قال ابن القيم في الآية الأولى : فُسِّرَ هذا الظنُّ بأنه سبحانه لا ينصُرُ رسوله ،
وأن أمره سيمضحلُّ ، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقَدَرِ الله وحكمته . ففسر
بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمرُ رسوله ، وأن يظهره الله على

قد باد وأهله . وهذا شأن أهل الرب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيمة تحصل لهم
هذه الأمور الشنيعة .

عن ابن جريج قال : قيل لعبد الله بن أبي : « قُتِلَ بنو الخزرج اليوم ؟ قال : وهل لنا
من الأمر من شيء ؟ » .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على ماتضمنته وقعة أحد^(١) : وقد فسر
هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصُرُ رسوله ، وأن أمره سيمضحلُّ ، وأنه يسلمه
للقتل ، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ، ولا حكمة له فيه . ففسر
بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن
يظهره على الدين كله ، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح
حيث يقول (٤٨ : ٦) ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله
ظنَّ السوء ، عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت
مصيراً) وإنما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية - وهو المنسوب إلى أهل الجهل -
وظن غير الحق ؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وذاته المبرأة من كل
عيب وسوء ، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية ، وما يليق بوعده
الصادق الذي لا يخلفه ، وبكلمته التي سمعت لرسوله أنه ينصُرهم ولا يخذلهم ، ولجنده بأهم
هم الغالبون . فمن ظن به أنه لا ينصُرُ رسوله ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد حربه ويعليهم
ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم ، وأنه لا ينصُرُ دينه وكتابه ، وأنه يُدبِلُ الشرك على التوحيد ،
والباطل على الحق إدالة مستقرة ، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالا لا يقوم بعده
أبداً : فقد ظن بالله ظن السوء ، ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكاله وصفاته ونعوته ،
فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأتي ذلك ، وتأتي أن يُدبِلَ حربه وجنده ، وأن تكون
(١) زاد المعاد (ج ٢ ص ١٠٣-١٠٦) وقد بسط القول في ذلك أيضاً في إغاثة اللفهان .

الدين كله . وهذا هو ظنُّ السَّوء الذي ظنُّ المنافقون والمشركون في سورة الفتح .
وإنما كان هذا ظنُّ السوء لأنه ظنُّ غير ما يليقُ به سبحانه ، وما يليقُ بحكمته
وحمده ووعد الصادق . فمن ظنُّ أنه يُبدِّلُ الباطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرة
يضمحلُّ معها الحقُّ ، أو أنكر أن يكونَ ما جرى بقضائه وقدره ، أو أنكر أن

النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به ، فمن ظلم به ذلك : فاعرفه
ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكاله ، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره ،
فاعرفه ولا عرف ربو بيته وملسكه وعظمته ، وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من
ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة
مجردة عن حكمة ، وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فواتها ، وأن تلك الأسباب المكروهة
له المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة ، لإفضائها إلى ما يجب وإن كانت مكروهة له ،
فما قدرها سدى ولا شاءها عبثاً ولا خلقها باطلا (٢٧: ٣٨) ذلك ظنُّ الذين كفروا فويل للذين
كفروا من النار) .

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظنُّ السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم ،
ولا يسلّم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته ، وعرف موجب حكمته وحمده .
فمن قنط من رحمة وأيس من روحه : فقد ظنُّ به السوء ، ومن جَوَّزَ عليه أن يعذب أوليائه
مع إحسانهم وإخلاصهم ، ويسوى بينهم وبين أعدائه : فقد ظنُّ به ظنُّ السوء . ومن ظنُّ أنه
يترك خلقه سُدى معطلين عن الأمر والنهي ، لا يرسل إليهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه ،
بل يتركهم هملاً كالأنعام : فقد ظنُّ به ظنُّ السوء . ومن ظنُّ أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم
للثواب والعقاب في دار يجازى المحسن فيها بإحسانه ، ويبين خلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ويظهر
للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين : فقد ظنُّ به ظنُّ السوء
ومن ظنُّ أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره ، ويبطله عليه
بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له في
حصوله ، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظنُّ به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه
الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ، ويجريها على أيديهم ليضلوا بها
عباده ؛ وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته ، فيخلده في الجحيم

يكون قَدْرُهُ لحكمةٍ بالغةٍ يستحق عليها الحمد ، بل زَعَمَ أن ذلك لمشيةٍ مجردة .
فذلك ظن الذين كفروا ، فويلٌ للذين كفروا من النار .
وأكثر الناس يظنون بالله ظنَّ السوء فيما يختصُّ بهم ، وفيما يفعلُه بغيرهم ،
ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا مَنْ عَرَفَ الله وأسماءه وصفاته ، وموجبَ حكيمته وحمده ،

في أسفل سافلين ، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه ، فيرفعه إلى أعلى
عليين ، وكلا الأمرين في الحسن عنده سواء ؛ ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر
صديق ، وإلا فالعقل لا يقضى بقبح أحدهما وحسن الآخر . فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بمظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق
لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارات ملغزة ولم يصرح به وصرح دائماً
بالتشبيه والتمثيل والباطل ، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف
كلامه عن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة
والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي^(١) أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحلم في معرفة
أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لأعلى كتابه . بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على
ما يعرفونه من خطابهم ولقنهم ، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح
به ، ويريمهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل ، بل سلك بهم خلاف
طريق الهدى والبيان . فقد ظن به ظن السوء ، فإنه إن قال : إنه غير قادر على التعبير عن
الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه . فقد ظن بقدرته العجز ، وإن قال : إنه قادر
ولم يبين ، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم ، بل يوقع في الباطل المحال
والاعتقاد الفاسد . فقد ظن بحكيمته ورحمته ظن السوء .

(١) يقال : كلمة محجبة : مخالفة المعنى للفظ . وهي إما من معنى الناحية ، وتقديرها أنها
جاءت من غير حجابها ، أو من معنى الفطنة وهي الأحجية والأحجوة . قال صاحب المثل
الساثر : وأما اللغز والأحجية فإنهما شيء واحد . وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر
لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازاً . ولا يفهم منه غرضه . انتهى من هامش الأصل نقلاً عن
سر الليال .

فَلَيَعْتَنِ اللَّيْبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا ، وَلَيَتَّبِعْ إِلَى اللَّهِ ، وَلَيَسْتَعْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ
ظَنَّ السُّوءِ . وَلَوْ قَتَّشْتَ مَنْ قَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَمُّتًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ ،
وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا . فَمُسْتَقِيلٌ وَمُسْتَكْتَرٌ . وَقَتَّشْ نَفْسَكَ ،
هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ ؟

ومن ظن آفة هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله . وأن الهدى والحق
في كلامهم وعباراتهم ، وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال ،
وظاهر كلام المتهور كين والخياري هو الهدى والحق . فهذا من أسوأ الظن بالله .
فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء ، ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية .
ومن ظن به أن يكون في مُلكه مالا يشاء ، ولا يقدر على إيجاده وتكوينه : فقد
ظن بالله ظن السوء .

ومن ظن أنه كان معطلا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل ، ولا يوصف حينئذ
بالقدرة على الفعل ، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً : فقد ظن به ظن السوء .
ومن ظن أنه لا يسمع ولا يبصر ، ولا يعلم الموجودات ولا عدد السموات ولا النجوم ،
ولا بنى آدم وحركاتهم وأفعالهم ، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان : فقد ظن به
ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا يسمع له ولا يبصر ، ولا علم ولا إرادة ، ولا كلام يقوم به ، وأنه
لا يكلم أحداً من الخلق ولا يتكلم أبداً ، ولا قال ، ولا يقول ، ولا له أمر ولا نهى يقوم
به : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه ليس فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، وأن نسبة ذاته إلى عرشه
كنسبتها إلى أسفل سافلين ، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها ، وأنه أسفل كما أنه
أعلى ، وأن من قال : سبحان ربي الأسفل كان كمن قال : سبحان ربي الأعلى : فقد ظن
به أقيح الظن وأسوأه .

ومن ظن أنه يجب الكفر والفسوق والمعصيان ، ويجب الفساد كما يجب الإيمان والبر
والطاعة والإصلاح : فقد ظن به ظن السوء .

فإن تَنَجُّ منها تَنَجُّ من ذى عَظِيمَةٍ وإلا فإني لا إخالك ناجياً
فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران .

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى ، ولا يغضب ولا يسخط ، ولا يوالى ولا يعادى ،
ولا يقرب من أحد من خلقه ولا يقرب منه أحد . وأن ذوات الشياطين فى القرب من ذاته
كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يسوى بين المتضادين ، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه ، أو يحب
طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها ، فيخلد فاعل تلك
الطاعات فى الجحيم أبداً الأبدى بتلك الكبيرة ، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلد فى العذاب
كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين ، واستنفذ ساعات عمره فى مسأخة ومعاداة رساله
ودينه : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أن له ولداً أو شريكاً ، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه
وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه ، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم
إليه . ويتوصلون بهم إليه ، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم ، فيدعونهم ويخافونهم
ويرجونهم : فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمصيبته ومخالفته ، كما يناله بطاعته والتقرب إليه : فقد ظن
به خلاف حكته ، وخلاف موجب أسمائه وصفاته ، وهو من ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئاً من أجله لم يعوضه خيراً منه ، أو من فعل شيئاً لأجله لم
يعطه أفضل منه : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويماقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد ،
إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا صدقه فى الرغبة والرغبة ، وتضرع إليه وسأله ، واستعان به وتوكل
عليه أنه ينجيه ولا يعطيه ما سأله : فقد ظن به ظن السوء ، وظن به خلاف ما هو أهله .

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه كما يثيبه إذا أطاعه ، وسأله ذلك فى دعائه : فقد ظن به
خلاف ما تقتضيه حكته وحده ، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله .

الثانية : تفسير آية الفتح .

الثالثة : الإخبار بأن ذلك أنواع لا تُحصَر .

الرابعة : أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه

ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع في معاصيه ، ثم اتخذ من دونه أولياء ، ودعا من دونه ملكاً أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ، ويخلصه من عذابه : فقد ظن به ظن السوء .

فأكثر الخلق بل كلهم - إلا من شاء الله - يظنون بالله غير الحق وظن السوء ؛ فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما شاءه الله وأعطاه لسان حاله يقول : ظلمنى ربى ، ومنعنى ما أستحقه ، ونفسه تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به . ومن فتن نفسه وتغافل في معرفة طواياها رأى ذلك فيها كامنًا كمن النار في الزناد ، فاقده زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده ، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعثماً (وتعتباً) على القدر وملامة له ، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، فستقل ومستكثر . وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك ؟

فإن تنج منها تنج من ذى عظمة وإلا فإنى لا أخالك ناجياً

فليمتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع ، ولْيَتَّبِعْ إلى الله ويستغفره في كل وقت من ظنه بره بظن السوء ، وليظن السوء بنفسه التى هى مادة كل سوء ، ومنبع كل شر المركبة على الجهل والظلم . فهى أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين ، وأرحم الراحمين ، الغنى الحميد ، الذى له الغنى التام ، والحمد التام ، والحكمة التامة . المنزه عن كل سوء فى ذاته وصفاته ، وأفعاله وأسمائه ، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه ، وصفاته كذلك ، وأفعاله كلها حكمة ومصالحة ، ورحمة وعدل ، وأسماءه كلها حسنى .

فلا تظننَّ بربك ظنَّ سوء فإن الله أولى بالجليل

ولا تظننَّ بنفسك قَطُّ خيراً فكيف بظالم جان جهول

وقل : يا نفس ماوى كل سوء أترجو الخير من ميت بخيل ؟

باب

﴿ ما جاء في منكرى القدر ﴾

وظنّ بنفسك السواى تجدها كذاك ، وخيرها كالمستحيل
وما بك من تُقى فيها وخير فلك مواهب الرب الجليل
وليس لها ولا منها ، ولكن من الرحمن ، فاشكر للدليل . اهـ

قوله ﴿ الظانين بالله ظن السوء ﴾ قال ابن جرير فى تفسيره (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشرّكين والمشرّكات الظانين بالله ظن السوء) . الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك ، ولن يُظهِرك كلمته ، فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به . وذلك كان السوء من ظنونهم التى ذكرها الله فى هذا الموضع . يقول تعالى ذكره : على المنافقين والمنافقات والمشرّكين والمشرّكات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء : يعنى دائرة العذاب تدور عليهم به . واختلف القراء فى قراءة ذلك فقراءته عامة قراء الكوفة (دائرة السوء) بفتح السين وقراء بعض قراء البصرة (دائرة السوء) بالضم . وكان القراء يقول : الفتح أفشى فى السين . وقلّ ماتقول العرب (دائرة السوء) بضم السين .

وقوله ﴿ وغضب الله عليهم ولعنهم ﴾ يعنى ونالهم الله بغضب منه ولعنهم . يقول : وأبعدهم فأقصاهم من رحمته (وأعد لهم جهنم) يقول : وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة (وساءت مصيراً) يقول : وساءت جهنم منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشرّكون والمشرّكات .

وقال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشرّكين والمشرّكات الظانين بالله ظن السوء) أى : يتهمون الله فى حكمه ، ويظنون بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلىة . ولهذا قال تعالى (عليهم دائرة السوء) وذكر فى معنى الآية الأخرى نحواً مما ذكره ابن جرير رحمه الله تعالى .

قوله ﴿ قال ابن القيم رحمه الله تعالى ﴾ الذى ذكره المصنف فى المتن قدمته لا ندرجه فى كلامه الذى سقته من أوله إلى آخره .

قوله ﴿ باب ما جاء فى منكرى القدر ﴾ أى : من الوعيد الشديد ، ونحو ذلك .

وقال ابن عمر : « والذى نفس ابن صمر بيده ، لو كان لأحدهم مثلُ أحدٍ ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه ، حتى يؤمنَ بالقدر . ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم : الإيمانُ أن تؤمنَ بالله وملائكته ، وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمنَ بالقدرِ خيره وشره » رواه مسلم .

أخرج أبو داود عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوم ، وإن ماتوا فلا تشهدوم ^(١) » .

وعن عمر مولى غفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة - وهو ابن اليمان - رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدر ، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ، ومن مرض منهم فلا تعودوه ، وهم شيعة الدجال ، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال ^(٢) » .

قوله ﴿ وقال ابن عمر : والذى نفسى بيده - الخ ﴾ حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن يحيى بن يعمر قال : « كان أول من تكلم فى القدر بالبصرة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين ، أو معتمرين . فقلنا : لوقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر ؟ فوفق الله تعالى لنا عبد الله بن عمر داخلا فى المسجد ، فاكتمفته أنا وصاحبى ، فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلى ، فقلت : أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبيلنا أناس يقرأون القرآن ، ويتفقرون العلم ^(٣) يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف ،

(١) قال فى عون العبود (ج ٤ ص ٣٥٧) قال الخطابى : إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذاهب المجوس فى قولهم بالأصلين ، وهما النور والظلمة . يزعمون أن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة . وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله ، والشر إلى غيره . اه .

وقال المنذرى : هذا منقطع . أبو حازم - سلمة بن دينار - لم يسمع من ابن عمر وقد روى هذا الحديث من طرق عن ابن عمر ، ليس فيها شيء يثبت . اه .

(٢) قال المنذرى : عمر مولى غفرة - بضم العين وسكون الفاء - لا يحتاج بحديثه . وهو رجل من الأنصار مجهول . وقد روى من طرق أخرى عن حذيفة . ولا يثبت

(٣) يقال : اتفرت الأثر ، أى تبعته وقوته . فعنى يتفقرون العلم : أى يتطلبونه .

وعن عبادة بن الصّامِت أنه قال لابنه : « يا بُنَيَّ ، إنك لن تجِدَ طَمَعَ الإيمانِ حتى تَعَلَّمَ أن ما أصابَكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب فقال : رَبِّ ، وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كلِّ شيء حتى تقوم الساعة .

فقال : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم برىء ، وأنهم مني برآء . والذي يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر . ثم قال : حدثني عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسلم فأسند رُكبتيه إلى رُكبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . فمعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقت قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال : فأخبرني عن أماراتها . قال : أن تلد الأمة رببتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . قال : فانطلق . فلبثت ثلاثاً . وفي رواية : ملياً ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

ففي هذا الحديث أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة فن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلاً من أصول الدين وجحدته ، فيشبهه من قال الله فيهم (٢ : ٨٥) أفئذ يؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض - الآية .

قوله ﴿ وعن عبادة ﴾ قد تقدم ذكره في باب فضل التوحيد ، وحديثه هذا رواه أبو داود

يَا بَنِيَّ ، سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : من ماتَ على غيرِ هذا
فليس مني .

وفي روايةٍ لأحمد : « إنَّ أوَّلَ ما خلق اللهُ تعالى القلم . فقال له : اكتب ،
فجری فی تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة . »

وفي رواية لابن وهب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فمن لم يؤمن
بالقدر خيره وشره : أحرقه الله بالنار . »

ورواه الإمام أحمد بكامله^(١) قال : حدثنا الحسن بن سوار حدثنا ليث عن معاوية عن أيوب
ابن زياد ، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة حدثني أبي قال « دخلت على عبادة وهو مريض
أخبايل فيه الموت ، فقلت : يا ابتاه أوصني واجتهد لي ، فقال : أجلسوني . قال : يا بني إنك
لن تجد طعم الإيمان ، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت : يا ابتاه
فكيف لي أن أعلم ماخير القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ماخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك
لم يكن ليخطئك ، يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول ما خلق الله
القلم ، فقال له : اكتب ، فجری فی تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة . يا بني ، إن مت
ولست على ذلك دخلت النار » ورواه الترمذی بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح عن
الوليد بن عبادة عن أبيه ، وقال : حسن صحيح وغريب .

وفي هذا الحديث ونحوه : بيار شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون في الدنيا
والآخرة ، كما قال تعالى (٦٥ : ١٢) الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل
الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما^(٢) .
وقد قال الإمام أحمد رحمه الله لما سئل عن القدر ؟ قال « القدر قدرة الرحمن » واستحسن

(١) المسند (ج ٥ ص ٣١٧) وهو عند أبي داود أخصر مما عند أحمد ومن طريق
جعفر بن مسافر الهذلي أخبرنا يحيى بن حسان أخبرنا الوليد بن رباح عن إبراهيم بن أبي حمزة
عن أبي حفصة قال : قال عبادة بن الصامت لابنه الحديث . وسكت عنه المنذرى .

(٢) في قرعة العيون : والآيات في إثبات القدر كثيرة ، وقد استدله العلماء على إثبات القدر
بشمول القدرة والعلم ، كما في الآية .

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال : « أتيت أبا بن كعب فقلت : في نفسى شىء من القدر . فحدثنى بشيء لعل الله يذهب من قلبى ، فقال : لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار . قال : فأتيت عبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، فكلهم حدثنى بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم » حديث صحيح . رواه الحاكم في صحيحه .

ابن عقيل هذا من أحمد رحمه الله .

المعنى : أنه لا يمنع عن قدرة الله شىء . ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى ، فضلوا عن سواء السبيل . وقد قال بعض السلف : ناظروهم بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن جحدوه كفرؤا .

قوله ﴿ وفي المسند و سنن أبى داود عن ابن الديلمى ﴾ وهو أبو بسر - بالسین المهملة ، وبالباء المضمومة . ويقال : أبو بشر - بالشین المعجمة وكسر الباء - وبعضهم صحح الأول واسمه عبد الله بن فيروز . ولفظ أبى داود قال « لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه ، عذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم لكانت رحمة خيرا لهم من أعمالهم . ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار . قال : فأتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك ، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، قال : ثم أتيت زيد بن ثابت ، قال : فحدثنى عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ^(١) » وأخرجه ابن ماجه .

وقال العماد ابن كثير رحمه الله : عن سفيان عن منصور عن ربعى بن حراش عن رجل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن عبد

(١) قال فى عون المعبود (ج ٤ ص ٣٦٢) فى صير الحديث مرفوعاً . قال النذرى :

وفى إسناده أبو سنان الشيبانى . وثقه ابن معين وغيره ، وتكلم فيه أحمد وغيره .

فيه مسائل :

الأولى : بيان كيفية الإيمان بالقدر .

الثانية : بيان فرض الإيمان .

الثالثة : إحباط عمل من لم يؤمن به .

الرابعة : الإخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به .

الخامسة : ذكر أول ما خلق الله .

السادسة : أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة .

السابعة : براءته صلى الله عليه وسلم ممن لم يؤمن به .

حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر خيره وشره » وكذا رواه الترمذى عن النضر بن شميل عن شعبة عن منصور به . ورواه من حديث أبي داود الطيالسى عن شعبة عن ربيعى عن على فذكره . وقد ثبت فى صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره عن أبى هانىء الخولانى عن أبى عبد الرحمن الحنبلى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بمخمسين ألف سنة - زاد ابن وهب - : وكان عرشه على الماء » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن غريب .

وكل هذه الأحاديث ومافى معناها فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر ، وهى الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم . ومن مذهبهم : تخليد أهل المعاصى فى النار . وهذا الذى اعتقدوه من أكبر الكبائر ، وأعظم المعاصى .

وفى الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر فقد حكموا على أنفسهم بالخلود فى النار إن لم يتوبوا . وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا ، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر ، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين فى النار^(١) .

(١) فى قررة العيون : وهذا الذى اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم البدع . وكثير منهم واقفوا الجهمية فى نفى صفات الرب تعالى وتقدس .

الثامنة : عادةُ السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء .
التاسعة : أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته ، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط .

باب

﴿ ما جاء في المصورين ﴾

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى « ومن أظلم ممن ذهب يخلقُ خلقاً ، فليخلقوا ذرَّةً أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة » أخرجاه .

ولهما عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » .

قوله ﴿ باب ما جاء في المصورين ﴾ أى : من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه .
وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم العلة : وهى المضاهاة بخلق الله ؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر ، فهو رب كل شىء ومليكه ، وهو خالق كل شىء ، وهو الذى صور جميع المخلوقات ، وجعل فيها الأرواح التى تحصل بها الحياة ، كما قال الله تعالى (٣٢ : ٧-٩ الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وهيمة وصار مضاهئاً لخلق الله . فصار ما صورته عذاباً له يوم القيامة ، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ . فكان أشد الناس عذاباً ؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب .

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان ؛ فكيف بحال من سوى المخلوق رب العالمين ، وشبهه بخلق الله ، وصرف له شيئاً من العبادة التى ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه ؟ فتسوية المخلوق بالمخلوق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه ، وجعله شريكاً له فيما اختص به تعالى وتقدس ؛ هو أعظم ذنب عصى الله تعالى به . ولهذا أرسل رسوله ، وأزل كتبه ؛ لبيان هذا الشرك

ولهما عن ابن عباس : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل مُصَوِّرٍ في النار ، يُجعل له بكل صورةٍ صَوَّرَهَا نفسٌ يعذب بها في جهنم » .
ولهما عنه مرفوعاً « من صور صورة في الدنيا كُفِّفَ أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » .

ولمسلم عن أبي الهيثج قال : « قال لي عليٌّ : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ألا تدع صورةً إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » .

والنهي عنه وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى . فنجى الله تعالى رسوله ومن أطاعهم ، وأهلك من جحد التوحيد ، واستمر على الشرك والتنديد ، فما أعظمه من ذنب (٤ : ٤٨ ، ١١٦) إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ، (٢٢ : ٣١) ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) .

قوله ﴿ ولمسلم عن أبي الهيثج الأسدي - حيان بن حصين - قال : قال لي علي رضي الله عنه ﴾ هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
قوله ﴿ ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته ^(١) ﴾ .

فيه تصريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث علياً لذلك . أما الصور : فلعضائها خلق الله . وأما تسوية القبور : فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها ، وهومن ذرائع الشرك ووسائله . فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته . ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور ، وعظمت الفتنة بأرباب القبور ، وصارت محطاً لرحال

(١) في قرّة العيون : فهذا ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من إنكار هذه الأمور وإزالتها (٢ : ٥٩) فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم) فأكثرُوا التصوير واستملوه وأكثرُوا البناء على القبور وزخرفوها وجملوها أو ثنائاً ، وزعموه ديناً ، وهو أعظم المنكرات وأكبر السيئات تعظيماً للأموات وعلواً ، وعبادة لغير الله بأنواع العبادة التي هي حق الله على عباده .

فيه مسائل :

الأولى : التغليظ الشديد في المصورين .

المابدين المعظمين لها . فصرفوا لها جل العبادة : من الدعاء والاستعانة والاستغاثة والتضرع لها ، والذبح لها ، والتذوق ، وغير ذلك من كل شرك محظور .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله^(١) : « ومن جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبور ، وما أمر به ونهى عنه ، وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم - رأى أحدهما مضاداً للآخر ، مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلون عندها وإليها ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، ويسمونهم شاهداً ، مضاهاةً لبيوت الله . ونهى عن إيقاد السرج عليها ، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها . ونهى عن أن تتخذ عيداً ، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر . وأمر بتسويتها ، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي - فذكر حديث الباب - وحديث ثمامة بن شئب وهو عند مسلم أيضاً قال « كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس ، فتوَّفتُ صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبوره فسوى ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها » وهؤلاء يبالبون في مخالفة هذين الحديثين ، ويرفعونها عن الأرض كالبيت ، ويعقدون عليها القباب . ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه . كما روى مسلم في صحيحه عن جابر رضى الله عنه قال « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تجصيص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه » ونهى عن الكتابة عليها . كما روى أبو داود في سننه عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن تجصيص القبور ، وأن يكتب عليها » قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ، ويكتبون عليها القرآن وغيره ، ونهى أن يزداد عليها غير ترابها . كما روى أبو داود عن جابر أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى أن يحصص القبر ، أو يكتب عليه ، أو يزداد عليه » وهؤلاء يزيدون عليه الآجر

(١) في إغاثة اللهفان الجزء الأول

الثانية : التنبية على العلة ، وهو ترك الأدب مع الله ، لقوله « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي » .

والجص والأحجار^(١) . قال إبراهيم النخعي : كانوا يكرهون الأجر على قبورهم .
والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً ، الموقدين عليها السرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم محادون لما جاء به ، وأعظم ذلك : اتخاذها مساجد ، وإيقاد السرج عليها . وهو من الكبائر . وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه .

قال أبو محمد المقدسي : ولو أبيع اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله . ولأن فيه تضييماً للمال في غير فائدة ، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام . قال : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . يحذر ما صنعوا » متفق عليه . ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها ؛ وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم ، والمسح بها والصلاة عندها . انتهى .

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً ، ووضعوا لها مناسك ، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسماه مناسك حج المشاهد ، مضاهة منه القبور بالبيت الحرام ؛ ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ، ودخول في دين عباد الأصنام ، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصده ، من النهي عما تقدم ذكره في القبور ، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه ، ولا ريب أن في ذلك من المفساد ما يعجز عن حصره .

فنها : تعظيم الموقع في الافتتان بها . ومنها : اتخاذها أعياداً . ومنها : السفر إليها .

(١) اختصر المؤلف كلام ابن القيم هنا وحذف منه ما يأتي :

« ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بأجر . وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبره وأوصى الأسود بن يزيد أن لا تجلوا على قبري آجرآ . وأوصى أبو هريرة حين حضرته الوفاة أن لا يضربوا على قبره فسطاطا . وكره الإمام أحمد أن يضرب على القبر فسطاطا » هـ .

إغاثة اللهيان « ج ١ ص ١٠٣ »

الثالثة: التنبيه على قدرته، وعجزهم لقوله « فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة ». .
الرابعة: التصريح بأنهم أشدُّ الناس عذاباً .

ومنها: مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسداتها، وعُبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيمتها ليلة يطفى القنديل المعلق عليها. ومنها: النذر لها ولسدتها. ومنها: اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويحار الخائف إلى غير ذلك. ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله بأخذ المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها. ومنها: الشرك الأكبر الذى يفعل عندها .

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم. فإنهم يؤذيهم ما يفعله عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصراني عند قبره، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصراني عند قبورهم. ويوم القيامة يتبرأون منهم، كما قال تعالى (٢٥ : ١٧ ، ١٨) ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله، فيقول: أأنتم أضلّتم عبادى هؤلاء، أم هم ضلّوا السبيل؟ قالوا: سبحانك! ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً) قال الله تعالى للمشركين (فقد كذبوكم بما تقولون) وقال تعالى (٥ : ١١٦) وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم، أأنّت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك! ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق - الآية) وقال تعالى (٣٤ : ٤٠ ، ٤١) ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا: سبحانك! أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) .
ومنها^(١): إمامة السنن وإحياء البدع .

(١) اختصر المؤلف من كلام ابن القيم ما يأتى . ومنها مشابهة اليهود والنصارى فى أخذ المساجد والسرج عليها . ومنها محادة الله ورسوله ، ومناقضة ما شرعه فيها . ومنها التعب العظيم مع الوزر الكبير ، والإثم العظيم .

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم .

ومنها : تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله ، فإن عبادة القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام ، والخشوع ورقة القلب ، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه .

ومنها^(١) : أن الذي شرعه الرسول صلى الله عليه وسلم عند زيارة القبور إنما هو تذكّر الآخرة ، والإحسان إلى المزور بالدعاء له ، والترحم عليه ، والاستغفار له ، وسؤال العافية له ؛ فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت . فقلّب هؤلاء المشركون الأمر ، وعكسوا الدين ، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعائه والدعاء به ، وسؤاله حوائجهم ، واستنزال البركة منه ، ونصره لهم على الأعداء ، ونحو ذلك . فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة . فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه ، ونهاهم أن يقولوا هُجراً ، ومن أعظم الهجر : الشرك عندها قولاً وفعلًا .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زوروا القبور ، فإنها تذكروا الموت »^(٢) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المدينة ، فأقبل عليهم بوجهه . فقال : السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم ، أتم سلفنا ونحن بالأثر » رواه أحمد والترمذي وحسنه^(٣) .

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمه ، وعلمهم إياها . هل تجب

(١) زاد في الإغاثة : ومنها أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد ، ودين الله الذي بعث به رسوله بصد ذلك . ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عمروا المشاهد وخرّبوا المساجد .

(٢) حذف المؤلف رحمه الله من كلام ابن القيم حديث على عند الإمام أحمد « إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها ، فإنها تذكركم الآخرة »

(٣) حذف المؤلف رحمه الله حديث ابن مسعود « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور ، فإنها تزهدي في الدنيا وتذكر الآخرة » رواه ابن ماجه

وحديث أبي سعيد « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة » رواه الإمام أحمد

السادسة : أنه يكف أن ينفخ فيها الروح .

فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع ؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه ؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله « لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » ولكن كما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عرضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك .

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحوا جانبه ، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أراد الدعاء استقبل القبلة ، وجعل ظهره إلى جدار القبر ، ثم دعا^(١) ونص على ذلك الأئمة الأربعة : أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء ، حتى لا يدعو عند القبر ، فإن الدعاء عبادة . وفي الترمذى وغيره « الدعاء هو العبادة » فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدعاء لأصحابها ، والاستغفار لهم والترحم عليهم . وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » وإسناده جيد ، ورواته ثقات مشاهير .

وقوله « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً » أى لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور . فأمر بتحرى النافلة فى البيوت ، ونهى عن تحرى النافلة عند القبور ، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم .

ثم إن^(٢) فى تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفساد العظيمة التى لا يعلمها إلا الله ما يفتصب لأجله كل من فى قلبه وقار لله وغيره على التوحيد ، وتهجين وتقبيح للشرك ؛ ولكن ما لجرح بميت إبلام .

فمن المفساد : اتخاذها أعياداً والصلاة إليها ، والطواف بها ، وتقبيلها واستلامها ، وتعفير الحدود على ترابها ، وعبادة أصحابها ، والاستغانة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية ، وقضاء الدين ، وتفريج السكرات ، وإغاثة اللهفات ، وغير ذلك من أنواع الطلبات ، التى

(١) قال ابن القيم : فقال سلمة بن وردان « رأيت أنس بن مالك رضى الله عنه يسلم على

النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ، ثم يدعو »

(٢) الذى فى نسخ إغاثة اللهفات التى بأيدينا المخطوطة والطبوعة أن قول المؤلف رحمه الله

« ثم إن فى تعظيم القبور الخ » فصل متقدم قبل ما نقله المؤلف هنا .

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت .

كان عباد الأوثان يسألونها أوئانهم . فلورأيت غلاة المتخذين لها عيداً ، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجباه ، وقبلوا الأرض ، وكشفوا الرؤوس ، وارتفعت أصواتهم بالضجيج ، وتباركوا حتى تسمع لهم النسيج ، ورأوا أنهم قد أربوا في الريح على الحجيج ؛ فاستغاثوا بن لا يبدىء ولا يعيد ، ونادوا ولكن من مكان بعيد ، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين ، فتراهم حول القبر ركعاً وسجداً ، يبتغون فضلاً من الميت ورضوانا ، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسرانا .

فلغير الله - بل للشيطان - ما يُراق هناك من العبرات ، ويرتفع من الأصوات ، ويطلب من الميت من الحاجات ، ويُسأل من تفریح الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وإغناء ذوى الفاقات ، ومعافاة ذوى العاهات والبلیات ، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين ، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذى جملة الله مباركاً وهدى للعالمين . ثم أخذوا في التقبيل والاستلام . أرايت الحجر الأسود وما يفعل به وقد وفد البيت الحرام ؟ ثم غفروا لديه تلك الجباه والحدود ، التى يعلم الله أنها لم تُعَفَّر كذلك بين يديه فى السجود ، ثم كلوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحِلاق ، واستمتعوا بمخلاقهم من ذلك الوثن إذا لم يكن لهم عند الله من خلاق ، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين ، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين ، فلورأيتهم يهتئ بعضهم بعضاً ويقول : أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً ، فإذا رجعوا سألم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام ، فيقول : لا ، ولا بحجك كل عام .

هذا ، ولم تتجاوز فيما حكيناها عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم ؛ إذ هى فوق ما يخطر بالبال ، ويدور فى الخيال ، وهذا مبدأ عبادة الأصنام فى قوم نوح كما تقدم . وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقہ يعلم أن من أهم الأمور : سد الذريعة إلى هذا المحذور . وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه ، وأحكم فى نهيه عنه وتوعده عليه ،

باب

﴿ ما جاء في كثرة الحلف ﴾

وقول الله تعالى: (٥ : ٨٩ واحفظوا أيمانكم).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلف منفقَةٌ للسُّلعة ، ممحقة للكسب » أخرجاه .

وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته ، والشر والصلال في معصيته ومخالفته . اه كلامه رحمه الله تعالى (١)

قوله ﴿ باب ما جاء في كثرة الحلف ﴾ أي : من الهوى عنه والوعيد .

﴿ وقول الله تعالى (٥ : ٨٩ واحفظوا أيمانكم) ﴾ .

قال ابن جرير : لا تتركوها بغير تكفير . وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس يريد لا تخلفوا وقال آخرون : احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تخشوا .

والمصنف أراد من الآية المعنى الذي ذكره ابن عباس ؛ فإن القولين متلازمان ، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف ، وعدم التعظيم لله ، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه .

قوله ﴿ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الحلف منفقة للسُّلعة ، ممحقة للكسب » أخرجاه ﴾ . أي البخاري ومسلم . وأخرجه أبو داود والنسائي .

والمعنى : أنه إذا حلف على سلعة أنه أعطى فيها كذا وكذا ، أو أنه اشتراها بكذا وكذا ، وقد يظنه المشتري صادقاً فيما حلف عليه ، فيأخذها بزيادة على قيمتها ، والبائع كذاب ، وحلف طمعاً في الزيادة ، فيكون قد عصي الله تعالى ، فيعاقب بمحق البركة ، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه ، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً ، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته . وإن تزخرت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب .

(١) اختصره المؤلف رحمه الله تعالى ، وتصرف فيه بالتقديم والتأخير على حسب ما يبدنا من نسخ إغاثة اللهفان . والله يرحم الجميع ، ويغفر لنا ولهم

وعن سلمان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة لا يكلمهم الله

قوله ﴿ وعن سلمان رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكهم ولم يذهب أليم : أشميط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته ، لا يشتري إلا يمينه ، ولا يبيع إلا يمينه ﴾ رواه الطبراني بسند صحيح .

و « سلمان » لعله سلمان الفارسي ، أبو عبد الله ، أسلم مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وشهد الخندق ، روى عنه أبو عثمان النهدي وشرحيل بن السمط وغيرها . قال النبي صلى الله عليه وسلم « سلمان منا أهل البيت ، إن الله يحب من أصحابي أربعة : علياً ، وأباذر ، وسلمان ، والمقداد » أخرجه الترمذى ، وابن ماجه . قال الحسن : كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً يخطب بهم فى عبادة يفتش نصفها ويلبس نصفها . توفى فى خلافة عثمان رضى الله عنه . قال أبو عبيدة : سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة . ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي .

قوله ﴿ ثلاثة لا يكلمهم الله ^(١) ﴾ نفي كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه . وأن الكلام صفة من صفات كماله . والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شئ . وأبينه . وهذا هو الذى عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه ، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل متصفاً به . فهو حادث الأحاد قديم النوع ، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعى وأحمد وسائر الطوائف ، كما قال تعالى (٣٦ : ٨٢) إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون (فأنى بالحروف الدالة على الحال والاستقبال أيضاً . وذلك فى القرآن كثير .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فإذا قالوا لنا - يعنى النفاة : فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به . قلنا : ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . ولفظ الحوادث مجمل ، فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله

(١) فى قره العيون : هذا وعيد شديد فى حقهم ؛ لأنه قد تواتر أنه تعالى يكلم أهل الإيمان ويكلمونه فى عرصات القيامة . والأدلة على ذلك فى الكتاب والسنة أظهر شئ وأبينه . وفيه الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة صفة الكلام .

ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أشيمط زانٍ ، وعائلٌ مستكبرٌ ، ورجل جعل (الله) بضاعته ، لا يشتري إلا يمينه ، ولا يبيع إلا يمينه « رواه الطبراني بسند صحيح .

تعالى منزه عن ذلك - ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك . مما دل عليه الكتاب والسنة . والقول الصحيح : هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون : لم يزل الله متكلماً إذا شاء كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة . اهـ .

قلت : ومعنى قيام الحوادث به تعالى : قدرته عليها ، وإيجاده لها بمشيئته وأمره . والله أعلم . قوله ﴿ ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم ، فموقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات .

قوله ﴿ أشيمط زان ﴾ صغره تحميراً له ^(١) وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه ، فدل على أن الحامل له على الزنا : محبة المعصية والفجور ، وعدم خوفه من الله . وضعف الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه ، بخلاف الشاب ؛ فإن قوة داعي الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله ، وقد يرجع على نفسه بالندم ، ولومها على المعصية ، فينتهي ويراجع . وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر ؛ لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة . و « العائل » الفقير لداعي له إلى أن يستكبر ، فاستكباره مع عدم الداعي إليه ، يدل على أن الكبر طبيعة له ، كامن في قلبه ، فعظمت عقوبته ؛ لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميم ، الذي هو من أكبر المعاصي .

قوله ﴿ ورجل جعل الله بضاعته ﴾ بنصب الاسم الشريف ؛ أي الخلف به ، جعله بضاعته ، لملازمته له وغلبته عليه . وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيده ضعيف وأعماله ضعيفة ، بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة على قلة الداعي إليها . نسأل الله السلامة والعافية ، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبّه ربنا ولا يرضاه .

قوله ﴿ وفي الصحيح ﴾ أي صحيح مسلم . وأخرجه أبو داود والترمذي . ورواه البخاري بلفظ « خيركم » ^(٢) .

(١) تصغير أشمط ، وهو الذي شعره شمت : أي شيب (٢) بل رواه باللفظين . فرواية « خير أمقأهل قرني » في فضائل الصحابة . ورواية « خيركم » في عدة مواضع منه .

وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير أمتى قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم - قال عمران : فلا أدري : أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟ - ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يُستشهدون ، ويخونون ولا يُؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمّن » .

قوله ﴿ عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير أمتى قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم - قال عمران : فلا أدري : أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟ - ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمّن ﴾ .

قوله ﴿ خير أمتى قرنى ﴾ الفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والإيمان والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون ، ويتفاضل فيها العاملون ، فغلب الخير فيها وكثر أهلها ، وقل الشر فيها وأهلها ، واعتز فيها الإسلام والإيمان ، وكثر فيها العلم والعلماء ﴿ ثم الذين يلونهم ﴾ فضّلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه ، والراغب فيه والقائم به . وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزبل ، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة ، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت ، فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب .

قوله ﴿ فلا أدري : أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟ ﴾ هذا شك من راوى الحديث عمران ابن حصين رضى الله عنه . والمشهور في الروايات : أن القرون المفضلة ثلاثة ، الثالث دون الأولين في الفضل ؛ لكثرة البدع فيه ، لسكن العلماء متوافرون ، والإسلام فيه ظاهر ، والجهاد فيه قائم ، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين ، وكثرة الأهواء . فقال ﴿ ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ﴾ لاستخفافهم بأمر الشهادة ، وعدم تحريمهم للصدق ، وذلك لقلة دينهم ، وضعف إسلامهم .

قوله ﴿ ويخونون ولا يؤتمنون ﴾ يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم . قوله ﴿ وينذرون ولا يوفون ﴾ أى لا يؤدون ماوجب عليهم ، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم .

قوله ﴿ ويظهر فيهم السمّن ﴾ لرغبتهم في الدنيا ، ونيل شهواتهم والتعم بها ، وغفلتهم

وفيه عن ابن مسعود : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال . « خير الناس قرني
ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة
أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » .
وقال إبراهيم : « كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار » .

عن الدار الآخرة والعمل لها . وفي حديث أنس « لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده
شر منه حتى تلقوا ربكم » قال أنس : سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فما زال الشر
يزيد في الأمة ، حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم ، حتى فيمن ينتسب إلى العلم
ويتصدر للتعليم والتصنيف ^(١) .
قلت : بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع ، وصنفوا في ذلك نظماً ونثراً ،
فنعوذ بالله من موجبات غضبه .

قوله ﴿ وفيه عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
« خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . ثم يجيء قوم
تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته ^(٢) » .

قلت : وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسى المعاد ، فحرف أمر الشهادة واليمين
عنده تحملاً وأداء ؛ لقلته خوفاً من الله وعدم مبالاته بذلك ، وهذا هو الغالب على الأكثر .
والله المستعان . فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف .
فكن من الناس على حذر .

قوله ﴿ قال إبراهيم - هو النخعي - كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار »

(١) في قررة العيون : فحدث التفرق والاختلاف في الدين ، وحدث الغلو في أهل البيت
من بني بويه في الشرق لما كان لهم دولة وبنوا المساجد على القبور وغلوا في أربابها وظهرت
دولة القرامطة ، وظهر فيهم الكفر والإلحاد في شرائع الدين . ومذهبهم معروف وظهر فيهم من
البدع ما يطول عده ، وكثر الاختلاف والحوض في أصول الدين ، وما زال أهل السنة على الحق
ولكن كثرت البدع والأهواء ، حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، نشأ على هذا الصغير
وهرم عليه الكبير .

(٢) في قررة العيون : في هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة بلا شك .

فيه مسائل :

الأولى : الوصية بحفظ الأيمان .

الثانية : الإخبار بأن الحلف منفقة للسلمة ، محقة للبركة .

الثالثة : الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا يمينه .

الرابعة : التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي .

الخامسة : ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون .

السادسة : ثناؤه صلى الله عليه وسلم على القرون الثلاثة أو الأربعة ، وذكر

ما يحدث .

السابعة : ان الذين يشهدون ولا يستشهدون .

الثامنة : كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والمهد .

باب

﴿ ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﴾

وقوله (١٦ : ٩١) وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد

توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ان الله يعلم ما تفعلون) .

وذلك لكثرة علم التابعين وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربههم ، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأنه من أفضل الجهاد ، ولا يقوم الدين إلا به . وفي هذا الرغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم ، ونهيبهم عما يضرهم . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

قوله ﴿ باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله ﴾ وقول الله تعالى (١٦ : ٩١) وأوفوا بعهد

الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون) .

قال العماد ابن كثير : وهذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق ، والحفاظة

على الأيمان المؤكدة . ولهذا قال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ولا تعارض بين هذا

وقوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) وبين قوله (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا

وعن بُرَيْدَةَ قَالَ « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ ، أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ، فَقَالَ : اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ .

أَيَّمَانِكُمْ) أَى لَا تَرْكُوهَا بِلَا تَكْفِيرٍ . وَبَيْنَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِينَ « إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا وَتَحَلَّلْتَهَا - وَفِي رَوَايَةٍ - وَكَفَرْتَ عَنِ يَمِينِي » لَا تَعَارِضُ بَيْنَ هَذَا كُلِّهِ وَبَيْنَ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ هُنَا وَهِيَ (وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) لِأَنَّ هَذِهِ الْأَيْمَانَ الْمُرَادُ بِهَا : الدَّاخِلَةُ فِي الْعَهْدِ وَالْمَوَاطِقِ ، لَا الْأَيْمَانَ الْوَارِدَةَ عَلَى حَثِّ أَوْ مَنَعٍ ، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي الْآيَةِ : يَعْنِي الْحَلْفَ أَى حَلْفَ الْجَاهِلِيَّةِ . وَيُؤَيِّدُهُ مَارَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَبْرِ بْنِ مَطْعَمٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَيَّمَا حَلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً » وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى الْحَلْفِ الَّذِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَهُ ؛ فَإِنَّ فِي التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ كِفَايَةً عَمَّا كَانُوا فِيهِ .

وقوله تعالى ﴿ إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد لمن تقض الأيمان بعد توكيدها .
قوله ﴿ عَنْ بُرَيْدَةَ ﴾ هو ابن الحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيُّ . وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ رَوَايَةِ ابْنِ سَلِيمَانَ عَنْهُ . قَالَ فِي الْمَقْهُمِ .

قوله ﴿ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى ﴾ فِيهِ مِنَ الْفَقْهِ : تَأْمِيرُ الْأَمْرَاءِ ، وَوَصِيَّتِهِمْ .

قال الحرابي : السرية : الخليل تبلغ أربع مائة ونحوها . والجيش : ما كان أكثر من ذلك . وتقوى الله : التمرز بطاعته من عقوبته .

قلت : وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتها عما نهى عنه .

قوله ﴿ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ﴾ أَى وَوَصَاهُ بِمَنْ مَعَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَعَهُمْ خَيْرًا : مِنَ الرَّفْقِ بِهِمْ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ لَهُمْ ، وَتَرْكِ التَّعَاطُفِ عَلَيْهِمْ .

قوله ﴿ اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ ﴾ هَذَا أَى اشْرَعُوا فِي ضَلِّ الْغَزْوِ مُسْتَعِينِينَ بِاللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ . قلت : فتكون الباء في « بِسْمِ اللَّهِ » هُنَا لِلِاسْتِمَانَةِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ .

قوله ﴿ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ﴾ هَذَا الْعَمُومُ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَهْلِ الْكُفْرِ الْحَارِبِينَ وَغَيْرِهِمْ . وَقَدْ

اغزوا ولا تَعْلُو ولا تَغْدِرُوا ، ولا تَمْتَلُوا ، ولا تَقْتُلُوا وليدًا . وإذا لقيت عدوَّك من المشركين ، فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين .

خصص منهم من له عهد ، والرهبان والنسوان ، ومن لم يبلغ الحلم ، وقد قال متصلاً به « ولا تقتلوا وليدًا » وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان ؛ لأنه لا يكون منهم قتال غالباً . وإن كان منهم قتال أو تديير قتلوا .

قللت : وكذلك الدراري والأولاد .

قوله ﴿ ولا تَعْلُوا ولا تَغْدِرُوا ولا تَمْتَلُوا ﴾ الغلول : الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها . والغدر : نقض العهد . والتمثيل هنا : التشويه بالقتيل ، كقطع أنفه وأذنه والعبث به . ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر ، وفي كراهية المثلة .

قوله ﴿ وإذا لقيت عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال - أو خصال ﴾ الرواية بالشك وهو من بعض الرواة . ومعنى الخلال والخصال واحد .

قوله ﴿ فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ﴾ قيدناه عن يوثق بعلمه وتقييده بنصب « أيتهن » على أن يعمل فيها « أجابوك » لا على إسقاط حرف الجر . و « ما » زائدة . ويكون تقدير الكلام : فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم . كما تقول : جئتك إلى كذا وفي كذا . فيعدي إلى الثاني بحرف الجر .

قلت : فيكون في ناصب « أيتهن » وجهان : ذكرها الشارح . الأول : منصوب على الاشتغال . والثاني : على نزع الخافض .

قوله ﴿ ثم ادعهم إلى الإسلام ﴾ كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم « ثم ادعهم » بزيادة « ثم » والصواب إسقاطها . كما روى في غير كتاب مسلم ، كصنف أبي داود ، وكتاب الأموال لأبي عبيد ؛ لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال .

وقوله ﴿ ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ﴾ يعنى المدينة . وكان في أول

فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله تعالى ، ولا يكون لهم في الغنيمة والنيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن هم أبوا فاسألهم الجزية . فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن هم أبوا فاستعن بالله ، وقاتلهم .

الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الإسلام . وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم (١) .

قوله ﴿ فإن أبوا أن يتحولوا ﴾ يعني : أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يُعطى من الخمس ولا من النية شيئاً . وقد أخذ الشافعي رحمه الله بالحديث في الأعراب ، فلم ير لهم من النية شيئاً . وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فتد على فقرائهم . كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم في الصدقة عنده ، ومصرف كل مال في أهله . وسوى مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالكين ، وجوزوا صرفهما للضعيف .

قوله ﴿ فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ﴾ فيه حجة للمالك وأصحابه ، والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر : عربياً كان أو غيره ، كتابياً كان أو غيره . وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع ، إلا من مشركي العرب ومجوسهم . وقال الشافعي : لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب : عرباً كانوا أو مجعاً . وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه ، وتؤخذ من المجوس .

قلت : لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها منهم ، وقال « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية . فقال مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب . وأربعون درهماً على أهل الوريق ، وهل ينقص منها الضعيف أو لا ؟ قولان . وقال الشافعي : فيه دينار على الغني والفقير ، وقال أبو حنيفة رحمه الله ، والكوفيون : على الغني ثمانية وأربعون

(١) في قررة العيون : وكذلك إذا ظهرت المعاصي في بلدة . نص عليه الفقهاء في كتبهم اه
يعنى : إذا غلبت المعاصي وأهلها ولم يقدر ولا يجد سبيلاً للانكار عليهم . أما إذا وجد السبيل لإقامة الحجة ، فإن بقاءه يكون واجباً لتبليغ الدين خصوصاً إذا كان يدعو إلى التوحيد ومحاربة الشرك والبدع ، ويجد من يسمع له ويصغى إليه ، وينتفع بدعوته . والله الموفق .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم ، أهونُ من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري : أتصيب فيهم حكم الله أم لا ؟» رواه مسلم .

درهماً ، والوسط أربعة وعشرون درهماً . والفقير اثنا عشر درهماً ، وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله . قال يحيى بن يوسف الصرصرى الحنبلى رحمه الله :

وقاتل يهودا والنصارى وعصبة المجوس ، فإن هم سلموا الجزية اصدد على الأدون اثني عشر درهماً افرض وأربعة من بعد عشرين زيد لأوسطهم حالا ، ومن كان موسراً ثمانية مع أربعة — ين لتتقد وتسقط عن صبيانهم ونساءهم وشيخ لهم فإن وأعى ومقعد وذى الفقر والمجنون أو عبد مسلم ومن وجبت منهم عليه فيهندي

وعند مالك وكافة العلماء : على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم ، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين ، لا ممن نأى بداره ، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم . قوله ﴿ وإذا حاصرت أهل حصن ﴾ الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول : إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد . وهو المعروف من مذهب مالك وغيره ووجه الاستدلال به : أنه صلى الله عليه وسلم قد نص على أن الله تعالى قد حكم حكماً معيناً في المجتهدات . فمن وافقه فهو المصيب ، ومن لم يوافقه فهو المخطئ .

قوله ﴿ وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه - الحديث ﴾ الذمة : العهد ، وتخفر : تنقض . يقال : أخفرت الرجل : إذا نقضت عهده ، وحفرته : أجزته ، ومعناه : أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد ، كجملة الأعراب ، فكأنه يقول : إن وقع نقض من متعمد معتد كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى . والله أعلم .

قوله ﴿ وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال ^(١) ، ذكر فيه : أن مذهب مالك يجمع

(١) ليس في نسخ المتن التي بأيدينا قول نافع هذا فليحذر .

فيه مسائل :

الأولى : الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين .

الثانية : الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً .

الثالثة : قوله « اغزوا بسم الله في سبيل الله » .

الرابعة : قوله « قاتلوا من كفر بالله » .

الخامسة : قوله « استعن بالله وقاتلهم » .

السادسة : الفرق بين حكم الله وحكم العلماء .

السابعة : في كون الصحابي يحكم عند الحاجة ، بحكم لا يدرى : أوافق

حكم الله أم لا ؟

باب

﴿ ما جاء في الإقسام على الله ﴾

عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال . قال : وهو أن مالكا قال : لا يقاتل الكفار قبل أن يدعوا ، ولا تلتمس غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة . فيجوز أن تلتمس غرتهم . وهذا الذى صار إليه مالك هو الصحيح ؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصية ، وإنما يقاتلون للدين ، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سبباً مميلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق ، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين . فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزيدون عتواً وبنفساً . والله أعلم

قوله ﴿ باب ما جاء في الإقسام على الله ﴾

ذكر المصنف فيه حديث ﴿ جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال رجل : والله لا يفرق الله لفلان . قال الله عز وجل : من ذا الذى يتألى على أن لا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له ، وأحبطت عملك » رواه مسلم ﴾ .

« قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : مَنْ ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له ، وأحببتُ عمَلَك » رواه مسلم .
 وفي حديث أبي هريرة « أن القاتل رجل عابد . قال أبو هريرة : تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته » .

قوله ﴿ يتألى ﴾ أى يحلف ، والألية بالتشديد الحلف . وصح من حديث أبي هريرة قال البغوى فى شرح السنة - وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار - قال « دخلت مسجد المدينة فنادانى شيخ قال : يايمى ، تعال ، وما أعرفه ، قال : لاتقولن لرجل : والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة . قلت : ومن أنت يرحمك الله ؟ قال : أبو هريرة ، فقلت : إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب ، أو لزوجته أو لخادمه ، قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن رجلين كانا فى بنى إسرائيل متحابين أحدهما مجتهد فى العبادة ، والآخر ؛ كأنه يقول مذنب ، فجعل يقول : أقصر عما أنت فيه . قال فيقول : خلنى وربى ، قال : فوجده يوماً على ذنب استعظمه فقال : أقصر ، فقال : خلنى وربى ، أبشت على رقيباً ، فقال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبداً . قال فبعث الله إليهما ملكاً ، فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عنده ؛ فقال للمذنب : ادخل الجنة برحمتى ، وقال للآخر : أنتطيع أن تحظر على عبدى رحمتى ؟ قال : لا يارب . قال اذهبوا به إلى النار . قال أبو هريرة : والذى نفسى بيده ، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته » ورواه أبو داود فى سننه ، وهذا لفظه عن أبي هريرة رضى الله عنه يقول « كان رجلان فى بنى إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد فى العبادة . فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر ؛ فوجده يوماً على ذنب فقال له : أقصر ، فقال : خلنى وربى ، أبشت على رقيباً ؟ قال : والله لا يغفر الله لك ، ولا يدخلك الجنة ، فقبضت أرواحهما ؛ فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أ كنت بى عالماً ، أو كنت على مافى يدي قادراً ؟ فقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة . وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار » .

قوله ﴿ وفى حديث أبي هريرة أن القاتل رجل عابد ﴾ يشير إلى قوله فى هذا الحديث « أحدهما مجتهد فى العبادة » وفى الأحاديث : بيان خطر اللسان ، وذلك يفيد التحرز من الكلام ، كما فى حديث معاذ « قلت : يا رسول الله ؛ وإنا لمؤاخذون بما تكلم به ؟ قال : تكلمتكم

فيه مسائل :

الأولى : التحذير من التآلى على الله .

الثانية : كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله .

الثالثة : أن الجنة مثل ذلك .

الرابعة : فيه شاهد لقوله : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة » الخ .

الخامسة : أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه .

باب

﴿ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ ﴾

عن جُبَيْر بن مطعم رضى الله عنه قال « جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، نُهِكَّتِ الأَنْفُسُ ، وَجَاعَ الْعِيَالُ ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ ،

أَمْكُ يَامَعَاذَ ، وَهَلْ يَكْتُبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلْحِصَانًا أَلَسْتُمْ ؟ » ^(١) والله أعلم .

قوله ﴿ باب لا يستشفع بالله على خلقه ﴾

وذكر الحديث ^(٢) وسياق أبي داود في سننه أم مما ذكره المصنف رحمه الله ولفظه .

﴿ عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال : يا رسول الله ، جهدت الأنفس ، وضاعت العيال ، ونهكت الأموال وهلكت الأنعام ، فاستسق الله لنا ، فإننا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك ، أتدرى ما تقول ؟ وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك ، إنه لا يستشفع بالله على

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه . وقال الترمذي : حسن صحيح ، وفي قرّة العيون :

وفيه معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها سخطة إلى يوم يلقاه »

(٢) يعنى أن المصنف ساق حديث جبير بن مطعم ناسباً له إلى أبي داود ، ولكنه اختصره .

فاستسقى لنا ربك ، فإننا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ! سبحان الله ! فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه . ثم قال : ويحك ، أتدرى ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك . إنه لا يُستشفع بالله على أحد » وذكر الحديث ، رواه أبو داود ^(١) .

أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك ، أتدرى ما الله ؟ إن عرشه على سمواته هكذا - وقال بأصابعه مثل القبة عليه - وإنه ليضط به أطيظ الرجل بالراكب » .

قال ابن بشار في حديثه « إن الله فوق عرشه ، وعرشه فوق سمواته » .

قال الحافظ الذهبي : رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في الرد على الجهمية من حديث

محمد بن إسحاق بن يسار ^(٢) .

قوله ﴿ ويحك ^(٣) ﴾ إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ﴿ فإنه تعالى رب كل شيء

وميلكه ، والخير كله بيده ؛ لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ؛ ولا راد لما قضى ، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليا قديراً . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون . وخالق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء . وهو الذي يشفع الشافع إليه ، ولهذا أنكر على الأعرابي .

قوله ﴿ وسبح الله كثيراً وعظمه ﴾ لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده

« إن شأن الله أعظم من ذلك » .

وفي هذا الحديث : إثبات علو الله على خلقه ، وأن عرشه فوق سمواته . وفيه : تفسير

(١) في قررة العيون : هذا الحديث رواه أبو داود ورضيه على عادته فيما كان عنده صحيحاً

أو حسناً وسكت عليه . اه أقول : بل تكلم أبو داود على سنده ، نخطأ بعض رواياته في سياقه وصوب من قال : إنه روى كتابه من نسخة وهب بن جرير لا تحديتاً ، وأن مداره فيها على محمد ابن إسحاق عن عنة لا سبانا .

(٢) يشير بذلك إلى ضعف الحديث لأن محمد بن إسحاق مدلس ، وانظر الكلام على الحديث

وشروح الأئمة له في عون المعبود (ج ٤ ص ٣٧٠)

(٣) في قررة العيون : ويحك كلمة تقال للزجر . قوله « أتدرى ما الله ؟ » فيه إشارة إلى

قلة علمه بعظمة الله وجلاله

فيه مسائل :

الأولى : إنكاره على من قال « نستشفع بالله عليك » .

الثانية : تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة .

الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة ، خلافاً للمعطلة والجممية والمعتزلة ومن أخذ عنهم ، كالأشاعرة ونحوهم من أُلحد في أسماء الله وصفاته وصرفها عن المعنى الذي وضعت له ودلت عليه من إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله جل وعلا ، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة ، فإنهم أثبتوا ما أثبتته الله لنفسه وأثبتته له رسوله من صفات كماله ، على ما يليق بجلاله وعظمته ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل . قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في مفتاح دار السعادة - بعد كلام سبق فيما يُعرف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته - قال بعد ذلك .

والثاني : أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة ، فتفتح له أبواب السماء ؛ فيجول في أقطارها وملكوتهما وبين ملائكتها ، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن ، فينظر سمته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، ويرى الملائكة حافين من حول العرش لهم زجل بالتسبيح والتحميد ، والتقديس والتكبير ، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يملها إلا ربها ومليكها ؛ فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم وإذلال آخرين ، وإنشاء ملك وسلب ملك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتبيانها وكثرتها : من جبر كسير ، وإغناء فقير ، وشفاء مريض ، وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل وردّ آبق ، وأمان خائف ، وإجارة مستجير ، ومدد لضعيف وإغاثة للمهوف وإعانة لمعجز ، وانتقام من ظالم ، وكف لعدوان ؛ فهي مراسم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة ، تنفذ في أقطار العوالم ، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره ، ولا تغطله كثرة المسائل والحوادث على اختلاف لغاتها وتبيانها واتحاد وقتها ، ولا يتبرم بالجاح الملحين ، ولا تنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . فحينئذ يقوم القلب بين يدي

الثالثة : أنه لم ينكر عليه قوله « نستشفع بك على الله » .

الرابعة : التنبيه على تفسير سبحان الله .

الخامسة : أن المسلمين يسألونه صلى الله عليه وسلم الاستسقاء .

الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عانياً لعزته ، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين ، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللزيد ، فهذا سفر القلب ، وهو في وطنه وداره ومحل ملكه ، وهذا من أعظم آيات الله ومجائب صنعه ، فياله من سفر ما أبركه وأروجه ، وأعظم ثمرته وربحه ، وأجل منفعته وأحسن عاقبته ، سفر هو حياة الأرواح ، ومفتاح السعادة ، وغنيمة العقول والألباب ، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب . اه كلامه رحمه الله .

وأما الاستشفاع بالرسول صلى الله عليه وسلم في حياته ، فالمراد به : استجلاب دعائه وليس خاصاً به صلى الله عليه وسلم ، بل كل حي صالح يرجى أن يستجاب له ، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة « لا تنسنا يا أخى من صالح دعائك »^(١) وأما الميت : فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك . وهذا هو الذى يشرع في حق الميت . وأما دعاؤه فلم يشرع ، بل قد دل الكتاب والسنة على النهى عنه والوعيد عليه ؛ كما قال تعالى (٣٥ : ١٣ ، ١٤) والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطعير . إن تدعوم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم) فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة : أى ينكره ويعادى من فعله ، كما في آية الأحقاف (٤٦ : ٦) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين) فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر . والصحابة رضى الله عنهم ، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين ، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم : أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ،

(١) رواه أبو داود وأحمد في المسند (ج ١ ص ٢٩ وج ٢ ص ٥٩) عن عبد الله بن عمر « أن عمر استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة ، فأذن له . فقال : يا أخى أشركنا في صالح دعائك ، ولا تنسنا » قال عبد الرزاق في حديثه . فقال عمر « ما أحب أن لى بها ماطلعت الشمس ، لقوله : يا أخى »

باب

﴿ ما جاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد ، وسدّه طرق الشرك ﴾
عن عبد الله بن الشَّخِيرِ رضى الله عنه ^(١) قال : « انطلقتُ في وفد بنى عامر

حتى في أوقات الجذب . كما وقع لعمر رضى الله عنه لما خرج ليستسقى بالناس خرج بالعباس عم
النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يستسقى لأنه حى حاضر يدعو ربه ^(٢) فلو جاز أن يستسقى
بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر رضى الله عنه والسابقون الأولون بالنبي صلى الله عليه وسلم .
وبهذا يظهر الفرق بين الحى والميت ؛ لأن المصود من الحى دعاؤه إذا كان حاضراً .
فإنهم في الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوهم ويتضرع إليه ، وهم كذلك
يدعون ربهم ، فمن تعدى المشروع إلى مالا يشرع ضل وأضل . ولو كان دعاء الميت خيراً
لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص ، وبهم أليق ، وبحقه أعلم وأقوم . فمن تمسك
بكتاب الله نجا ، ومن تركه واعتمد على عقله هلك . وبالله التوفيق .

قوله ﴿ باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسدّه طرق الشرك ﴾
حميته صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمنحل

(١) قال في أسد الغابة : عبد الله بن الشخير بن عوف بن كعب بن وفدان بن الحريش
العامري ثم الكعبي ثم من بنى الحريش ، وهو بطن من بنى عامر بن صعصعة . له صحبة . سكن
البصرة - ثم ساق بسنده إلى مطرف بن عبد الله الشخير عن أبيه أنه قال « قدمت على رسول
الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بنى عامر ، فقالوا يارسول الله أنت سيدنا وأنت والدنا وأنت
أفضلنا علينا فضلاً ، وأنت أطولنا علينا طولاً ، وأنت الجنة الغراء ، وأنت وأنت ، فقال :
قولوا بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان » وقولهم « أنت الجنة الغراء » كانت العرب تدعو
السيد الطعام (جفنة) لأنه يضعها ويطعم الناس فيها ، فسمى باسمها ، و (الغراء) البيضاء أى
أنها مملوءة بالشحم والدهن ، قاله أبو السعادات في النهاية .

(٢) رواه البخارى . وقد حصل ذلك في عام الرمادة سنة ثمان عشرة . ودام القحط تسعة
أشهر . قال الحافظ في الفتح (ج ٢ ص ٢٣٩) وقد بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة
ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذى وقعت فيه . فأخرج بإسناده أن العباس لما
استسقى به عمر قال « اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ؛ وقد توجه القوم
إليك بنى مكاني من نبيك . وهذه أيدينا إليك باللذئوب ، ونواصينا إليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث »
فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخضبت الأرض وعاش الناس .

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قلنا : أنت سيدنا . فقال : السيد الله تبارك وتعالى . قلنا : وأفضلنا فضلاً ، وأعظمنا طولاً ، فقال : قولوا بقولكم ، أو بعض قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان » رواه أبو داود بسند جيد .

معها التوحيد أو ينقص^(١) وهذا كثير في السنة الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم كقوله : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » وتقدم قوله « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله عز وجل » ونحو ذلك . ونهى عن التماح وشدد القول فيه ، كقوله لمن مدح إنساناً « ويلك قطعت عنق صاحبك - الحديث » أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه « أن رجلاً أتني على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : قطعت عنق صاحبك - ثلاثاً » وقال « إذا لقيتم المداحين ، فاحشوا في وجوههم التراب » أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن المقداد بن الأسود .

وفي هذا الحديث « نهى عن أن يقولوا : أنت سيدنا ، وقال : السيد الله تبارك وتعالى » ونهاهم أن يقولوا « وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً » وقال « لا يستجرينكم الشيطان » .

وكذلك قوله في حديث أنس « أن ناماً قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا » الخ . كره صلى الله عليه وسلم أن يواجهه بالمدح فيفضى بهم إلى الغلو . وأخبر صلى الله عليه وسلم أن مواجهة المدح للمدوح بمدحه - ولو بما هو فيه - من عمل الشيطان ؛ لما تفضى بحبة المدح إليه من تعاظم المدوح في نفسه وذلك ينافي كمال التوحيد ؛ فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذي لا تدور إلا عليه ، وذلك غاية الذل في غاية الحبة ، وكال الذل يقضى الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى ، وأن لا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها ، والمعاتبة لها في حق ربه ، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله ، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات ، ومحبة المدح من البعد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه ، والمدح يفره من نفسه فيكون آتماً ، فقام العبودية يقتضى كراهة المدح

(١) في قررة العيون : وقد اشتمل هذا الكتاب - على اختصاره - على أكثر ذلك ، والنهي

عما ينافي التوحيد أو يضره ، يعرف ذلك من تدبره وعرف ما تضمنه باباً باباً .

وعن أنس رضى الله عنه « أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا ، وابن
خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا . فقال : يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم
الشیطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ^(١) ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي
أنزلني الله عز وجل » رواه النسائي بسند جيد .

رأساً ، والنهي عنه صيانة لهذا المقام ، فتي أخلص العبد الذل لله والمحبة له : خلصت أعماله
وصحت ، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب : دخل على مقام العبودية بالنقص
أو الفساد ، وإذا أدها المدح إلى التعاضم في نفسه والإعجاب بها وقع في أمر عظيم ينافي
العبودية الخاصة ، كما في الحديث « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزارى فمن نازعنى شيئاً
منهما عذبتة ^(٢) » وفي الحديث « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ^(٣) »
وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسلباً إليها ، والعجب يأكل الحسنات كما تأكل
النار الحطب ، وأما المادح فقد يفضي به المدح إلى أن ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها ؛ كما
يوجد كثيراً في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وحذر أمته أن
يقع منهم ، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والإلهية والملك ،
كما تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك . والنبي صلى الله عليه وسلم لما أكل الله له مقام
العبودية صار يكره أن يمدح ، صيانة لهذا المقام ، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحاً لهم ،
وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده ، أو يضعفه من الشرك ووسائله (٣ : ٥٩ فبدل
الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم) ورأوا أن فعل ما نهى الله عليه وسلم عن فعله
قرية من أفضل القربات ، وحسنة من أعظم الحسنات .

(١) في قرة العيون : فأعلى مراتب العبد هاتان الصفتان : العبودية الخاصة ، والرسالة .
وللنبي صلى الله عليه وسلم أكملهما . وقد أخبر الله تعالى أنه وملائكته يصلون عليه ، وأنتى عليه
بأحسن ثناء وأبلغه ، وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره . فلا يذكر في الأذان
والتشهد والحطبة إلا ذكر معه . صلوات الله وسلامه عليه .

(٢) رواه مسلم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ، وأبو داود وابن ماجه وابن حبان
من حديث أبي هريرة .

(٣) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص بإسناد رجاله رجال الصحيح .

فيه مسائل :

الأولى : تحذير الناس من العلوّ .

الثانية : ما ينبغي أن يقول : مَنْ قِيلَ لَهُ : أنت سيدنا .

الثالثة : قوله « لا يستجربنكم الشيطان » مع أنهم لم يقولوا إلا الحق .

الرابعة : قوله « ما أحب أن ترفعوني فوق منزلي » .

باب

(ما جاء في قول الله تعالى : (٣٩ : ٦٧) وما قدروا الله حق قدره والأرضُ

جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

وأما تسمية العبد بالسيد : فاختلاف العلماء في ذلك .

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد : اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على

البشر . فمنه قوم ، ونقل عن مالك ، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له

« ياسيدنا » قال « السيد الله تبارك وتعالى » وجوزّه قوم ، واحتجوا بقول النبي صلى الله

عليه وسلم للأَنْصار « قوموا إلى سيدكم ^(١) » وهذا أصح من الحديث الأول . قال هؤلاء :

السيد أحد ما يضاف إليه ، فلا يقال للتيمى سيد كندة ، ولا يقال للملك سيد البشر . قال :

وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم ، وفي هذا نظر ، فإن السيد إذا أطلق عليه

تعالى فهو في منزلة المالك ، والمولى ، والرب ، لا بمعنى الذى يطلق على الخلق . انتهى .

قلت : فقد صح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال في معنى قول الله تعالى (٦ : ١٦٤)

قل أغير الله أبني ربنا) « أى إلهماً وسيداً » وقال في قول الله تعالى (الله الصمد) « أنه

السيد الذى الذى كمال فى جميع أنواع السؤدد » وقال أبو وائل « هو السيد الذى انتهى سؤدده » .

وأما استدلالهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار « قوموا إلى سيدكم » فالظاهر : أن

النبي صلى الله عليه وسلم لم يواجه سعداً به ، فيكون فى هذا المقام تفصيل . والله أعلم .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٣٩ : ٦٧) وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته

(١) قال هذا حين رأى سعد بن معاذ آتياً على حمار قد أسنوده ، لأنه كان مريضاً من جرح =

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد ، إننا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع . فيقول : أنا الملك . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، تصديقاً لقول الحبر . ثم قرأ (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) » .

يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) ﴿ أى من الأحاديث والآثار فى معنى هذه الآية الكريمة .

قال العباد ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى : ما قدر المشركون الله حق قدره ، حتى عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه ، القادر على كل شىء . المالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قهره وقدرته . قال مجاهد : نزلت فى قريش . وقال الشدنى : ما عظموه حق عظمتهم . وقال محمد بن كعب : لو قدره حق قدره ما كذبوه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدره الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شىء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره . وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية ، الطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف ؛ وهو إمرارها كما جاءت من غير تكليف ولا تحريف - وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رحمه الله فى هذا الباب ، قال : ورواه البخارى فى غير موضع من صحيحه . والإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله

== أصابه من الشركين فى الخندق وقد دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم فى بنى قريظة بعد أن حاصرهم وقبلوا أن ينزلوا على حكم سعد ، فكان هذا القول منه صلى الله عليه وسلم لأنه مريض ولا يستطيع أن ينزل عن الحمار وحده ، فأمرهم أن يقوموا لينزلوه ، ولأنه جاء لهذه القضية فأراد أن يجعل له من التعظيم ما يناسب هذه الواقعة . وكان سعد بن معاذ سيد الأوس ورئيسهم رضى الله عنهم .

وفي رواية لمسلم « والجبال والشجر على إصبع ، ثم يهزهن ، فيقول : أنا الملك ، أنا الله » .

وفي رواية للبخارى « يحملُ السمواتِ على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع » أخرجاه .

قال جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم ، أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلاق على إصبع ، والسموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلاق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ؟ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الخبر ، قال : وأنزل الله (وما قدروا الله حق قدره) الآية « وهكذا رواه البخارى ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به . وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسين بن حسن الأشقر ، حدثنا أبو كدينة^(١) عن عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس قال « مرَّ يهودى برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس ، فقال : كيف تقول يا أبا القاسم يوم يحمل الله السموات على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه ، والجبال على ذه . وسائر الخلق على ذه ؟ كل ذلك يشير بأصابعه ، فأنزل الله (وما قدروا الله حق قدره) » وكذا رواه الترمذى فى التفسير بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به . وقال : حسن صحيح غريب ، لانعرفه إلا من هذا الوجه ، ثم قال البخارى : حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث حدثنى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن : أن أبا هريرة رضى الله عنه . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقبض الله الأرض ، ويطوى السماء يمينه ، فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقال البخارى فى موضع آخر : حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عمى القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع ، وتكون السماء يمينه ، ثم يقول : »
(١) اسمه يحيى بن المهلب البجلي الكوفي ، قال الحافظ ابن حجر فى تقريب التهذيب : صدوق من السابعة ، روى له الترمذى والنسائي أيضاً .

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً « يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيَمِينِي ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ السَّبْعَ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ » .

أنا الملك « تفرد به أيضاً من هذا الوجه . ورواه مسلم من وجه آخر .
وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول . فقال : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة ، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسَّمَاوَاتِ مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده يجرها ، يقبل بها ويدبر ، يمجّد الرب تعالى نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا : ليخزن به » . هـ .
قوله (ولمسلم عن ابن عمر - الحديث) كذا في رواية مسلم . قال الحميدي : وهي أتم ، وهي عند مسلم من حديث سالم عن أبيه . وأخرجه البخاري من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين ، وتكون السماء يمينه » وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسم .

قلت : وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله وعظم قدرته وعظم مخلوقاته . وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته ، ومعجائب مخلوقاته ، وكلها تعرف وتدل على كماله ، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته^(١) وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته . إثباتاً بلا تمثيل ، وتزويهاً بلا تعطيل ، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأمتها ومن تبعهم بإحسان ، واقتضى أترم على الإسلام والإيمان .

(١) في قرّة العيون : وأن العبادة لاتصلح إلا له سبحانه وبحمده ، ولا يصلح منها شيء لملك مقرب ، ولا لنبى مرسل ، ولا لمن دونهما .

وروى عن ابن عباس قال : « ما السموات السبع ، والأرضون السبع في كَفِّ الرحمن إلا نكردلة في يد أحدكم » .
وقال ابن جرير : حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد :
حدثني أبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما السموات السبع في الكرسی إلا كدراهم سبعة ألقيت في ثُرسٍ » .

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ربه بذكر صفات كاله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أحبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه ، ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم في شيء منها : إن ظاهرها غير مراد ، وإنما تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، فلو كان هذا حقاً بلغه أمينه أمته ، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلغ البلاغ المبين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين . وتلقى الصحابة رضی الله عنهم عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ما وصف به ربه من صفات كاله ونعوت جلالة ، فأمنوا به ، وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا ؛ كما قال تعالى : (٣ : ٧) والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابوهم ، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يمجحدوا شيئاً من الصفات ، ولا قال أحد منهم : إن ظاهرها غير مراد ، ولا أنه يلزم من إثباتها التشبيه ، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار ؛ فصفنوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة .

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى : وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والتابعين ، وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر : أن الله تعالى فوق كل شيء ، وأنه فوق العرش فوق السموات مستوعب على عرشه مثل قوله تعالى (٣٥ : ١٠) إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقوله تعالى (٣ : ٥٥) يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلیّ) وقوله تعالى (٤ : ١٥٨) بل رضى الله إليه) وقوله تعالى

وقال : قال أبو ذرّ رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة من الأرض » .

وعن ابن مسعود قال « بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، وبين الكرسي

(٧٠ : ٣ ، ٤ ذى المارح . تعرج الملائكة والروح إليه) وقوله تعالى (٣٢ : ٥ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) وقوله تعالى (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم) وقوله تعالى (٢ : ٢٩ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) وقوله تعالى (٧ : ٥٤ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، أإله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وقوله تعالى (١٠ : ٣ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه - الآية) فذكر التوحيد فى هذه الآية وقوله تعالى (١٣ : ٢ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) وقوله تعالى (٢٠ : ٤ ، ٥ تنزىلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى) وقوله تعالى (٢٥ : ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٩) وتوكل على الخى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً . الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً) وقوله تعالى (٣٢ : ٤ ، ٥) الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون . يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) وقوله تعالى (٥٧ : ٤ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يبلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته . وقوله تعالى (٦٧ : ١٦ ، ١٧ أأنتم من فى السماء أن يحسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً ؟ فستعلمون كيف نذير)

والماء خمسمائة عام ، والعرشُ فوق الماء . والله فوق العرش ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم » أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زرّ عن عبد الله

وقوله تعالى (٤١ : ٤٢ تنزيل من حكيم حميد) وقوله تعالى (٤٥ : ٢ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله تعالى (٤٠ : ٣٦ ، ٣٧ وقال فرعون : يا هامان ابني لي صرحا لعلی أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً) . انتهى كلامه رحمه الله .

قلت : وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين . فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب العلو وغيره بأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قالت « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر » رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح قال : وثبت عن سفیان بن عيينة رحمه الله تعالى : أنه قال لما سئل ربيعة ابن أبي عبد الرحمن : كيف الاستواء ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق » وقال ابن وهب : « كنا عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرخصاء . وقال : الرحمن على العرش استوى ، كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف ؟ و « كيف » عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة . أخرجه » رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب ، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً ، ولفظه قال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » . قال الذهبي : فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله ، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا عنه الكيفية . قال البخاري في صحيحه : قال مجاهد (استوى) علا على العرش . وقال إسحاق بن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقول (الرحمن على العرش استوى) أى ارتفع . وقال محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) أى علا وارتفع .

ورواه بنحوه المسعودى عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله .
قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى . قال : وله طرق .

وشواهد في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم . فمن ذلك قول عبد الله بن رواحة
رضي الله عنه :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مشوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شــــداد ملائكة الإله مسومينا

وروى الدراري والحاكم والبيهقي بأصح إسناد إلى علي بن الحسين بن شقيق ، قال :
سمعت عبد الله بن المبارك يقول « نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته على العرش استوى ،
بائن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية » قال الدراري : حدثنا حسن بن الصباح البزار
حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك : قيل له « كيف نعرف ربنا ؟ قال : بأنه
فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه » .

وقد تقدم قول الأوزاعي : كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله تعالى ذكره
بائن من خلقه ، ونؤمن بما وردت به السنة .

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب الأصول : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله
استوى على عرشه بذاته . وقال في هذا الكتاب أيضاً : أجمع أهل السنة على أن الله تعالى
استوى على عرشه على الحقيقة لا على الحجاز ، ثم ساق بسنده عن مالك قوله : الله في السماء
وعلمه في كل مكان ، ثم قال في هذا الكتاب : أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى
قوله (وهو معكم أينما كنتم) ونحو ذلك من القرآن : أن ذلك علمه ، وأن الله فوق
السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء ، وهذا لفظه في كتابه .

وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة ، أثبتوا ما أثبتته الله في كتابه على لسان
رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين ، ولم يمتثلوا
ولم يكيفوا ، كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب .

وقال الحافظ الذهبي : وأول وقت سمعت مقالة من أنكروا أن الله فوق عرشه : هو

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكشف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله تعالى فوق ذلك . وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم » أخرجه أبو داود وغيره .
فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله تعالى : (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) .

الجعد بن درهم ، وكذلك أنكر جميع الصفات ، وقتله خالد بن عبد الله القسرى وقصته مشهورة ، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية . فأظهرها واحتج لها بالشبهات وكان ذلك في آخر عصر التابعين ، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر ، مثل الأوزاعي ، وأبي حنيفة ومالك ، والليث بن سعد ، والثوري ، وحمام بن زيد ، وحمام بن سلمة ، وابن المبارك ، ومن بعدهم من أئمة الهدى ، فقال الأوزاعي إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة : ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني محمد بن علي الجوهري - ببغداد - حدثنا إبراهيم بن الهيثم . حدثنا محمد بن كثير المصيصي سمعت الأوزاعي يقول « كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله فوق عرشه . ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته » أخرجه البيهقي في الصفات ، ورواته أئمة ثقات .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : لله أسماء وصفات لا يسع أحد ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل ، وثبتت هذه الصفات ونفني عنه التشبيه ، كما نفى عن نفسه فقال (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) اه من فتح الباري .

قوله ﴿ عن العباس بن عبد المطلب ﴾ ساقه المصنف رحمه الله مختصراً ، والذي في سنن أبي داود : عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله

الثانية : إن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه صلى الله عليه وسلم لم ينكروها ولم يتأولوها .

الثالثة : أن الخبر لما ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم : صدّقه ، ونزل القرآن بتقرير ذلك .

الرابعة : وقوع الضحك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر الخبر هذا العلم العظيم .

الخامسة : التصريح بذكر اليدين ، وأن السموات في اليد اليمنى ، والأرضين في الأخرى .

صلى الله عليه وسلم ؛ فمرت بهم سحابة ، فنظر إليها ، فقال « ما تسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب « قال والمزن » قالوا : والمزن ، قال « والعنان » قالوا : والعنان - قال أبو داود : لم أتقن العنان جيداً - قال « هل تدرّون ما بعد ما بين السماء والأرض ؟ قالوا : لا ندرى . قال : إن بعد ما بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء التي فوقها كذلك ، حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله ، وأعله مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال ، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعله ، كما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تعالى فوق ذلك » وأخرجه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن غريب . وقال الحافظ الذهبي : رواه أبو داود بإسناد حسن ، ^(١) وروى الترمذى نحوه من حديث أبي هريرة وفيه « ما بين

(١) في إسناده الوليد بن أبي ثور لا يحتج بحديثه . وقد ساقه أبو داود من غير طريق الوليد . وقال العلامة ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود : أما رد الحديث بالوليد بن أبي ثور ففاسد ، فإن الوليد لم ينفرد به بل تابعه عليه إبراهيم بن طهمان كلاهما عن سماك . ومن طريقه رواه أبو داود . ورواه أيضاً عمرو بن أبي قيس عن سماك . ومن حديثه رواه الترمذى عن عبد بن حميد أخبرنا عبد الرحمن بن سعد عن عمرو بن أبي قيس اه . ورواه ابن ماجه من حديث الوليد بن أبي ثور عن سماك . وأى ذنب للوليد في هذا ، وأى تعلق عليه ؟ وإنما ذنبه روايته ما يخالف قول الجهمية ، وهى علتة المؤثرة عند القوم . اه .

- السادسة : التصريح بتسميتها الشمال .
السابعة : ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك .
الثامنة : قوله نخر دلة في كف أحدكم .

سماء إلى سماء خمسمائة عام » ولا منافاة بينهما ؛ لأن تقدير ذلك بمجمعمائة عام هو على سير القافلة مثلا ، ونيف وسبعون سنة على سير البريد ؛ لأنه يصح أن يقال : بيننا وبين مصر عشرون يوماً باعتبار سير العادة ، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد ، وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه ، هذا آخر كلامه (١) .

(١) في قرة العيون : قالت : وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما مع ما يدل عليه صريح القرآن ، فلا عبرة بقول من ضعفه .

وقد ابتدأ المصنف رحمه الله تعالى هذا المصنف العظيم ببيان توحيد الإلهية ؛ لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد ، وأنوا بما ينافيه من الشرك والتنديد ، قام الشيخ ببيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، ونهاهم عما كانوا عليه من الشرك النافي لهذا التوحيد . فالدعوة إلى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها لمن وقفه الله لفهمه . وأعطاه القدرة على الدعوة إليه ، والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله في عبادته ، فقرر هذا التوحيد كما ترى في هذه الأبواب ، ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات ، لأن أكثر الصامة ليس لهم التفات إلى هذا العلم الذي خاض فيه من لم ينتسب إلى العلم . وأما من ينتسب إلى العلم فهم أخذوا عن خاض في هذه العلوم ، وأحسنوا الظن بأهل الكلام ، وظنوا أنهم على شيء ، فقبلوا ما وجدوه عنهم ، فقررروا مذهب الجهمية ، وألحدوا في توحيد الأسماء والصفات ، وخالفوا مادلت عليه نصوص الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمة الحديث والتفسير من ملّقدمين . وما زال أهل السنة متمسكين بذلك لكنهم قلوا . فهدى الله هذا الإمام إلى معرفة أنواع التوحيد فقررها بأدلتها .

فله الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق حين اشتدت غربة الإسلام فضل هته من ضل من أهل القرى والأمصار ، وغيرهم . وبالله التوفيق .

قد اجتمع في هذا المصنف أنواع التوحيد الثلاثة ، التي أشار إليها العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله :

والعلم أقسام ثلاث ، ما لها
علم بأوصاف الإله وفعله
والأمر والنهي الذي هو دينه
من رابع ، والحق ذو تبيان
وكذلك الأسماء للرحمن
وجزاؤه يوم الصاد الثاني

وصلى الله وسلم على سيد المرسلين ، وإمام المتقين . محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

- التاسعة : عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء .
- العاشرة : عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي .
- الحادية عشرة : أن العرش غير الكرسي والماء .
- الثانية عشرة : كم بين كل سماء إلى سماء .
- الثالثة عشرة : كم بين السماء السابعة والكرسي .
- الرابعة عشرة : كم بين الكرسي والماء .
- الخامسة عشرة : أن العرش فوق الماء .
- السادسة عشرة : أن الله فوق العرش .
- السابعة عشرة : كم بين السماء والأرض .
- الثامنة عشرة : كلف كل سماء مائة سنة .

التاسعة عشرة : أن البحر الذي فوق السموات أسفله وأعلىه خمسمائة سنة

والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

قلت : فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم في الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما ، ولا عبرة بقول من ضيقه ، لكثرة شواهد التي يستحيل دفعها ، وصرفها عن ظواهرها .

وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكاله ، وعظم مخلوقاته ، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه ، ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى كمال قدرته ، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له ، دون كل ما سواه . وبالله التوفيق .

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

كامل مقابلة وتصحيحاً وقراءة على يد شيخنا العلامة ، المحقق الفهامة ، بقية أهل

الاستقامة ، الشيخ عبد الله بن الشيخ حسن آل الشيخ متع الله بحياته سنة ١٣٦٢ هـ .